موسوعة

عباس محمود العقاد

الإسلامية

Bibliotheca Alexandrina
0022986

فاطمة الزهراء

والفاطميّون

تأليف

عباس محمود العقاد

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

حقوق الطبع والنشر محفوظة

للمكتبة العصريـــة

بيروت — تلفون : ٢٣٧٥٤٠ — ص.ب. : ٨٣٥٥

تقـديم

لقد عني الكاتب الكبير المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد بكتابة سير عظماء الاسلام فأجاد اجادة جملته فريدا فذا بين كتاب السير في الأدب العربي المعاصر • تقرأ سيرة العظيم ، وقد جلاها العقاد في أدق صورة وأروع بيان ، وأضفى عليها مـن التحليل والتمحيص والنفوذ الى أعماق النفس ، فتشعر بأنك بلغـت أقصى ما يمكن بلوغه من المام بحيـاة هـذا العظيم ، وادراك لجوانبه الظاهرة والخفية •

ومن دأب العقاد في كتابة السيرة التقصي والذهاب الى أبعد ما يمكن الاحاطة به من روايات ومأثورات تساعد على جلاء شخصية صاحب السيرة • وهذا ما يبرز جليا واضحا في ما كتبه من سيرة فاطمة الزهراء حتى ليكاد المدقق يجزم جزما قاطعا بأن أحدا لا يستطيع أن يأخذ على العقاد اغفاله ناحية من النواحي التي يحسن فيها الكلام ، أو اهماله زاوية من الزوايا التي قد تكتمل فيها الصورة وتضفي عليها فضل بيان •

ومن البديهي أن تكون فاطمة الزهراء عليها السلام في جملة بل في طليعة الشخصيات الاسلامية التي سلط عليها العقاد أنوار فكره الثاقب ، وأحاط سيرتهـا العطرة بفيض بحثه ، وسعـة اطلاعه ، وعدالة أحكامه وسدادها • ذلك لأن الباحث عن العظمة والعظماء في التاريخ الاسلامي لا يسعه الا أن يجد فيها آيات من تلك العظمة قوامها مزايا ذاتية فطرية ، وأخرى تسربت اليها عن طريق الوراثة التي تتجلى عادة في الأبناء والبنات وتطبعهم بطابعها • ومن أبرز مزاياها التي فطرت عليها الثبات على الحق لا تتزحزح عنه ، وقوة الارادة التي لا تهن ولا تتراجع مهمـا تكاءدت العقبات ، وبلاغة في الخطاب مدعومة بناصيع الحجـة ، فضلا عن نزعة غريزية الى التدين واستغراق في روحانية تنم عن شفافية نفس ، ورقة قلب ، وطهارة وجدان • ولا غرو في ذلك فهي بنت محمد الذي قال فيه ربه : « وانك لعلى خلق عظيم » ، وأمها خديجة بنت خويلد سيدة نساء عصرها ، وأكرمهن محتدا ،

وأطهرهن قلبا وسريرة ، وزوجها الامام البطل المجاهد علي بن أبي طالب ، وولداها الحسن والحسين حبيبا جدهما الرسول الأمين ، وسيدا شباب أهل الجنة ٠

ومما هو جدير بالنظر ، لبيان ما كانت تتحلى به من قوة الشخصية ، والتشبث بما كانت تراه حقا لا مراء فيه ، حادثتان في حياتها وقعتا لها بعد وفاة والدها هما مسألة الخلافة ومسألة ميراثها في « فدك » ٠

فقد كانت السيدة فاطمة ترى حق زوجها الامام علي في الخلافة وأن قرابة النبي أحق المسلمين بخلافته ، وأن بطولة علي في الجهاد ، وسعة علمه بالشريعة الاسلامية تؤهلانه لتبوؤ هذا المقام الجليل ٠ ولعل حرصها على تفادي الخلاف بين رجالات الاسلام حال بينها وبين التمادي والمضي في هذا السبيل ٠

أما مسألة « فدك » فخلاصة الحديث في أمرها أنها قرية كان النبي يقسم فيئها بين آل بيته وفقراء المسلمين ٠ فلما توفي الرسول عليه السلام أرسلت الى أبي بكر تسأله ميراثها فيها فلم يستجب محتجا بقول الرسول عليه السلام : « اننا معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة » ٠ وقال أبو بكر : « والله لا أغير شيئا من صدقة رسول الله عن حالها التي كانت عليها » ٠

أما فاطمة فأجابت أبا بكر بقولها : « ان فدك وهبها لي رسول الله صلى الله عليه وسلم » ٠ فقال أبو بكر : « من يشهد بذلك ؟ » ٠ فشهد عمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأم أيمن ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقسمها ٠ فلم يسع أبا بكر الا أن يصدقهم جميعا وقال لفاطمة : « أصنع كما صنع فيها أبوك ، فقد كان يأخذ من « فدك » قوتكم ويقسم الباقي ويحمل منه في سبيل الله ٠ ورضيت فاطمة بذلك، فكان أبو بكر يأخذ غلتها فيدفع اليهم منها ما يكفيهم ويقسم الباقي ٠ وكان عمر كذلك ، وكان عثمان كذلك ، ثم كان علي كذلك ٠

ولا بد للباحث في سيرة فاطمة الزهراء عليها السلام أن يقوده البحث الى موضوع آخر هام وجليل هو مسألة السلالة الفاطمية وقيام دولة اسلامية عظمى هي الدولة الفاطمية ٠ وهذا ما حدا بالعقاد الى أن يخص القسم الثاني من هذا الكتاب للحديث

عن الفاطميين وشؤونهم ؛ والدولة الفاطمية ودورها البارز في مسيرة التاريخ الاسلامي ، وأثرها الفريد في الحضارة الاسلامية ٠

ويمكن القول ان ما جمعه العقاد في هذا القسم ، وما حشده من الأخبار والمعلومات عن هذه الدولة منذ تأسيسها الى زمن انهيارها يغني عن كل مرجع آخر ، ويوقف المطلع على الوفرة الوافرة من أسرار نشاتها ، ويجلو الغموض عما أحاط برجالها وقادتها وخلفائها من الشبه والظنون بحيث يخرج من كل ذلك وقد اهتدى الى مقطع الحق مطمئن النفس ، مفعم الذهن بكل صاف من المعرفة وموثوق من الأخبار ٠

وما أروع العقاد ببيانه الرصين ، وما أعدله قاضيا حين يتصدى للاقاويل والافتراءات ومختلق الروايات ؛ فيهدم الأسس التي قامت عليها ويرجع الحق الى نصابه ، والعدل الى محرابه مستهديا بعقل نير ، واطلاع محيط شامل ، وتحليل أصدق ما يكون التحليل ٠

وان واجب التقدير لكل عمل مبرور ليستدعينا أن نتوجه بأجزل الشكر وأخلصه الى السيد شريف عبد الرحمن الأنصاري صاحب المكتبة العصرية في صيدا وبيروت الذي أخذ على عاتقه اعادة الطبع لمعظم آثار العقاد العظيم ليتسنى للمثقفين العرب وغيرهم شيوخا وشبابا أن يغترفوا من منهل علم العقاد ومعين فكره ما تستنير به عقولهم وتتسع به دائرة علمهم ومعرفتهم ٠ والله الموفق ٠

صيدا ــ منيف لطفي

To: www.al-mostafa.com

تمهيد

ترد الاشارة الى الوراثة فى مواضع شتى من هذه الصفحات التالية ، ونعول عليها فى مناسبات شتى لتفسير بعض الأطوار . ومنها أطوار الجماعات أو أطوار الحركات التاريخية

وأرانى أهم بأن أضرب المثل فأبدأ بنفسى وبأثر الوراثة فى كتابة هذه الصفحات وكتابة كثير من الصفحات فى الموضوعات الاسلامية وما اتصل منها بالعترة(١) النبوية على التخصيص .. ومن أمثالنا فى الصعيد الأعلى ما معناه ان البيت اذا احتاج الى الخبز فهو أولى به من الجامع

ولدت لأبوين من أهل السنة : أبى على مذهب الشافعى وأمى على مذهب أبى حنيفة ، وفتحت عينى على الدنيا وأنا أراهما يصليان ويتيقظان قبل الفجر لأداء صلاة الصبح حاضرة ، وربما زارنا أحد اخوالى فى تلك الساعات المبكرة ذاهبا الى المسجد القريب أو عائدا منه الى داره

***

وفتحت أذنى كما فتحت عينى على عبارات الحب الشديد للنبى عليه السلام وآله ، فمولد النبى حفلة سنوية فى البيت نترقبها نحن الصغار ونفرح بها لأننا نحن القائمون بالخدمة فيها . وأسماء النبى وآله تتردد بين جوانب البيت ليل نهار ، لأنها أسماء اخوتى أجمعين : محمد وابراهيم والمختار ومصطفى وأحمد والطاهر ويس ، وشقيقتى الوحيدة اسمها فاطمة ، واسمى أنا منسوب الى عم النبى لا الى الأمير الأسبق : عباس حلمى الثانى كما كان يتوهم بعض معارفى . لأننى ولدت قبل ولايته ، وأبيت فى المدرسة أن ألقب بلقب « حلمى » جريا على ما تعودته المدارس فى تلك الحقبة ، وبقيت منسوبا الى اسم «محمود» وهو كذلك من أسماء النبى ،

---

(١) بالعترة : العترة بكسر العين : نسل الرجل واقرباؤه الادنون .

ولم يكن لأبى اخوة ، وانما كانت أختاه الشقيقتان تسميان باسم نفيسة واسم زينب ، وأولادهم ينادون بالأسماء التى تغلب عليها هذه النسبة الشريفة ..

***

وورثت هــذا الحب الشديد للنبى وآله عليهم سلام الله ورضوانه ، وليس هذا الحب الشديد بالمستغرب من أهل السنة لأنهم يدينون بدستور السنة النبوية ، ولكنه كان فى بيتنا أشبه بالعاطفة النفسية منه بالآداب المذهبية ، فاستفدت منه كثيراً فى دراسة تاريخ الاسلام

استفدت منه انى كنت شديد التريث فى سماع كل دعوى من دعاوى السياسة القديمة التى كانت تقوم على انكار حق ، أو انكار فضل ، أو انكار نسب ، أو انكار ما من ضروب الانكار التى تمس تواريخ أهل البيت النبوى من بعيد أو قريب ..

ولم استفد منه بحمد الله كراهية أحد ذى حق أو ذى فضل ، لأن قداسة العظمة الانسانية تحجب عندى جميع هذه الصغائر التى تمس تواريخ العظماء أجمعين ، وولعى بدراسة تواريخ العظماء من طفولتى الباكرة عصمنى بحمد الله من غوائل[1] هذا الصغار[2] ..

ومن أثر هذه الوراثة فى ذهنى انى لم أصدق ما كان فى حكم الواقع المقرر عن سياسة الامام ، وانه لم يكن له من السياسة نصيب ، فبحثتها بحث الاشاعات ولم أعطها من بادىء الرأى شأناً أكبر من الاشاعات التى تسرى على الأفواه بغير دليل ، أو يجيئها الدليل المختلق من صنع أصحاب المنافع والمآرب فى سياسة الحاكم الغالب ، فهم مدافعون عن أنفسهم باتهام الآخرين ..

***

ومن أثر هذه الوراثة فى ذهنى انى قاربت سير العظماء الاسلاميين و « النبويين » لأرضى ذهنى ، ولم يقنعنى أن أرضى بها عاطفة لا أستمد من ذهنى شواهدها وآياتها ، فعظماء الاسلام عندى أعلام انسانية باذخة

---

(١) غوائل : جمع غائلة وهي الداهية والشر والمهلكة . (٢) الصغار : بفتح الصاد : الذل والضيم .

تخولها مكان العظمة مناقب يكبرها المسلم وغير المسلم ، وليست غاية الأمر فيهم انهم أضرحة للتبرك وتلاوة الفاتحة والسلام

وبهذه النزعة الموروثة أطرق باب الكلام فى حياة الزهراء ، فانها ــ سلام الله عليها ــ قد تكتب لها ترجمة لأنها بنت محمد ، أو تكتب لها ترجمة لأنها زوج على ، أو تكتب لها ترجمة لأنها أم الحسن والحسين وبينهما الشهداء ، ولكنها مع هذه الكرامة قد تكتب لها ترجمة لأنها هى فاطمة ، ولأنها هى مصدر من مصادر القوة التاريخية التى تتابعت آثارها فى دعوات الخلافة من صدر الاسلام الى الزمن الأخير

***

وهــذا الذى قصدت اليه بكتابة هذه السيرة ، وبالبحث عن مكان الصلة بينها وبين المنتسبين الى فاطمة ، وعلى قلة الأخبار التى حفظت عن شخص فاطمة عليها السلام أرجو أن أكون على نهج التوفيق فيما أمكننى أن أستخلصه من ملامح هذه السيرة المباركة ومعالمها

ونعود الى الوراثة فنقول : ان أول ما نضيفه الى بيان قوة اليقين ، أو بيان القوة الايمانية فى نفس الزهراء ، انها ورثتها من أم وأب ، وقد غطى ميراثها من أبيها على كل ميراث ، ولكنه اذا اقترن بالميراث من أمها فقد بلغت اصــالته مدى متصل الآثار فيما ورثته هى ، وفيما تورثه الأعقاب من بعدها ، وما أخلده من ميراث

القسم الأول

فاطمة الزهراء

* أم الزهراء ..
* نشأتها ..
* زواجها ..
* بلاغتها ..
* في الحياة العامة ..
* وفاتها ..
* شخصية الزهراء ..
* الذرية الفاطمية ..

أم الزهراء

حفظ التاريخ لنا قليلا من أخبار السيدة خديجة — أم الزهراء — رضى الله عنهما ، ولكن هذا القليل كاف للتعريف بها ، وبما يمكن أن تورثه نسبا من الخلائق والسجايا ، لأنه يعطينا منها صورة كاملة لا تزيدها الافاضة فى الأخبار الا فى التفصيل

ومن جملة الأخبار القليلة التى حفظت لنا نعلم ان الزهراء أنجبتها أم ذات فطنة ورجاحة ، وانها رضى الله عنها كانت غنية اليد غنية النفس بأكرم العواطف الأنثوية : عاطفة المحبة الزوجيـــة ، وعاطفة الأمومة ، وعاطفة الايمان ..

كانت تسمى فى الجاهلية بالطاهرة وسيدة نساء قريش ، لأنها جمعت الى مكانة النسب العريق مكانة الثروة الوافرة ومكانة الخلائق الموقرة ، وأهلها جميعا لم يحفظ التاريخ سيرة أحد منهم الا كان علما فى الحكمة والدراية أو فى الشجاعة والشمم ، كورقة بن نوفل وأسرة الزبير بن العوام

***

ولدت لأبوين كلاهما من أعرق الأسر فى الجزيرة العربية ، وكلاهما ينتهى نسبه الى لؤى بن غالب بن فهر ، بل كانت أمها تنتسب من ناحية أمها كذلك الى هذا النسب المعرق فى النبل والسيادة ، فهى فاطمة بنت هالة التى ينتهى نسبها كذلك الى لؤى بن غالب ، وهالة بنت قلابة التى ينتهى نسبها الى ذلك المجد الأعلى ، وقد اجتمع لها مع النبل مكانة الثروة الوافرة كما تقدم ، فكانت قافلتها الى الشام تعدل قوافل قريش أجمعين فى كثير من الأعوام

وأهم من هذا جميعه بالنسبة الى زوجة نبى ، والى جدة الأئمة من بيت النبوة ، انها كانت مفطورة على التدين وراثة وتربية ..

فأبوها خويلد هو الذى نازع تبعا الآخر حين أراد أن يحتمل الركن الأسود معه الى اليمن ، فتصدى له ولم يرهب بأسه غيرة على هذا المنسك[1] من مناسك دينه ، وقال السهيلى فى الروض الأنف : « ان تبعا روع فى منامه ترويعا شديدا حتى ترك ذلك وانصرف عنه » فلا يبعد ان روعة خويلد ومرآه وهو ينذر العاهل بالغضب الالهى اذا أقدم على فعلته قد شغل قلب التبع فتراءى له من المخوفات فى منامه ما أرهبه وثناه عن عزمه

***

وابن عم السيدة خديجة هو ورقة بن نوفل الذى رجعت اليه حين بذا لها من اضطراب النبى عليه السلام عند مفاجأته بالوحى ما أزعجها ، فركبت الى ورقة تسأله لعلمه بالدين وعكوفه على دراسة كتب النصارى واليهود ، ولم تكن الكهانة الدينية وظيفة ينتفع بها صاحبها . اذ لم يكن فى مكة مسيحيون يرجعون فى أمرهم الى كاهن أو كنيسة ، وانما كان عكوف الرجل على دراسة الدين لطبيعة فيه توحى اليه الشك فى عبادة الأصنام وتجنح به الى البحث والمراجعة عسى أن يهتدى الى عقيدة أفضل من هذه العقيدة ، وينسب اليه شعر كان يقوله فى الجاهلية يشبه شعر أمية بن أبى الصلت ، ويروى كتاب السيرة انه استغرب علم السيدة خديجة باسم جبريل حين ذكرته له ، وقال لها : « انه السفير بين الله وبين أنبيائه ، وان الشيطان لا يجترىء أن يتمثل به ولا يتسمى باسمه .. »

وقد جاء حديث ورقة مع السيدة خديجة على روايات مختلفة ، لا يعنينا أن نستقصيها . لأن المهم فى الأمر هو وجود هـذا الشغف بمدارسة الأديان بين بنى عم السيدة الأقربين ، فهذا وانفراد أبيها بين زعماء مكة بالوقوف لعاهل اليمن والمخاطرة بنفسه غيرة منه على مناسك الكعبة كافيان للابانة عن طبيعة التدين التى ورثتها الأسرة ، من كان منهم على الجاهلية ، ومن تحول عنها الى النصرانية

ويؤخذ من أخبار السيدة خديجة الأخرى انها كانت على علم بكل من يطالع كتب المسيحية والاسرائيلية ، لأنها لم تكتف بسؤال ابن عمها بل

---

(١) المنسك : الموضع يأتيه الانسان ويتردد اليه فى خير كان او غيره ، ومناسك الحج عباداته .

سألت غيره ممن كانت لهم شهرة بالاطلاع على التوراة وكتب الأديان ..
وقد روى عنها كلام قالته للنبي عليه السلام حين فاجأه الوحي فعاد اليها ، وقال لها : « لقد خشيت على نفسي ! » فكان كلامها الذى أرادت أن تسرّى به عنه وتثبّت به جنانه آية على العلم بلباب الدين علما يستكثر على الناشئين فى أديان الجاهلية ، فان الدين لا يعدو أن يكون ... كهانة وسحرا ، ولكنها أدركت من حقيقة الدين مالايدركه عامة قومها ، فعلمت انه فضيلة وان النبي الجدير أن ينتدب له هو الرجل الذى اتسم بالفضيلة ، وقالت للنبي وقد آمنت انه وحي وليس بعارض من ... : « كلا ! والله ما يخزيك الله أبدا . انك لتصل الرحم ، وتحمل الكلّ[1] ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانة »

***

علامات للنبوة لايدركها كل من يسمع بالدين ، ولولا انها عرفت من أبناء عمومتها من كان يفهم النبوة هذا الفهم لما كانت هذه علاماتها لتصديق الدعوة وصرف الوجل والخشية عن نفس زوجها الكريم

وهى على هذا طبيعة مميزة ، وليست طبيعة منساقة الى السماع والتقليد ، فمما نقل عنها انها طلبت الى النبى عليه السلام أن يخبرها اذا جاءه جبريل ، فلما أخبرها قالت له : « قم فاجلس على فخذى اليسرى » ففعل ، فقالت : « هل تراه ؟ » قال : « نعم » . قالت : « فتحول الى فخذى اليمنى » وسألته : « ... تراه ؟ » قال : « نعم » . فألقت خمارها[2] وسألته ، فقال : « الآن لا أراه .. » قالت : « يا ابن العم اثبت وأبشر ، فانه ملك وما هو بشيطان »

وهذا الاختبار غاية ما كان ينتظر من سيدة فى عصرها أن تمتحن به حقيقة الوحى . ولا غرابة فيه عند المسلم وعند غير المسلم فى العصر الحاضر ، فان البديهة لا تشتغل بالوحى الدينى والنظر الى جسد الأنثى فى وقت واحد . ولا سيما بعد الحوار واعادة السؤال مرة بعد مرة ، فلا

---

(١) الكل : الثقيل لا خير فيه . (٢) الخمار : بكسر الخاء : النصيف وهو ما تغطى به المرأة رأسها .

موجب إذاً لشك المتشككين من المتحذلقين فى صحة هذه الأحاديث

وقد رزقت هذه السيدة البارة صباحة الوجه مع ما رزقته من الخلق الجميل والحسب الأثيل[١] والمال الجزيل ، وصدق من قال ان السعادة لا تتم ، فان هذه السيدة التى تم لها غاية ما تتمناه المرأة لم تتم لها نعمة السعادة فى حياتها الزوجية ، فانها تزوجت فى صباها برجل من هامات[٢] مكة هو أبو هالة بن زرارة فمات ولها منه ولد صغير سُمّى باسم هند (لعله دفعاً لأذى الحسد) وهو الذى تربى مع السيدة فاطمة وقتل فى جيش الامام فى وقعة الجمل على أرجح الأقوال ، ويؤثر عنه أوفى وصف للنبى رواه سبطه الحسن عليهما صلوات الله ..

ثم بنى بها عتيق بن عائذ بن عبد الله المخزومى ، واختلفوا فى أى زوجيها كان الأول ولكنه على كل حال زواج لم يُكتب له الدوام ، وقد أعرضت عن الزواج بعد هذين الزوجين حتى عرض لها فى حياتها الرجل الذى أصبحت بفضله علماً من أعلام النساء فى التاريخ ، ولا شىء أدل على رجاحة لبّها من أناتها[٣] فى اختيار زوجها ، مع تهافت الخطاب عليها ورجوع الأمر اليها فيما تختار

أما كيف اتصل النبى عليه السلام بالعمل فى تجارتها فتكاد الأقوال تتفق على انه كان بمشورة من عمه أبى طالب ، وان أبا طالب قال له فى سنة من السنين : « يا ابن أخى : أنا رجل لا مال لى وقد اشتد علينا الزمان ، وهذه عير قومك قد حضر خروجها الى الشام ، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك فى عيرها فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت اليك » . وقد تردد النبى فى مفاتحتها بهذا الطلب فذهب اليها أبو طالب ، فأجابته على رضى وكرامة ، وقالت له : « لو سألت ذلك لبعيد بغيض لأجبناك ، فكيف وقد سألت لقريب حبيب ؟ »

وقد سافر النبى الى الشام وباع واشترى وربح لها أضعاف ما كانت تربح فى كل عام ، وأعجبها منه انه حين عاد من السفر وكل الى غلامها ميسرة الذى كان بصحبته أن يسبقه ليبشرها بعودة القافلة ووفرة

---

(١) الاثيل : القديم المؤصل . (٢) هامات : الهامة : الراس من كل شىء . (٣) أناتها : الاناة : الحلم والرفق والتؤدة .

نسها ، فاكبرت منه مروءته وأمانته وحذقه ، وأحبته وودت لو يخطبها مع الخطاب ، وعرّضت له بذلك فى حديث أقرب الى التلميح منه الى التصريح ..

وأحجم النبى حياء وأحجمت هى عن التصريح ، ثم أوعزت الى صديقة لها — هى نفيسة بنت منية — أن تشجعه على الخطبة ، فسألته نفيسة ذات يوم : « ما يمنعك أن تتزوج ؟ » قال : « قلة المال » . قالت : « فان كفيت ودعيت الى المال والجمال والكفاءة ؟ » قال : « ومن تكون ؟ » قالت : « خديجة ! » قال : « فاذهبى فاخطبيها »

وروى الزهرى صاحب أقدم السير أن « رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لشريكه الذى كان يتجر معه فى مال خديجة : هلم فلنتحدث عند خديجة ، وكانت تكرمهما وتتحفهما ، فلما قاما من عندها جاءت امرأة مستنشئة[1] هى الكاهنة — فقالت له : جئت خاطبا يا محمد ؟ فقال : كلا . فقالت : ولم ؟ فوالله ما فى قريش امرأة — وان كانت خديجة — الا تراك كفؤا لها ... »

وأشبه الأشياء بأن يكون — بين الروايات المتعددة — ان النبى عليه السلام كاشف رئيس أسرته أن يتقدم لخطبتها ففعل وخطبها خطبة عزيز لعزيزة قوم ، وقال وهو يفاتح عمها فى الأمر : « .. ان محمدا ممن لا يوازن به فتى من قريش الا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا ، وان كان فى المال قل فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك » فقال عمها عمرو ، أو ابن عمها ورقة بن نوفل فى رواية أخرى : « هو الفحل الذى لا يقدع أنفه »[2] وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله ، ولم يتزوج عليها فى حياتها الى أن قارب الخمسين ..

ومن خديجة ولد للنبى جميع أبنائه ما عدا ابراهيم ابنه من مارية القبطية ، وهم : القاسم ، والطاهر ، والطيب ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة ، أصغرهم باتفاق معظم الأقوال

---

(١) مستنشئة : استنشأ الرجل الاخبار : بحث عنها وتطلبها وتتبعها .
قدع أنفه : قدع الرجل صاحبه منعه وكفه . والفرس كبحه .

وكان النبي عليه السلام عند زواجه بالسيدة خديجة فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، أما السيدة خديجة فمن كتاب السيرة من يقول انها كانت فى الأربعين أو فى الخامسة والأربعين ، ومنهم ابن عباس يقول : « انها كانت فى الثامنه والعشرين ولم تجاوزها » . وأحرى بهذه الرواية أن تكون أقرب الروايات الى الصحة . لأن ابن عباس كان أولى الناس أن يعلم حقيقة عمرها ، ولأن المرأة فى بلاد كجزيرة العرب يبكر فيها النمو ويبكر فيها الكبر لا تتصدى للزواج بعد الأربعين ، ولا يسهل فى الأغلب الأعم أن تلد بعدها سبعة أولاد ، عدا من جاء فى بعض الروايات انهم ولدوا مع مَن ذكرنا أسماءهم ..

وقد يرجّح تقدير ابن عباس غير هذا ان مثل خديجة تتزوج فى نحو الخامسة عشرة أو قبلها ، لجمالها ومالها وعراقة بيتها وطمأنينة أهلها ، فلا تتجاوز الخامسة والعشرين بعد زواجين لم يكتب لهما طول الأمد ، وان كنا لا نعرف على التحقيق كم من السنين دام زواجها من أبى هالة ومن عتيق بن عائذ ، فمن الكلام عن ذريتها منهما يبدو ان أيامها معهما لم تزد على بضعة أعوام ..

« عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم .. »

وأمامنا ألف مصداق على هذه الآية فى سيرة الرسول العظيم الذى تنزلت عليه تلك الحكمة الإلهية

لقد تأخرت به قلة المال فلم يتزوج قبل العشرين ، خلافا لما جرى عليه العرف بين علية القوم ، وهو من تلك العلية فى الذؤابه[١] العليا

ولقد عزت الهناءة الزوجية على السيدة الغنية الوضيئة[٢] الذكية ، فتأيمت[٣] فى نحو الثلاثين

ولو كثر مال محمد لعله كان يبنى قبل العشرين بكريمة معشر تصغره ببضع سنين ، وكان هذا هو الحظ السعيد فى عرف كل انسان عاقل رشيد ..

ولو تيسرت الهناءة الزوجية لخديجة لعلها كانت فى غنى عمن يتجر

---

(١) الذؤابة : ضفيرة الشعر المرسلة · ومن الجبل أعلاه وفلانٌ ذؤابة قومه أي اعلاهم واشرفهم · (٢) الوضيئة : الحسنة النظيفة · (٣) تأيمت :

لها ويؤتمن على قوافلها بين الحجاز والشام ، ولكان لها من مالها ومال زوجها عون فى الرحلة والمقام ، وكان هذا هو الحظ السعيد فى عرف كل انسان عاقل رشيد ..

أيهما كان خيرا ؟ ..

هذا الذى كان كما كان ، أو ذاك الذى كان يحسبه كل عاقل رشيد صفوة الحظ الحسن الرشيد ؟

لم تمض سنوات على هذه الآصرة[1] القدسية التى جمعت بين الزوجين الكريمين حتى طرأ طارىء لم يدخل لهما فى حساب واستجاش الغيب نفس رسوله فتحفزت لأداء الأمانة الجلى التى جاشت بها جوانح الدنيا مئات السنين ..

فلم يجد محمد الى جانبه فتاة غريرة تفزع ولا تدرى ما تصنع ، بل وجد الى جانبه قلبا كريما وروحا عظيما وسكنا تهدأ عنده جائشة ضميره وتطمئن اليه خشية فؤاده ، ولم يكن قصارى الأمان عند حليلته التى سكن اليها انها حنكة السن وحنان الأمومة ، ولكنه آمان الذى يعرف من نشأته ونشأة آله ما الرسالة وما أمانة الحق والفضيلة ، وما عاقبة الصبر على العرواء[2] التى تندك لها عزائم وتطيش لها أحلام ، ولا يتلقاها ' يتلقى البشارة المفرحة الا من هو كفؤ لها من بنى آدم وحواء

وكل ما علمناه من سيرة خديجة عليها الرضوان خليق على قلته أن يجعلها بحق سيدة نساء قريش ، ولكن هذا القليل الذى علمناه لو ذهب كله ولم يبق منه الا أيام حضانتها لبشائر النبوة فى طلعتها — لضمن لها أن تتبوأ مقام السيادة بين نساء العالمين ..

وقد بقى محمد يذكر لها تلك الأيام الى مختتم أيامه ، وظل يتفقدها ويتفقد مواطن ذكراها أعواما بعد أعوام ، لقد كان فيها الشغل الشاغل عن أطيب الأيام وأصعب الأيام ، وان وفاء كهـذا لهو وحـده كفاية المستقصى فى التعريف بحقها من زوجة بارة وأم رؤوم ، فما من شهادة لإنسانة هى أصدق من دوام الوفاء لها فى قلب انسان عظيم

---

(١) الآصرة : حبل صغير يشد به أسفل الخباء • وما عطفك على رجل ·بة أو معروف • (٢)العرواء :بضم ففتح : قرة الحمى ومسها اول رعدتها

نشأتها

اذا وصفت نشأة الزهراء بكلمة واحدة تغني عن كلمات فالجد هو تلك الكلمة الواحدة ..

درجت في دار أبويها ، والدار يومئذ مقبلة على أمر جلل لم تتجمع بوادره في غير تلك الدار ، وغار حراء

أمر جلل لا تقف جلالته عند جدران الدار ، ولا عند أبواب المدينة التي اشتملت عليها ، ولا عند حدود الجزيرة العربية بمارها وقفارها ، بل هو الأمر الجلل الذي يطبق العالم بأسره عصورا وراء عصور ، لأنه هو أمر الدعوة الاسلامية التي كانت يومئذ تختلج في صدر واحد ، هو صدر أبي الزهراء عليه السلام

ما هذه الصلوات والتسبيحات ؟ ما هذه الهينمة (١) بين الأبوين ؟ ما هذا الوجل وما هذا القنوت (٢) ؟

أكبر الظن أن الطفلة الصغيرة لم تستغرب شيئا من هذا لأن الطفل لا يستغرب الأمر الا اذا رأى ما يخالفه ، وهي لم تفتح عينيها على غير هذه البوادر والمقدمات

أكبر الظن ان الزهراء الصغيرة لم تستغرب شيئا مما كان يحيط بها وهي تدرج من مهدها ، ولكن الطفل الذي يحسب هـذه المشاهد من مألوفاته ينفرد بمألوفات لا تتكرر من حوله ، ويتخذ له قياسا للألفة والغرابة منفردا بين أقيسة النفوس

وأكبر الظن انه ينشأ منطويا على نفسه ، مستخفا بما يخف له الناس من حوله ، متطلبا من عادات النفوس وطبائعها غير ما يتطلبون ..

ولقد أوشكت الزهراء أن تنشأ نشأة الطفل الوحيد في دار أبويها ،

---

(١) الهينمة : الصوت الخفي لا يفهم • (٢) القنوت : القيام في الصلاة على الرجلين والامساك عن الكلام فيها •

لأنها لم تجد معها غير أخت واحدة ليست من سنها ، وغير أخيها هند ، وهو أكبر منها ومن أختها ، ولم يكن من عادة الطفولة العربية أن يلعب البنات لعب الصبيان

وأوشكت عزلة الطفل الوحيد أن تكبر معها ، لأنها لم تكن تسمع عن ذكريات أخوتها الكبار الا ما يحزن ويشغل : ماتوا صغارا وخلفوا فى نفوس الأبوين لوعة كامنة وصبرا مريرا ، أو تزوج من الأخوات الأحياء من تزوج وخطب من خطب ، ثم لم تلبث الخطبة أن ردت الى أختين ، لأنهما خطبتا الى ولدى أبى لهب ، ثم أصـــبح أبو لهب عدوا للأبوين يمقتهما ويمقتانه ، فانتهت خطبة الأختين الشقيقتين بهذا العداء

جد من كل جانب تركن اليه ، والطواء على النفس لا تستغربه ولا تحب أن تتبدله ، وملاذها فى كل هذا حنان أبوين لا كالآباء : حنان جاد رصين ، ونكاد نقول : بل حنان صابر حزين ، يشملها به الأب الذى مات أبناؤه ولا عزاء له من بعدهم غير عبء النبوة الذى تأهب له زمنا ونهض به زمنا ولا يزال يعانى من حمله ما تنوء به الجبـــال ، وتشملها به الأم التى جاوزت الأربعين وبقيت لها فى خدرها هذه البنية الدارجة صغرى ذريتها ، والحنان على الصغرى من الذرية بعد فراق الذرية كلها بالموت أو بالرحلة حنان لعمر الحق صابر حزين

ولقد نعمت الزهراء بهذا الحنان من قلبين كبيرين : حنان أحرى به أن يعلم الوقار ولا يعلم الخفة والمرح والانطلاق

وتعلمت الزهراء فى دار أبويها ما لم تتعلمه طفلة غيرها فى مكة : آيات من القرآن وعادات يأباها من حولهم العابدون وغير العابدين

ولكنها قد تعلمت كذلك كل ما يتعلمه غيرها من البنات فى حاضرة الجزيرة العربية ، فلا عجب أن نسمع عنها بعد ذلك انها كانت تضمـــد جراح أبيها فى غزوة أحد ، وانها كانت تقوم وحدها بصنيع بيتها ولا يعينها عليه أحد من النساء فى أكثر أيامها

ويبدو لنا انطواء الزهراء على نفسها من الأحاديث المروية عنها ، فلم

تعرض قط لشيء غير شأنها وشأن بيتهـا ، ولم تتحدث قط فى غير ما تسأل عنه أو يلجئها اليه حادث لا ملجأ منه ، فلا فضول هنالك فى عمل ولا فى مقال ..

***

وســواء صح ما جاء فى الأنباء عن محاجتها للصديق بالقرآن الكريم أو كان فيه مجال للمراجعة ، فالصحيح الذى لا مراجعة فيه انها سمعت القرآن الكريم من النبى وسمعته من على ، وانها صلت به ووعت أحكام فرائضه ، وانها وعت كل ما وعته فتاة عربية أصيلة العرق والنسب ، وزادت عليه ما لا يعيه غيرها من الأصيلات المعرقات

لقد نشـأت نشأة جد واعتكاف(١) نشأة وقار واكتفاء ، وعلمت مع السنين انها سليلة شرف لا منازع لها فيه من واحدة من بنات حواء فيمن تراه ، فوثقت بكفاية هذا الشرف الذى لايدانى ، وشبت بين انطوائها على نفسها واكتفائها بشرفها كأنها فى عزلة بين أبناء آدم وحواء

سكنت هذه النفس القوية جثمانا يضيق بقوتها ، وقلما رزق الراحة من اجتمع له النفس القوية والجثمان الضـعيف ، فانهما مزيج متعب للنفس والجسم معا ، لا قوام له بغير راحة واحدة : هى راحة الايمان ، وهذا هو التوفيق الأكبر فى نشأة الزهراء ، فانها نشأت فى مهد الايمان اذ هو ألزم ما يكون لها بين قوة نفسها ونحول جثمانها

---

(١) اعتكاف : اعتكف فى المسجد أقام به وحبس نفسه فيه .

زواجها

قال الزرقانى فى شرح المواهب اللدنية : « ان عبد الله بن حسن دخل على هشام بن عبد الملك وعنده الكلبى فقال هشام لعبد الله : يا أبا محمد ! كم بلغت فاطمة من السن ؟ قال : ثلاثين سنة ، فقال الكلبى : خمسا وثلاثين . فقال هشام : اسمع ما يقول ، وقد عنى بهذا الشأن . فقال : يا أمير المؤمنين : سلنى عن أمى وسل الكلبى عن أمه »

وتوافق هذه الرواية روايات متعددة ، اتفقت على أن الزهراء ولدت فى سنة بناء الكعبة قبل البعثة المحمدية ببضع سنوات ، فأصح الأقوال بين الأخبار المتضاربة انها عليها السلام قد تزوجت وهى فى نحو الثامنة عشرة

ومن جملة الأخبار يتضح أن النبى عليه السلام كان يبقيها لعلىّ رضى الله عنه . فقد خطبها أبو بكر وعمر فردهما وقال لكل منهما : انتظر بها القضاء ، أو قال انها صغيرة كما جاء فى سنن النسائى

وفى أسد الغابة انها لما خطبها أبو بكر وعمر وأبى رسول الله قال عمر : « أنت لها يا على ! » فقال على : « مالى من شىء الا درعى أرهنها » فزوجه رسول الله فاطمة ، فلما بلغ ذلك فاطمة بكت ، ثم دخل عليها رسول الله فقال : « مالك تبكين يا فاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علما وأفضلهم حلما وأولهم سلما »

وفى رواية أن عليا سأله النبى : « هل عندك من شىء ؟ » قال : « كلا » . فقال له : « وأين درعك الحطمية ؟ » أى التى تحطم السيوف ، وكان النبى قد أهداه اياها ، فباعها وباع أشياء غيرها كانت عنده ، فاجتمع له منها أربعمائة درهم ..

جاء فى أنساب الأشراف للبلاذرى : « فباع بعيرا له ومتاعا فبلغ من

ذلك أربعمائة وثمانين درهما ويقال أربعمائة درهم ، فأمره أن يجعل ثلثها فى الطيب وثلثها فى المتاع ففعل .. »

ثم استطرد صاحب الأنساب الى رواية أخرى ، يرتفع سندها الى علىّ نفسه قال : « سمعت عليا عليه السلام يقول : « أردت أن أخطب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته فقلت : والله مالى شىء ، ثم ذكرت صلته وعائدته فخطبتها اليه » فقال : « وهل عندك من شىء ؟ » قلت : « لا » قال : « فأين درعك التى أعطيتك يوم كذا ؟ فقلت : هى عندى ! قال : فاعطها اياها »

وفى طبقات ابن سعد أن رسول الله قال لما خطب أبو بكر وعمر فاطمة : « هى لك يا على ! لست بدجال » يعنى لست بكذاب . وذلك أنه كان وعد عليا بها قبل أن يخطبها

ويروى عن النبى أنه قال لفاطمة : « ما أليت[1] أن أزوجك خير أهلى »

وجهزت وما كان لها من جهاز غير سرير مشروط ووسادة من أدم حشوها ليف وتورة من ادم (الاناء يغسل فيه) وسقاء ومنخل ومنشفة وقدح ورحاءان وجرتان ..

وعن أنس بن مالك أن النبى قال له : انطلق وادع لى أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وبعدتهم من الأنصار ، قال فانطلقت فدعوتهم ، فلما أخذوا مجالسهم قال صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله المحمود بنعمته المعبود بقدرته ، المطاع لسلطانه ، المهروب اليه من عذابه ، النافذ أمره فى أرضه وسمائه ، الذى خلق الخلق بقدرته وميزهم بأحكامه وأعزهم بدينه وأكرمهم بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم . ان الله عز وجل جعل المصاهرة نسبا لاحقا وأمرا مفترضا وحكما عادلا وخيرا جامعا ، أوشج[2] بها الأرحام وألزمها الأنام . فقال الله عز وجل : وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ، وأمر الله يجرى الى قضائه ، وقضاؤه يجرى الى قدره ، ولكل أجل كتاب ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ، ثم ان الله تعالى أمرنى أن أزوج فاطمة من علىّ

---

(١) أليت : قصرت وأبطأت . (٢) اوشج : أوشج الله بين القوم الف وخلط .

وأشهدكم أنى زوجت فاطمة من علىّ ، على أربعمائة مثقال فضة ان رضى بذلك على السنة القائمة والفريضة الواجبة ، فجمع الله شملهما وبارك لهما وأطاب نسلهما ، وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ومعادن الحكمة وأمن الأمة ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم »

قال أنس : « وكان على عليه السلام غائبا فى حاجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه فيها.. ثم أمر لنا بطبق فيه تمر فوضع بين أيدينا ، فقال : انتهبوا . فبينما نحن كذلك اذ أقبل على فتبسم اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ياعلى ! ان الله أمرنى أن أزوجك فاطمة ، وانى زوجتكها على أربعمائة مثقال فضة ، فقال على : رضيت يارسول الله ! ثم ان عليا خرّ ساجدا شكرا لله ، فلما رفع رأسه قال الرسول صلى الله عليه وسلم : بارك الله لكما وعليكما وأسعد جدكما وأخرج منكما الكثير الطيب »

قال أنس : « والله لقد أخرج منهما الكثير الطيب »

ومن المرجح جدا أن الزهراء قد استشيرت فى زواجها على عادة النبى عليه السلام فى تزويج كل بنت من بناته كما جاء فى مسند ابن حنبل ، فيقول لها : فلان يذكرك ، فان سكتت أمضى الزواج ، وان نقرت الستر علم أنها تأباه ، وفى زواج الزهراء قال لها : يا فاطمة ! ان عليا يذكرك . فسكتت ، وفى روايات أخرى أنه وجدها باكية ، فذاك حيث قال رسول الله : « مالك تبكين يا فاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علما وأفضلهم حلما وأولهم سلما »

ولم يجمع كتاب السيرة على الوقت الذى تم فيه الزواج ، ولكنهم قالوا انه كان بعد الهجرة ، وبعد غزوة بدر .. وأرجح الأقوال كما قدمنا انها كانت فى نحو الثامنة عشرة ، وزوجها أكبر منها ببضع سنوات ..

***

توخينا فى اقتباس هذه الأخبار أن نرجح منها الأوسط الأمثل بين أقوال الرواة والمحدثين ، فما من خبر من هذه الأخبار وصل الينا فى كتب السيرة على رواية واحدة ، وقد يبلغ الفرق فى بعض المسائل التى تتعلق

بالزمن خمس سنوات أو أكثر ، ويبلغ الفرق فى بعض المسائل التى تتعلق بالأقوال والأعمال أن تتناقض مناقضة القبول والإباء والرضى والانكار، فلا مناص من الأخذ بالأوسط الأمثل بين جميع هذه الأقوال

ونحن نعنى بالأوسط الأمثل أن يكون الترجيح قائما على المقابلة والموازنة والرجوع الى حوادث الزمن وعادات أهله ، والى الأحرى أن يصدر ممّن أسند اليهم القول أو نسب اليهم العمل .. فان الأخبار اذا تساوت رجح بينها ما هو أشبه بالزمن وأهله وأصحاب السيرة فيه

فمن المعقول مثلا أن يؤثر النبى عليا بفاطمة وهما ربيبان فى بيئة واحدة ، ومن المعقول أن يؤثر زواجها من علىّ على مشاركتها فى بيت أبى بكر وعمر لزوجات الشيخين ، ومن المعقول أن يتردد على فى خطبتها لفقره . ولا يخالف المعقول ولا المألوف أن يقدم بعد تردد ، لشعوره بأنه مخصوص بها وأنه ينبغى عليه أن يقطع الشك باليقين ويعمل من عنده ما لابد له من عمله ، ولا يخالف المعقول ولا المألوف كذلك أن يتأخر الزواج الى ما بعد الهجرة ، لأن حياة المسلمين فى مكة — قبل الهجرة الى المدينة — لم تكن حياة أمن ولا استقرار ، ولم يكن من النادر أن يهاجر المسلمون بزوجاتهم الى بلد بعيد كالحبشة كلما ملكوا وسائل الهجرة ، فمن كان متزوجا قبل اشتداد العنت على المسلمين فلا حيلة له فى الزواج ، ومن لم يكن فليس أخلق به من ارجاء الزواج الى حين

ذلك كله هو المعقول المألوف ، وهو الأوسط الأمثل اذا تساوت الأخبار ووجبت الموازنة والترجيح

الا أن التاريخ يكتب للاعتبار ، ولا يقصد من الاعتبار به شىء أهم من تصحيح النظر الى الحوادث والناس ، واستخلاص الحقيقة عما يقع ولا يقع وعما يجوز ولا يجوز

وها هنا محل لعبرتين كأهم العبر فى كتابة التاريخ : كتابته فى الأزمنة الغابرة ، وكتابته فى الزمن الحديث

فأهم العبر التى تستخلص من تواريخ عصر البعثة المحمدية أن يقتصد

ذوو الأحكام التاريخية فى المسائل الكبرى فلا يرتبوا حكما قاطعا فى مسألة كبيرة على أرقام السنين وألفاظ الروايات ، فما كان من الأخبار مجمعا عليه أو مقاربا للإجماع فهو جدير باتخاذ الأحكام الجازمة فيه ، وما كان ميزان الحكم فيه كلمة تقابلها كلمات ، أو فرض تقابله فروض ، أو رقم ويوم تقابله أرقام وأيام بل أعوام ، فليس من القصد أن يعطى فوق معياره من الجزم واليقين ، وبخاصة حين ينبنى عليه اتهام أو قضاء لا يقوم فى مسائل كل يوم بغير بينة تنفى كل شبهة وتبطل كل محال

أما العبرة فى تاريخنا العصرى فمرجعها الى كتابة طائفة من المصريين يزعمون أنهم يطبقون علم العصر على تاريخنا القديم ، وأنهم يصححونه بهذا التطبيق ، وليس أعجز منهم عن تحقيق هـذه الدعوى ، لأنهم أثبتوا فيما كتبوه أنهم يزنون بميزانين وينظرون بعينين ، ويختلقون أسباب التشويه والتحريف ..

أولئك هم طائفة المستشرقين الذين يجمعون بين الاستشراق والتبشير

فمن هؤلاء من يطالع فى الكتب الدينية التى يصدقها فيقرأ فيها من أخبار الدعاة والأدعياء أمورا لاشـك فى أنها من العيوب فلا يحسبها عيوبا ، ولا يتأفف منها ، بل يعنت فكره ويعنتها تخريجا وتعويجا حتى يقبلها ، ويفرض قبولها على الناس ..

فاذا طالع كتبا عن أصحاب دين غير دينه لم يأخذ نفسه بمثل هـذا التحسين والتزيين ، بل أخذها على النقيض من ذلك بالمسخ والتشـويه وتحويل المحاسن الى عيوب ، أو بالتنقيب فى كل مكان عما يعاب ان لم يجد ما يعيبه فى ظاهر السطور والحروف

وما من شىء يمسخ الدين ويمسخ العلم معا كما يمسخهما هذا الخلق الذميم ، فان الدين لا يعلم الانسان شيئا ان لم يعلمه حب الصـدق واجتناب التمحل[1] والافتراء ، وان العلم شر من الجهـل ان كان يسوم الانسان أن يغمض عينيه لكيلا يرى ويوصد أذنيه لكيلا يسمع ، فليس هذا جهلا يزول بكشف الحقيقة ، ولكنه مرض يتعمد حجب الحقيقة عن

---

(١) التمحل : تمحل الشىء طلبه بحيلة وتكلف ، ومنه تمحل له عذرا .

صاحبه وهى مكشوفة لديه ، فهو شر من الجهل بلا مراء

وفى تاريخ الزهراء مثـال للعبرة التى تستخلص من كتب هؤلاء « العلماء » الذين هم شر من الجهلاء ، وأحدهم قد خصص كتابا لتاريخ الزهراء يحاول فيه جهده أن « يطبق » ذلك العلم العصرى المقلوب ، فاذا هو منقلب عليه ..

يؤلف رجل من رجال الدين المستشرقين الذين عاشوا زمنا فى الشرق ــ كتابا عن الزهراء ليرضى فيه ذلك « العلم العصرى » المقلوب ، ويبحث عن العيـوب حيث لا عيوب ، فاذا العيب هو فى الاسـفاف ، وكم فى الاسفاف من عيوب ، بل من ذنوب

ومن تفاهاته وسفاسفه[1] أنه يحاول جهده أن يثبت أن السيدة فاطمة لم تتزوج قبل الثامنة عشرة لأنها كانت محرومة من الجمال ، ولم تصدق أن أحدا يخطبها بعد تلك السن ، ثم يقول انها لمـا عرض عليها النبى الزواج من على سكتت هنيهة ، ولكنها لم تسكت خجلا بل دهشة من أن يخطبها خاطب ، ثم تكلمت فشكت ، لأنها تزوج من رجل فقير .. !

لو كان السند الذى استند اليه هذا « العالم » واضحا ملزما لقلنا انها أمانة العلم ، ولا حيلة للعالم فى الأمانة العلمية .. !

لكن السند كله قائم على أن السيدة فاطمة تزوجت فى الثامنة عشرة من عمرها ، وتقابله اسناد أخرى تنقضه وتتراءى للمؤلف حيثما نظر حوله ولكنه لا يحب أن يراها ، لأنه يحب أن يرى ما يعيب ولا يحب أن يرى ما لا عيب فيه ..

فالمشهور المتواتر أن السيدة فاطمة ولدت لأبوين جميلين ، وان أخواتها تزوجن من ذوى غنى وجاه ، كأبى العاص بن الربيع وعثمان بن عفان

وليس من المـألوف أن يكون الأبوان والأخوات موصوفين بالجمال ، وأن تحرمه احدى البنات ..

والمشهور المتواتر أن السيدة فاطمة بلغت سن الزواج والدعوة المحمدية فى ابانها ، والمسلمون بين مهاجر أو مقيم غير آمن ، والحال قد تبدلت بعد

---

(١) سفاسفه : السفساف : الرديء من كل شيء ، وما دق من التراب.

الدعوة المحمدية فأصبحت خطبة المسلمات مقصــورة على المسلمين ، وهؤلاء المسلمون قلة منهم المتزوج ومنهم من لا طاقة له بالزواج ، فلا حاجة بالمؤلف الى البحث الطويل ليهتدى الى السبب الذى يؤخر زواج بنت النبى الى الثامنة عشرة ، ولو كانت أجمل الجميلات ..

وفى وسعه كذلك أن يتصور أن النبى يخص بها ابن عمه ، وينتظر بها البنت حين تهدأ الحال ويستعد ابن عمه للزواج ويستقر على حال بينه وبين آله الذين لايزالون على دين الجاهليــة ، فلا هم فى ذلك الوقت ذووه ولا هم بعداء عنه ..

كل ذلك قريب كان فى وسع « العالم المحقق » أن يراه تحت عينيه ، قبل ان يذهب الى العلة التى اعتلها لتأخير الزواج ، فلا يرى له من علة غير فقدان الجمال .. ولكن الأسباب الواضحة القريبة لايلتفت اليها لأنها لاتعيب ، والسبب الخفى البعيد تشويه غضاضة[1] فهو الجدير اذن بالالتفات

وكأنما كان « العالم المحقق » فى حاجة الى جهالة فوق جهالته فهو يفهم من بكاء السـيدة فاطمة الله شكاية من فقر على بن أبى طالب ، ويسند هذا الفهم الى رواية البلاذرى فى أنساب الاشراف . بعد زعمه أن فاطمة أبلغت زواجها بعلى فسكتت من الدهشة لا من الخجل ، وانما دهشت لأنها لم تكد تصدق أن أحدا يخطبها بعد أن قاربت العشرين

أفمن المألوف أو من التطبيق العلمى أن تكون الفتاة يائسة من الزواج ، مدهوشة من خطبة الخطيب ، ثم تتعلل العلل وتفرض الشروط وتستعظم نفسها على بنى عمومتها الفقراء . وليست هى يومئذ من الأغنياء ؟

كلا ! ليس ذلك بالمألوف ولا بالتطبيق العلمى ، ولكنه تمحل للظن فضيلته الكبرى أنه يشتمل على مساس بفاطمة وعلى ... فهو اذن أحق بالترجيح من كل تقدير مألوف

والبلاذرى ــ بعد ــ لم يذكر شيئا من هذا وليس فى كلامه عن مناقب على أو فاطمة شىء من قبيل الجواب الذى ينسب الى الزهراء غير روايته الحديث بسنده وهو : «حدثنا عبد الله بن صالح عن شريك عن أبى اسحاق

---

(١) غضاضة : النضارة من الشباب والطراءة . والمذلة والانكسار تقول : هو شاب بين الغضاضة ، وليس عليك فى هذا الامر غضاضة .

عن حبشى بن جنادة قال : لمـا زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة أرعدت فقال : اسكتى ! فقد زوجتك سـيدا فى الدنيـا وانه فى الآخرة لمن الصالحين » ..

وهـذا ما وجدناه فى النسخة المنقولة من مخطوطة الآسـتانة ، ومن الأجزاء المطبوعة فى أوربة ، فتفسير « الرعدة » بذلك المعنى انما هو من ابداع المؤلف الحصيف ! ..

هـذا مثال من تحقيق هؤلاء المحققين حين يكتبون عن تاريخ أعلام الشرق وحوادثه ، نمر به لعبرته النـافعة فى وزن التواريخ العصرية المزعومة ، ولا ننبه اليه لقول قائل ان السيدة فاطمة كانت محرومة من الجمال .. فانه لو صح لما كانت فيه مهانة على سيدة شرفتها أكرم الأبوات كما شرفها أكرم البنوات ، ولـكننا ننبه اليه لأنه عبرة المعتبرين فيما يصنعه العقل بنفسـه حين يمسـخه مرض الأهواء ، فيفترى على العلم والدين ما تأباه أمانة العلم ، ويعافه أدب الدين ..

ونعود الى قياس الأخبار بالموازنة أو بما هو مألوف ومعقول ، فنقول اننا بحثنا عن خبر من أخبار زواج البنات فى آل محمد وآل على ، فلم نجد فى عصر النبوة غير خبر واحد من قبيل الخبر الذى قيـل فيه إذ السيدة فاطمة أشارت الى فقر على حين بلغت خطبته لها ، وهو تزويج السيدة أم كلثوم ..

وبين الخبرين ، مع هذا ، بون بعيد ..

جاء فى أسد الغابة عن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب أنه قال : « لمـا تأيمت أم كلثوم من عمر بن الخطاب دخل عليها حسن وحسين أخواها فقالا : « انك ممن قد عرفت سيدة نساء المسلمين وبنت سيدتهن ، وانك والله ان أمكنت عليا من رمتك لينكحنك بعض أيتامه ، وان أردت أن تصيبى بنفسك مالا عظيما لتصيبنه » ، فوالله ما قاما حتى طلع على يتكىء على عصـاه ، فجلس فحمـد الله وأثنى عليه وذكر منزلتهم من رسول الله وقال : قد عرفتم منزلتكم عندى يابنى فاطمة وأثرتكم على

سائر ولدى لمكانكم من رسول الله عز وجل ، فقالوا : صدقت رحمك الله ، فجزاك الله عنا خيرا . فقال : أى بنية ! ان الله عز وجل قد جعل أمرك بيدك ، فأنا أحب أن تجعليه بيدى . فقالت : اى أبه ! انى امرأة أرغب فيما يرغب فيه النساء وأحب أن أصيب مما تصيب النساء من الدنيا ، وأنا أريد أن أنظر فى أمر نفسى . فقال : لا والله يا بنية ! ما هذا من رأيك . ما هو الا رأى هذين !.. ثم قام فقال : والله لا أكلم رجلا منهما أو تفعلين ، فأخذا بثيابه فقالا : اجلس يا أبة ، فوالله ما على هجرتك من صبر . اجعلى أمرك بيده . فقالت : قد فعلت ! قال : فانى قد زوجتك من عون بن جعفر ، وانه لغلام ، وبعث لها بأربعة آلاف درهم »

هذه المؤامرة المحببة بين أخوين وأختهما ليسعداها بزواج أرغد من الزواج الذى يختاره أبوهم ــ تنتهى بطاعة الحب للأب الذى لايصبر على غضبه وتدل فى سرها وعلانيتها على أجمل مايكون بين الأخوة والآباء من عطف وتوقير.. وليس فيها من الشبه برواية البلاذرى غير اشفاق الفتاة من عيشة الضنك دون أن يكون هناك خطيب معروف تقابل خطبته بالاعتراض والمراجعة ، وشتان مقال أم كلثوم وما رواه الرواة عن أمها البتول [١] .

فاذا كان للخبر الذى جاء فى أنساب الأشراف أصل يعول عليه فأصله فيما هو مألوف ومعقول أن يكون النبى عليه السلام قد وجد الزهراء باكية وليس فى ذلك من غرابة ، لأننا لا نتخيل فتــاة فى مثل موقفها لايبكيها ما تثيره فى نفسها ذكرى أمها ووداع بيت أبيها ، وقد فارقتها أمها وهى صبية تدرك ما فقدته من عطفها وبرها والطافها لها فى رخائها وعسرها ، ثم يكون يوم انفصال فى غربة من الأم ومن البيت الذى لزمتها فيه ومن البلد الذى يحتويه فان جهدنا أن نتخيل فتاة لا تبكى حين تحوم بنفسها تلك الذكريات وتقترب من اليوم الفاصل بين معيشتها فى كنف أبيها ومعيشتها فى غير كنفه ، فموضع الغرابة أن تتخيلها بعد الجهد غير باكية وغير آسية ، ولا سيما من كانت مثل الزهراء مجبولة على مزاج حزين وأسى دفين على أمها العزيزة لم يفارقها مدى السنين ..

---

(١) البتول : المنقطعة عن الزواج .

ومثل النبى الذى كانت كبرى فضائله انه انسان عظيم ، وانه كان أبا مكلوم الفؤاد ، لن يفوته ذلك الخاطر فى ذلك اليوم ، ولن يسكت عنه الا عامدا عالما بما يلعجه [١] فى النفس من الحزن والشجن ، فمن اللطف بالفتاة الحزينة أن يتحاشاه وأن يجعل عزاءه لها ما قاله عليه السلام : « مالك تبكين يا فاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علما وأفضلهم حلما وأولهم سلما » ..

ولم يمض غير قليل حتى تبين لنا سبب من الأسباب التى أطالت بقاء فاطمة فى بيت أبيها ، فانه عليه السلام كان يحنو عليها لضعفها وحزنها ولا يصبر على فراقها ، فلما تحولت عن داره بعد زواجها لم تمض أيام حتى ذهب اليها فقال لها : انى أريد أن أحولك الىَّ . فقالت : فكلم حارثة بن النعمان أن يتحول عنى . قال رسول الله : قد تحول حارثة بن النعمان عنا حتى استحيت منه ، فبلغ ذلك حارثة فتحول وجاء النبى فقال : يارسول الله ! انه بلغنى انك تحول فاطمة اليك ، وهذه منازلى ، وهى أسقب بيوت بنى النجار بك ، وانما أنا ومالى لله ولرسوله ، والله يارسول الله للمال الذى تأخذ منى أحب الى من الذى تدع. فقال رسول الله : صدقت . بارك الله عليك ! فحولها رسول الله الى بيت حارثة

جاء فى كتاب السمهودى عن أخبار دار المصطفى : « ان بيت فاطمة رضى الله عنها فى الزور الذى فى القبر بينه وبين بيت النبى صلى الله عليه وسلم خوخة [٢] .. وكانت فيه كوة الى بيت عائشة رضى الله عنها ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام اطلع من الكوة الى فاطمة فعلم خبرهم ، وان فاطمة رضى الله عنها قالت لعلى ان ابنى أمسيا عليلين فلو نظرت لنا أدما نستصبح به ! فخرج على الى السوق فاشترى لهم أدما وجاء به الى فاطمة ، فاستصبحت ... فأبصرت عائشة المصباح عندهم فى جوف الليل ــ وذكر كلاما وقع بينهما ــ فلما اصبحوا سألت فاطمة النبى صلى الله عليه وسلم أن يسد الكوة فسدها »

الى أن قال ما خلاصته من جملة أسانيده : « انه صلى الله عليه وسلم

(١) يلعجه : لعج فلان البدن بالضرب آلمه وأحرق جلده . والحب فؤاده أحرقه . (٢) خوخة : باب صغير كالنافذة الكبيرة يكون بين بيتين .

كان يأتى باب على وفاطمة وحسن وحسين كل يوم عند صلاة الصبح حتى يأخذ بمضادتى[1] الباب ويقول : السلام عليكم أهل البيت ، ويقول : الصلاة ! ثلاث مرات ، انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ... وكان النبى صلى الله عليه وسلم اذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ، ثم يثنى بفاطمة ، ثم يأتى بيوت نسائه

« وأسند يحيى عن محمد بن قيس قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا قدم من سفر أتى فاطمة فدخل عليها وأطال عندها المكث ، فخرج مرة فى سفر وصنعت فاطمة مسكتين[2] من ورق[3] (بكسر الراء) وقلادة وقرطين وسترت باب البيت لقدوم أبيها وزوجها ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها ووقف أصحابه على الباب لا يدرون أيقيمون أم ينصرفون لطول مكثه عندها ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد عرف الغضب فى وجهه حتى جلس على المنبر ، ففطنت فاطمة انه فعل ذلك لما رأى من المسكتين والقلادة والستر .. فنزعت قرطيها وقلادتها ومسكتيها ونزعت الستر وبعثت به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت للرسول : قل له تقرأ عليك ابنتك السلام وتقول لك : اجعل هذا فى سبيل الله . فلما أتاه قال : قد فعلت ، فداها أبوها : ثلاث مرات ، ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد ، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء »

***

وانتظمت الحياة فى السكن الجديد الذى آوى الى ظل النبى على مثال من حياة النبى فى بيته : عيشة كفاف وخدمة يتعاون عليها رب البيت وربته ، اذ كان رزق علىّ من وظيفة الجندى ، ووظيفته من فىء الجهاد ، وقد كان قليلا فى حياة النبى وهو مقصور على الجزيرة العربية ، فكان نصيب على منه أقل من أن يتسع لأجرة الخدم ، وكلما رزق وليدا جاءته حصته على قدر ، شأنه كشأن كل أب من المسلمين

وما لبث البيت الصغير أن سعد بالذرية ، وقد رزق الأبوان الفقيران

---

(١) بعضادتي الباب : العضادة بالكسر من الباب جانبه وهما عضادتان عن يمين الداخل منه وشماله . (٢) مسكتين : المسكة : السوار والخلخال .
(٣) ورق : الورق الفضة ، والدراهم المضروبة .

نصيبا صالحا من البنين والبنــات : الحسن والحسين ومحسن ، وزينب وأم كلثوم ..

وكان أسعد ما يسعدان به عطف الأب الأكبر الذى كان يواليهم به جميعا ولا يصرفه عنه شاغل من شــواغله الجسام فى معتــدم الدعوة والجهاد ، وقد أوشكت كل كلمة قالها فى تدليل كل وليد أو الترحيب به أن تصبح تاريخا محفوظا فى الصدور والأوراق

فلما ولد الحسن سماه والداه حربا فجاء رسول الله فقال : أرونى ابنى ما سميتموه ؟ قالوا : حرب ! قال : بل هو حسن ، وهكذا عند مولد الحسين ، وعند مولد المحسن ، وقد مات وهو صغير

وكان يدلل الطفل منهم ويستدرجه ، فربما شوهد وهو يعلو بقدمه الصغيرة حتى يبلغ بها صدر النبى ، والنبى يرقصه ويستأنسه ويداعب صغره وقصره بكلمات حفظها الأبوان ، ولم يلبث أن حفظها المشرقان ..

حُزُقّة (١) .. حُزُقّة .. ترق عين بقّة

وربما شوهد النبى عليه السلام ساجدا وطفل من هؤلاء الأطفال راكب على كتفيه ، فيتأنى فى صلاته ويطيل السجدة لكيلا يزحزحه عن مركبه ، وفى احدى هذه السجدات يقول عمر بن الخطاب للطفل السعيد : نعم المطيّة مطيتك ! ..

بل ربما كان على المنبر ، فيقبل الحسن والحسين يمشيان ويتعثران ، فيسبقه حنانه اليهما وينزل من المنبر ليحملهما ، وهو يقول : « صدق الله العظيم ! انما أموالكم وأولادكم فتنة ! »

وكان اذا سمع أحدهما يبكى نادى فاطمة وقال لها : « ما بكاء هذا الطفل ؟ .. ألا تعلمين ان بكاءه يؤذينى ؟ » ..

وقد جعل من عادته أن يبيت عندهم حينا بعد حين ، ويتولى خدمة الأطفال بنفسه وأبواهم قاعدان . ففى احدى هذه الليالى سمع الحسن يستسقى فقام صلوات الله عليه الى قربة فجعل يعصرها فى القدح ، ثم

---

(١) الحزقة : القصير

جعل يعبعبه ، فتناول الحسين فمنعه وبدأ بالحسن . قالت فاطمة : كأنه أحب اليك ؟ .. قال : انما استسقى أولا !

وقد يلفهم جميعا فى برد واحد فيقول لهم : « أنا وأنتم يوم القيامة فى مكان واحد ! » ..

وكانت هذه الأبوة الكبيرة أعز عليهم جميعا من أبوة الأب الصغير ، فكانت فاطمة تقول اذا رقصت طفلها :

وابأبى شبه النبى   لست شـبيها بعلى

وكانوا يتغايرون على هذا تغاير المحبين ، الذين يتنافسون على حب لايمنع بعضهم بعضا أن يتنافسوا عليه

***

حياة سعيدة مع الشظف والفاقة : سعيدة بالعطف فى قلوب كبار ، ما كان حطام الدنيا عندها ليساوى مثقال ذرة من هباء

ولم تخل هذه الحياة ، وما خلت حياة آدمى قط ، من ساعات خلاف وساعات شكاية ، فربما شكت فاطمة وربما شكا على ، وربما أخذت فاطمة على قرينها بعض الشدة وما هى بشدة ، فما كان رجل مثل على ليعنف على بنت رسول الله وهو يعلم مكانها من قلب رسول الله . انما ر اعتزاز فاطمة بنفسها واباؤها أن تهمل حيث كانت ، وانما هو الحنان الذى تعودته من أبيها فلا تستريح الى ما دونه ، وكل حنان بعد حنان ذلك القلب الكبير فكأنه قسوة أو قريب من القسوة عنـد من يتفقده فلا يجد نظيره فى قلب انسان ..

وكان الأب الأكبر يتولى صلحهما فى كل خلاف ، وربما ترك مجلسه بين الصحابة ليدخل الى الأخوين المتخاصمين فيرفع ما بينهما من جفاء.. والصحابة الذين يتتبعون فى وجه النبى كل خالجة من خوالج نفسه ، ويبيحون أنفسهم أن يسألوه لأنه لايملك من ضميره ما يضن به على المتعلم والمتبصر ، يجرون معه على عادتهم كلما دخل البيت مهموما وخرج منه منطلق الأسارير ، فيسألونه فيجيب : « ولم لا وقد أصلحت بين أحب

الناس الىّ ! » ..

ومرة من هـذه المرات ، بلغ العتـاب غاية ما يبلغه من خصومة بين زوجين ، ونمى الى فاطمة أن عليا يهم بالزواج من بنت هشام بن المغيرة ، فذهبت الى أبيها باكية تقول : « يزعمون انك لا تغضب لبناتك ؟ »

كلمة تعلم وقعها فى نفس أبيها الذى ما زعمت هى قط انه يرضى بما يغضبها ، وقد عرف أبوها ما تعنى . لأن بنى هشام بن المغيرة استأذنوه فى تزويج بنتهم من زوج فاطمة ، فصعد المنبر والغضب باد عليه ، وقال على ملأ من الحاضرين : « ألا ان بنى هشام بن المغيرة استأذنونى فى أن ينكحوا ابنتهم عليا ، ألا وانى لا آذن .. ثم لا آذن .. ثم لا آذن .. انما فاطمة بضعة منى يريبنى ما رابها .. »

***

ولا نعلم نحن من شرح هذه الخطبة غير ما جاء فى رواياتها المختلفة ، ولكننا نعلم أن هذه الفتاة أسلمت وبايعت النبى وحفظت عنه ، فلعلها قد خيف عليها الفتنة أن تتزوج بغير كفء من المسلمين ، وأهلها هم من هم فى المكانة والحسب لايرضيهم من هو دون ابن أبى طالب من ذوى قرابتها ، أو لعلها غضبة من غضبات علىّ على آنفة من آنفات فاطمة ، أو لعلها نازعة من نوازع النفس البشرية لم يكن فى الدين ما يأباها ، وان أباها العرف فى حالة المودة والصفاء

ولا نحسب أن حياة الزهراء والامام تعرضت لخلاف غير الذى أشرنا اليه ، فان كتب السيرة تستقصى كل جليل ودقيق من الحديث عن ذرية النبى .. وهى وأبناؤها كل ذرية النبى الذين عاشوا بعده ، ولم يطل بها العمر فلحقت بالنبى صـلوات الله عليه بعد وفاته ببضعه أشهر ، وكان على قد عاهد نفسه لايغضبها وقد غابت عنها عين أبيها ، فلم يغضبها بعد ذلك حتى فى أمر الخلافة ، وهو يومئذ أجل الأمور

بلاغتها

قال الامام أبو الفضل أحمد بن طاهر فى كتاب « بلاغات النساء » :

« ... لما أجمع أبو بكر رضى الله عنه على منع فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فدك ، وبلغ ذلك فاطمة لاثت خمارها على رأسها وأقبلت فى لمة من حفدتها تطأ ذيولها ما تخرم من مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا حتى دخلت على أبى بكر وهو فى حشد من المهاجرين والأنصار فنيطت دونها ملاءة ثم أنّت أنة أجهش القوم لها بالبكاء وارتج المجلس فأمهلت حتى سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم فافتتحت الكلام بحمد الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاد القوم فى بكائهم فلما أمسكوا عادت فى كلامها فقالت :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فان تعزوه تجدوه أبى دون نسائكم ، وأخا ابن عمى دون رجالكم فبلغ النذارة صادعا بالرسالة ، مائلا على مدرجة المشركين ، ضاربا لثبجهم (١) آخذا بكظمهم ، يهشم الأصنام وينكث الهام ، حتى هزم الجمع وولوا الدبر وتفرّى الليل عن صبحه وأسفر الحق عن محضه ، ونطق زعيم الدين وخرست شقاشق الشياطين ، وكنتم على شفا حفرة من النار مذقة الشارب ونهزة الطامع وقبسة العجلان وموطىء الأقدام تشربون الطرق (٢) وتقتاتون القد أذلة خاشعين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله برسوله صلى الله عليه وسلم بعد اللتيا والتى وبعد ما منى ببهم الرجال وذؤبان العرب ومردة أهل الكتاب كلما حشوا نارا للحرب أطفأها ونجم قرن للضلال وفغرت فاغرة

---

(١) الثبج (بسكون الجيم وتحريكها) الطريق الوعر (يمانية)

(٢) الطريق : الماء المطروق .

من المشركين قذف بأخيه فى لهواتها فلا ينكفىء حتى يطأ صماخها بأخمصه ويخمد لهيبها بسيفه مكدودا فى ذات الله قريبا من رسول الله ، سيدا فى أولياء الله ، وأنتم فى بلهنية وادعون آمنون ، حتى اذا اختار الله لنبيه فى دار أنبيائه ظهرت خلة النفاق وسمل جلبـاب الدين ونطق كاظم الغـاوين ونبغ خامل الآقلين وهـدر فنيق (١) المبطلين فخطر فى عرصاتكم وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه ، صـارخا بكم ، فوجدكم لدعائه مستجيبين وللغرة فيه ملاحظين فاستنهضـكم فوجدكم خفـافا وأحمشكم فألفاكم غضـابا ، فوسمتم غير أبلـكم ، وأوردتموها غير شربكم ، هذا والعهد قريب والكلم رحيب والجرح لما يندمل ... »

***

الى أن قالت . « وأنتم الآن تزعمون ان لا ارث لنا أفحكم الجاهلية تبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون . أيها المسلمة المهاجرة أأبتز ارث أبى ؟ أفى الكتاب أن ترث أباك ولا أرث أبى ؟ لقد جئت شيئا فريا ، فدونكما مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك ، فنعم الحكم الله والزعيم محمد والموعد القيامة وعند الساعة يخسر المبطلون ، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون »

ثم انحرفت الى قبر النبى صلى الله عليه وسلم وهى تقول :

قـد كان بعـدك أنبـاء وهنبثـة
لو كنت شـاهدهم لم تكثر الخطب
انا فقـدناك فقـد الأرض وابلهـا
واختل قومك فاشهدهم ولا تغب »

هـذه رواية لخطاب الزهراء ، وفى الكتاب نفسه رواية أخرى مخالفة فى لفظها ومعناها للرواية السابقة ، وقبل ايراد الروايتين قال أبوالفضل : « ذكرت لأبى الحسين زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب صلوات الله عليهم كلام فاطمة عليها السلام وقلت له ان هؤلاء ــ يشير

(١) الجمل القوى

الى قوم فى زمانه يغضون من قدر آل البيت ـ يزعمون انه مصنوع وانه من كلام أبى العيناء فقال لى : رأيت مشايخ آل أبى طالب يروونه عن آبائهم ويعلمونه أبناءهم وقد حدثنيه أبى عن جدى يبلغ به فاطمة عليها السلام على هذه الحكاية ورواه مشايخ الشيعة وتدارسوه بينهم قبل أن يولد جد أبى العيناء ، وقد حدث به الحسن بن علوان عن عطية العوفى انه سمع عبد الله بن الحسن يذكره عن أبيه . ثم قال أبو الحسن : وكيف يذكر هذا من كلام فاطمة فينكرونه وهم يروون من كلام عائشة عند موت أبيها ما هو أعجب من كلام فاطمة يتحققونه لولا عداوتهم لنا أهل البيت ؟ » ..

***

ونسبت الى السيدة فاطمة أبيات من الشعر قالتها بعد موت أبيها صلوات الله عليه ، وانها بعد دفنه اقبلت على أنس بن مالك فقالت : « يا أنس ! .. كيف طابت أنفسكم أن تحثوا[1] على رسول الله التراب ؟ » ثم بكت ورثته قائلة :

اغبر آفاق السماء وكورت[2]
شمس النهار وأظلم العصران
فالأرض من بعد النبى كئيبة
أسفا عليه كثيرة الرجفان
فليبكه شرق البلاد وغربها
ولتبكه مضر وكل يمان
وليبكه الطود المعظم جوده
والبيت ذو الأستار والأركان
يا خاتم الرسل المبارك ضوءه
صلى عليك منزل القرآن

ووقفت على قبر النبى وأخذت قبضة من تراب القبر فوضعتها على عينها وبكت وأنشأت تقول :

---

(١) تحثوا : حثا التراب عليه وفي وجهه قبضه ورماه به . (٢) كورت : كور فلانا طعنه فالقاه مجتمعا . والمتاع جمعه وألقاه بعضه فوق بعض وشده .

ماذا على من شم تربة أحمــد
أن لا يشم مدى الزمان غواليا[١]
صبت على مصائب لو أنها
صبت على الأيام صرن لياليا

وقالت على قبره أيضا :

انا فقدناك فقد الأرض وابلها
وغاب مذغبت‌عنا الوحى والكتب
فليت قبلك كان الموت صادفنا
لما نعيت وحالت دونك الكثب[٢]

ومضى آنفا انها تمثلت بعد خطابها عن فدك ببيتين من البحر والقافية مع تكرار شطر منهما وهما :

قد كان بعدك أنباء وهنبثة
لوكنت شاهدهم لم تكثر الخطب
انا فقــدناك فقد الأرض وابلها
واختل‌قومك فاشهدهم ولا تغب

وفيهما كما يرى القارىء أقواء ، لأن الباء مضمومة فى روى البيت الأول مكسورة فى روى البيت الثانى ، ولعل شطرا منهما حل محــل شطر فى نقل الرواية ..

***

نقول : ان الخلاف فى أمر هذه الخطب وهذا الشعر كثير ، ولا نحب أن نخوض فيه لأنه خلاف على غير طائل ، وقد يحسمه أن نذكر فى هذا الباب ما يقل فيه الخلاف بين جميع النقاد ، فانه أجدى من اللغو فى جدال لا سند له ، يسلمه جميع المخالفين

فيقل الخلاف ولاشك حين نذكر ان ذلك الخطاب ليس مما يبدر من اللسان عفو الخاطر ، وان قائله يعده فى نفسه قبل القائه كما كان يصنع الخطباء قبل استخدام الكتابة فى التحضير

---

(١) غواليا : الغوالي جمع غالية وهي طيب مركب من اخلاط تغلى على النار . (٢) الكثب : جمع كثيب وهو التل من الرمل .

ويقل الخلاف ولاشك حين نذكر أن سامع هذا الخطاب لايستظهره عند سماعه ، فان حفظه فانما يحفظه منقولا أو مكتوبا بعد حفظه

فاذا قل الخلاف فى هذا فعلام اذن يكثر الخلاف ؟

أتراه يكثر حين يقال ان السيدة فاطمة تحسن هذه البلاغة وتستطيعها حين تحتفل لها وتعدها فى خلدها ؟

ان هـذا النصيب من البلاغة لاذا استكثر على السيدة فاطمة فما من أحد فى عصرها لايستكثر عليه

لقد نشأت وهى تسمع كلام أبيها أبلغ البلغاء ، وانتقلت الى بيت زوجها فعاشت سنين تسمع الكلام من امام متفق على بلاغته بين محبيه وشانئيه ، وسمعت القرآن يرتل فى الصلوات وفى سائر الأوقات ، وتحدث الناس فى زمانها بمشابهتها لأبيها فى مشيتها وحديثها وكلامها ، ومنهم من لا يحابيها ولا ينطق فى أمرها عن الهوى

***

جاء فى الجزء الثالث من العقد الفريد عن « الرياشى عن عثمان بن عمرو عن اسرائيل بن ميسرة بن حبيب ، عن المنهال بن عمرو ، عن عائشة بنت طلحة ، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : « ما رأيت أحدا من خلق الله أشبه حديثا وكلاما برسول الله صلى الله عليه وسلم من فاطمة ، وكانت اذا دخلت عليه أخذ بيدها فقبلها ورحب بها وأجلسها فى مجلسه ، وكان اذا دخل عليها قامت اليه ورحبت به وأخذت بيده فقبلتها ، فدخلت عليه فى مرضه الذى توفى فيه ، فأسر اليها فبكت ، ثم أسر اليها فضحكت ، فقلت : كنت أحسب لهذه المرأة فضلا على النساء فاذا هى واحدة منهن ، بينما هى تبكى اذا هى تضحك . فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم سألتها فقالت : أسر الىّ فأخبرنى أنه ميت فبكيت ثم أسر الىّ انى أول أهل بيته لحوقا به فضحكت »

وما قالته السيدة عائشة عن المشابهة بين الزهراء وأبيها قيل على ألسنة الثقات جميعا ، ويزاد عليه فى حديث السيدة عائشة ان امرأة فى فضلها

واعتزازها بنفسها كانت ترى للزهراء فضلا على سائر النساء فى حلمها ورصانتها . ففيم يكثر الخلاف على مثل ذلك النصيب من البلاغة اذا نسب اليها ؟ ولماذا تستعظم البلاغة على من نشأت سامعة لحديث محمد مطبوعة على مشابهته فى حديثه ؟ ولماذا تستعظم على زوجة الامام الذى كان المتفقون على بلاغته أكثر من المتفقين على شجاعته ، وهى مضرب الأمثال ؟ ولماذا تستعظم على سامعة القرآن الكريم بالليل والنهار مع الذكاء واللب الراجح ؟

***

أما نسبة الشعر الى الزهراء فالخطب فيه أهون من ذلك فهو لايسلكها فى الشاعرات ان ثبت ، ولا يضيرها ان لم يثبت ، ونحن الى جانب الشك الكبير فيه أقرب منا الى جانب القبول ، وليس بعيدا على غير الشاعر أو الشاعرة أن يدير فى فمه أبياتا يحكى بها حزنه وبثه ، فان النظم هنا أقرب الى لغة العاطفة وعادة النحيب ، ولكن السيدة فاطمة كان لها من الاعتبار بآيات من القرآن فى مقام الموت غنى عن نظم الأبيات أو التمثل بها فى مقام العبرة والرثاء

في الحياة العامة

مضت السنون والسيدة فاطمة على دأبها الذى عهدناه عاكفة على بيتها ، تزيدها عكوفا عليه تربية الأبناء وخدمة البيت التى تنفرد بها ولا تجد معينا عليها فى كثير من الأيام غير زوجها

ثم توفى النبى صلوات الله عليه ، فأقامتها الحوادث فجأة على غير مرادها فى معترك الحياة العامة أو الحياة السياسية كما نسميها فى أيامنا ، ولم يكن لها منصرف عن ذلك المعترك فى تلك الآونة ، لأن الخلاف فيها كان خلافا على ميراث أبيها ، ميراث الخلافة ، وميراث التركة القليلة التى أعقبها

ومسألة الخلافة فى يوم وفاة النبى احدى المسائل التى طال فيها الجدل ولا يعسر على المنصفين أن يخرجوا من ذلك الجدل الطويل على رأى متفق عليه ، وذاك ان الخطر الأكبر فى ذلك اليوم انما كان من فتنة السقيفة : سقيفة بنى ساعدة ، حيث اجتمعت قبائل الخزرج بزعامة شيخها سعد بن عبادة ، تطلب الامارة ، ثم نصح لهم عويم بن ساعدة باختيار أبى بكر للخلافة فأعرضوا عنه ونبذوه ، ثم خطر لذى رأى منهم أن يقسمها شطرين : أمير من الأنصار وأمير من المهاجرين ، وما برح سعد بن عبادة على جلالة شأنه فى قومه نافرا من البيعة لأبى بكر بعد انعقادها وهو يأبى الا أن « يستبد الأنصار بهذا الأمر دون الناس فانه لهم دون الناس» ... ثم أصر على إبائه حين انفض جمع السقيفة وجاءه الرسل يدعونه للمبايعة فعاوده الغضب وقال لهم : « أما والله حتى أرميكم بما فى كنانتى من نبل وأخضب سنان رمحى » وناشدوه أن لايشق عصا الجماعة فعاد يقول : « انى ضاربكم بسيفى ما ملكته يدى ، مقاتلكم بولدى وأهل بيتى ومن أطاعنى من قومى .. وأيم الله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الانس ما

بايعتكم حتى أعرض على ربى »

ثم كان ثمة خطر لا يقل عن هذا الخطر فى حاضره ولا فى مغبته لو لم يعجل له العاملون بما يقطع دابره[١] وهو خطر الفتنة التى راح أبوسفيان يحضأ[٢] نارها بين على والعباس وبين بنى هاشم وسائر بطون قريش ، يمنه قوما بنصرة بنى أمية ونصرة قريش من ورائها ، ويوسوس لقوم آخرين بمثل هذا الوعد أو بمثل هذا الوعيد ، وما كان من همه أن ينصف بنى هاشم ولا أن يؤيد الأنصار ، وانما أراد الوقيعة التى يخذلهم بها جميعا ويخرج منها بالسيادة الأولى التى كانت له على قريش فى الجاهلية

وما من شك فى خطر هــذه الفتنة من أبى سفيان ولا فى خطر تلك الفتنة من سقيفة بنى ساعدة ، فانحسمت الفتنة بانعقاد البيعة لأبى بكر، ولم يطلبها ، بل كان مشتغلا بدفن الرسول ودعى الى السقيفة مرتين وهو لا يعلم فيم يدعى ويعتذر باشتغاله ويغضب لدعوته ، حتى هم عمر بمبايعة أبى عبيدة بن الجراح قبل أن ينشعب الجمع فى السقيفة بين الخزرج والأوس والأنصار والمهاجرين ، وقبــل أن تتجمع المسعاة من أبى سفيان فى خفائها ، وقد كاد أن يعلنها

***

وكان على فى تلك الساعة العصيبة الى جوار الجثمان الطاهر المسجى فى حجرته ، فدخل عليه أبو سفيان قائلا : « يا أبا الحسن ! هــذا محمد قد مضى الى ربه ، وهذا تراثه لم يخرج عنكم ، فابسط يدك أبايعك ! »

ويقول عمه العباس : « يا ابن أخى .. هــذا شيخ قريش قد أقبل ، فامدد يدك أبايعك ويبايعك معى . فانا ان بايعناك لم يختلف عليك أحد من بنى عبد مناف ، واذا بايعك عبد مناف لم يختلف عليك قرشى ، واذا بايعتك قريش لم يختلف عليك بعدها أحد من العرب » ..

فيجيبه على : « لا والله ياعم !.. انى لأكره أن أبايع من وراء رتاج ».. ولقد كان أحكم فى جوابه هذا من شيخ الدهاة من بنى هاشم وشيخ

---

(١) يقطع دابره : الدابر آخر كل شيء ، يقال قطع الله دابرهم أي آخر ما تبقى منهم . (٢) يحضأ : حضأ النار أرثها وأشعلها .

الدهاة من بنى أمية ، فما للخلافة ممدى عنه ان كانت ولاية عهد يعلمها جميع المسلمين ، وما للبيعة هناك جدوى ان تمت وراء رتاج وانشقت بعدها عصا المبايعين والمعارضين

ولقد تمت البيعة على الوجه الذى عرفه التاريخ ، فان يكن هناك جدال فلا جدال بين المنصفين فى فضل الأئمة الذين أدركوا الفتنة قبل مسراها من السقيفة ومسعاها من دار أبى سفيان ، ولا جدال بين المنصفين فيما ابتغوه من خير وحكمة ، فما ابتغى أبو بكر ولا عمر ولا أبو عبيدة نفعا لأنفسهم وما قصروا بعد يوم البيعة فى نصرة دينهم ، وما كان فى وسع أحد أن يبلى أجمل من بلائهم فى دفع الغائلة عن الاسلام من فتنة الردة ومن غارة الفرس والروم ، ولا أن يفتح للاسلام فى العراق والشام وفارس ومصر فتحا أعظم وأقرب مما فتحوه

***

وآمن على بحقه فى الخلافة ، ولكنه أراده حقا يطلبه الناس ولا يسبقهم الى طلبه ، ولم تمنعه البيعة لغيره أن يمينه بالرأى والسيف ويصدق العون لأبى بكر وعمر كأنه يعمل فى عون رسول الله وهو بقيد الحياة

وقد اختلف الصديق والفاروق والامام يوما أو أياما بعد وفاة النبى عليه السلام ، فمن شاء فليأخذ بحجة هذا ومن شاء فليأخذ بحجة ذاك ، ولكن الحجة الناهضة لهم جميعا انهم لم يكدحوا لأنفسهم ولا لذويهم ، ولم يقفوا دون الغاية فى خدمة دينهم ، ولم يحى أحد منهم حياة تريب فى صدقه وصدق طويته وحسن بلائه ، وما مات أحد منهم وله من الدنيا نصيب يأسى عليه ..

وكانت السيدة فاطمة ترى حق على فى الخلافة ، أو ترى أن قرابة النبى أحق المسلمين بخلافته ، وأن بلاء على فى الجهاد وعلمه المشهود به يؤهلانه لمقام الخلافة ، وكان هذا رأى طائفة من الصحابة الصالحين أدهشهم أن يجرى الأمر على غير هذا المجرى فاجتمعوا عندها واجتمعوا فى غير بيتها يتشاورون فيما بينهم ، أيبايعون أم يتخلفون ، ولم نطلع على

رواية واحدة ذات سند يعول عليه ترمي أحدهم بشق عصا الجماعة أو بالسعي في تأليب الناس على نقض البيعة ، وبعد مساجلات بينهم وبين أبي بكر وعمر سفرت الفتنة عن مقصدها وتكشفت الدسيسة التي بيتها أبو سفيان ، فقد عاد أبو سفيان يعرض مبايعته على علي وتحفز للوقيعة فصده علي وعرض له بذكر الغشغشة والمخادعين ، ثم قال له : « انك تريد أمرا لسنا من أصحابه » ، فلما يئس من هذا الباب طرق بابا آخر لعله يلج منه الى مأربه ، وذهب الى العباس يقول له : « امدد يدك يا أبا الفضل أبايعك فلا يختلف عليك القوم » ... ثم يقول : « انك والله لأحق بميراث ابن أخيك » فيرده العباس كما رده علي ، ويكاد الخلاف ينتهي عند هذا وينطوي بانطواء الكلام في مسألة الخلافة ، لولا مسألة « فدك » أو مسألة الميراث التي اختلف فيها سند أبي بكر وسند فاطمة مرة أخرى ، وأوشك أبو بكر أن يستقيل المسلمين من بيعتهم ، مخافة السخط من بنت رسول الله ..

***

وخلاصة الحديث في أمر « فدك » انها قرية كان النبي يقسم فيئها بين آل بيته وفقراء المسلمين ، فلما قضى عليه السلام أرسلت فاطمة الى أبي بكر تسأله ميراثها فيها وفيما بقي من خمس خيبر ! .. فقال أبو بكر: « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : انا معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة .. واني والله لا أغير شيئا من صدقة رسول الله عن حالها التي كان عليها » ويقال ان الزهراء احتجت عليه بقوله تعالى عن نبي من أنبيائه ـ زكريا ـ « يرثني ويرث من آل يعقوب » وقوله تعالى : « وورث سليمان داود » .. وان أبا بكر قال لها : « يا بنت رسول الله ! أنت عين الحجة ومنطق الرسالة لا يدلى بجوابك ولا أدفعك عن صوابك ، ولكن هذا أبو الحسن بيني وبينك هو الذي أخبرني بما تفقدت ، وأنبأني بما أخذت وتركت »

وجاء في شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة « ان أبا بكر قال :

يا ابنة رسول الله ! والله ما ورث أبوك دينارا ولا درهما وانه قال : ان الأنبياء لايورثون . فقالت : ان فدك وهبها لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فمن يشهد بذلك ؟ فجاء على بن أبي طالب فشهد وجاءت أم أيمن فشهدت أيضا ، فجاء عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف فشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقسمها . فقال أبو بكر: صدقت يا ابنة رسول الله ، وصدق على ، وصدقت أم أيمن ، وصدق عمر ، وصدق عبد الرحمن بن عوف ، وذلك ان مالك لأبيك ، كان رسول الله يأخذ من فدك قوتكم ويقسم الباقي ويحمل منه في سبيل الله ، فما تصنعين بها ؟ قالت : أصنع بها كما يصنع بها أبي ! قال : فلك على الله أن أصنع كما يصنع فيها أبوك ، قالت : الله لتفعلن ؟ قال : الله لأفعلن . قالت : اللهم اشهد .. وكان أبو بكر يأخذ غلتها فيدفع اليهم منها ما يكفيهم ويقسم الباقي ، وكان عمر كذلك ، ثم كان عثمان كذلك ، ثم كان على كذلك »

***

وفي خلال الخلاف على هذه القضية قال عمر لأبي بكر : « انطلق بنا الى فاطمة فانا قد أغضبناها » . فانطلقا فاستأذنا عليها فلم تأذن لهما ، فأتيا عليا فكلماه ، فأدخلهما . فلما قعدا عندها حولت وجهها الى الحائط فسلما عليها فلم ترد عليهما السلام ، فتكلم أبو بكر فقال « ياحبيبة رسول الله ، والله ان قرابة رسول الله أحب الي من قرابتي ، وانك لأحب الي من عائشة ابنتي ، ولوددت يوم مات أبوك اني مت ولا أبقى بعده ، أفتراني أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله ؟ الا اني سمعت أباك رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا نورث . ما تركنا فهو صدقة » . فقالت : « أرأيتكما ان حدثتكما حديثا عن رسول الله تعرفانه وتفعلان به ؟ » قالا : « نعم » . فقالت : « نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول : رضاء فاطمة من رضائي وسخطها من سخطي ؟ » قالا : « نعم سمعناه من رسول الله » . قالت : « فاني أشهد الله وملائكته انكما أسخطتماني وما رضيتماني ،

ولئن لقيت النبى لأشكونكما اليه » . فقال أبو بكر: « أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يافاطمة» ، ثم انتحب وبكى حتى كادت نفسه تزهق... ثم خرج فاجتمع اليه الناس فقال لهم : « يبيت كل رجل منكم معانقا حليلته مسرورا بأهله وتركتمونى وماأنا فيه؟ لاحاجة لى فى بيعتكم.أقيلونى بيعتى»

***

والحديث فى مسألة فدك هو كذلك من الأحاديث التى لا تنتهى إلى مقطع للقول متفق عليه . غير أن الصدق فيه لا مراء ان الزهراء أجل من أن تطلب ما ليس لها بحق ، وان الصديق أجل من أن يسلبها حقها الذى تقوم البينة عليه ، ومن أسخف ما قيل انه انما منعها فدك مخافة أن ينفق على من غلتها على الدعوة اليه ، فقد ولى الخلافة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ولم يسمع أن أحدا بايعهم لمال أخذه منهم ، ولم يرد ذكر شىء من هذا فى اشاعة ولا فى خبر يقين ، وما نعلم من تزكية لذمة الحاكم فى عهد الخليفة الأول أوضح بينة من حكمه فى مسألة فدك ، فقد كان يكسب برضى فاطمة ويرضى الصحابة برضاها ، وما أخذ من فدك شيئا لنفسه فيما ادعاه عليه مدع ، وانما هو الحرج فى ذمة الحكم بلغ أقصاه بهذه القضية بين هؤلاء الخصوم الصادقين المصدقين ، رضوان الله عليهم أجمعين

***

ولعلنا نجمل ما وقر فى أذهان المسلمين الثقات من أمر فدك بكلمة قالها عدل من أعظم العدول بعد ثمانين سنة أو نحوها ، بعيدا من الخصومة ، بعيدا من زمانها ، بعيدا من الشبهة فيها ، لأنه قال كلمته وفدك فى يديه ينزل عنها باختياره ، لايدعوه الى ذلك داع غير وحى ضميره

ذلك هو عمر بن عبد العزيز القائل فى مستهل عهده بالخلافة : « ان فدك كانت مما أفاء الله على رسوله ولم يوجف[1] المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فسألته فاطمة اياها فقال : ما كان لك أن تسألينى وما كان لى أن أعطيك ، فكان يضع ما يأتيه منها فى أبناء السبيل ، ثم ولى أبو بكر وعمر وعثمان وعلى فوضعوا ذلك بحيث وضعه رسول الله ،

---

(١) يوجف : أوجف الفارس فرسه حثه لكي يجد في السير

ثم ولى معاوية فأقطعها مروان بن الحكم ، فوهبها مروان لأبى ولعبد الملك ، فصارت لى وللوليد وسليمان ، فلما ولى الوليد سألته حصته منها فوهبها لى ؛ وسألت سليمان حصته منها فوهبها لى ، فاستجمعتها ، وما كان لى من مال أحب الىّ منها ، فاشهدوا انى قد رددتها الى ما كانت عليه »

***

فى هاتين المسألتين نرى السيدة فاطمة على غير مألوفها من العكوف على شؤون بنيها والإبتعاد من الحياة العامة ، لأن كلتا المسألتين تدور حول حقها ووشيجة قرباها[1] ، وهما مسألة الخلافة بعد النبى ومسألة الميراث من فيئه ، واحداهما مما نسميه فى لغة عصرنا بالسياسة العليا ، والأخرى مما نسميه بسياسة الحكومة المالية أو الإقتصادية ، ولكل منهما جوانب متفرعة يعالجها مؤرخ الحوادث والسياسات من نحوها . أما فى الدراسات النفسية فالمهم فيهما وفى غيرهما هو ما تترجمان عنه من خلائق صاحبة السيرة ، وما تترجمان عنه حين نوجزه هو قوة ايمان بحقها تثبت عليه و « شخصية » مستقلة لا يهمل لها حساب

---

(١) وشيجة : الوشيجة : عرق الشجرة وما التف من الاشجار ونحوها . يقال : بينهم وشائج النسب .

دفاتها

قلنا فى « عبقرية محمد » :

« حفظ النوع سر من أسرار الحيـاة الكبرى التى دقت عن الفهم وحارت فى تعليلها عقول الأساطين من أهل العلم والحكمة ، وهو لاريب يجرى على قانون مطرد فى جميع طبقات الأحياء ، وان كنا لا نعلم كنهه ولا نسبر عمقه ولا نزيد على استقصاء بعض المـلاحظات التى تقارب الحقيقة ، أو هى أقرب ما نستطيع الوصول اليه .

« وأهم هـذه الملاحظات التقريبيـة انه يجرى على سـنة المكافأة والتعويض فى معظم حالاته ، فيقابل النقص فى جانب بالزيادة فى جانب آخر ، ويقابل القصور فى مزية من المزايا بالاتقان فى مزية أخرى ..

***

« فالأحياء السفلى عرضة للعطب الكثير فى طور الولادة والحضانة ، فيقابل هذا ان الأحياء السفلى ترسل ذرياتها بالالوف وألوف الألوف ، فيبقى منها القليل الكافى لدوام النوع بعد فناء الكثير

« والأحياء العليا يقل عدد المولود منها فى البطن الواحد ، فيقابل هذا أن تطول حضانتها والعناية بها ، وتجد من وسـائل الصيانة ما يعوض الكثرة فى الأحياء السفلى

« ويغلب أن يزيد النسل حين تكون زيادة النسل هى الوسيلة الوحيدة التى يستطيعها الفرد لخدمة نوعه وضـمان دوامه ، فاذا تيسرت للفرد وسائل مختلفة لخدمة نوعه فقد يجوز ذلك على نسله وينتقص من قسمة فى أبنائه ، كأنما خدمة النوع ضريبة مفروضة على كل فرد فى صورة من الصور ، فاذا أداها فى صورة أعفى منها فى الصور الأخرى ، أو كأنما

هي مواهب وأرزاق لا يستوفيهـا الفرد الواحد الا بثمن غال يحسب عليه ، ويؤدى حسابه للنوع على نحو من الأنحاء

« والانسان هو أقدر المخلوقات الحية على خدمه نوعه بوسائل كثيرة لا تنحصر فى تجديد النسل وزيادة عدده

« فهل يجوز لنا أن نقول ان العظماء الذين حرموا النسل قد أدوا ضريبتهم باصلاح شؤون الناس فلم يبق من اللازم المفروض عليهم أن يؤدوا هذه الضريبة من طريق الذرية ؟

***

« ان قلنا ذلك فانما نقوله على سبيل الملاحظة التقريبية التى أشرنا اليها ، ولا نبلغ بتلك الملاحظة فوق مبلغها من اليقين الذى تستحقه ، فغاية مبلغها عندنا انها تستوقف النظر للتـأمل والمراجعة ولا تفضى بنا الى الجزم أو الى التغليب ..

« فبعض العظماء من أكبر خدام النوع لم يتزوجوا ، وفيهم أنبياء معظمون لا شك فى سيرتهم من هذه الناحية ، كعيسى عليه السلام

« وبعض العظماء الذين تزوجوا لم يرزقوا الذرية ، أو رزقوا ذرية كلها أناث ، أو رزقوا ذرية من الأناث والذكور ولم يعيشوا ، أو عاشوا ـم يعمروا ولا كانوا على حالة مستحبّة من الصحة والنجابة ..

« وتواريخ العظماء فى جميع نواحى العظمة ، وفى جميع الأمم ، وفى جميع العصور ، حافلة بالشواهد التى تعزز تلك الملاحظة وتجعلها خليقة بالتأمل والمراجعة ، يدخل فيهم القديسون كما يدخل فيهم الحكماء ، ويدخل فيهم العلماء كما يدخل فيهم رجال الفنون والمخترعون ويدخل فيهم القادة العسكريون .. ولا يصعب على أحد أن يدير بصره الى فترة من الزمن فى بلد قريب يعرفه حق المعرفة ليشاهد مصداق ذلك فى نفر من عظمائه ومشهوريه ، وحسبنا فى مصر أسماء جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وسعد زغلول وعبد الله نديم ومصطفى كامل ومصطفى فهمى ومحمود سامى البارودى وحافظ ابراهيم

« فاذا جاز لنا أن نقف عند الملاحظة وأن نتأمل مغزاها ، وجاز لنا أن نفهم ان اصلاح شؤون النوع الانسانى ضريبة تغنى عن ضريبة الذرية فى بعض الأحوال ، فأين ترانا نجد تلك الضريبة فى أرفع حالة وأغلى قيمة ان لم نجدها فى رسالة نبوية تتناول الأجيال وتتناول الملايين فى كل جيـــل ؟ وأى أبوة روحانية تغنى عن أبوة اللحم والدم كما تغني أبوة النبى الذى يتكفل بتربية الأرواح فى أمته ، وفى أمم لا يلقاها فى زمانه ، وأمم لا تزال تستجد بعد زمانه الى أقصى الزمان ؟

« نذكر هـــذا حين نذكر حظ محمد من الأبوة الروحية ومن الأبوة النوعية ، ونرى تكافؤا فى الجانبين جديرا بالملاحظة والاعتبار »

***

نعم ونذكر هذا حين نذكر وفاة الزهراء فى زهرة الشباب ، فى الثلاثين أو ما دون الثلاثين ..

مات الذكور من ذرية محمد صغارا لم يجاوزوا سن الرضاع ، وعاش الأناث من ذريته ولم يرزقن طول العمر ، ومنهن من لم ترزق قوة البنية فى عنفوان الشباب ..

وكانت الزهراء نحيلة ســمراء ، يمازج لونها شحوب فى كثير من الأوقات ، وقد رآها النبى عليه السلام فى مرض وفاته فقال لها انها أسرع أهله لحوقا به ، فلم تمض ستة أشهر ، وقيل أقل من ذلك ، حتى لحقت به فى تلك السن التى تستقبل فيها الحياة

وكانت تشكو حينا بعد حين ، ويعودها النبى يواسيها فى مرضها فاذا هو يواسيها كذلك فى حاجتها ، زارها يوما وهى مريضــة فقال لها : « كيف تجدينك يا بنية ؟ » فقالت : « انى لوجعة » . ثم قالت : « وانه ليزيدنى انى مالى طعام آكله .. » فاستعبر عليه السلام وقال : « يا بنية أما ترضين انك سيدة نساء العالمين ! » ..

وزارها يوما وهى تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الابل ، فبكى وقال : « تجرعى يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة »

ولم يكن صلوات الله عليه يضن على فاطمة بما يملك من الأنفال[1] ، فكان يخصها بالقسم الأوفى من حصته كلما فرق رزقا بين ذويه وزوجاته ، ولكنها كانت فاقة تعمهم جميعا حين لا يجد النبى ما يفرقه بينهم ، وقد شكا زوجاته تلك الفاقة فخيرهن بين التسريح لينعمن بالحياة الدنيا وزينتها ، أو يردن الله ورسوله فيصبرن على ما هو صابر عليه !

الله أكبر ! ..

***

مثل محمد يعلو على اشفاق المشفقين ، ومن كان فى قدرته أن ينعم من الدنيا بما يقطع قلوب الحاسدين حسدا ثم يرضى لنفسه وآله منزلة الاشفاق ، فذلك هو الاعظام غاية الاعظام ، وذلك هو المرتقى الذى قيل فيه :

وبعيد بلوغ هاتيك جدا
تلك عليا مراتب الأنبياء

ان محمدا يبكى لأنه يرى أحب الناس اليه وأقربهم منه جائعة مرهقة ، ثم لا يملك لها ما يشبعها ويغنيها من عنائها ، وهو يملك كل شىء فى الجزيرة العربية .. ويسأل السائلون من زعانفة المطلين والمتعصبين أعداء كل دين : « ما برهان النبوة عند محمد ! ؟ »

الله أكبر .. ان لم يكن هذا برهان النبوة فبرهان أى شىء يكون ؟

***

ولم يكن بالزهراء من سقم كامن يشرف من وصفه ، فان العرب لوصافون وان من كان حولها من آل بيتها لمن أقدر العرب على وصف الصحة والسقم ، فما وقفنا من كلامهم وهم يصفونها فى أحوال شكواها على شىء يشبه أعراض الأمراض التى تذهب بالناس فى مقتبل الشباب ، وكل ما يتبين من كلامهم انه الجهد والضعف والحزن ، وربما اجتمع اليها اعياء الولادة فى غير موعدها ، ان صح انها أسقطت « محسنا » بعد وفاة النبى كما جاء فى بعض الأخبار

---

(١) الانفال : النفل بفتحتين : الغنيمة والهبة .

ونعود فنقول انها ضريبة النبوة ، وكم للهداية من ضريبة تضاعف على الهداة مرات بعد مرات !

***

وحضرها الموت .. وخذلتها جوارحها ، وعزيمتها فى مواجهة الموت حاضرة لا تخذلها ، فتولت أمر غسلها وحملها على النعش بنفسها ، وقالت لصاحبتها أسماء بنت عميس بعد أن اغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل : « يا أمه ! ائتينى بثيابى الجدد » ، فلبستها ثم قالت : « قد اغتسلت ، فلا يكشفن لى أحد كنفا »[١] ، وشكت نحول جسمها فقالت لصاحبتها : « أتستطيعين أن توارينى بشيء ؟ » قالت : « انى رأيت الحبشة يعملون السرير للمرأة ويشدون النعش بقوائم السرير » فعمل لها نعشها قبل وفاتها ، ونظرت اليه فقالت : « سترتمونى ستركم الله..» وتبسمت ، ولم تر مبتسمة بعد وفاة ابيها الا ساعتها ...

***

وكانت وفاتها ، على القول الأشهر ، ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان سنة احدى عشرة للهجرة ، ودفنت ليلا حسب وصايتها كما دفن رسول الله ..

فى كل دين صورة للأنوثة الكاملة المقدسة يتخشع بتقديسها المؤمنون كأنما هى آية الله فيما خلق من ذكر وأنثى ..

فاذا تقدست فى المسيحية صورة مريم العذراء ، ففىالاسلام لاجرم تتقدس صورة فاطمة البتول

---

(١) كنفا : الكنف بفتحتين الجانب والناحية . وهو يعيش في كنف الامير أي في ظله . وكنف الله : حرزه وستره .

شخصية الزهراء

من الواضح البين أن الزهراء أخذت مكانها الرفيع بين أعلام النساء في التاريخ لأنها بنت نبي ، وزوجة امام ، وأم شهداء ..

ولكن لا يتضح هذا الوضوح ، ولا يبين هذا البيان ، انها تأخذ مكانها هذا «بحقها الشخصي» أو بصفاتها التي كان لها أثر في حوادث التاريخ

وهذا الذي نحب أن نقرره في الكتابة عن الزهراء ، فهي أصل قوي من أصول الدعوة التي ثبتت في مجرى الزمن أجيالا طوالا ولم تزل لها آثارها في عصرنا هذا ، وفيما يلي من العصور

لم يعرف التاريخ نظيرا لثبات بني علي وفاطمة على حقهم في الامامة ، أو في الخلافة ..

***

حوربوا فيها زمنا ، وتولاها من لاشك عندهم ولا عند الناس في فضلهم عليه ، كيزيد بن معاوية . فأنفوا أن يتركوها استخذاء وخضوعا ، وحاربوا فيها كما حوربوا ، وصمدوا للطلب الحثيث طالبين ومطلوبين مائة سنة ، ثم مائتين ، ثم ثلثمائة سنة ، حتى دانت لهم الخلافة باسمهم في عهد الدولة الفاطمية

لولا خصال فيهم تعين على هذا النضال لما ثبتوا عليه هذا الثبات ، ولا استطاعوا أن يصمدوا للعسف والعنت من بني أمية ثم من بني العباس ، ومعهم في المشرق والمغرب أعوان وأتباع ، وقد جدوا غاية الجد في نكالهم بأبناء علي وفاطمة في كل مكان ، وصنعوا بهم ما كان خليقا أن يستأصلهم استئصالا أو يرغمهم على اليأس والتسليم

ولكنهم نجوا من الاستئصال بقضاء لا حيلة فيه للحاكمين المسيطرين ،

وخطر لهم كل خاطر الا أن يستكينوا للرغم ويسلموا للسيف ، ويقعدوا مع الخالفين ..

لولا خصال فيهم لما كان هذا منهم

فاذا كان مرجع هذه الخصال الى وراثة ، ولا بد لها من نصيب من الوراثة ، فقد ورثوها عن فاطمة كما ورثوها عن على ، بل هي الى ميراثهم من الزهراء أقرب منها الى ميراثهم من الامام

بعض الأخبار يفيد ان صح ، وان لم يصح ، ومن هذه الأخبار خبر الرواة الذين قالوا ان عليا جامل فاطمة فلم يبايع أبا بكر الا بعد وفاتها

ان صح هذا الخبر أو لم يصح فدلالته صحيحة ، وهي اعتقاد الناس في ذلك العصر ان القضية قضية الزهراء وان الامام يجاملها فلا يغضبها ، وانه كان يرى أن الخلافة أحق بأن تطلبه معرفة بحقه ، فان لم تعرف له هذا الحق فما هو بالحريص على الشغل بها والتدبير لطلبها والسعي اليها ..

***

وفي غير هذا الخبر ما يدل هذه الدلالة ، وربما كان من تلك الأخبار ما يعبره المؤرخ ولا يلقي اليه بالا ، وهو في هذا الباب أدل من كثير ، كالخبر الذي روى عن الحسن عليه السلام وهو بعد طفل صغير ..

رووا أن الصديق رضى الله عنه قام على المنبر يخطب الناس ، فما هو الا أن حمد الله وأخذ في خطبته حتى سمع وسمع الحاضرون معه صوتا نحيلا يهتف به : « ليس هذا منبر أبيك ، انزل عن منبر أبي ... »

والتفتوا فاذا بالصائح هو الحسن بن علي ، ولما يبلغ الثامنة ، فابتسم الصديق وقال والحنو يشيع في نفسه : « ابن بنت رسول الله ؟ صدقت والله ... ما كان لأبي منبر ، وانه لمنبر أبيك » ..

وسمع علي بالخبر فأرسل الى أبي بكر رسولا يقول له : « اغفر ما كان من الغلام ، فانه حدث ، ولم نأمره »

قال أبو بكر . « اني أعلم . وما اتهمت أبا الحسن »

وليست الزهراء ولا ريب هي التى أمرت الغلام الصغير ان يقول هذا المقال .. ولكن الطفل يفهم عن أمه فى هـذه السن ما يغنيه عن الأمر والايحاء ، ولعل الحسن كان قد سمع نقاشا يتكرر بين أبويه فى هـذا الأمر ، فوقر فى نفسه أن يثور تلك الثورة الصغيرة ، ثم نهى عنها فلم يعاودها ..

***

فى خلائق السيدة فاطمة مدد صالح للثبات على الحق الذى يعتقـده صاحبه ، أو يذاد عنه فلا ينكص عنه على رغم

كانت شديدة الاعتزاز بانتسابها الى أبيها ، وكانت مفطورة على يقين التدين ، وكانت ذات ارادة لا تهمل فى حساب شأن من شؤونها ، فظهر منها فى المواقف القليلة التى نقلت عنها أنها كانت ذات ارادة لا تنسى فى الحساب ..

كان من اعتزازها بالانتساب الى أبيها أنها كانت تسر بمشابهة أبنائها لأبيها ، وكانت تذكر ذلك حين تدللهم وتلاعبهم ، فلم يكن أحب اليها من أن يقال لها ان أسباط رسول الله يشبهون رسول الله ..

وكانت فطرة التدين فيها وراثة من أبوين : كان حسبها ما ورثته من خاتم الأنبياء وما تعلمته منه بالتربية والمجاورة ، ولكنها أضافت اليه ما ورثته من أمها ، أمها بنت خويلد الذى تصـدى لاهل اليمن غيرة منه على الكعبة ، وابنة عم ورقة بن نوفل الذى شغل بالدين فى الجاهليـة حتى فرغ له حياته ، غير مدعو ولا مأمور

***

ومن فطرة التدين فى وريثة محمد وخديجة أنها كانت شديدة التحرج[1] فيما اعتقدته من أوامر الدين ، حتى وهمت ان أكل الطعام المطبوخ يوجب الوضوء ، يظهر ذلك من حديث الحسن بن الحسن عن فاطمة حيث قالت : « دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكل عرقا[2] فجاء بلال بالأذان ، فقام ليصلى ، فأخذت بثوبه فقلت : يا أبة ! ألا تتوضأ ؟ فقال : مم أتوضأ

(١) التحرج : تحرج : فعل فعـلا يتخرج به مـن الحرج أي الاثم .
(٢) عرقا : العرق بفتح العين وتسكين الراء : العظم اخذ معظم لحمه يكسر ويطبخ ويؤكل ما عليه من اللحم الرقيق .

••

يا بنية ؟ فقلت . مما مست النار . فقال لى : أو ليس أطيب طعامكم ما مست النار ؟ » ..

فهى فيما تجهله تتحرج ولا تترخص(1) وتؤثر الشدة مع نفسها على الهوادة معها ..

وقد ذكر غير واحد من الصحابة ، وذكرت السيدة عائشة ، انها كانت أشبه الناس بمحمد فى مشيتها وحديثها وكلامها ، وزادت عائشة فقالت : مارأيت أفضل من فاطمة غير أبيها ، واستغربت مرة أن تكون فاطمة كسائر النساء حين رأتها تبكى ثم تضحك الى جوار رسول الله فى مرض وفاته ، ثم علمت أنها ضحكت لأنها سمعت من أبيها أنها لاحقة به عما قريب

أما انها كانت رضى الله عنها ذات ارادة لا تهمل ، فقد بدا ذلك فى أمر زواجها ، وفى محاجتها لزوجها ، ومحاجتها لأبى بكر وعمر ، وفيما كان يتوخاه علىّ من مرضاتها بصدد المبايعة قبل وفاتها

***

وقد يكون من دلائل الارادة فى المرأة خاصة أنها تلزم الصمت ولا تكثر الكلام ، وقد كان من عادة الزهراء أنها لا تتكلم حتى تسأل ، وأنها لا تعجل الى الحديث فيما تعلم فضلا عما لا تعلم ، ولهذا انحصرت أحاديثها عن أبيها فيماكانت تسمعه منه بين البيت والمسجد ، ولم تزد عليه

ولا ننسى ان الزهراء قد غوضرت(2) وهى فى الثلاثين أو قبل الثلاثين ، فاذا ظهر منها هذا الجد وهذا اليقين وهذه العزة وهذه الارادة وهى فى تلك السن الباكرة فذاك ولا شك دليل على قوة كامنة يرجع اليها حين يفسر المفسرون خلائق بنيها وما عساهم قد استمدوه من هذا الميراث المكين

---

(1) تترخص : الترخص في الامر التسهيل والتيسير خلاف التشديد .

(2) غوضرت : توفيت مبكرة .

الذرية الفاطمية

كانت العرب أمة نسابة ، يعنيها النسب لأنها تعتمد عليه فى مفاخرها كما تعتمد عليه فى مصائرها ، فهو الذى يعين لها أصول قبائلها وأصول ذوى الرئاسة فيها ، وهو كذلك يعين لها من يطالبونه بثأر ويحاسبونه على جريرة[1] . ومن يلحق بهم عاره ويبرأون منه أو يخلعونه ، فالخليع عندهم من لا خلاق له[2] فلا هو يبالى بشىء ولا يبالى به أحد ، ولا يوجد من يسأل عن دمه أو يحفل بحياته وموته

ان الخليع عندهم هو القطيع عن نسبه

ولهذا حفظوا أنسابهم فى الجاهلية ما استطاعوا وجاءهم الخطأ فيها عن تقادم العهد وكثرة الرحلة وجهل الكتابة والقراءة

وبعد الاسلام وجب حفظ الأنساب ولجأوا اليه فى تدوين الدواوين كما لجأوا اليه فى ميادين القتال ، فكلما حمى وطيس[3] القتال نودى فى القوم : انتسبوا ليستحى المرتد من الهزيمة التى يلحق عارها به وبذريته ما بقيت لهم سيرة فى ذاكرة ..

***

وعظمت العناية خاصة بذرية النبى عليه السلام ، صونا للنسب الشريف ، ودفعا للأدعياء من طلاب الخلافة ، فلم يقع لبس قط فى نسب أبناء فاطمة مدى الصدر الأول من الاسلام .. ولم ينهض منهم قط امام مشكوك فى نسبه على عهد الدولة الأموية ، ولم يكن الشك فى النسب مطعنا فى دعوى أحد منهم بعد قيام الدولة العباسية ، ولم يزل أمرهم كذلك الى أن قامت لهم دولة بالمغرب وسميت بالدولة الفاطمية . أما قبل ذلك فقد كان دعاة الدولة العباسية يناقشونهم الحجة فى حق الخلافة مع اعترافهم بانتسابهم الى السيدة فاطمة ، ولاينكرون عليهم صحة الانتساب

---

(١) جريرة : الذنب والجناية . (٢) لا خلاق له : لا نصيب له من الخير . (٣) وطيس : المعركة . والتنور من حديد ، وحمي الوطيس اشتدت الحرب .

اليها رضى الله عنها

من ذلك ما روى عن المـأمون أنه قال يوما لعلى بن موسى الرضا : « بم تدعون هذا الأمر ؟ قال : بقرابة على من رسول الله وبقرابة فاطمة رضى الله عنها ، فقال له المأمون : ان لم يكن ها هنا الا القرابة فقد خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان أقرب اليه من على أو من فى مثل قدره ، وان كان بقرابة فاطمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فان الحق بعد فاطمة للحسن والحسين ، وليس لعلى فى هذا الأمر حق وهما حيان ، فان كان الأمر كذلك فان عليا قد ابتزهما حقهما وهما صحيحان واستولى على ما لا يجب له »

قال رواة هذا الحديث : « فما أجابه على بن موسى بشىء »

وظاهر أن على بن موسى قد لزم الصمت هنا على حد قول أبى العلاء

تلـوا باطـلا وجلـوا صـارما
وقالوا : صـدقنا ؟ فقلنا : نعم !

***

والا فما كان لحجة من أبناء على وفاطمة ــ وقد رزقوا اللسن والفصاحة ــ أن يعجز فى هـذا المقام عن الكلام الذى يقال فى الرد على كلام المأمون ، وأقربه على اللسان ان عليا ان كان قد استولى على حقه فهم ورثته ، وان كان قد استولى على غير حقه فهم أصحاب الحق ، وقد سمع خلفاء بنى العباس كلاما كهذا وأشد من هذا من الخارجين عليهم باسم العلويين والفاطميين ، وأيسره أن أحدا من جدود بنى العباس فى حياة الحسن والحسين لم يطلب الخلافة حين طلباها

الا أن دعاة الدولة العباسية انما كانوا يدفعون دعوى العلويين بمثل حجة المـأمون ولا يتعرضون لصحة النسبة ولا يجسرون على محـاربة الولاء للمنتسبين الى الزهراء ، الا أن يدعوا علية أنه حمـل السيف وخرج للقتال أو أعلن العصيان

قال العتبى : «كان بين شريك القاضى والربيع حاجب المهدى معارضة ،

فكان الربيع يحمل عليه المهدى فلا يلتفت اليه ، حتى رأى المهدى فى منامه شريكا القاضي مصروفا وجهه عنه ، فلما استيقظ من نومه دعى الربيع وقص عليه رؤياه ، فقال : يا أمير المؤمنين ! ان شريكا مخالف لك ، وانه فاطمي محض. قال المهدى : على به ! فلما دخل عليه قال له : ياشريك ! بلغني أنك فاطمي . قال شريك : أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن تكون غير فاطمي ، الا أن تعنى فاطمة بنت كسرى ! قال : ولكنى أعنى فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم . قال شريك : أفتلعنها يا أمير المؤمنين ؟ قال المهدى : معاذ الله . قال : فماذا تقول فيمن يلعنها ؟ قال : عليه لعنة الله ! قال : فالعن هذا ــ وأشار الى الربيع ــ فانه يلعنها ، قال الربيع : لا والله يا أمير المؤمنين ما ألعنها . فقال شريك : يا ماجن ! فما ذكرك لسيدة نساء العالمين وابنة سيد المرسلين فى مجالس الرجال ؟ قال المهدى : دعنى من هذا . فانى رأيتك فى منامى كأنك مصروف عنى وقفاك الى ، وما ذلك الا بخلافك على ، ورأيت فى منامى كأنى أقتل زنديقا . قال شريك : ان رؤياك يا أمير المؤمنين ليست برؤيا يوسف الصديق صلوات الله على محمد وعليه ، وان الدماء لاتستحل بالأحلام ، وان علامة الزندقة بينة . قال : وما هى ؟ قال : شرب الخمر والرشى فى الحكم ومهر البغى . قال : صدقت والله يا أبا عبد الله . أنت والله خير من الذى حملنى عليك »

***

وحدث مثل هذا فى معارض كثيرة ، فوشى بأناس أنهم يوالون أبناء فاطمة فلم يجسر الخلفاء على المساس بهم ، واضطروا الى التعلل لهم بغير تلك العلة ..

ثم هجمت الدعوة الفاطمية على الدولة العباسية بما لا طاقة لها بدفعه مع الاعتراف بنسب أصحاب الدعوة ، فانتقلوا من المناقضة بالحجة فى حق العم وابن العم ، والموازنة بين حق العباس عم النبى وحق على ابن عمه ، الى انكار النسب بتة ، وساعدهم على ذلك تفرق الأئمة الفاطميين فى الأرجاء واستتارهم بالدعوة ووقوع اللبس فى الكنى والألقاب ، فطعنوا فى انتساب

الفاطميين الى السيدة فاطمة ، وأذاعوا عنهم ذلك المنشور الذى سيأتى ذكره فى القسم الثانى من الكتاب ، واشترك فى هذه المنابذات[1] أناس من علماء النسابين شملتهم غواية السياسة كما شملت غيرهم ، وكان من عبرتهم أن هوى السياسة لايؤمن على عقل الحكيم ولا على علم العليم

مثال هذا أن صاحب كتاب جمهرة الأنساب ، وهو الفيلسوف الحكيم ابن حزم ، لم يسلم من فتنة هـذه الغواية ، فقال وهو يتكلم عن ذرية اسماعيل بن جعفر الذى ينتسب اليه الفاطميون ويسمون من أجل ذلك بالاسماعيلية : « وادعى عبيد الله القائم بالمغرب أنه أخو الحسن البغيض هذا ، وشهد له بذلك رجل من بنى البغيض وشهد له بذلك جعفر بن محمد بن الحسين بن أبى الحر على بن محمد الشاعر بن على بن اسماعيل ابن جعفر ، ومرة ادعى أنه ولد الحسين بن محمد بن اسماعيل بن جعفر ، وكل هذه دعوى مفتضحة ، لأن محمد بن اسماعيل بن جعفر لم يكن له قط ولد اسمه الحسين ، وهذا كذب فاحش ، ولأن هذا النسب لايخفى على من له أقل علم بالنسب ولا يجهل أهله الا جاهل »

***

ونحن نخص ابن حزم بالذكر فى هذا المعرض لأنه مثل للنقيضين المتقابلين فيما يوجب الثقة وما يوجب الشك غاية الشك فى مؤلف واحد ونسابة واحد ..

فعلم ابن حزم بالأسانيد والأنساب معروف ، ولكنه فى هذا المعرض خاصة عرضة للهوى كأشد ما يكون الهوى ، حتى ليكون تكذيبه لرواية داعية من دواعى احتمالها وقبولها

كان ابن حزم أمويا غاليا فى التشيع للأموية ، وكانت دولتهم فى الأندلس على خطر من الدعوة الاسماعيلية ، وبلغ من كراهته للاسماعيليين أنه تحول من المذهب الشافعى الى المذهب الظاهرى أى المذهب الذى يأخذ بظاهر النص ويرفض التأويل ، لأن مذهب الاسماعيليين يقول بالتأويل وبأنه من حق الامام ..

---

(١) المنابذات : المنابذة : مكاشفة العدو واعلامه بالعزم على القتال .

بل قد بلغ من كراهته القوم اله لايطيق أن يذكر الرجل منهم بلقبه المتعارف عليه ، فيلقبه بالبغيض بدلا من الحبيب ، ولعله لم يضع كتابه فى جمهرة أنساب العرب الا ليثبت حق بنى أمية فى الخلافة لأنهم من قريش فصعد بحق الخلافة الى جد الأمويين والهاشميين وقال فى مقدمة كتابه : « ومن الغرض فى علم النسب أن يعلم المرء أن الخلافة لا تجوز الا فى ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ، ولو وسع جهل هذا لأمكن ادعاء الخلافة لمن لا تحل له ، وهذا لا يجوز أصلا..» . وقد ترقى ابن حزم من الحديث عن الفاطميين الى المناقشة فى معنى الحديث القائل ان فاطمة سيدة النساء ، وأنه لا يعنى أنها أفضل نساء العالمين !

***

ونحن ننزه ابن حزم عن تعمد الافتراء ، ولكننا نقول ان هواه قد جنح به الى قبول ما ليس بحجة فى اثبات نسب أو دفع نسب ، ولولا ذلك لوقف على الأقل موقف التردد بين النفى والاثبات

وفيما يلى كلام يتناول هذا الموضوع ببعض التفصيل ، ونسلف القول فى تلخيصه فنقول : اننا لا نزعم أننا وقفنا على الدليل القاطع الذى يثبت نسب عبيد الله رأس الدولة الفاطمية ، ولكننا لم نقف على دليل قاطع ينفى ذلك النسب ، ووقفنا على شبهات كثيرة توجب الشك فى مطاعن الطاعنين ، وهذه الشبهات فى روايات نسابة كابن حزم نموذج لما وقفنا عليه ..

القسم الثانى

.. والفاطميون

* الفاطميون ...
* النسب ...
* الباطنية ...
* الباطنية الفاطمية ...
* حسن بن الصباح ...
* السرية الباطنية ...
* بناة وهدامون .. ومهدمون ..
* المعز لدين الله ...
* حضارة محتضرة ...

الفاطميون

كل أبناء السيدة فاطمة الزهراء فاطميون ، ولكن اسم الفاطميين يطلق فى تاريخ الدول على أبناء اسماعيل ابن الامام جعفر الصادق : ويسمون من أجل هذا بالاسماعيليين

وقد كان أبناء الزهراء يعرفون أحيانا باسم آل البيت ، فلما استأثر العباسيون بالخلافة غلب عليهم اسم العلويين

وجاء الفاطميون ففضلوا الانتماء الى الزهراء ، لأنهم يقيمون حقهم فى الخلافة على أنهم أسباط النبى عليه السلام ، وأنهم أبناء الوصى على ابن أبى طالب ، ولكن العباسيين ينازعونهم دعوى الوصاية وينكرونها ، ويقولون ان الانتساب الى النبى من جانب عمه العباس أقرب من جانب على ابن عمه أبى طالب ، ومن أجل هذا يتسمى الفاطميون بهذا الاسم لأن بنوة الزهراء نسب لا يدعيه العباسيون

أما تغليب اسم الاسماعيليين عليهم فمرجعه انتماؤهم الى اسماعيل ابن‌جعفر الصادق، وقولهم انه هو الامام بعد أبيه ، وبهذا الاسم يتميزون من أبناء السيدة فاطمة الآخرين ، وهم ذرية موسى الكاظم ، وهو الأحق بالامامة فى مذهب الاماميين الاثنى عشريين

وقد كان الامام جعفر الصادق وصى بالامامة بعده لابنه الأكبر اسماعيل ، ثم نحاه عنها ووصى بها لابنه موسى الكاظم ، وقيل فى أسباب ذلك انه علم أن اسماعيل يشرب الخمر ، وقيل ان اسماعيل مات فى حياة أبيه فانتقلت ولاية العهد الى أخيه

أما الاسماعيليون فمذهبهم أن تحويل الولاية لايجوز ، لأن الولاية أمر من الله يتلقاه الامام المعصوم والبداء لايجوز على الله ، ويمنون

بالبداء أن يبدو لله أمر فيعدل عما أمر به قبل ذلك

ومن الاسماعيليين من ينفى موت اسماعيل فى حياة أبيه ، ويقولون انه شوهد بعد تاريخ الاشهاد على وفاته ، وانما أشهد أبوه على وفاته خوفا عليه من الغيلة ومن تربص الخلفاء العباسيين به كما كانوا يصنعون بالعلويين المرشحين للدعوة ، واستدلوا على هذا بالاشهاد على وفاته وتوقيع الشهود عليه، اذ لم تجر العادة بمثل هذا الاشهاد لولا الحيطة والتقية

والخلاف بين الاسماعيليين وبين سائر الفاطميين قائم على امامة اسماعيل ، والاماميون الذين لايسلمون الامامة لاسماعيل وذريته طوائف متعددة ، أهمها وأكبرها طائفة الاماميين المعروفين بالاثنى عشريين ، لأنهم ينتهون بالامامة الى محمد المنتظر بن الامام حسن العسكرى ، وعندهم أنه سيظهر فى زمانه الموعود ، ولهذا يدعون بتعجيل فرجه كلما ذكروه

ويتفق الاماميون على اعتقادهم عصمة الامام فى تبليغ شؤون الامامة ، لأنه موئل السؤال والفتوى فى أحكام الدين والدنيا ، فلا يجوز الخطأ عليه فى هذه الأحكام

ويضيف الاسماعيليون الى أسباب العصمة عقيدة التأويل ، فان أحكام الدين عندهم لها ظاهر وباطن ، ولا يعلم تأويلها غير الله والراسخين فى العلم ، والأئمة هم الراسخون فى العلم وهم أولى الناس أن يعلموا ما ليس يعلمه المؤتمون ..

ولهذا يسمى الاسماعيليون بالباطنين ، ومنهم من لايقصر أمور الباطن على أحكام الدين وآيات الكتاب ، بل يقولون ان كل موجود على الأرض فله نظير فى الفلك الأعلى ، وان مقادير هذه الموجودات تابعة للمقادير التى تجرى على نظرائها فى السماء

ولما استتر الأئمة شاع بينهم علم النجوم والرياضة والفلسفة على العموم ، وكان الاماميون من عهد على رضى الله عنه يؤمنون بالهامه واطلاعه على أسرار كتاب الجفر وما اليه من كتب النجوم ، ولكن الأئمة الاسماعيليين أمعنوا فى دراسة هذه العلوم لأنهم لاذوا بالخفاء فى عهد

انتشارها وازدهارها ، وأصبح علمهم بالأسرار خاصة مطلوبا منهم فوق علمهم الراسخ بشؤون الامامة فى الدنيا والدين ، فاذا سأل السائلون عن أمر مستور فأولى الناس بعلمه الامام المستور الذى يعلم مواطن السر والجهر ويتحين أوقات الفلك لاظهار ما خفى من أمور الدعوة وأمور الامامة ، وكل أمر ترتبط به مصالح العباد

ودخل عدد الأئمة نفسه فى خصائص الاعداد ، فمن قديم الزمن يعتقد أصحاب النجوم سرا خاصا فى عدد السبعة وعدد الاثنى عشر ، ويستشهدون على ذلك بعدد الأفلاك السبعة وعدد أيام الأسبوع وعدد فتحات الوجه ، كما يستشهدون عليه بعدد الشهور وعدد البروج السماوية وعدد أسباط بنى اسرائيل ، وعلى هذا يدور الخلاف بين المهتمين بالتنجيم على عدد الأئمة أهو سبعة أم اثنى عشر .. ولكل منهم فيه كلام طويل ..

***

وللاماميين فروق يبسطونها بين النبى والامام والحجة والنقيب ، فالنبى يبعث فى زمان بعد زمان ، والامام قائم فى كل زمان ، وقد يكون الامام اماما مستقرا فهو صاحب الحق فى التوصية لخليفته من بعده ، أو اماما مستودعا فهو يحمل أمانة الامامة لضرورة موقوتة ثم يردها الى صاحبها ولا حق له فى التوصية لغيره . أما الحجة فهو لازم فى الخفاء اذا كان الامام ظاهرا فى العلانية ، لأن الامام الظاهر عرضة للضرورات فلا بد معه من حجة يرجع اليها لاستبانة الحقائق بمعزل عن ضرورات السياسة ، أما اذا استتر الامام فلا بد له من حجة ظاهرة ، وقد يسمون الامام بالناطق أو بالصامت تبعا للظهور والخفاء والمجاهرة بالحكم والتأويل فيه

أما النقباء فالغالب انهم دعاة أو وكلاء ، ولا بد لهم من ائمة يرجعون اليهم فى كل زمان ..

أعلنت وفاة اسماعيل فى حياة أبيه كما تقدم ، فانعقدت الامامة بعده لابنه محمد ، وارتحل محمد من الحجاز الى الرى ، اما لأنه لم يطق

منافسة عمه موسى الكاظم على زعامة العلويين ، واما لأنه آثر الانزواء والتستر ودفع الأذى من جانب العباسيين ، وقد لقب بالامام المكتوم لأنه لم يعلن دعوته وأخذ فى بثها خفية وهو يتنقل من بلد الى بلد ومن قطر الى قطر كلما تنبهت اليه العيون ولاحقته الظنون ، ثم ضاق المشرق كله بخلفائه فهجره عبيد الله الى المغرب وكان اول من نودى له بالخلافة الفاطمية ..

ونسبه كما يقره المعترفون بهذا النسب هو عبيد الله بن احمد بن اسماعيل الثانى بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق . أما القائلون بانتسابه الى ميمون القداح — كما سيلى — فهو فى زعمهم محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق

ويوفق المؤرخ الهندى « مأمور » (١) بين الروايتين توفيقا محتملا جد الاحتمال فيقول ان محمدا المكتوم كان يخفى نفسه ويتعاطى طب العيون مداراة لحقيقته ، وان اسم «ميمون» كان من الأسماء التى انتحلها فى حال استتاره ، والقداح هو لقب الطبيب الذى يعالج العيون

ولا نهاية للروايات والتخريجات التى تعلل سفره من المشرق الى المغرب ، فمن الرواة من يزعم أنه علم بتآمر القرامطة عليه فخرج من سلمية حيث كان مقيما بجوار حمص ورحل الى مصر وهو يورى بالرحلة الى اليمن ، ومن قائل ان بعض جلساء الخليفة العباسى ممن يدينون بالمذهب الاسماعيلى سرا قد علم بعزم الخليفة على اعتقاله وقتله فبادر الى تحذيره ، ومن قائل انه تلقى البشارة من كبير دعاته فى المغرب بانتشار البيعة له بين القبائل المغربية فرحل الى المغرب ليتولى الأمر بنفسه فى هذه الفترة الحاسمة ، وتتفق الروايات على أنه حينما سافر الى مصر وانتقل منها الى المغرب كان مطاردا وكان على رأسه جعل (٢) لمن يأتى به حيا أو ميتا حيث كان

---

(١) كتاب الجدل والمناقشات فى الخلفاء الفاطميين .
Polemics on the origin of the Fatimi Caliphs.

(٢) جعل : الجعل بالضم أجر العامل وما يعطاه المجاهد يستعين به على جهاده .

والروايات تتفق كذلك على ان الدعوة كانت موكولة فى المغرب الى ابى عبيد الله الصنعانى من صنعاء اليمن ، واسمه الكامل هو الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا ، وكان من ولاة الحسبة[1] فى بغداد

جاء فى وصفه من كتاب ــ البيان المغرب فى أخبار المغرب ــ لابن عذارى المراكشى وهو من أعداء الاسماعيليين ــ « فاختاروا منهم رجلا ذا فهم وفصاحة وجدال ومعرفة يسمى أبا عبد الله الصنعانى ... فسار أبو عبد الله هذا الى موسم الحج ليجتمع به مع من يحج تلك السنة من أهل المغرب ويذوق أخلاقهم ويطلع على مذاهبهم ويتحيل على نيل الملك بضعيف الحيــل .. ورأى فى الموسم قوما من أهل المغرب فلصــق بهم وخالطهم وكانوا عشرة رجال من قبيل كتامة ملتفين على شيخ منهم ، فسألهم عن بلادهم فأخبروه بصفتها ، وسألهم عن مذهبهم فصدقوه عنه.. ولم يزل يستدرجهم ويخلبهم بما أوتى من فضل اللسان والعلم بالجدل الى أن بلبهم عقولهم بسحر بيانه ، فلما حان رجوعهم الى بلادهم سألوه عن أمره وشــأنه فقال لهم : أنا رجل من أهل العراق ، وكنت أخدم السلطان ، ثم رأيت أن خدمته ليست من أفعال البر فتركتها وصرت أطلب المعيشة من المال الحلال ، فلم أر لذلك وجها الا تعليم القرآن للصبيان ، فسألت أين يتأتى ذلك تأتيا حسنا فذكر لى بلاد مصر ، فقالوا له : ونحن سائرون الى مصر وهى طريقنا ، فكن فى صحبتنا اليها ، ورغبوا منه فى ذلك ، فصحبهم فى الطريق فكان يحدثهم ويميل بهم الى مذهبه ويلقى اليهم بالشىء بعد الشىء الى أن اشربت قلوبهم محبته ، فرغبوا منه أن يسير الى بلادهم ليعلم صبيانهم ، فاعتذر لهم ببعد الشقة ، وقال لهم ان وجدت بمصر حاجتى أقمت بها ، والا فربما أصحبكم الى القيروان ، فلما وصلوا مصر غاب عنهم فيها كأنه يطلب بغيته ، ثم اجتمعوا به وســألوه فقال لهم : لم أجد فى هــذه البلاد ما أريد ، فرغبوه أن يصحبهم فأنعم لهم بذلك .. »

---

(١) الحسبة : المال الذي يأخذه محتسب البلد على الموزونات والمكيلات.

ولا يتسع الكلام فى هذا المجال لسرد أعمال أبى عبيد الله فى المغرب . فالذى عنيناه هنا هو الاشارة الى أساليب هؤلاء الدعاة فى دخول البلاد التى يقصدونها بالدعوة ، وأول هذه الأساليب أن يكون الداعية مطلوبا لا طالبا وأن يكون له حماة وأتباع من أبناء البلد قبل دخوله اذا استطاع ، وقد سار أبو عبيد الله الشيعى على هذا الأسلوب حتى تمكن من القبائل واستمال اليه قبيلة كتامة القوية بعددها وشجاعة رجالها فاتخذ الحول بعد الحيلة وجرد السيف وهزم دولة الأغالبة أعوان العباسيين وضمن لمولاه النجاح فاستقدمه فوصل الى جبال الأطلس قبيل انتهاء القرن الثالث للهجرة (سنة ٢٩٦)

كذلك يطول الكلام لو تتبعنا أعمال المهدى وخططه التى رسمها لاقامة عرشه فى افريقية وبسط كلمته من ورائها الى الأقطار الاسلامية ، فان ملك المهدى فى المغرب قد دام أربعا وعشرين سنة الى أن توفى (سنة ٣٢٢ للهجرة) فخلفه ابنه القائم وخلف القائم ابنه المنصور وخلف المنصور ابنه المعز (سنة ٣٤١ للهجرة) وهو الذى فتحت مصر فى عهده وانتقلت من خلافة العباسيين الى خلافته (سنة ٣٥٦ للهجرة) فجاءوها كعادتهم مطلوبين ممهدا لهم الطريق فى الداخل والخارج بالدعوة والسلاح

***

ان تاريخ الدولة الفاطمية جدير أن تفرد له المجلدات الضخام ، لأنه تاريخ يغنى عن التواريخ . اذ كانت هذه الدولة نموذجا يقاس عليه ويعرض فيه ما لا يعرض فى قيام الدول الأخرى من العبر والأطوار وصنوف التدبير والمصادفة . فهى الدولة التى قامت بين ست دول أو أكثر من ست دول اسلامية وأجنبية تحاربها وتخشى عاقبة قيامها ، وأسست حقها على دعوة يتألب الخصوم من حولها على انكارها ، واعتمدت فى الدعوة على وسائل لم يسبقها اليها سابق ولم يلحقها نظير لها فى تلك الوسائل الى هذا القرن العشرين ... فمن تلك الوسائل فن التخذيل أو « الطابور الخامس » كما يسمى فى العصر الحديث ، ومنها

تسخير العلم والفن والفلسفة والقصص فى نشر الدعوة الظاهرة والخفية ، ومنها الاستعانة بالجماعات السرية وترتيب الأدوار المنظمة لانفاذ سياسة بعد أخرى ، ومنهـا المواكب والمواسم والمحافل والأعيـاد والعادات الاجتماعية ، وكانت تثـابر على الدعوة ولا تهمل معها أركان الملك من تشييد المدن وتنظيم الدواوين وترتيب الرتب وتدريب الجيوش وبنـاء الأساطيل وفتح المدارس والجامعات وتزويدها بالمكتبات وتشويق الناس اليها بمجالس المحاضرة والمناظرة فى أيام محدودة يشهدها الرجال والنساء

***

فقيام الدولة الفاطمية فى الواقع نموذج لقيام الدول بالحول والحيلة ، ولو استغنى التاريخ بدولة واحدة عن دول كثيرة لكانت هـذه الدولة حسبه من عبره وأطواره وتدبيراته ومصادفاته ، ولسنا فى صدد الافاضة فى هذه الدراسة بتفصيلاتها وفروعها ، ولكننا نطرق منها فى هذه العجالة ما له علاقة بالانتساب الى الزهراء وما له علاقة بآثارها الباقية فى هذا البلد ، لأنه البلد الذى شهد من الدولة الفاطمية أهم أدوارها وأفخم عهودها ، وكانت مخلفاتها فيه أبقى المخلفات فى تاريخها الحديث

النسب

الدعوى المنتظرة هي أقوى الدعاوى ، وهي كذلك — ومن أجل ذلك — أضعفها وأولاها بالتشكك والمراجعة

والمقصود بالدعوى المنتظرة كل دعوى تمليها البواعث النفسية أو البواعث السياسية والاجتماعية ، وهي قوية لأنها لا تأتي عفوا ولايكتفى المدعون فيها بابدائها وترك السامعين وشأنهم في قبولها أو الاعراض عنها ، بل هم يدعونها ويحتالون على ايرادها مورد الصدق وتمثيلها في صورة الكلام السائغ المحقق ، ثم يكررونها ويلحون في تكريرها ويتحينون الفرص لنشرها في مظان الاصغاء اليها والرغبة في اثباتها

واذا كانت البواعث التي تمليها متعددة متجددة كان ذلك خليقا أن يزيدها قوة على قوة والحاحا على الحاح ، فهي تتوارد من جهات كثيرة وترجع الى الظهور كرة بعد أخرى ، كلما خيف عليها أن تضعف ، وكلما تعاظم الرجاء في التحدث بها والالتفات اليها

ان الدعوى المنتظرة قوية من أجل هذا ..

وهي من أجل هذا بعينه ضعيفة متهمة ..

لأن البواعث التي تمليها تريب السامع حين تتكشف له ، وقد يكون الالحاح فيها مشككا لمن يسمعها وكاشفا للغرض والهوى من ورائها

واذا تعددت البواعث كان ذلك أحرى أن يسوق التناقض والاختلاط الى الروايات والأقاويل ، فلا يتفق مروجوها على اختراعها ولا على نقلها ، ومن لم يكن منهم مخترعا لروايته لم يجهد ذهنه في التوفيق بين النقائض والتقريب بين الأسانيد ، فتصاب الدعوى بالضعف من جراء

تعدد البواعث كما تأتيها القوة والمثابرة لهذا السبب ، وتخسر من هنا كما تكسب من هناك ..

***

وقد كان اتهام الفاطميين فى نسبهم دعوى منتظرة ، وكانت البواعث اليها متعددة متجددة ، فلا جرم تكون فى وقت واحد أقوى الدعوات ثم لا تلبث أن تعود أضعف الدعوات

كان الفاطميون يطلبون الخلافة ويعتمدون فى طلبها على النسب

وكانوا يهددون بمساعيهم فى طلب الخلافة خصوما كثيرين يملكون الدول فى المشرق والمغرب ولا يريدون النزول عما ملكوه ، أو لايريدون بعبارة أخرى أن يسلموا للفاطميين صحة النسب الذى يعتمدون عليه

فلم يكن أقرب الى الذهن من مهاجمتهم فى نسبهم وتجريدهم من الحجة التى يؤيدون بها مسعاهم ، فهذه هى الدعوى المنتظرة التى تعددت بواعثها فى المشرق والمغرب وتوافقت الأغراض على ترويجها وتثبيتها بين القائمين على عروشهم من نسب الفاطميين ، وكلهم ذوو سلطان وذوو براعة وافتنان ، ومن ورائهم من يرغبون فى بقائهم أو يتلقون دعواهم بالتصديق والايمان ..

كان الفاطميون يطلبون الخلافة ويعتمدون فى طلبها على انتسابهم الى النبى عليه السلام ، وكان هذا النسب حجة معتمدة لايمارى فيها الأكثرون من أتباع الدول الاسلامية الذين تسرى بينهم دعوى آل البيت ، غير مستثنى منهم أتباع الدولة العباسية فى ذلك العهد على الخصوص ، وهو عهد النقص والادبار الذى يكثر فيه طلاب الزوال أو طلاب العلل بالحق وبالباطل ، وعلى الانصاف الواضح أو على الجور الصراح

كان مصير الخلافة الى الفاطميين نذيرا بزوال عروش كثيرة ، منها عروش العباسيين فى بغداد والأخشيديين فى مصر والأغالبة فى افريقية الشمالية والأمويين فى الأندلس ، والأمراء الصغار المنبثين فى هذه الرقعة هنا وهناك ممن يطيب لهم القرار على ما هم فيه ولا يطيب لهم التبديل والانتقال ..

وكان هؤلاء المالكون غرباء عن أهل البيت ما عدا العباسيين ، ولكن العباسيين في ذلك العهد خاصة كانوا أخوف الخائفين من نسب الفاطميين، بعد أن كانت دعوة أهل البيت تشملهم أجمعين منذ ثلاثة قرون

عندما ضعفت دولة بنى أميـــة قويت دعوة آل البيت التى كان يقوم بها العلويون والعباسيون

ولكن العباسيين أخذوا بزمام الدولة الجديدة على اعتقاد الأكثرين انهم كانوا يدعون الى خلافة العلويين أبناء فاطمة وعلى أحق النـاس باسم آل البيت فى رأى أتباع الدولة الجديدة ، وبلغ من ايمان أتباع الدولة الجديدة بهذا الرأى أن خلفاء بنى العبـــاس أظهروا العزم على الوصاية بمدهم لولاة عهد العلويين ، كما فعل الرشـيد والأمين . ثم استحكم العداء بين بنى العباس وبنى على حتى لجأ الأئمة العلويون الى الاختفاء وشاعت يومئذ العقيدة فى الامام المستور ، ثم شاعت الدعوة الى العلويين باسم الفاطميين لأنها أقرب الدعوات الى بنوة محمد عليه السلام . فقد يقال ان العباسيين أبنـــاء العباس عم النبى وان العلويين أبنـــاء على ابن عمه أبى طالب . أما الانتماء الى فاطمة الزهراء ، فهو انتماء الى بيت النبى نفسه ، وليس الى الأعمام ولا أبناء الأعمام

فى أوائل الدولة العباســية ، كانت دعوة آل البيت تشمل العلويين والعباسيين ، وكان الخلاف يسيرا بين الفريقين على أمل التوفيق بينهما بعد حين ، وكانت قوة الدولة فى نشأتها تصمد لهذا الخلاف الذى هان أمره ولم يبلغ أشده فى أول عهده ، وكان يكفى أن يقال عند اشتداده ان وراثة الأعمام أقرب من وراثة أبناء الأعمام

ولكن الدولة العباسية بقيت حتى تضعضعت وكثر الساخطون عليها والمتبرمون بها والراغبون فى زوالها ، وكثر كذلك شهداؤها من آل البيت أبنـــاء على وفاطمة ، وزال عنها عطف العاطفين عليها لقرابتهـــا من بيت النبوة ، فتحول عطفهم الى الشهداء المظلومين المشردين فى أرجاء البلاد ، وأصبح تشردهم الذى يظن به أنه يضعفهم مددا لهم من أمداد العطف

والولاء ، وأصبحت دعوة « الفاطميين » وقفا على هؤلاء المشردين المظلومين لا يشركهم فيها العباسيون ، لأن العباسيين هنا هم الخصوم المحاسبون على الظلم والنكال واختلال حبل الأمور

ومن الفاطميين هؤلاء يأتي الخطر الأكبر على بني العباس ، ومن نسبتهم الى فاطمة الزهراء يأتي امتيازهم بحق الخلافة وبهذا الحق يطلبون النصفة للشهداء والمضطهدين ، فأى شيء أقرب الى مألوف السياسة من دفع هذا الخطر بانكار هذا النسب ، ومن حصر الولاء لأهل البيت في القائمين بالأمر من بني العباس ؟

وقد أنكر العباسيون نسب الفاطميين وزعموا أنهم ينتسبون الى ميمون القداح بن ديصان الثنوى القائل بالالهين ، وتلقف التهمة كل ناقم على الفاطميين وهم صنوف ينتمون الى كل مذهب ونحلة[1] منهم كما أسلفنا الأخشيديون والأغالبة والأمويون الأندلسيون ، وزاد عليهم من كان تابعا للفاطميين ثم تمحل[2] لمعاذير للخروج عليهم كوالى مكة وبعض رؤساء العشائر في الجزيرة العربية ، بل قيل فيما قيل ان أناسا من العلويين شهدوا عليهم بادعائهم النسب في على وفاطمة عليهما السلام ، ونسب الى الشريف أبى الحسين محمد بن على المشهور بأخى محسن الدمشقى أنه كتب رسالة في تفنيد دعواهم ينكرها المقريزى وينسبها الى عبد الله بن رزام ..

ويروى عن سبب نشاط القادر بالله الى كتابة الأشهاد ببطلان نسب الفاطميين انه سمع أبياتا نظمها الشريف الرضي يقول فيها :

ما مقامى على الهوان وعندى
مقول صارم وأنف حمى
ألبس الذل في بلاد الأعادى
وبمصر الخليفة العلوى
من أبوه أبى ومولاه مولا
ى اذا ضامنى البعيد القصى

---

(١) نحلة : بكسر النون : الدعوى . وما نحلتك ؟ أي ما دينك ومذهبك ؟

(٢) تمحل : تمحل الشيء : طلبه بحيلة وتكلف .

لف عرف بعرقه سيد النا
س جميعا محمد وعلى
ان ذلي بذلك الجد عز
وأوامي[1] بذلك الربع ري

فأرسل الى أبيه الشريف أبي أحمد الموسوي يقول : انك قد عرفت منزلتك منا وما تقدم لك في الدولة من مواقف محمودة ولا يجوز أن تكون أنت على خليفة ترضاه ويكون ولدك على ما يضاد ما لا نزال عليه من الاعتداد بك لصدق الموالاة منك ، وقد بلغنا أنه قال شعرا ــ هو هذه الأبيات ــ فيا ليت شعرى على أى مقام ذل أقام وهو ناظر في النقابة ــ نقابة الأشراف ــ والحج ، وهما من أشرف الأعمال ، ولو كان بمصر لكان كبعض الرعايا

فأحضر أبو أحمد ولده الرضى فأنكر الشعر ، فأمره أن يكتب بخطه الى القادر بالاعتذار وانكار نسب الحاكم بأمر الله ، فأبى ، فقال له أبوه : « أتكذبني في قولي ؟ » فقال : « كلا ما أكذبك ، ولكني أخاف من الديلم ومن الدعاة في البلاد » فقال له أبوه : « أتخاف من هو بعيد عنك وتسخط من هو قريب منك ... وهو قادر عليك وعلى أهل بيتك ؟ ... » وغضب أبوه وحلف لا يقيم معه في بلد ؛ فلما بلغ الأمر بينهما هذا المبلغ حلف الرضى انه لم يقل تلك الأبيات وكتب بخطه في محضر الانكار ، وشاع الزعم بعد كتابة ذلك المحضر ان المهدى الفاطمي لم يكن يسمى عبيد الله ، وان اسمه الصحيح « سعيد بن أحمد بن عبد الله القداح بن ميمون بن ديصان » ..

وقد اختلفوا في نسبته تارة الى المجوس وتارة الى اليهود .. واختلفوا في الجد الذى كان مجوسيا أو يهوديا فقيل ان عبيد الله كان ابن حداد يهودى مات عن زوجة فبنى بها الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون وتبنى عبيد الله ، وقيل ان عبيد الله قتل في سجن سجلماسة بالمغرب فأشفق داعيه (أبو عبد الله الشيعى) فسماه عبيد الله وبايعه بالخلافة ،

---

(١) أوامي : الاوام : شدة العطش

وقيل ان أمة للامام جعفر الصادق علق بها يهودى فولدت منه عبيد الله ونشأ فى بيت الامام متنميا الى أهل البيت

***

وقد كانت لهجة البيان العباسى غاية فى العنف تنم على الغيظ وتخلو من الدليل ، ومنه « ان هذا الناجم بمصر هو منصور بن نزار المتلقب بالحاكم — حكم الله عليه بالبوار والدمار — ابن معد بن اسماعيل بن محمد بن سعيد — لا أسعده الله —.وان من تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس عليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين خوارج لا نسب لهم فى ولد على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، وان ما ادعوه من الانتساب اليه زور وباطل ، وان هذا الناجم فى مصر هو وسلفه كفار فساق زنادقة ملحدون معطلون ، وللاسلام جاحدون ، أباحوا الفروج وأحلوا الخمور وسبوا الأنبياء وادعوا الربوبية ... »

ولم يقصر المؤرخون المنكرون عن القوم فى العنف والسباب فقال صاحب كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين عن الفاطميين ان المعروف عنهم أنهم «بنو عبيد» وكان والد عبيد هذا من نسل القداح الملحد المجوسى ، وقيل : كان والد عبيد هذا يهوديا من أهل سلمية من بلاد الشام ، وكان حدادا ، وعبيد هذا كان اسمه سعيدا ، فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله وزعم انه علوى فاطمى ، ثم ترقت به الحال الى أن ملك وتسمى بالمهدى ، وكان زنديقا خبيثا عدوا للاسلام متظاهرا بالتشيع متسترا به حريصا على ازالة الملة الاسلامية ، قتل من الفقهاء والصالحين جماعة كثيرة ، وكان قصده اعدامهم من الوجود ليبقى العالم كالبهائم فيتمكن من افساد عقائدهم ، ونشأت ذريته على ذلك منطوين يجهرون به اذا أمكنتهم الفرصة والا أسروه ، والدعاة منبثون لهم فى البلاد ، وبقى هذا البلاء على الاسلام من أول دولتهم الى آخرها ، وفى أيامهم كثرت الرافضة وأفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بثغور الشام ، وأخذت الافرنج أكثر البلاد بالشام والجزيرة الى أن من الله على المسلمين بظهور البيت

الاتابكى وتقدمه مثل صلاح الدين فاستردوا البلاد وأزالوا هذه الدولة»

ومن اعتدل من المؤرخين فى الانكار والسباب ، كابن خلكان ، أيد التهمة بالقصص التى تؤكدها لو أنها ثبتت كالقصة التى اشتهرت عن سيف المعز وذهبه ، وان ابن طباطبا سأل المعز عند وصوله الى مصر عن نسبه فسل سيفه ، فقال : « هذا نسبى » ثم نثر عليهم الذهب وقال : « وهذا حسبى » وقنع منه الحاضرون بما سمعوه وشهدوه

وظاهر بغير عناء انالوثيقة العباسية لا قيمة لها منالوجهة التاريخية ، لأن الذين وقعوها من الأشراف العارفين بالأنساب قد أكرهوا على توقيعها ، ومن وقعها غيرهم من فقهاء القصر والحاشية لم يكن أحد منهم حجة فى مسائل النسب والتاريخ ، وقد أضعفوا دعواهم غاية الضعف بنسبة جد الفاطميين الى ديصان الثنوى وهو من أبناء القرن الثالث للميلاد ذهب الى التوفيق بين المسيحية والزردشتية قبل البعثة الاسلامية بنحو أربعة قرون ، ولم يظهر أحد بهذا الاسم على عهد العباسيين غير من يسميه المؤرخون حينا بديدان وحينا بزندان أو دندان ولا شأن له بنشأة الثنوية ولا بالدعوة اليها فى قول أحد من أولئك المؤرخين ، وانما قيل عنه انه كان على ثروة كبيرة وعاون اسحاق بن ابراهيم بن مصعب على الثورة فى عهد الخليفة المأمون

وادعاء الموقعين للوثيقة ان خلفاء الفاطميين أباحوا المحرمات واستحلوا الموبقات لم يقم عليه دليل قط من وقائع التاريخ ، بل ثبت من هذه الوقائع أن بعض هؤلاء الخلفاء اكتفى بزوجة واحدة ولم يبح لنفسه ما كان يباح فى قصور الخلفاء من التسرى واقتناء الاماء ، وقد خولط الحاكم بأمر الله فى عقله فجنح الى التنطس[1] فى الطعام وحرم المباح منه بدلا من اباحة الحرام ! ..

ولعله لايخفى على أحد من النظرة الأولى قصة التبشيع والتشنيع فى نسبة الفاطميين تارة الى المجوس وتارة الى اليهود ، فكأنه لا يكفى أن تسقط دعواهم فى الخلافة حتى تسقط دعواهم فى الاسلام وترجع

---

(١) التنطس : تنطس الرجل : تأنق في كلامه ومطعمه وملبسه .

نسبتهم الى أبعد الملل عن الديانة الاسلامية فى عرف ذلك العصر على الخصوص ، ثم يقال عنهم ما لايقال فى جميع المجوس واليهود من استباحة المحرمات والتهافت على الشهوات

والقصة التى رويت عن سيف المعز وذهبه غنية عن التكذيب ، لأن ابن طباطبا الذى قيل انه سأل المعز عن نسبه عند وصوله الى مصر قد ت.فى قبل مقدم المعز اليها بأربع عشرة سنة ، وابن خلكان صاحب القصة هو الذى ذكر تاريخ وفاته فلم يكذب القصة بل قال : لعله أمير آخر ... مع ان اسم « المعز » هو الذى دار عليه مثل السيف والذهب المشهور ، وليس من المعقول بأية حال أن يقيم الفاطميون دعواهم على النسب ثم يعجزون عن ذكر هذا النسب حين يسألون عنه ، فكل جواب أيسر وأنفع من الجواب الذى وضعوه على لسان المعز لدين الله ولا معنى له الا الاعتراف الصريح بأنه مدخول النسب دعى فى الخلافة ..

وقد روى ابن خلكان أيضا ان العزيز بالله صعد المنبر فوجد فيه ورقة كتبت عليها هذه الأبيات :

انا سمعنا نسبا منكرا
يتلى على المنبر فى الجامع
ان كنت فيما تدعى صادقا
فاذكر أبا بعد الأب الرابع
وان ترد تحقيق ما قلته
فانسب لنا نفسك كالطائع
أو فدع الأنساب مستورة
وادخل بنا فى النسب الواسع
فان أنساب بنى هاشم
يقصر عنها طمع الطامع

فان صحت هذه الرواية فالتحدى فيها باظهار النسب قبل الأب الرابع صادر من خبير بموضع الخلاف ، لأن تاريخ النسب قبل الأب الرابع يوافق

التاريخ الذى عمد فيه الأئمة العلويون الى الاختفاء .والتنكر بأسماء غير أسمائهم واكتمان الدعاة دون غيرهم على أسرار ذريتهم وأولياء عهودهم ، وانما العجيب فى الأمر أن يكون العزيز بالله هو الذى يتحداه المتحدى باظهار نسب كنسب « الطائع » العباسى ، مع أن الطائع نفسه قد علم بكتابة وزيره عضد الدولة الى العزيز وحمله الهدايا اليه واعترافه بنسبه وانه تلقى منه الشكر « لاخلاصه فى ولاء أمير المؤمنين ومودته ومعرفته نحو امامته ومحبته لآبائه الطاهرين »

وقد تواتر أن عضد الدولة هم بالخطبة فى بغداد للخلفاء الفاطميين فرده أحد الدهاة من أصحابه عن هذا العزم وقال له : « انك مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك انه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، ولكنك اذا أقمت علويا فى الخلافة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لاستحلوا دمك وقتلوك .. »

وقد أشار صاحب « الروضتين فى أخبار الدولتين » الى قيام الدولة الأيوبية بعد الدولة الفاطمية ولكنه يعلم أن صلاح الدين الأيوبى أذن بالخطبة فى يوم الجمعة للخليفة الفاطمى ، وانه انما حوّل الخطبة الى الخليفة العباسى بعد وفاة العاضد آخر خلفاء الفاطميين ، وانه أطاع فى ذلك أمر رئيسه نور الدين بن زلكى ، ولم يكن لصحة النسب أو بطلانه شأن فى هذا التغيير ، ومرجعه الأهم الى الخلاف بين مذهب الشيعة ومذهب أهل السنة ، اذ كان الأيوبيون سنيين يشتدون فى اتباع مذهب أهل السنة ، وزادهم فيه شدة ما كان بين الكرد والديلم من النفور والنزاع ، وكان الديلم شيعيين والكرد سنيين ، وقد تفاقم النزاع بين رؤسائهم حتى سرى الى الألقاب ، فكان بنو بويه من الديلم يتلقبون بألقاب معز الدولة وركن الدولة وعضد الدولة ، وكان الأيوبيون من الكرد يتلقبون بألقاب نجم الدين وعماد الدين وصلاح الدين

ومما يلاحظ أن بعض المؤرخين يحيلون على البعد فى كتابتهم عن الدعوة الفاطمية ودعاتها كلما خلطوا بين هذه الدعوة والدعوة الباطنية ،

فأبو المعالى الفارسى يقول فى كتابه « بيان الأديان » أن ميمونا القداح من مصر ، وجمـلة المؤرخين يقولون عنه انه من فارس ، وكل منهم يحيل الى المكان البعيد حيث يتعذر عليه تحقيق الرواية بالسند الصادق فى مكان قريب ..

وصح من أجل هذا قول ابن خلدون أن شهادة الشاهدين بالطعن فى نسب القوم كانت على السماع ، وأصاب المقريزى حين قال عن العلويين انهم « على غاية من وفور العدد وجلال القدر عند الشيعة فما الحامل لشيعتهم على الاعراض عنهم والدعاء لابن مجوسى أو لابن يهودى ؟.. هذا ما لا يفعله مخلوق ولو بلغ الغاية فى الجهل والسخف »

والمقريزى وابن خلدون قد أرخا للمهدى الفاطمى بعد عهده بزمن طويل — وهما سنيان غير متشيعين — ولكنهما نظرا فى مطاعن أعدائه نظرة المؤرخ المحقق فلم يجدا فيها حجة مقبولة وقامت عندهما حجة النسب الصحيح مقام التغليب والترجيح ، وقـد عاصر المهدى مؤرخ أندلسى — هو عريب بن سعد — وكان ممن يوالون الأمويين فلم يقدح فى نسب الرجل ولم يسمع من أمراء أمية فى الأندلس قدحا فيه

وغاية ما ننتهى اليه فى هذه المسألة — مسألة النسب الفاطمى — أن المطاعن لم تمسسه بدليـل واحد يعول عليه ، وان مطاردة عبيد الله عند اتجاهه الى المغرب دليل على ان العباسيين أنفسهم كانوا يخشون دعوته ، وان مبايعة الشيعة لأبنائه — سواء شيعة الديلم فى بغداد أو شيعة الزيديين خاصة فى اليمن — ترجح صـدق انتسابهم الى السيدة فاطمة الزهراء ان لم تؤكده كل التوكيـد ، وقد كانت دعوى المنكرين عليهم كما قدمنا فى صدر هـذا الفصل أضعف الدعوات لأنها الدعوى المنتظرة التى تمليها البواعث المتعـددة ولا يتخيل أحـد ان يتصدى الفاطميون لطلب الخـلافة بحق ذلك النسب ثم لا يتعرضون لانكاره عليهم ما وسع المنكرين أن ينكروه ..

الباطنية

كان المتنغمون بالطعن فى نسب الفاطميين كثيرين متعددين ، كلهم كما تقدم من ذوى السلطان أو أتباع ذوى السلطان ، وقد استعانوا بالحول والحيلة فى ترويج مطاعنهم واختراع أقاويلهم فاستمالوا اليهم فى البلاد الاسلامية من لا مصلحة له فى مطاعنهم ، ولكننا نحسب ــ بعد مراجعة أخبار العصر وحوادثه ــ ان المطاعن فى النسب لم تكسب من المصدقين الا القليــل الذين ينظرون الى الأمر كله بغير اكتراث أو يكترثون له ولكنهم عيال على الحوادث لا يقدمون ولا يؤخرون . أما الأثر البالغ فى تنفير الناس من الفاطميين فانما جاء من ربط الحركة الفاطميــة بالحركة الباطنية وادعاء الخصــوم ان الباطنيين جميعا اسماعيليون ممن ينتمون الى اسماعيل بن جعفر الصادق جد القائمين بالدعوة الفاطميه

فمن زمن والناس فى المشرق يفهمون ان الاسماعيلية هى كلمة مرادفة للباطنية ، ويلصقون بالاسماعيلية كل ما لصــق بالباطنية من المساوىء والمنكرات ، ومن الفضائح والقبــائح ، وهى فى الواقع كثيرة منفرة لا تحتاج الى جهد كبير فى التنفير والتشهير

وســاعد على لصوق التهمة بالفاطميين ان بعض المجاهرين بالاباحة والاجتراء على مناسك الدين الاســلامى كالقرامطة فى البحرين كانوا يعلنون التشيع للاسماعيليين ، أو بعبــارة أخرى للفاطميين ، فوقر فى الأذهان ان دعاة الاسماعيلية جميعا اباحيون ، وان الباطنيةَ هى اخفاء المنكرات واعلان التشيع للتغرير والتضليل

وقد قيل ان رجلا من دعاة الباطنية يدعى « على بن فضل » ادعى النبوة وأباح جميع المحرمات وقال شاعره فى روايات مختلفة :

خذی الدف یا هذه والعبی
وغنی هــزازیك ثم اطربی

تولی نبی بنی هاشــــم
وهـــذا نبی بنی یعرب

أحل البنـات مع الأمهـا
ت ، ومن فضله زاد حل الصبی

وقد حط عنا فروض الصلا
ة وحط الصیام فلم یتعب

اذا الناس صلوا فلا تنهضی
وان صوموا فكلی واشربی

ولا تطلبی السعی عند الصفا
ولا زورة القبر فی یثرب

ولا تمنعی نفسـك المعرســ
ـین من الأقربین أو الأجنبی

فـكیف حللت لهـذا الغر
یب وصرت محـرمة لـلاب

ألیس الغــراس لمن ربه
ورواه فی الزمن المجـدب

وقیل علی الجملة ان الباطنیین یظهرون الاسلام لیکیدوا له ویدسوا عقائد الشرك والضلال بین أهله ، وانهم فی الأصل مجوس منطوون علی بغض شدید للعرب ودینهم ، لم یقدروا علی هدم هذا الدین وتقویض دولة العرب بالقوة فاحتالوا علی مأربهم بالدسیسة والمكیدة ، وأنشأوا نحلتهم لاستدراج المسلمین وتحویلهم شیئا فشیئا من عقـائدهم الی التعطیــل والاباحة والکفر بالبعث والمعاد وانكار الفرائض والعقائد والأدیان

قالوا : وان الاسماعیلیة خاصة یبثون دعوتهم علی درجات ویأخذون المواثیق والایمان علی مریدیهم الا یفشوا لهم سرا ولا یظاهروا علیهم

احدا ، ثم يتدرجون بهم من التشكيك وطلب المزيد من العلم على أيدى الأئمة المعصومين ثم تلقين بعض الرموز التى تروق المريد وتشوقه الى المزيد من الأسرار ثم تعريفه بنظــام الدعوة ومن تــولاها ثم تأويل النصوص وتحريف الألفــاظ على ظواهر معانيها ثم الخوض فى المذاهب الفلسفية التى تنتهى فى الدرجة التاسعة من درجات الكشف والزلفى الى تأليه الامام على مذهب الحلول ، وانه هو روح الله قد حلت فى جســد انسان ، ولعمرى ماذا فى وسع عشرة أو عشرين من « الواصلين » الى هذه الدرجة فى أرذل العمر أن يصنعوه حين يعلمون سرا باباحة الشهوات ورفض الأديان ؟ !

وآفة الباحثين فى هذه الألغاز والاشاعات أنهم جعلوها كلها مسألة أخبار وروايات وراحوا يعنتون أنفسهم فى جمع هذه الأخبار والروايات فاذا هى تتناقض ولا تستقر على قرار

***

هؤلاء المؤرخون الورقيون أو الحرفيون لايصــلحون لبحث هــذه المسائل التى يبدأ البحث الصحيح فيهــا وينتهى فى السريرة الانسانية وما يجوز فيها وما لايجوز ، وما يعقــل وما لايعقل ، وما يستحق أن يعارض على الأوراق والنصوص وما يجب أن يرفض بداهة ، فلا يطول البحث فيه بعد ذلك الا لتطبيق أصول النقد واتخاذ الأمثلة على حقائق التاريخ وأباطيله كما تعرضها عليها الأخبار والروايات

فمن الطريف حقا أن يقيّد المريدون بالايمان والأقسام ليكتموا السر ثم يأتى السر المكتوم فاذا هو سر يحلهم من جميع تلك الايمان والأقسام على سبيل اليقين ولا يضمن نقلهم الى يقين جديد !

وأطرف منه أن يقال عن رجل انه معطل منكر للمعاد منكر للأديان ، منكر للوعود الالهية ثم يقال عنه ان كراهة دين من الأديان تبعثه الى الجهاد سرا وعلانية والاستماتة فى الجهاد حتى يتعرض للقتل والتشريد أملا فى يوم من الأيام يزول فيه هذا الدين ويشهد هو زواله أو لايشهده بعد سنوات أو بعد أحقاب وقرون

انما يعمل هذا العمل لهدم دين من الأديان من يؤمن بدين غيره ويعمل لقيام دولة من أبناء دينه ، فأما المنكر المعطل لكل عقيدة فلن يبقى في نفسه من الحماسة الروحيه ما يهون عليه المشقة والخطر ويقيمه ويقعده كراهة لدين هو وغيره من الأديان عنده سواء

كان تصديق هذا مفهوما في القرون الوسطى ، لأنهم كانوا يومئـذ يعتقدون أن الكافر يكفر في سبيل الشيطان وانه يرى الشيطان بعينه ويسمع وسواسه بأذنه ويساومه ويشـارطه ويبيعه روحه ويأخذ منه السطوة والمتعة بديلا من نعيم السماء ، وكانوا يومئذ يقولون عن أناس بأعيانهم انهم على صلة بالشيطان وانهم تعلموا على يديه السحر الأسود واطلعوا منه على أسرار النجوم والرجوم واستهواهم مكره فعقدوا معه صفقة المغبون في حساب المؤمنين

أما في عصرنا هذا فمن العسير أن يتخيل الانسان ملحدا ينكر كل شيء ويتجرد لأهوال الدعوة الباطنية لأجل شيء من الأشياء كائنا ما كان ، الا أن يكون ذلك الشيء سطوة يطلبها لنفسه في حياته أو في بيته ، ولا يعقل حينئذ أنه يتدرج بالأتباع المريدين من الجهـل بحقيقته الى العلم بتلك الحقيقة والاطلاع على دسائسه وغواياته التي يلبسها على النـاس بتلبيس من ألغاز العقائد وأسرار الديانات

وقد شغلت طائفة من المؤرخين الأقدمين والمحدثين بدعوة القرامطة وأشباههم في اليمن وفارس وادعائهم النسبة الى الاسماعيلية في المغرب مع مجاهرتهم بالمعاصي واجترائهم على مناسك الحج وتمثيلهم بالحجاج من الرجال والنساء ، فخطر لهذه الطائفة من المؤرخين أن علاقة النسب بين القرامطة والاسماعيليين جد يحتمل البحث ويؤدى البحث فيه الى ثبوت العلاقة بين هؤلاء وهؤلاء ..

وأغرب الغرائب أن أحدا من أولئك المؤرخين لم يخطر له أن يسأل : لماذا لم يظهر في المغرب حيث تقوم الدولة الفاطمية كلها أناس من دعاة الاباحية والعصيان ، كالذين ظهروا في البحرين واليمن وفارس وبعض

بقاع الشام ؟

فمن نظرة سريعة يمكن أن يتبين الناظر فى التاريخ أن الانتماء الى الاسماعيليين مفهوم من أناس يقيمون فى بلاد الدولة العباسية ويعلنون الخروج عليها ، فهم فى حاجة الى سلطان مشروع يقاومون به سلطانها المخلوع ، وانتماؤهم الى الفاطميين أو الاسماعيليين هو السند الذى يركنون اليه فى محاربة الدولة العباسية وانكار حقها فى الطاعة والولاء ، ولو كان نشر الدعوة الفاطمية يتولاه دعاة العصيان والمعاصي لكان أولى البلاد أن تظهر فيه طوائف الاباحة هى بلاد المغرب حيث دان القوم لخلافة الفاطميين ..

***

ولقد حدث فعلا أن القرامطة خلعوا البيعة الفاطمية ورجعوا الى الدعاء على المنابر باسم الخليفة العباسى حين وقعت النبوة[1] بينهم وبين الخليفة الفاطمى فى القاهرة ، وسوّل لهم الطمع أنهم قادرون على فتح مصر بعد أن جربوا قوتهم وحيلتهم فى فتح أطراف من بلاد الشام

وقد يكون أغرب من هذا أن يقال من جهة أن الاباحة هى الدرجة السابعة أو الثامنة التى يصل اليها المريد المترقى فى كشف الحجب وعلم الأسرار ، ثم يقال من جهة أخرى أن هذه الاباحة سر مباح فى الطريق يعكف عليه المؤمن جهرة ويردّده الشعراء ويتغنى به القيان ..

لم ينفصل علم النفس وعلم التاريخ فى بحث من البحوث كما انفصلا فى بحث قضية الاسماعيلية والباطنية ، ولهذا كثر فيه التخبط وقلّ فيه الثبوت والوضوح ، ونحسب أن محنة التاريخ هنا أصعب من كل محنة لأن المؤرخ هنا يعمل عملين ولا يستقل بعمل واحد : يعمل لمعرفة الحقيقة ويعمل لاستخلاصها من الأباطيل التى تحجبها عن عمد وتدبير ، وواحد من هذين العملين كثير على مؤرخى الورق والحروف

اننا عرفنا ألوانا من النظم السرية التى اصطلحت عليها الجماعات المتسترة فى العصور القديمة ، وبعضها دينى يتخذ له أغراضا سياسية

(١) النبوة : التجافي والتباعد .

كالجماعات الأورفية والجماعات الفيثاغورية ، ولا ندرى الآن كيف تكشفت هـذه النظم المزعومة ، بل لا ندرى هل هى فى الحق كانت موجودة متبعة أو هى أوهام وتخمينات من وحى الاستطلاع والاستنباط

ولكننا اذا سمعنا عن نظم سرية فى عصور التاريخ القريب فلا معنى فى هذه الحالة للاحالة على القدم أو للخبط فى الظنون ، اذ يحق لنا فى هذه الحالة أن نسأل عن المريد الذى تدرج فى مراتب الباطنية حتى وصل الى قيادة الدعوة ثم خانها وأفشى أسرارها ، أو يحق لنا أن نسأل عن الحاكم الذى تعقب الجماعة بعيونه وجواسيسه حتى كشف عن بواطنها ، أو يحق لنا أن نسأل عن الأوراق المطوية التى نشرت بعد العثور عليها فى ابانها أو بعد انقضاء زمانها ، ولسنا نذكر فيما اطلعنا عليه من أخبار الباطنية أن أحدا تحدث عن مريد واحد صعد على مراتبها من درجة التلميذ المبتدىء الى درجة الحجة المطلع على جميع خفاياها ، ولا ان أوراقا لها فصلت فيها نظمها وأسرارها وأذيعت فى أوانها أو بعد أوانها ، بل زعم الرواة أن الذى فضح الجماعة وأنكر على جعفر الصادق نفسه دعواه قبل دعوى اسماعيل ابنه وخلفائه هو عبد الله بن ميمون القداح . ومن هو عبد الله بن ميمون القداح ؟ هو واضـع النظام كله ومرتب الدرجات كلها ومصطنع التخفى والتنكر لبلوغ مقصده من الدعوة باسم اسماعيل بن جعفر الصادق جد الاماميين أجمعين .. !

فعبد الله هذا هو الذى قال فيما زعم الرواة :

هـات اسـقنى الخمـرة يا سـنبر
فليـس عنـدى انى أشر
أما ترى الشـيعة فى فتنـة
يغرها عن دينهـا جعـفر
قـد كنت مغـرورا به برهـة
ثم بـدا لى خبـر يستر

ولم تكفه قطعــة واحدة ينظمهــا حتى نقل عنه الرواة قطعة أخرى يقول فيها :

مشـــيت الى جعفر حقبـــة
فألفيتـــــه خـــــادعا يخلب
يجر العـــــلاء الى نفســـه
وكل الى حبـــله يجـــذب
فلـــو كان أمركم صـــادقا
لمـــا فلـــل مقتولـكم يسحب
ولا غض منـكم عتيـــق ولا
سما « عمر » فوقـكم يخطب

***

وعلى هــذا النحو يتتبع المؤرخ ما شاء من أخبار الباطنية فلا يمضى مع خبر منها خطوة أو خطوتين حتى يصطدم بالعقل أو بالواقع صــدمة توجب الشك ان لم تجزم باليقين من بطلان الخبر وتلفيقه . وخير من هذه « الورقيات والنصيات » أن نطمئن الى مقياس واحد لا شبهة عليه من أهواء السياسة ثم نعرض عليه الأخبار مما يوافقه أو لا يوافقه عسى أن نخلص منها الى قول صحيح أو نقد صحيح

ذلك المقياس هو الحالة النفسية الاجتماعية التى كانت شــائعة فى العالم الاسلامى من القرن الثالث الى القرن الخامس للهجرة ، ونخص منهــا بالنظر ما يرجع الى مطالب الحكم من جهــة ومســاعى التكتم والمداراة من جهة أخرى ..

فالدولة العباسية دخلت فى دور الضعف والتفكك منذ أواخر القرن الثالث للهجرة ، فاختلت قواعد الحكم وضاعت الثقة فى الحكومة القائمة وكثر المنفصلون عن الدولة والمنتقضون عليها ، وكان الدين هو حجة المطالبين بالحكم وحجة الخارجين عليه . فمن خرج على بنى العباس أنكر عليهم حق الخلافة باسم النبى مع وجود عترة النبى من أبناء على وفاطمة ،

ومن اعترف لبنى العباس بالحق الشرعى فى الخلافة زعم أن الحكم فى دولتهم لغيرهم من وزراء الترك أو الديلم أو كتاب الدواوين الذين يتواطأون مع الولاة على انتهاب الأموال وبذلها للصنائع والأعوان ، وأصبح دهماء الشعب على استعداد لانكار الخلافة على القائمين بها والاستسلام للادعياء الواثبين عليها ، وتتابع المنتحلون للمعاذير الدينية فى طلب الحكم أو عصيان الحاكمين من المتعصبين أو المستضعفين

***

وفى تاريخ شاعر مشهور بالطموح مثال لادعاء الحكم باسم الدين مرة وباسم الكتابة والأدب مرة أخرى أو مرات ، ذلك الشاعر هو أبو الطيب المتنبى الذى نسب فى بعض الروايات باسم أحمد بن الحسين بن الحسن ونشأ بين العلويين فى الكوفة . فانه ادعى النبوة أو المهدية فى بادية السماوة وبلغ من تفاقم دعوته أن خافه والى حمص من قبل الاخشيد فاعتقله ولم يطلقه الا وقد عدل عن دعواه ، ومن أحاديث المعجزات التى طولب بها كما جاء فى رسالة الغفران أنهم قالوا له فى بنى عدى : « ها هنا ناقة صعبة فان قدرت على ركوبها أقررنا أنك مرسل . فمضى الى تلك الناقة وهى رائحة فى الابل وتحيل حتى وثب على ظهرها ، فنفرت ساعة وتنكرت برهة ، ثم سكن نفارها ومشت مشى المسمحة[1] وورد بها الحلة وهو راكب عليها فعجبوا له كل العجب وصار ذلك من دلائله عندهم »

***

قال أبو العلاء بعد ذلك : « وحدثت أيضا أنه كان فى ديوان اللاذقية وأن بعض الكتاب انقلبت على يده سكين الأقلام فجرحته جرحا مفرطا ، وان أبا الطيب تفل عليها من ريقه وشد عليها غير منتظر لوقته وقال للمجروح لا تحلها فى يومك ، وعد له أياما وليالى ... فبرىء الجرح فصاروا يعتقدون فى أبى الطيب أعظم اعتقاد ، ويقولون انه كمحيى الأموات .. وحدث رجل كان أبو الطيب قد استخفى عنده فى اللاذقية ، أو فى غيرها من السواحل ، انه أراد الانتقال من موضع الى موضع

(١) المسمحة : اسمحت الدابة لانت وانقادت بعد استصعاب .

فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل ، ولقيهما كلب ألح عليهما فى النباح ، ثم انصرف فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد : انك ستجد ذلك الكلب قد مات ، فلما عاد الرجل ألفى الأمر كما ذكر .. »

***

وقد كانت دعوى النبوة أو المهدية فى عنفوان شباب أبى الطيب ، فلما أوفى على الشيخوخة كان قد عدل زمنا عن دعواه ولم يعدل عن طلب الولاية . كان خصيا مملوكا فاستبد بالعرش وأصبح فيما زعم : «دون الله يعبد فى مصر .. !

قال داعى الدعاة يصف حال الناس فى تلك الأزمنة من كتاب أرسله الى أبى العلاء المعرى : « ... اننى شققت بطن الأرض من أقصى ديارى الى مصر وشاهدت الناس بين رجلين : اما منتحلا لشريعة صبأ اليهـا ولهج بها الى الحد الذى ان قيل له من أخبار شرعه ان فيلا طار أو جملا باض لما قابله الا بالقبول والتصديق ، ولكان يكفر من يرى غير رأيه فيه ويسفهه ويلعنه ، فالعقل عند من هذه سبيله فى مهواة ومضيعة .. أومنتحلا للعقل يقول انه حجة الله تعالى على عباده ، مبطلا لجميع ما الناس فيه ، مستخفا بأوضاع الشرائع ، معترفا مع ذلك بوجوب المساعدة عليها لعظم المنفعة بمكانها ، لكونها مقمعة للجاهلين ، ولجاما على رؤوس المجرمين المجازفين ، لا على أنها ذخيرة للعقبى أو منجاة فى الدار الأخرى . فلما رمت بى المرامى الى ديار الشام ومصر سمعت عن الشيخ ، وفقه الله ، بفضل فى الأدب والعلم قد اتفقت عليه الأقاويـل ووضح به البرهان والدليل ، ورأيت الناس فيما يتعلق بدينه مختلفين ، وفى أمره متبلبلين ، فكل يذهب فيه مذهبا ويتبع من تقاسيم الظنون سببا ، وحضرت مجلسا جليلا أجرى فيه ذكره فقال الحاضرون فيه غثا وسمينا ، فحفظته بالغيب ، وقلت ان المعلوم من صلابته فى زهده يحميه من الظنة والريب ، وقام فى نفسى أن عنده من حقائق دين الله سرا قد أسبل عليه من التقية سترا ، وأمرا تميز به عن قوم يكفر بعضهم بعضا ويلعن بعضهم بعضا ، ولمـا

سمعت البيت :

غدوت مريض الدين والعقل فالقنى
لتسمع أنباء الأمور الصحائح

وثقت من خلدى فيما حدست عقوده ، وتأكدت عهوده ، وقلت : ان لسانا يستطيع بمثل هذه الدعوى نطقا ، ويفتق من هذا العظيم رتقا ، للسان صامت عنده كل ناطق ، وناطق من ذروة جبل من العلم شاهق ، فقصدته قصد موسى عليه السلام للطور اقتبس منه نارا ، وأحاول أن أرفع بالفخر منارا ، بمعرفة ما تخلف عن معرفته المتخلفون واختلف فى حقيقته المختلفون .. »

وداعى الدعاة صاحب هذا الخطاب هو « أبو نصر هبة الله بن موسى ابن أبى عمران » صاحب أكبر منصب من مناصب الدعوة فى الدولة الفاطمية ، كتب رسائله الى حكيم المعرة يناقشه فى تحريه اللحوم على نفسه ويسائله عن البعث والقيامة ، مستعظما على المتقولين أن يتهموا بانكارهما حكيما كأبى العلاء ، وقد استعار من أسمه « موسى بن أبى عمران » تفسيرا لوقوفه من رهين المحبسين موقف المقتبس من نار الطور

وعلى ذكر أبى العلاء واعتقاد الناس فى أسرار الحكمة وقوتها الخفية ننقل ما رواه ابن الوردى حيث ذكر فى تاريخه « ان حساده أغروا به وزير حلب فجهز لاحضاره خمسين فارسا ليقتله ، فأنزلهم أبو العلاء فى مجلس له بالمعرة واجتمع بنو عمه وتألموا لذلك فقال : ان لى ربا يمنعنى ، ثم قال كلاما منه ما لايفهم ، وقال : الضيوف الضيوف . الوزير الوزير. فوقع المجلس على الخمسين فارسا فماتوا ووقع الحمام على الوزير بحلب فمات ، فمن الناس من زعم أنه قتلهم بدعائه وتهجده ، ومنهم من زعم أنه قتلهم بسحره ورصده »

وروى صاحب الكوكب الثاقب هذه القصة بزيادة تفصيل فذكر عن الغزالى أنه قال : « حدثنى يوسف بن على بأرض الهركار قال : دخلت معرة النعمان وقد وشى وزير محمود بن صالح صاحب حلب اليه بأن

المعرى زنديق لا يرى افساد الصور ويزعم أن الرسالة تحصل بصفاء العقل ، فأمر محمود بحمله اليه من المعرة وبعث خمسين فارسا ليحملوه ، فأنزلهم أبو العلاء دار الضيافة ، فدخل عليه عمه مسلم بن سليمان وقال له : يا ابن أخى ! قد نزلت بنا هذه الحادثة ، والملك محمود يطلبك ، فان منعناك عجزنا وان أسلمناك كان عارا علينا عند ذوى الذمام ويركب تنوخ الذل والعار ، فقال : هون عليك ياعم ولا بأس عليك ، فلى سلطان يذب عنى . ثم قام فاغتسل وصلى الى نصف الليل ، ثم قال لغلامه : انظر الى المريخ أين هو » فقال : فى منزلة كذا وكذا ، فقال : زنه واضرب تحته وتدا ، وشد فى رجلى خيطا واربطه الى الوتد ، ففعل غلامه ذلك ، فسمعناه وهو يقول : يا قديم الأزل ! يا علة العلل ! يا صانع المخلوقات ! وموجد الموجدات ! أنا فى عزك الذى لايرام وكنفك الذى لا يضام ، الضيوف الضيوف .. الوزير الوزير .. ثم ذكر كلمات لا تفهم ، واذا بهدة عظيمة فسأل عنها فقيل : وقعت الدار على الضيوف الذين كانوا بها فقتلت الخمسين ، وعند طلوع الشمس وقعت بطاقة من حلب على جناح طائر ألا تزعجوا الشيخ فقد وقع الحمام على الوزير . قال يوسف ابن على : فلما شاهدت ذلك دخلت على المعرى فقال : من أين أنت ؟ فقلت : من أرض الهركار . فقال : زعموا أننى زنديق ، ثم قال : اكتب . وأملى علىّ أبياتا من قصيدة أولها :

أستغفر الله فى أمنى وأوجالى
من غفلتى وتوالى سوء أعمالى (١)

هذه الحالة النفسية التى عمت أرجاء العالم الاسلامى فى القرن الرابع خاصة خليقة أن ينجم فيها عشرات ممن يستهوون الناس بالأسرار الباطنة ، لأن عالم الباطن مستودع كل أمنية وبغية كل طالب : طالب الدين وطالب الدنيا ، طالب المعرفة وطالب السحر والعيافة (٢) ، أو طالب العلم الأبيض وطالب العلم الأسود ، وخليق أن يقف النظر طويلا عند

(١) كتاب أبو العلاء المعرى للمرحوم « احمد تيمور باشا »

(٢) العيافة : زجر الطير لمعرفة مساقطها واصواتها فيتفاءل او يتشاءم بها .

قول داعى الدعاة أنه يطلب سرا من أبى العلاء ، وانه قام فى نفسه أن عند أبى العلاء « من حقائق دين الله سرا قد أسبل عليه من التقية سترا » . فانه قد يكون فى هذا القول مادحا أو مازحا ولكنه أبان عن سمة العصر كله من « الباطنية » التى يفرضها على نفسه العارف بأسرار الدين ...

وأخلق من هذا أن يستوقف النظر أن هذا الكلام صادر من داعى الدعاة فى الدولة الفاطمية ، وهو الرجل الذى ينتهى اليه كل سر، ويصل اليه التلميذ بعد درجات ليسمع منه ــ فيما زعم الزاعمون ــ ان الدين لغو وان القيامة وهم وأن المحرمات مستباحة للعارفين ، فلو كانت هذه رسالته التى ينتهى اليها كل متقدم فى درجات الأسرار فما حاجته الى محاسبة أبى العلاء على الظنون التى تذاع عنه فى أمر الحلال والحرام وأمر البعث والحساب ؟ لقد كان الرضى عن مذاهب الزندقة جميعا أولى به من التعرض لذويها ومحاسبتهم عليها ، فانهم يتبرعون بما يجتهد له ويرتب المراتب ويحتال الحيل للوصول اليه ، بعد طول العناء

الا أن الخلاصة الثابتة فى ذلك العصر أن « الباطنية » الواقعية حالة من الحالات التى لا تستغرب من دعاته المخلصين وأدعيائه المغرضين ، فهناك « باطنية » يفرضها الناس على أنفسهم قبل أن يفرضها عليهم نظام مقرر أو مذهب منظم ، وادعاء الأسرار فى تلك البيئة أمر منتظر مترقب لا غرابة فيه ، وأقرب ما يكون هذا الادعاء الى من يطلب المنفعة لنفسه أو يطلب المكانة بما يعلمه ويتعلمه منه غيره ، وفاقا لشرطه وتدبيره

وقد صار المجتمع الاسلامى الى تلك الحالة فى القرن الرابع وما تلاه بعد تمهيدات متلاحقة بعضها من فعل السياسة وبعضها من فعل الثقافة والعادة المستحدثة ..

فأما التمهيدات التى هى من فعل السياسة فهى ما أسلفناه من تزعزع الثقة بحق السلطان القائم على اختلاف الحاكمين والحكومات ، وأما التمهيدات التى هى من فعل الثقافة والعادة المستحدثة فهى انتشار الفلسفة ونشأة البحوث العقلية فى علوم الدين ومنها علم الكلام والتوحيد ،

ومنها اقتباس الحضارات الغربية وانقسام الأمر فيها بين المحافظة والتجديد والاسترسال مع العرف الطارىء فى غير بحث ولا مبالاة

وقد كان أنصار السلطان القائم محافظين لأنهم يبغضون التغيير ويحافظون على كل قديم

وقد كان أنصار البحث والاستطلاع أقرب الى التجديد والتغيير ، وكانوا مظنة للتهم من أنصار القديم ، فكان من الطبيعي الذى لا غرابة فيه أن يصطنعوا التقية ويظهروا للناس غير ما يبطنون ، سواء كانوا من المتصوفة الذين يلتمسون النجاة عند « الواصلين » المتمكنين من بواطن الأسرار ، أو كانوا من الفلاسفة الذين يشفقون من رجمات الظنون ولا يأمنون العامة ولا ذوى السلطان المتوجسين من كل جديد ، أو كانوا من غير المتصوفة والفلاسفة أقواما يعالجون من المعارف ما يشبه السحر والكهانة ، وهى علوم التنجيم والتماس الأسرار عند النجوم

ولم يكن الفارق بين علم النجوم الصحيح وعلم النجوم الزائف قد حسم فى ذلك العصر على وجه يمنعُ اللبس والاختلاط بين المطلبين ، فان الفلاسفة الذين كانوا يتحدثون عن العقول العشرة كانوا يربطون بين هذه العقول العشرة وبين الأفلاك ويقولون بغلبة الأرواح النورانية التى لا تقبل الفساد على كواكب السماء وأن الصلة بينها وبين الانسان تتوقف على الرياضة والصفاء ، وقد كان المتصوفة يؤمنون بالتجلى ولا يمنعون أن ينكشف الغطاء عن البصر والبصيرة فتلمح فى العالم العلوى ما أودعه الله فيه من الدلائل والاشارات

واذا كانت « الباطنية الواقعية » قد سولت لشاعر أن يطلب السلطان بدعوى النبوة أو المهدية ، وقد أوقعت فى النفوس أن ناسكا ضريرا يسيطر على الوزراء والجنود بقوة الغيب أو بقوة النجوم : فمن الخلط أن يقال ان الباطنية كلها وليدة الدعوة الفاطمية ، وان هذه الدعوة مسئولة عن كل ما كان يستباح يومئذ فى الخفاء ، وكل ما تذرع به الطامعون فى الحكم من ذرائع الدنيا والدين ..

الباطنية الفاطمية

وكانت للفاطميين على هـذا باطنية فاطمية أو اسماعيلية ، الى جانب هذه الباطنية الواقعية ..

لم يقم الدليل على انتماء الباطنية الفاطمية أو الاسماعيلية الى داعية من المجوس او اليهود دبرها تدبيرا ولفقها تلفيقا لهدم الاسلام خاصـة وهدم الديانات عامة ، وتلقين « الواصلين » دروس الكفر والتعطيـل وانكار البعث والحساب واستباحة المحرمات والمنكرات ، كراهة للعرب ودولتهم ، وانتقاما منهم بالدسيسة وقد عجزوا عن الانتقام منهم بالقهر والعدوان ..

فالتهمة ضعيفة لأنها جاءت من مغرضين غرضهم معروف ، وهى ضعيفة بعد هذا لأنها مضطربة متناقضة لا تثبت على زعم واحد ولا تستقيم على وجهة واحدة . فأصل الدعوة تارة من المجوس وتارة من اليهود ، ومرة يرجع أصلها الى ديصان الذى ظهر قبل الاسلام ، ومرة أخرى يرجع الى ابن القداح الذى يتبين من شعره أنه مسلم وأنه شك فى الامام جعفر بعد أن لاذ به وتتلمذ عليه ، لأن أئمة الشيعة يقتلون وينهزمون

وفى التهمة من الضعف فوق هذا وذلك أنها لا تجرى مجرى المـألوف من طبائع النفوس ، فان الرجل الذى يكفر بالدين عامة لا تملكه الحماسة لهدم دين ولا تبلغ منه هذه الحماسة أن يصبر للجهاد الطويل ويستهين بالخطر على الروح والراحة وهو يحارب السلطان ويحارب اجماع الناس من حوله على اختلاف النحل والأديان

ومن المشكوك فيه بعد هذا جميعه أن ينهدم الدين اذا كفر به فى كل عصر طائفة من « الواصلين » معدودين على الأصابع يستبيحون المحرمات

فى الخفاء على انفراد أو بين زمرة من الأصحاب والنظراء ، فما خلا عصر قط من أمثال هؤلاء بغير دعوة من داع وبغير سعى أو سعاية من ساع ، ولم يزل الشك يتسرب الى آحاد آحاد من الحائرين والمترددين يحفظون شكهم لأنفسهم أو يطلعون عليه أمثالهم وذوى خاصتهم ثم يذهبون والدين باق لم ينهدم بين العلية ولا بين السواد

وربما تشيع للفاطميين أناس خبطوا فى العقائد خبط عشواء وجهروا بمذاهب من مذاهب الفلسفة أو التصوف ينكره الاسلام الصحيح ، ولكن التشيع من هذا القبيل قديم لم ينقطع قط من عهد الامام عليه السلام الى عهدنا الذى نحن فيه ، ولم يكن هــذا التشيع الممقوت حجة على الامام على ولا على أحد من بنيه الأبرار الذين سمعوا به فأنكروه أو سكتوا عنه ولم يرتضوه ..

ففى حياة الامام على كان عبد الله بن سبأ وأصحابه يؤلهون عليـا ويؤمنون بحياته بعد مقتله ويقولون برجعة النبى وينشرون مذهب الحلول وتناسخ الأرواح ، وبعد مقتل الامام نشط أصحاب النحلة الكيسانية وأعادوا مثل هذا القول فى حياة « محمد بن الحنفية » وقيل عن المختار الثقفى داعية القوم أنه ادعى النبوة ونظم له قرآنا يعارض به القرآن الكريم ويفرضه على صحبه فى الصلوات ، ومكان الامام وابنه محمد فى الاسلام أرفع من أن يتطاول اليه من أجل هذا عدو يلج فى عدوانه فضلا عن الولى والصــديق ، وقد بقى المرجئون والقائلون بالرجعة والحلول يتمادون فى ضلالتهم بعد أن برىء منهم الامام على وعاقبهم بالحريق ، وبعد أن كذبهم ابنه وأعرض عنهم وأقام فى الحجاز وتركهم بالعراق يلجون فى الادعاء له والادعاء عليه

ولم يخل عصر الامام جعفر الصادق — أبى اسماعيل رأس الاسماعيليين — من داعية يفترى على الأئمة العلويين ، وهم أحياء ، كما فعل أبو الخطاب الأسدى الذى كان يقول بتشخيص الجنة والنار ، وزعم فى مبدأ أمره ان أولاد الحسن والحسين أنبياء الله ، ثم زعم أنهم أرباب وأن الامام

جعفرا إله يعبد ، فلعنه جعفر الصادق وبرىء منه ونفاه . قال أبو منصور البغدادى صاحب كتاب الفرق بين الفرق « فادعى بعد ذلك فى نفسه أنه الاله ، وقال أتباعه ان جعفرا الاله .. غير أن أبا الخطاب أفضل منه وأفضل من على ، وجوزوا شهادة الزور على مخالفيهم »

وكان غيرهم كذلك يجوزون شهادة الزور على المخالفين ، ومن شهادة الزور ما نحلوه لأصحاب المذاهب من الشيعيين والسنيين

وقد دعا القرامطة للفاطميين كما دعا عبد الله بن سبأ للامام على وكما دعا المختار لابنه محمد بن الحنفية ، فأنكرهم الخليفة الفاطمى حين خرجوا على الدين وأغاروا على الحجاز واعتدوا على الحجاج ، وكتب الخليفة القائم وهو بالمغرب الى داعية القرامطة يقول له : « العجب من كتبك الينا ممتنا علينا بما ارتكبته واجترمته باسمنا من حرم الله وجيرانه بالاماكن التى لم تزل الجاهلية تحرم اراقة الدماء فيها واهانة أهلها ، ثم تعديت ذلك وقلعت الحجر الذى هو يمين الله فى الأرض يصافح بها عباده ، وحملته الى أرضك ورجوت أن نشكرك ، فلعنك الله ثم لعنك ، والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده ! » ..

وعلى خلاف ما قيل عن اباحة المحرمات فى المذهب الفاطمى ، ثبت من صائح أئمة فيهم أنهم كانوا يقصدون فى الحلال المباح ويأمرون أتباعهم ومريديهم بالقصد فيه ، وقد أوصى المعز اتباعه من زعماء كتامة بالمغرب فقال عن الزوجات . « الزموا الواحدة التى تكون لكم ولا تشرهوا الى التكثر منهن والرغبة فيهن فيتنغص عيشكم وتعود المضرة عليكم وتنهكوا أبدانكم وتذهب قوتكم وتضعف نحائزكم [1] ، فحسب الرجل الواحد الواحدة .. »

وعلى خلاف دعوى الربوبية كان المعز هذا ـــ وهو أعلمهم بالتنجيم ـــ يقول كما روى عنه القاضى النعمان فى كتاب المجالس والمسايرات : «من نظر فى النجامة ليعلم عدد السنين والحساب ومواقيت الليل والنهار وليعتبر بذلك عظيم قدرة الله جل ذكره وما فى ذلك من الدلائل على توحيده لا شريك له فقد أحسن واصاب ، ومن تعاطى بذلك علم غيب الله والقضاء

---

(١) نحائزكم : النحيزة الشدة .

عما يكون فقد أساء وأخطأ » ..

وكان العزيز كالمعز فى هذا المعتقد كما قال أخوه تميم فى احدى قصائده :

ولما اختلفنا فى النجوم وعلمها
وفى أنها بالنفع والضر قد تجرى
فمن مؤمن منا بها ومكذب
ومن مكثر فيها الجدال وما يدرى
ومن قائل تجرى بسعد وأنحس
وتعلم ما يأتى من الخير والشر
فعلمتنا تأويل ذلك كله
عما فيه من سر وما فيه من جهر
عن الطاهر المنصور جدك ناقلا
وكان بها دون البرية ذا خبر
فأخبرتنا أن المنجم كاهن
عما قال ، والكهان من شيعة الكفر
وان جميع الكافرين مصيرهم
الى النار فى يوم القيامة والحشر
فجمعتنا بعد اختلاف ومرية[1]
وألفتنا بعد التنافر والزجر
وأوضحت فيها قول حق مبرهن
يجلى ظلام الشك عن كل ذى فكر
فعدنا الى أن الكواكب زينة
وفيها رجوم للشياطين اذ تسرى
مسخرة مضطرة فى بروجها
تسير بتدبير الاله على قدر
وان جميع الغيب لله وحده
تبارك من رب ومن صمد وتر

---

(١) مرية : الشك والجدل .

وما علمت منه الأئمة انما
رووه عن المختار جدهم الطهر

وقد خولط خليفة من خلفاء الفاطميين فى عقله ــ وهو الحاكم بأمر الله ــ فلم يثبت من تصرفه أنه تلقن من آبائه وأسلافه مذهب الاباحة وادعاء الربوبية ، وانه وريث قوم من اليهود أو المجوس مندسين على الاسلام ليفسدوه وينقضوه ، بل ظهر أنه يحرم المباح ويطارد اليهود تارة ويغضى عنهم تارة أخرى على كراهية وتهور ، وانه كان يمنع تقبيل الأرض بين يديه ولايرضى أن تلثم يداه وركابه ، وأمر ألا يزيد الناس فى السلام حين يدخلون اليه على قولهم : « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته »

ويجوز أن يقال عن هذا الخليفة انه كان فى تخليطه وتجديفه[1] فريسة المضللين من وزرائه ولا يجوز أن يقال انه تولى العرش وهو يعلم أنه يهودى أو مجوسى يستدرج المسلمين الى الكفر والاباحة وانه يهدم دولته ودولة الاسلام كله وفاقا لما تآمر عليه آباؤه وأضمروه

ولم يثبت مع هذا كل ما قيل عن أوامر الحاكم وزواجره وكل ماشاع عن نقائضه وبدواته ، فان التشنيع بالمضحكات والمبالغات مألوف فى القاهرة لذلك العهد وما تلاه

وقد وضع كتاب عن « قرهقوش » صوره للناس فى صورة الطاغية الذى لايبالى ما يأمر به من المستحيلات والغرائب وغفل الكثيرون عن موضع الفكاهة من تلفيقات الرواة ، فحسبوها كلها جدا لا مرية فيه ، وتناقلوها وأضافوا اليها ، ولم يزالوا يرددونها على هذا الفهم الخاطىء الى زمن قريب ، وقد كان «قره قوش» على خلاف ما صورته الروايات عنه مثلا فى الحزم واصالة الرأى وحسن التدبير

وعنـد ابن خلدون أن الاختلاق ظاهر فيما ادعوه على الحاكم من الدعاوى الدينية ، وانه كان مضطربا فى الجور والعدل والاخافة والأمن والنسك والبدعة ، وأما ما يروى عنه من الكفر ... فغير صحيح ولا يقوله ذو عقل ، ولو صدر من الحاكم بعض ذلك لقتل لوقته ؛ وأما مذهبه

---

(١) تجديفه : جدف : كفر بالنعم ، واستقل عطاء الله .

فى الرافضة فمعروف ، ولقد كان مضطربا فيه ، ومع ذلك فكان يأذن لأهل السنة من المصريين فى صلاة التراويح ثم ينهى عنها »

على أن الأقاويل عن الحاكم ـ صحت أو لم تصح ـ انما تروى عنه ويعلم رواتها أنهم يتكلمون عن رجل مخالط فى عقله لا يعول له على سر أو علانية ..

ونحب هنا أن توضح ما نستبعد نسبته الى الدعوة الفاطمية فى صميمها على حسب ما انتهينا اليه من الشواهد النفسية والتاريخية

فنحن لا نستبعد أن يكون من الدعاة الفاطميين أناس قد استخرجوا لأنفسهم من دراساتهم فى التصوف أو الفلسفة أو التنجيم مذهبا ينكره علماء الدين من السنيين والشيعيين

ولا نستبعد أن يكون منهم أناس خدموا القضية الفاطمية كلها خدمة لأنفسهم ولصقوا بها كما يلصق طلاب المنافع والنهازون للفرص بكل دعوة كبيرة تتسع لخدمة المنافع الخاصة مع خدمة المنافع العامة

ولا نستبعد أن يعاب على الدولة الفاطمية ما يعاب على الدول فى دور التأسيس أو فى دور الانحلال

ليس شيء من ذلك بعيــدا ولا موجب لاستبعاده نظرا الى أحكام العقل أو شواهد التاريخ ..

ولكن الذى نستبعده ونرى أنه مناقض للواقع وللمألوف من الدواعى النفسية أن يكون هناك تواطؤ مبيت بين أناس من المعطلين على انشاء دولة لهدم الدين الاسلامى والدولة الاسلامية معه ، وأن يشمل هــذا التواطؤ أقواما فى المغرب والمشرق ويدوم من قرن الى قرن قبل نجاح الدعوة وبعد نجاحها بزمن طويل

هذا هو البعيد عقلا والبعيد فى دعوى المدعين الذين لم يسندوه قط بدليل يقرب الى العقل ذلك الزعم البعيد

أما ماعدا ذلك من شؤون الدعوة الفاطمية ، أوشؤون الدعوة العلوية فى جملتها فقد سار فى التاريخ مطردا على النهج الذى ينبغى أن يسير عليه

ان الايمان بالامامة واطلاع الامام على الأسرار التى تخفى على غيره أمر لازم من لوازم الدعوة العلوية فى نشأتها التاريخية

فان المؤمن بحق على وأبنائه فى الامامة يسائل نفسه : لم لاينصره الله على أدعياء الامامة والخلافة ؟

انه يؤمن بالله وقدرته وقدره ، فلا جواب لذلك السؤال عنده الا أنها حكمة يعلمها الله ، وان الامامة العلوية منذورة لزمان غير هـذا الزمان ، وان الامام الحق يعلم زمانه أو ينبغى أن يعلمه بالهام من الله

وقد آمن شيعة على بهذا وآمنوا معه بعرفانه لعلوم الجفر وتأويل الكتاب ، وكلما تباعدت المسافة بين امامة الواقع وامامة الحق تباعدت معها المسافة بين امامة الظاهر وامامة الباطن ، ثم جاء الزمن الذى أصبحت فيه امامة الباطن مستورة حتما فأصبح فيه علم الدين والدنيا مرهونا بما يتعلمه الطالب من الامام المستور ومن دعاته الذين يخلصون اليه ويعلمون مكانه ويفسرون أقواله واشاراته ، ولا بد من هؤلاء الدعاة ولا مناص من هذا التعليم ..

واذا كان السلطان صاحب الجند والصولة يعتمد فى قيام دولته على الشريعة والقضـاء وعلى السيف والشرطة فعلام يعتمد الامام المستور الذى لا سلطان له من شرطة ولا جند ولا قضاء ؟

انه لن يعتمد على شىء غير الطاعة والثقة التى لا تتزعزع ، فلا جرم يطيعه المطيع وهو يؤمن بعصمته على الأقل فى شؤون امامته ، ويؤمن بهلاك روحه ان خرج على حكم الطاعة وخان أمانة الدنيا والآخرة ، ونقض العهود وحنث باليمين

كل هذا بديه ولا حاجة به الى رصف أوراق أو رص أسانيد ، لأنه لن يكون الا هكذا حيثما كان ، وقد كان

ولا ننسى أن الأئمة أنفسهم يؤمنون بما يؤمن به أتباعهم ومريدوهم : يؤمنـون بحقهم ويؤمنـون بيومهم الموعود ويؤمنـون بالسر الذى يروضون أنفسهم بالعبادة والعلم على أن يستلهموه من هداية الله

ومن التوفيقات التى نسميها بتوفيقات «الموقف» أن الباطنية الواقعية والباطنية الفاطمية أو الامامية على الجملة تتلاقى هنا — بحكم الموقف الواحد — فى كثير من الأمور

فالدراسات المستورة أو المكتومة تتلاقى فى جانب واحد ، وان كانت متعددة المطالب والموضوعات

وقد كان المحافظون على الواقع الراهن ينكرون هـذه الدراسات ويمنعونها على درجات من المنع تتفاوت فى العنف والصرامة

فكان « الموقف » الواحد يجمع بين أصحاب الدراسات المستورة أو الممنوعة التى لايرتاح اليها أنصار الواقع والمحافظة على القديم

وليس من مجرد المصادفة أن فلاسفة المشرق كانوا من الشيعة بتفكيرهم كما كان منهم أناس متشيعون بنشـأتهم وميراثهم من بيوتهم ، فكان الكندى والفارابى وابن سينا من الشيعة ، وكان اخوان الصفاء كذلك من الشيعة ، ومن كان من الفلاسفة سنيا كالفخر الرازى فمذهبه الفلسفى فى صفات الله يوافق مذهب الاسماعيليين وأئمة الفاطميين . اذ كان يرى أن الايمان بتعدد الصفات واستقلال كل صـفة منها عن الأخرى تعديد لا يوافق التوحيد ..

والذى نستخلصه من المذهب الفاطمى أن فلاسفتهم أخذوا بمذهب الفيض الالهى الذى تعلمه المشرقيون باسم الحكيم أفلاطون وهو ينتمى فى حقيقته الى الحكيم أفلوطين

نستخلص هذا من قول ابن سينا أن أباه كان يذهب فى الكلام عن العقل والنفس مذهب الاسماعيلية

ونستخلصه من رسائل اخوان الصفاء وهم من القائلين بمذهب الفيض الذى كان يقول به أفلوطين

بل نستخلصه من خلط الخالطين فى هذا المذهب ، لأنه هو المذهب الذى يتعرض لهذا الخلط فى كل مكان ، وقد تعرض له فى الشرق كما تعرض له بين الأوربيين فى القرون الوسطى ، ولايزال يتعرض له فى العصر الحديث

وعلى نقيض ما قيل عن الاباحة فى مذهب الاسماعيليين يمتاز مذهب الفيض الالهى بالمبالغة فى التطهر والاعراض عن الشهوات والترفع عن غواية الدنيا التى يتهالك عليها الجهلاء ، والجاهل عندهم هو من يتعلق بشىء من الأشياء غير معرفة الحقيقة الالهية والبحث عنها فى كل ظاهرة من ظواهر هذا الوجود ..

وقد نبه اخوان الصفاء فى غير موضع من رسائلهم الى وجوب التطهر على الحكيم الخالص للحكمة فى حياته الخاصة والعامة ، وقالوا غير مرة أن الاستسلام لشهوات البدن يقطع الانسان عن آخرته ومعاده ، ومن ذلك قولهم فى رسالة الجسمانيات والطبيعيات : « اعلم أن الاستغراق فى الشهوات فى هذه الدنيا ينسى الانسان امر الآخرة ويشككه وييئسه منها كما قال قائلهم فى هذا المعنى :

هى الدنيا وقد وعدوا بأخرى
وتسويف الظنون من السوام

وقيل أيضا فى هذا المعنى شعرا :

خذوا بنصيب من نعيم ولذة
وكل وان طال المدى يتصرم

وقال آخر وقد كان ساهيا عن أمر الآخرة :

ما جاءنا أحد يخبر أنه
فى جنة من مات أو فى نار

وأشعارهم كثيرة فى مثل هذه الظنون والشكوك والحيرة التى وقعوا فيها عقوبة لهم عندما تركوا وصية ربهم ونصيحة أنبيائهم واتباع علمائهم والحكماء فيما يدعونهم اليه ويرغبون فيه من نعيم الآخرة ويأمرونهم به من الزهد فى الدنيا وينهونهم عنه من الغرور بشهواتها وعاجل حلاوتها »

ومنذ القدم عرف عن هذا المذهب الفلسفى أنه مذهب نسك وعفة وعزوف عن الماديات وترفع الى عالم الروح ، وكان أفلوطين صاحبه قدوة لأبناء عصره فى العفة والزهد والانقطاع عن شواغل الثروة والجاه ، وكان

من تلاميذه من يبيع قصوره ونفائسه ليلازمه فى معهده ويعيش على مثاله
ولا غنى عن خلاصة لهذا المذهب ننقلها هنا كما أوردناها فى رسالتنا عن الشيخ الرئيس ابن سينا وهى كما يلى :

« ... انه يتجاوز — أرسطو — أشواطا بعيدة فى التنزيه والتجريد ، فيرى أن الله — أو الأحد — من وراء الوجود ومن وراء الصفات ، لا يعرف ولا يوصف ، ولا يوجد فى مكان ولا يخلو منه مكان ، وكماله هو الكمال الذى نفهمه بعض الفهم بنفى النقص عنه ، وهيهات أن نفهمه باثبات صفة من الصفات ، لأننا نستطيع أن نقول انه لا يكون هكذا ولا نستطيع أن نقول انه هكذا يكون ..

« وقد يتصل به الانسان فى حالة الكشف والتجلى حين تتجاوز الروح جسدها كما يقول ، ولكنها حالة لا تقبل التأمل والتفكير ، فاذا انقضت فقد يثوب الانسان بعدها الى عقله فيتأمل ويفكر وينحدر بذلك من مقام الأحد الى مقام العقل الذى هو دونه ، لأن الأحد فوق العقل وفوق المعقول . ويقول أفلوطين كما يقول أرسطو ان الله أو « الأحد » لا يشغل بغير ذاته ، لأنه مستغن بذاته كل الاستغناء . أما العالم فقد نشأ من صدور العقل عن الأحد وصدور النفس عن العقل من هذا التأمل ، وان العقل يعقل الأحد فهو أحد مثله وان كان دونه فى مرتبة الوجدانية ، ثم يعقل ذاته فينشأ من عقله لذاته عقل دونه وهو النفس أو هو القوة الخالقة التى أبدعت هذه المحسوسات ..

« ومن البديه أن صدور الجسم من الجسم ينقصه ويخرج شيئا منه ينتقل من المعطى الى الآخذ فينقص بانتقاله ، أما صدور الفكرة من العقل فلا تنقصه ولا تجرده من شىء فيه ، وعلى هذا المثال نفهم صدور العقل عن الأحد الذى لا يعتريه نقص بحال من الأحوال

« والنفس — وهى المرتبة الثالثة فى الوجود عند أفلوطين — تتجه الى العقل فتنسجم معه فى مقام التجريد والتنزيه ، وتتجه الى الهيولى فتبتعد عن التجريد والتنزيه ، ولهذا تخلق الأجسام وتضفى عليها الصور على

سبيل التذكر لما كانت تتأمله وهى فى عالم القدرة الكاملة أو عالم الصور المجردة . فهـذه المحسوسات هى كالظلال للمعقولات قبل أن تبرزها النفس فى عالم المحسوسات ، أو هى كأطياف الحالم وهو يستعيد بالرؤيا ما كان يبصره بالعيان ..

« فالمحسوسات كلها أوهام وأحلام ، وكلها غشاء باطل يزداد بعدا من الحقيقة كلما ابتعد من العقل وانحدر فى اتصـاله بالهيولى طبقة دون طبقة ، فان العقـل دون الأحد والنفس دون العقل والمحسوسات دون النفس ، وهكذا تهبط الموجودات طبقـة بعد طبقـة حتى تنحدر الى الهيولى التى لا نفس معهـا ، وهى معدن الشر فى العالم ، لأنها سلب محض يحتاج أبدا الى الخلق ، وهو الايجاد أو الايجاب

« وقد صدرت النفس الفردية من النفس الكلية ، ولها كالنفس الكلية التى صدرت منها اتجاهات . فهى باتجاهها الى النفس الـكلية الهية صافية ، وباتجاهها الى المحسوسات والأجساد حيوانية شهوية ، وليست النفس عند أفلوطين ملازمة للجسد كما يقول أرسطو ، بل هى جوهر منفصل عنه سابق له كالمثل الأفلاطونية ، فلا تقبل الفناء ولا يحصرها الزمان والمكان ، وهى تصدر من النفس الكلية اضطرارا كما صدرت النفس الكلية من العقل الأول ، مستجيبة لطبيعة الاصـدار فى ذلك العقل ، وللشوق الهيولانى الذى يترفع بالهيولى الى منزلة المحسوسات فالمعقولات ..

« والشر فى العالم هو الهيولى لأنها سالبة تنزل بالمعقولات والروحيات التى لا تلابسها ، ولا محيد عن الشر مع وجود الهيولى وقدمها وضرورة الملابسة بينها وبين العقل والنفس فى دور من أدوارها ، وعلى النفس أن تجاهدها وتنتصر عليها وعلى شهواتها ، فان أفلحت عادت الى النفس الكلية خالصة مخلصة ، وان لم تفلح عادت الى الجسد مرة أخرى ولقيت فى كل مرة جزاءها على الذنوب التى اقترفتها فى حياتها الجسدية الماضية ..

« ولا حرية للانسان كما رأيت ، لأن وجوده ضرورة يستلزمها الصدور

وملابسة الهيولى ، ولكنه يقاوم تلك الضرورة بجهاد الشهوات ، فيترقى من مرتبة الحس الى مرتبة التأمل الى مرتبة الكشف ، وينتقل من شتات الحس الى استجماع العقل الى وحدة الأحد ورضوان الكمال ، فتجزيه ضرورة الارتقاء عن ضرورة الانحدار ، ولا محل بينهما لشيء من الاختيار ، وان قال به أفلوطين فى بعض الأحيان ... »

هذه خلاصة وجيزة جدا لأصول مذهب الفيض كما شرحه تلاميذ أفلوطين ، نعتمد فيها على المراجع الأوربية الحديثة التى نقلت مباشرة من اليونانية ، وقد نقل هذا المذهب مجملا فى بعض الأوقات ومفصلا فى أوقات أخرى الى اللغة العربية ، ووقع فى نقله خطأ اسناد وخطأ تفسير.. فنسب الناقلون فصولا منه الى أفلاطون ونسبوا مبادىء منه الى أرسطو ، ولكن المتصوفة الاسلاميين وفلاسفة الاسلام فى المشرق قبلوا منه ما يوافق الدين الاسلامى وهو تنزيه الأحد وعقيدة التجلى على الخلصاء من العباد والمتأملين ، ورفضوا منه على التخصيص قوله بتناسخ الأرواح وعقوبة الأنفس فى هذه الدنيا بردها الى الأجساد التى تشقى فيها ، أو مكافأتها بردها الى الأجساد التى ترتقى فيها الى مرتبة فوق مرتبتها

ووجد الفلاسفة والمتصوفة معاً ما يوافقهم فى أقوال أفلوطين ، فقال بالكشف وقدرة النفس على الخوارق طائفة من المفكرين لا يحسبون بين أهل الطريق ولا يدعون لأنفسهم صفة الامامة الدينية ، وانما قالوا بالكشف والقدرة على الخوارق أخذاً بالأقيسة الفكرية ، واستدل ابن سينا على امكان الكشف بأن النفس الصالحة تتلقى فى الرؤيا الأنباء بالمغيبات عنها وعن غيرها فلا مانع من تلقيها العلم يقظة متى تهيأت له بالرياضة وصفاء السريرة ، وان نفس الانسان تتصرف فى مادة الجسد فلا مانع أن تتصرف فى مادة الكون بقدرة تستمدها من علة العلل التى تتصرف فى جميع الأشياء

وطائفة من أصحاب المآرب وجدوا فى تناسخ الأرواح ما يعينهم على

دعواهم ، ومنهم من كان يدعى انه ابن الامام على بالتسلسل الروحانى مع اعترافه بأنه من غير نسله فى السلالة الجسدية ، زاعما أن البنوة تحصل بالانتماء الى الروح كما تحصل بالانتماء الى الجسد ، ولم يكن فى هؤلاء أحد من الفاطميين ولا كانت بهم حاجة الى هذه الدعوى لأنهم يصححون نسبهم جميعا الى الامام على بغير وسيلة هذا التناسخ المزعوم ..

ولا شك أن العلامة الشهرستانى كان يلخص طرفا من مذهب أفلوطين كما وصل الى المشرق حين قال فى تلخيصه لكلام الباطنية عن الصفات : « ان الله لما وهب العلم للعالمين قيل هو عالم ، ولما وهب القدرة للقادرين قيل هو قادر ، فهو عالم قادر بمعنى أنه وهب العلم والقدرة ، لا بمعنى أنه قام به العلم والقدرة أو وصف بالعلم والقدرة .. وانه أبدع بالأمر العقل الأول الذى هو تام بالفعل ، ثم بتوسطه أبدع النفس الذى هو غير تام .. ولما اشتاقت النفس الى كمال العقل احتاجت الى حركه من النفس الى الكمال واحتاجت الحركة الى آلة الحركة الخ الخ »

فهذا المذهب فى الصفات الالهية يوافق مذهب أفلوطين فى جملته ، وفحواه بلا اغراب ولا ابهام اننا حين نصف الله بالعلم لا ندرك من كنه العلم الا ما يعطينا اياه ، واننا حين نصف الله بالقدرة لا ندرك من كنه القدرة الا ما نقدر عليه بأمر الله ، وهكذا فى سائر الصفات مما لا يجوز أن يفهم منه انه انكار لعلم الله وقدرته ، اذ كان أصحاب الفيض الالهى ينكرون نقائض الكمال ويرتفعون بالكمال الالهى مرتفعا تعجز عن ادراكه العقول ..

لكن هذا المذهب كما أسلفنا عرضة للخلط فى فهمه ممن يعرفون عما لا يعرفون ، فان هؤلاء يخلطون بينه وبين مذهب الحلول وهو يناقض مذهب الحلول أشد المناقضة وينكروه غاية الانكار ، فان الخلاص من أوهاق[1] المادة الجسدية عند أفلوطين هو غاية التنزيه والتطهير ، ولا يتفق هذا مع القول بحلول الله سبحانه وتعالى فى الأجسام

كذلك يخلطون بينه وبين وحدة الوجود وهما مذهبان متناقضان

---

(١) أوهاق : جمع وهق بفتحتين حبل يرمى وفيه أنشوطة فتؤخذ به الدابة .

فانّ القائلين بوحدة الوجود يسبغون الصفة الالهية على الموجودات جميعا وهو قول ينفيه افلوطين جد النفى تنزيها لله « الأحد » عن جميع المحسوسات والمتعددات ..

ويسمع السامع أن حكمة الخلق تتجلى فى أناس بعد أناس فيخيل اليه أن اللاحق أفضل من السابق أو ان قيام مشيئة الله فى كل عصر رسالة كرسالة الأنبياء ..

هــذا الخلط فى فهم المذهب قد جنى على الحقيقة فى غير طائل وجرّ الى الخبط فى الظنون لغير علة لولا الحماقة وخفة العقل وحب الحذلقة والادعاء ..

وقد كان ابن هانىء الأندلسى من هؤلاء الذين يتعاطون الفلسفة ويهرفون(١) فيها بما لا يعرفون ، ولم تكن حذلقته مقصورة على مذهب الاسماعيلية بل هى طبيعة نشأت معه فى موطنه ولغط بالفلسفة وهو يتصل بصاحب اشبيلية فأقصاه خوفا من اتهامه معه بمشاركته فى أضاليله وخزعبلاته ، ولما مدح المعز الفاطمى بقصيدته الرائية التى قال فى مطلعها :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار
فاحكم فأنت الواحد القهار

لم يكن يريد أن يقول ان المعز أقدر من الله والا لما قال بعد ذلك :

وكأنما أنت النبى محمد
وكأنما أنصارك الأنصار

وانما أراد أن يتحذلق بما سمع عن صفات القدرة والعلم وان الله يوصف بالقدرة لأنه يعطيها ، وان مشيئته سبحانه وتعالى تقوم بمن يندبه لامضاء تلك المشيئة ، فخلط وخبط واتهمه الناس ولهم العذر فيما اتهموه به ، ولم تكن به ولا بممدوحه حاجة اليه ..

الا اننا اذا صرفنا النظر عن هذا وأشباهه من ضروب الحذلقة والمبالغة فى الشعر خاصة لم نجد فى كلام القوم ما لم يألفه المتصوفة وأبناء الطريق من عبارات المجاز والكناية ، وليس فيما روى عن ثقات الفاطميين شىء لم

---

(١) يهرفون : هرف الرجل بصاحبه اطرا بالمدح اعجابا به .

يسمع مثله من امام كبير كمحيي الدين بن عربي فى كتب التأويل أو كتب الترسل الصريح ، وقد كتب محيي الدين الى فخر الدين الرازى رسالة يقول فيها : « للربوبية سر لو ظهر لبطلت النبوة ، وللنبوة سر لو كشف لبطل العلم ، وللعلماء بالله سر لو ظهر لبطلت الأحكام ، فقوام الايمان واستقامة الشرع بكتم السرية ..» الى آخر ما قال عن التوحيد والاتحاد والوحدانية والأحدية .. وفوق كل ذى علم عليم ..

وهذا كلام لولا ولع المتصوفة بالاغراب لقال قائله ان النبوة لازمة لأن النـاس لا يكشفون سر الغيب بغيرها ، وان العلم لازم لأن النبوة لا تصل الى الناس أجمعين ، وان الأحكام لازمة ، لأن العالم يزجره العلم والجاهل تزجره الأحكام . ولكن الاغراب فى أساليب المتصوفة والحذلقة فى أساليب من يسمعون ولايفقهون أو من يفقهون القليل ويحبون أن يظهروا الفقه الكثيـر كل أولئك يقود الى الظنون حيث لاموجب للظنون

***

وجملة القول أن الباطنية الفاطمية لو لم تقترن بالدعوة الى قيام دولة تحارب الدول القائمة لما استغربها الناس ذلك الاستغراب ولا اضطربت حولها التهم والأقاويل ذلك المضطرب ، فقـد كان كل مذهب فى ذلك العصر « باطنيا » على نحو من الأنحاء ، وأوشك أن يتساوى فى هـذا أهل السنة وأصحاب التصوف وطلاب الفلسفة واخوان الصـفاء ممن يتذاكرون العلم بينهم ويظهرون منه حينا بعد حين ماطاب لهم أن يظهروه

فالامام الغزالي ـــ وهو من أقطاب أهل السنة ومبغضى الفلسفة ـــ كان يؤلف للعامة غير ما يؤلفه للخاصة . وكان من كتبه ما يضن به على غير أهله ، والامام ابن عربى المتصـوف كان يدين بالسرية ويرى أنها تمام العلم والمعرفة ، وأبو العلاء المعرى الشاعر الحكيم كان فى رأى داعى الدعاة يخفى ما يعلم عن أناس يلعن بعضهم بعضا ويتهم بعضهم بعضا بالكفر والمروق من الدين ، وشعارهم جميعا :

خـل جنبيـك لرام وامض عنه بسـلام

مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام

الا أن يكون مندوبا لعمل لا حيلة له فيه أو متجردا لرسالة يهون فيها عنده أن يقول وأن يقال فيه

ومن المحقق أن الباطنية الفاطمية أضيف اليها الكثير بعد دخول الحسن بن الصباح الذى سيأتى ذكره فى زمرتها ، ومن هذا الكثير أنظمة لم تعهدها من قبل ، وعقائد لم تكن لازمة لها ولا معقولة منها ، وأهم هذه الأنظمة نظام الفدائيين الذين كانوا عدة الرؤساء فى حوادث الحيلة والهجوم على المخاطر ، فهؤلاء لم يظهر لهم عمل فى خدمة الباطنية الا بعد نشوء الدولة الفاطمية بأكثر من مائة سنة ، ولو كان للخلفاء الفاطميين جند من هذا النظام لما استبد بهم الوزراء أحيانا من غير مذهبهم ولا من المجاملين لطوائف الاسماعيلية المخلصة لأولئك الخلفاء

***

فقد استبد الأمير بدر الجمالى بالأمر دون الخليفة — وهو أمير الجيوش الذى ينسب اليه حى مرجوش والجمالية — وجاء ابنه الأفضل من بعده وسار مع الخليفة الآمر على خطة أبيه ، وكان بدر وابنه الأفضل على مذهب من مذاهب الشيعة غير مذهب الاسماعيلية ، فصادروا الاسماعيليين ونفوا أناسا من قادتهم وغلاتهم من الديار المصرية ، وضاق الخليفة الآمر بوزيره ذرعا فتحدث الى ابن عمه فى قتله عند دخوله اليه بقصر الخلافة ، ووافقه ابن عمه على وجوب الخلاص من الوزير المستبد ولكنه أشفق على سمعة القصر من جرائر اغتيال الوزراء والكبراء فى رحابه ، وأشار عليه بتحريض رجل من صنائع الوزير نفسه على قتله ، واغرائه بمنصب سيده مكافأة له على طاعته ، واتفقا على اختيار المأمون بن البطائحى لهذه المهمة فقبل هذا ما أمروه به طمعا فى الوزارة ، ولم يجد البطائحى من يعينه على مهمته غير أعداء الوزير الذين نفاهم من مصر ثم تسللوا اليها خفية .. وشجعهم على الانتقام منه اغراء البطائحى لهم ووعدهم بالعفو عنهم واسناد الوظائف اليهم متى آلت اليه وزارة الدولة ، ولو

كان نظام الفدائيين معروفا يومئذ فى الدولة الفاطمية لما استطاع الوزير الأرمنى المخالف لمذهب الاسماعيلية أن يستبد بالامام المطاع ولا احتاج الامام المطاع الى التفكير فى اغتيال الوزير بين يديه بقصر الخلافة ، ولا الى تدبير تلك المؤامرة التى اعتمد فيها على الوعد والاغراء والاستعانة بذوى المطامع والترات[١]..

ولا شك أن الحسن بن الصباح لم يعمد الى نظام الفدائيين الا بعد استيلائه — كما سيلى — على قلعة « آلموت » واضطراره الى حماية نفسه من دول حوله تجرد الجيوش لقتاله ، وهو فى قلعته بغير جيش يقاوم تلك الجيوش الزاحفة عليه بمثل عدتها وعددها فى ميادين القتال

وقد تغيرت الدعوة كلها حين تغير موضوعها وتغيرت وسائلها ، وأمعنت فى التخفى أو فى « الباطنية » الواقعية حين أمعنت فى الهجوم على خصومها وأمعن خصومها فى الهجوم عليها

***

أما قبل دخول ابن الصباح فى زمرة الباطنية فقد كان استخفاء الدعاة وأتباع الدعاة ضرورة لا محيد عنها لانتشار أصحاب الدعوة فى بلاد واسعة تدين بالطاعة لحكومات متوجسة ، تسرع الى التنكيل بكل من يخالفها ويناصر أعداءها . ولم يكن هذا الاستخفاء لترويج الدسيسة التى تمالأ عليها « مجوس أو يهود » بيتوا النية على هدم الدين وتضليل المسلمين ، بل كان لزاما لأصحاب تلك الحكومات ولا شك أن يشركوا رعاياهم معهم فى الخوف من الاسماعيلية ، فلو أنهم قالوا لأولئك الرعايا ان الاسماعيليين طلاب ملك ينتزعونه من ملوك ذلك الزمن لما تحركت لأولئك الرعايا ساكنة فى حربهم والدلالة على مكانهم ، اذ كان أكثر الرعايا يعلمون أن الحكم فى أيدى أناس لا يستحقونه بعلمهم وعملهم وان استحقوه بنسبتهم ، وان أصحاب السلطان الفعال من أجناد الديلم والترك دخلاء على العباسيين كما كانوا دخلاء على الفاطميين ، فان لم يكن خطر الاسماعيلية خطرا على الدين وعلى المسلمين جميعا فهو خطر لا يهم الناس

---

(١) الترات : جمع ترة وهي الثار .

فى كثير ولا قليل ، ما دام مقصورا على أصحاب العروش والدسوت [١]

ولهذا راجت خرافة النسب الى المجوس واليهود ، وهى خرافة تنكرها الحقائق النفسية ولا تؤيدها الشواهد التاريخية ، وكل ما ثبتت نسبته الى أصحاب الباطنية الفاطمية فهو من المسائل التى يختلف عليها طوائف المسلمين من سنيين وشيعيين ، بل يختلف عليهـا الشيعيون الاماميون أنفسهم بين القائلين بامامة موسى والقائلين بامامة اسماعيل من أبناء جعفر الصادق ، وليس وراء ذلك كله دسيسة لهدم الاسلام كله وتضليـل المسلمين أجمعين ..

***

ومحصل القول فى المذهب الاسماعيلى من الوجهة الفلسفية انه هو مذهب الفيض الالهى كما اعتقده المتصـوفة المسـلمون من أصحاب الدعوات السياسية وغير أصحاب الدعوات السياسية ، يضـاف اليه القول بعصمة الامام وانه هو وحده القـادر على التـأويل الصحيح والاحاطة ببواطن التنزيل ، وينبغى أن نذكر هنا أن القول بالعصـمة الواجبة لكل امام كان مذهبا من مذاهب الفلسفة فى حكومة المدينـة الفاضلة ، فان الفيلسوف الفارابى الذى كان يلقب بالمعلم الثانى قـد طلب لامام المدينة الفاضلة كمال العقل والعلم والخيال والذوق والخلق والخلقة ، ولعله لهذا كان قريبا من الشيعة محبا للمتشيعين

وقد كان القول بعصمة الأئمة لايوجب على المؤمنين به سب كل خليفة غير الامام على وأبنائه الأكرمين ، ولكن سب الخلفاء جرى على ألسنة طائفـة من غلاة الفـاطميين وغير الفـاطميين ، فاستنكره عقـلاؤهم وحكماؤهم ، واستنكره أدبا من لا ينكره اعتقادا ولا يرى الخلافة لأحد غير الامام على وبنيه ، ولا عذر من المسبة الباطلة على كل حال ، ولكن الخلاف القبيح الذى أطلق الألسنة بلعن على على المنابر ستين أو سبعين سنة هو الخلاف القبيح الذى أطلق الألسنة بعد ذلك بالجرأة على أقدار الأئمة الآخرين رضوان الله عليهم أجمعين

---

(١) الدسوت : جمع دست وهو المجلس وصدر البيت .

حسن بن الصباح

أشرنا فى الفصل السابق الى التغير الذى طرأ على نظام الدعوة الاسماعيلية بعد دخول الحسن بن الصباح فى زمرتها ، وسنرى من جملة الأخبار والأعمال التى رويت عن ابن الصباح ان الرجل من أصحاب تلك الشخصيات التى لا تتصدى لدعوة من الدعوات الا أضافت اليها شيئا من عندها وطبعتها بطابعها ، وانه لم يكن من أولئك الذين يتعلقون بدولاب كبير يديرهم الى وجهته ، بل كان من الذين يديرون الدولاب الى وجهتهم حين يتعلقون به ، ولا يدفعهم الى التعلق به الا أنهم لايستطيعون أن يخلقوا لأنفسهم دولابا مستقلا يتعلق به الآخرون

واتفقت الأخبار الصادقة والكاذبة التى رويت عن الرجل على صفة واحدة فيه يثبتها الخبر الصحيح والخبر الكاذب على السواء ، وهى الجنون بالسيطرة والغلبة ، وتتعمد أن نسميها الجنون بالسيطرة ولا نسميها حبا للسيطرة ولا رغبة فيها ، لأنه كان مغلوبا لدفعة نفسه أو كان أول من غلبته تلك النزعة فمضى معها مسوقا لها غير قادر على الوقوف بها ولا الراحة معها

والسيطرة محبوبة لكل انسان ، ولكن الفرق عظيم بين من يهيم بالسيطرة لأنه لا يطيق العيش بغيرها ، وبين من يطلبها لأنه يفضلها على عيشة بغير سيطرة أو يفضلها على عيشة الطاعة والاذعان للمسيطرين

ذلك مضطر الى طلب السيطرة ، وهذا مختار فى المفاضلة بين الحصول عليها والاستغناء عنها ، وقد يفضل الاستغناء عنها اذا جشمه الطلب فوق ما يطيق ..

كان الرجل داهيا ولكنه لم يكن من الدهاء بحيث يستر مطامعه

ولا يثير المخاوف فيمن حوله

أو لعله كان داهيـا عظيم الدهاء ، ولكن هيامه بالسيطرة واندفاعه اليها كانا أعظم من دهائه . فانكشفت غايته على كره منه وحيل بينه وبين بلوغ تلك الغاية من كل طريق ينافسه فيه المنافسون

ومما لاريب فيه ان الرجل لم يكن من الغفلة بحيث يصدق كل خرافة من الخرافات التى كان يذيعها ويتولى نشرها والدعوة اليها ، ولكن التواريخ والشواهد لم تحفظ لنا خبرا واحدا يدل على انه كان من السمو الفكرى بحيث يسلم من جميع الخرافات ويتبطن ما وراءها من الحقائق ، ولا سيما اذا كان التصديق هو طريقه الى السلطان والغلبة وقهر الخصوم والانتصار على النظراء ، فمن مألوف النفوس — أو من مألوف هذه النفوس خاصة — أن تعتقد ما يواتيها على هواها ويعزز ايمانها بمطمعها ، كما يفعل المحب الذى يؤذيه الشك ويؤذيه العلم بعيوب محبوبة فيروض طبعه على اليقين وتجميل العيوب لأنها أريح له وأعون له على هواه من عذاب الشكوك وانكشاف العيون

***

وهذه الطبيعة المعهودة فى أمثاله دون غيرها هى التى تفسر لنا أعمالا شتى يبدو فيها خادعا مخدوعا فى وقت واحد ، فهو حصيف لاشك فى حصافته ، ولكن كيف يقع الحصيف فى مثل ذلك السخف الذى لج به حتى يسول له البطش بأقرب الناس اليه ومنهم ولده أو ولداه ؟

يقع الحصيف فى مثل ذلك السخف ، وفيما هو أسخف منه ، اذا كان مغلوبا على أمره مضطرا الى تسويغ دفعته بعقيدة تجملها فى نظره وتلبسها ثوب الواجب الذى لا محيد عنه ولا هوادة فيه

أما ان حسن بن الصباح كان مغلوبا على أمره فى طلب السلطان فحياته كلها سلسلة من الشواهد على طبيعة لا تطيق العيش بغير سلطان أو بغير السعى الى السلطان ، فانه ما اتصـــل بأحد قط الا خافه على مكانته وتوجس منه على الرغم من دهائه وفطنته ، ولو لم يكن طمعه أقوى من

ـهائه وفطنته لما تكشفت منه دفعة الطمع فى كل علاقة وفى كل مكان

سمع فى شبابه عن الشيخ موفق النيسابورى أن تلاميذه جميعا يرتفعون ببركة تعليمه فى مراتب الدولة ، وكان ابن الصباح شيعيا ومدرسة الشيخ الموفق معهد السنة فى نيسابور ، فلم يمنعه ذلك أن يختارها للتعلم فيها على أمل فى الجاه والسلطان

ومن الذين ذكروه من محبيه رشيد الدين بن فضل الله صاحب « جامع التواريخ » .. وفى روايته عن صباه يقول ان سبب العداء بينه وبين الوزير نظام الملك أنه كان يتتلمذ معه فى مدرسة نيسابور فتعاهدا على المعونة اذا وصل أحدهما الى منصب من مناصب الرئاسة ، وان ابن الصباح قد استنجز الوزير وعده فخيّره بين ولاية الرى وولاية أصفهان ، وكان ابن الصباح عالى الهمة فلم يقنع باحدى هاتين الولايتين ، فاستبقاه نظام الملك فى الديوان عسى أن يترقى فيه الى مكانة أكبر من مكانة الولاة ..

والرواية على هذه الصورة عرضة للنقد والمناقشة ، ولكنها على كل حال يصح منها شىء واحد : وهو علم المؤرخين للرجل — من محبيه فضلا عن مبغضيه — انه كان بعيد المطامع منذ صباه ..

وحدث ، وهو فى الديوان ، انه تصدى لعمل من أعمال نظام الملك فوعد الملك بانجازه قبل أن ينجزه الوزير ، فاحتال هذا على احباط سعيه وأوصد عليه الباب الذى أراد أن يندفع منه الى منصبه فوق كتفيه

وقيل فى تعليل سفره الى مصر للقاء الخليفة الفاطمى أنه استوعب كل ما تعلمه من الدعاة فاستصغره الى جانب علمه بأسرار الدعوة ، فأراد المزيد من العلم بالشخوص الى دار الحكمة فى القاهرة ، لعله يستوفى هناك علوم الاسماعيليين التى غابت عن دعاة العراق

ومن الواضح أن الشخوص الى عاصمة الخلافة الفاطمية هو المسعى الذى لا تنصرف عنه همة طامع فى مناصب الدولة ، فليس له مطمع فى بغداد وليس له بين السلجوقيين مقام محمود ، ولم يبق له الا أمل واحد

لا منصرف عنه ، وهو بلوغ المنصب المرموق فى عاصمة الخلافة ومرجع الدعوة والدعاة ..

ولكنه لسوء حظه بلغ القاهرة وقد تحكم فيها رجل قوى الشكيمة[1] كبير المطامع يتولى القيادة والوزارة ولا يقنع بهما دون الامارة والملك لو تمهد اليهما السبيل ، ومن ثم زوّج بنته للامير المستعلى بن الخليفة ، وأكره الخليفة أو زيّن له أن يختار المستعلى لولاية عهده ، أملا فى الملك ان استطاعه لنفسه ، أو فى توطيد الملك لذريته من بعده

ذلك هو أمير الجيوش بدر الجمالى الذى سبقت الاشارة اليه ، وذلك هو الند الذى تحفز ابن الصباح لمصاولته ومداورته بعد وصوله الى القاهرة ، فاختار نزارا لولاية العهد واحتال جهده أن يحول بين المستعلى وعرش الخلافة ، واستمد من أساس المذهب الاسماعيلى كل حجة يدعم بها ترشيح نزار للخلافة بعد أبيـه ، فزعم أنه مثل بين يدى الخليفـة المستنصر فوكّل اليه الخليفة أن يدعو اليه والى وليّ عهده بين الأمم الاسلامية . قال : « فسألته ومن ولى العهد ؟ فأشار الى نزار .. »

تلك قصة تشبه قصـة الولاية التى صارت الى اسماعيل بن جعفر الصادق وثبتت له بعد عدول أبيه عن ولايته واسنادها لأخيه موسى ، فان الاسماعيليين يرفضون تبديل ولاية العهد لأن الولاية بأمر الله والله يتنزه عن البداء ..

فلما أراد الحسن بن الصباح أن يثبت الولاية لنزار أقام لها أساسا كالأساس الذى قامت عليه الدعوة الاسماعيلية من مبدئها ، وروى تلك القصة عن الخليفة المستنصر (والأرجح عند أناس من ثقات المؤرخين أن الخليفة لم يدعه الى لقائه ، بل أنزله منزل الكرامة فى دار الضيافة ، ثم أبقاه على أمل يتردد بين التقريب والاقصـاء) ولكن ابن الصباح قد طال عليه الانتظار وأحس الخطر من أمير الجيوش فنجا بحياته من مصر ، ولما يصدق بالنجاة ، وراح بعـد الافلات من الخطر ينشىء له دعوة جديدة فى المذهب الاسماعيلى ، وهى الدعوة الى امامة نزار

---

(١) الشكيمة : الحديدة المعترضة في فم الفرس ، وقوة القلب .

وراح الحسن يطوف فى بلاد الشام والعراق وفارس لينشر دعوته الجديدة حيث يأمن الرصد والمطاردة ، ويبدو أن حوافز النفس الثلاثة كانت فى تلك الفترة على أشد ما تكون غلبة عليه ، حرجا بما لقيه وضيقا بالمطمع الذى ينازعه ولا يعلم المخرج اليه ، فقال يوما لأحد أصدقائه فى أصفهان : لو أن معى صديقين أركن اليهما لانتزعت من هؤلاء السلاجقة عرشهم ... فظن به صديقه الجنون وأوصى طباخه أن يتخير لضيفه ما لطف من الطعام وطاب غذاؤه ، وأدرك الحسن أن صديقه قد خامره الشك فى عقله فتركه ومضى لسبيله

والظاهر من مساعيه وحركاته فى هذا التطواف انه كان يبحث عن أستاذه القديم فى الدعوة الاسماعيلية عبد الملك بن عطاش ، وكان ابن عطاش قد ولاه الوكالة عنه ثم زيّن له السفر الى القاهرة ، وأطلعه قبل سفره اليها على أسماء بعض الدعاة المستترين الذين يلقاهم فى طريقه ولكنه لم يطلعه على أسمائهم جميعا ، وأهم من ذلك لدى التلميذ المتحفز أنه لم يعرفه من أستاذه مكامن الأموال المدخرة لبث الدعوة ولا عرف بطبيعة الحال كلمة السر التى تمكنه من أخذها وتكون علامة له عند المؤتمنين عليها ، فما زال الحسن يتعقب ابن عطاش حتى ظفر بلقائه ووثق من اطمئنانه اليه ، ولعله استطلعه أسرار الودائع المخبوءة فأطلعه عليها ..

وواضح أن تجارب الحسن فى رحلاته بين بلاد السلاجقة وخلفاء بنى العباس وخلفاء الدولة الفاطمية قد أيأسته من الوثبة الى السلطان من طريق الولاية ، ولكنها لم تيئسه من الوثبة الى السلطان حيث كان لاستقرار هواه فى طبعه ، فطمحت به همته الى معقل من المعاقل فى أطراف الدولة ينفرد بحكمه ولا تمتد اليه فيه يد ملك أو خليفة ، وتخير الأطراف فلم يجد منها ما هو أصلح لمطلبه من بلاد الديلم ، فخرج اليها مع رهط من صحبه وأتباعه ، وقيل انه تلقى من مصر فى هذه الأثناء ولدا لنزار بايعه بالامامة وعمل باسمه ودعا اليه ، حتى انتهى به المطاف الى قلعة يقيم

فيها زعيم من العلويين فاستضافه فأنزله على الرحب والسعة وتغاضى عنه وهو ينشر الدعوة لمذهبه ويجمع الأنصار حوله ، ثم أحكم أمره كما يقول ابن الأثير فطرد صاحب القلعة واستولى عليها وعلى القلاع التي تجاورها ، وساعده على انتزاعها أنه خيل الى أهل الاقليم أن مجموعة حروفها بحساب الجمل توافق تلك السنة الهجرية : سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة (٤٨٣) وهى مجموعة حروف الألف واللام والهاء والألف والميم والواو والتاء التى تتألف منها كلمة الهاموت ، وأتم الحيلة فى أذهان القوم أنه فسرها لهم بمعنى النسر المعلم من (اله) بضم اللام بمعنى النسر فى الفارسية و (اموخت) (١) بمعنى المعلوم أو المعلم ، ايماء من الغيب بتعليم الدين من قمة النسر الشاهقة ، والدين فى مذهب الباطنية تعليم لايستغنى عن الامام فى كل زمان !

***

وقد تحدث المؤرخون والسياح عن أسرار تلك القلعة بالأعاجيب التى تزجى(٢) الأحاديث بين الناس فيصدقونها لأنهم يحبون الاستماع الى العجب والتحدث بالعجب ويصعب عليهم بعد الشيوع على حديث عجيب أن يفرطوا فيه كما يصعب عليهم التفريط فى كل قنية عجيبة أو كل تحفة نادرة .

من هذه الأعاجيب أن الحسن بن الصباح عرف سر الحشيش من أستاذه الطبيب ابن عطاش فسخره فى نشر دعوته ، وأنه توسل به لاقناع أتباعه برؤية الجنة عيانا لأنه كان يدير عليهم دواخين الحشيش ثم يدخلهم الى حديقة عمرت بمجالس الطرب التى يتغنى فيها القيان ويتلاعب فيها الراقصات ثم يخرجهم منها وهم فى غيبوبة الخدر ويوقع فى وهمهم ساعة يستيقظون أنه قد نقلهم الى جنة الفردوس وأنه قادر على مرجعهم اليها حيث يشاء ، وأنهم اذا ماتوا فى طاعته ذاهبون بشهادة أعينهم الى السماء

قالوا : وان هذا الاقناع أو هذا « الايمان العيانى » يفسر طاعة أتباعه

(١) ينطق اسم القلعة « الاموت » أو الموت بفتح اللام .

(٢) تزجى : زجى الرجل الشىء وأزجاه دفعه برفق . وفلان حاجتى سهل تحصيلها .

الذين كان يأمرهم بالهجوم على أعوانه من الوزراء والأمراء بين حاشيتهم وأجنـادهم فيهجمون عليهم ويقتالونهم غير وجلين ولا نادمين ، وان كلمة « أسـاسين » Assasin التى أطلقت فى الغرب على قتـلة الملوك والعظماء ترجع الى كلمة الحشاشين أو الحسـنيين نسـبة الى الحسن ابن الصباح ، وقالوا ان الفتى من أتباع شيخ الجبـل كان يبلغ من طاعته لمولاه أن يشير اليه الشيخ بالقاء نفسه من حالق فيلقى بنفسه ولا يتردد ، وان أحدهم كان يقيم بين جند الأمير المقصـود بالنقمة ويتكلم لغتهم حتى لايميزوه منهم ، وانه يفعل فعلته ويتعمد أن يفعلها جهرة ولا يجتهد فى الهرب من مكانها ، وان أمهات هؤلاء الفدائيين كن يزغردن اذا سمعن خبر الفداء ويبكين وينتحبن اذا عاد الأبناء اليهن ولم يفلحوا فى اغتيال أولئك الأعداء ..

***

وظل الحـديث بهذا وأشـباهه يتعاقب ويتناثر بين الأمم ، ويروى عن الحسن كما يروى عن خلفائه الى عهد الرحالة البرتغالى «ماركوبولو» الذى سـاح فى المشرق فى أوائل القرن الثالث عشر للميـلاد ، ولا يزال هـذا التفسير الخرافى مقبولا فى القرن العشرين بين الأكثرين من المؤرخين والقراء ..

ونحن نستبعد جدا أن يكون للجنة المزعومة أصـل فى قلعة حسن ابن الصباح ، فان التكذيب أرجح من التصديق فى كل خيط من الخيوط التى نسجت منها القصة ذلك النسيج الواهى المريب

ان الحسن بن الصباح كان معروفا بالصرامة والشدة على نفسه وعلى أتباعه ، وكان يتنسك ويتقشف رياضة أو رياء أمام أتباعه وتلاميذه ، ولم يكن من اليسير فى تلك القلاع المنفردة أن يخفى أمر القيـان ومجالس الراقصات والغناء زمنا طويلا دون أن يطلع عليه المقربون ان لم يطلع عليه جيرة القلعة أجمعين ، وليس من المعروف عن مدخنى الحشيش أن يحفظوا وعيهم ويفقدوه فى وقت واحد ، وأن يتلبس عليهم كلهم أمر

العيان والسمع هذا الالتباس ، وليس من المعروف عن الحشيش أنه يهيىء صاحبه لمواقف الاقدام على المخاطر والاصرار عليها شهورا أو سنوات

ومن المحقق أن شيخ الجبل لم يطلع أحدا على سره ، وان أحدا من المؤرخين لم يشهد تلك الجنة بنفسه ولم يسمع روايتها من شاهد بعينه ، فهل من العسير أن نتتبع مصدر هــذا الخيال من روايات الزمن الذى نشأت فيه وسرت منه الى ما بعده من أزمنة القرون الوسطى ؟

***

ان روايات هذا الخيال قد نشأت بين الصليبيين ولم تنشأ بين المشارقة ، وقد كان الصليبيون فى حاجة الى تأويل شجاعة المسلمين وهم فى عرفهم قوم هالكون لايؤمنون بالدين الصحيح ، فخطر لهم وقالوا وكرروا أنهم يستميتون فى الجهاد لأنهم موعودون بالجنة التى تجرى من تحتها الأنهار وترقص فيها الحور الحسان ، اذا استحبوا الشهادة فى سبيل الله

واستغراب الشجاعة من الفدائيين هو الذى أحوجهم الى سبب كذلك السبب أو أغرب من ذلك السبب ، وقد كان ماركوبولو فى روايته يقول ان الفدائيين صدقوا شيــخ الجبــل كما كان المجاهــدون من العرب يصدقون النبى عليه السلام ، وكأنه يقول انهم لهذا يقبلون الموت وهم قوم هالكون ، فهم فى شجاعتهم مخدوعون

ان القوم قد عجبوا كيف يطيع الفدائيون شيخهم هذه الطاعة وكيف يقدمون بأمره على الموت المحتوم . فلم يتخيلوا لذلك سببا غير الجنة الموعودة ، وعرفوا الحشيش فالتمسوا فيه سر الجنة التى ترى فى هذه الدنيا رأى العيان ، وقد جاء ذكر الحشيش فى كلام مؤرخى المشرق وذكر بعضهم أن أناسا من شيوخ الطرق كانوا يستبيحونه ولا يحسبونه من المسكرات المحرمة ، وذكر البندرى مؤرخ آل سلجوق جماعة الحشاشين وعنى بهم طائفة الاسماعيليين ، أما جنــة « الموت » المزعومة فهى من مخترعات الغرب لا نعلم أنها وردت فى كلام مؤرخ اسلامى قديم ولا أن أحدا من مؤرخى الغرب أسندها الى مصدر من المصادر الاسلامية .. ولو

كان لها مصدر من المشرق الاسلامي لكانت كتب الشرق أولى بابتداعها من كتب الأوربيين ..

وأول دلائل البطلان في هذه الخرافة أن وجه الغرابة الذي دعاهم الى اختراعها غير غريب ، فان النخوة الدينية كانت أقرب شيء الى أتباع الأئمة في ذلك الزمن ، ولا تصلح رؤية الجنة عيانا لتفسير تلك النخوة في عجائز الفناء فضلا عن الفتيان المجردين للفداء . فاذا كان أولئك الفتيان يستهينون بالموت لأنهم شهدوا الجنة عيانا فالعجب لأمهاتهم اللائي كن يفرحن بفقدهم وينتحبن لنجاتهم كيف ملكن جاشهن بغير تلك الآية التي رآها أبناؤهن رأى العيان !

***

لقد كان الأمل في ظهور المهدى المنتظر رجاء كل نفس وحديث كل لسان في ذلك العصر من المؤمنين بالمهدية ، وكانت فتن العصر أشبه شيء بفتن آخر الزمان أو باشراط الزمن الذي يظهر فيه المهدى المنتظر ليملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا وينجو باتباعه ومصدقيه الى حظيرة الخلد والسلام ، وكان شيخ الجبل يتخير لتربية الفدائيين فتيانا أشداء يتفرس فيهم العزيمة والمضاء ولما يبلغوا الحلم ، ثم يأخذ في تدريبهم على المشقة والطاعة وهم دون الثانية عشرة وأكثرهم من أبناء الجبال في تلك الأطراف التي نشأ أبناؤها على الفطرة وعلى استعداد للتصديق والايمان ، وكان الايمان بالدعوة العلوية قد شاع في تلك الأطراف فخرج منها الأمراء والوزراء الديلميون الذين بايعوا خلفاء القاهرة وهم في بغداد ، وكانت لشيخ الجبل ارادة من حديد تتسلط على أجناده تسلط « المنوم المغناطيسي » على المدربين عنده على التنويم ، فلم يكن في طاعة هؤلاء واقدامهم على الاستشهاد من غرابة ولا من حاجة الى رؤية الجنة بالعين ، وتأتي الحروب الصليبية فتلهب ما فتر من النخوة التي أذكاها الصراع بين الدول والفرق والطوائف والخلفاء والسلاطين .. فلا يحتاج الفتى

المدخر للاستشهاد الى دافع أو حافز ، بل لعله يحتاج الى الوازع والرقيب ..

والمؤرخون الأوربيون الذين كتبوا عن خداع القادة لأتباعهم في الجماعات السرية كثيرون ، منهم من يحسن التفسير ومنهم من يسيئه ، ومنهم من يسرع الى الاتهام ومنهم من يتريث فيه . فمن الذين أحسنوا التفسير ايفانوف الروسي صاحب كتاب « مؤسس الاسماعيلية المزعوم » The Alleged Founder of Islamism وهو ممن يصححون نسب الفاطميين ويرجحون الاختلاف من قبل « الأساتذة المربين » الذين يختارون لتعليم الأمراء وتثقيفهم في العلوم وفقه الدين ، وقد عمّ الدعاة بالخداع من عهد عبد الله بن ميمون وخص بالذكر أئمة « الموت » من « المهدي حسن بن الصباح ورشيد الدين سنان » وسائر هؤلاء الدعاة ..

فأما ان حسن بن الصباح كان يسوق أتباعه بالخداع فذلك ما لاريب فيه عند الخصوم ولا عند الأنصار ، فهل يصدق القول عليه أنه هو يخدع ولا ينخدع وأنه هو يسوق ولا يساق ؟ ..

***

الراجح عندنا ان هذا « المهدي » لم يكن خلوا من الايمان بدعوته على وجه من الوجوه ، وان عمله في الدعوة عمل جاد غير هازل وصامد غير متردد ، ولا داعي للشك في ايمانه بعمله وان كان هناك شك كبير في ايمانه بكل ما يقول لسامعيه ومتبعيه

وما بالنا نتخيله خلوا من الايمان منصرفا كل الانصراف الى التضليل والخداع ؟ أليس من دواعي الايمان أن يكون الانسان مدفوعا الى عمله غير قادر على تركه ؟ أليس من دواعي الايمان أن يكون اعتقاد الانسان في عمله خيرا من اعتقاده في أعمال الآخرين ؟ أليس من دواعي الايمان أن يقنع نفسه برسالة صالحة وأن يستمد من علمه حجة لتلك الرسالة ؟

ان « التنويم الذاتي » معروف متواتر ، وانه لأقوى ما يكون حين تندفع اليه النفس ضرورة لا حيلة لها فيها ، وذريعة لها عذر من أحوال

الزمن ودواعيه ..

وربما بدأت عقيدة ابن الصباح فى رسالته سلبية قبل ان ترسخ فى طويته بالاقناع الموجب واضحا أو وسطا بين الوضوح والغموض

ونعنى بالرسالة السلبية أنه آمن ايمانا لا مثنوية فيه بفساد العصر وضلال ذوى السلطان فيه ، وانه مهما يفعل فى حربهم واستئصال فسادهم فهو على صواب ..

وتقترن بهذه الرسالة السلبية دفعة فطرية الى السيادة والسلطان ، فماذا يصنع بهذه الدفعة ان لم يعمل بها عملا قويا متصل العزيمة والثبات؟

اما أن يستكين الى سيادة غيره والموت أحب الى أصحاب هذه النفوس الغالبة المغلوبة من استكانة الخضوع ، واما أن يمضى قدما ولابد له من مسوغ وبرهان ، وليس أسرع الى السريرة من المسوغ والبرهان حين ينجيان من الغرق فى لجج اليأس والانكسار وظلمات الفشل والهوان

***

وقد قال داعى الدعاة فى ذلك العصر أن الناس كانوا بين رجلين ، رجل لو قيل له ان فيلا طار أو جملا باض لما قابله الا بالقبول والتصديق « أو منتحل للعقل يقول انه حجة الله تعالى على عباده ، مبطل لجميع ما الناس فيه ، مستخف بأوضاع الشرائع معترف مع ذلك بوجوب المساعدة عليها وعظم المنفعة بمكانها ، لكونها مقمعة للجاهلين ولجاما على رؤوس المجرمين المجازفين .. »

وهذه عقيدة قوم لا دفعة فى طبائعهم الى طلب السيادة والسلطان ، وليس فى طويتهم ما يثيرهم الى الحركة اذا آثروا السكون ، فاذا كانت هذه العقيدة فى طوية رجل لا يهدأ ولا يستكين ولايرى فى نفسه الا أنه أهل للقيادة والامامة ، وان الذين حوله أهل للقمع والنكال ، فمن اليسير عليه أن يسوغ لنفسه خداع العامة والخاصة لتحقيق غاية على يديه ، هى أصلح مما هم فيه ، وأصلح مما يحققونه على أيدى سواه

وقد سوغ أفلاطون فى جمهوريته خداع الدهماء وخداع المتعلمين

الناشئين ، وسوغ فيثاغوراس من قبله حجب الحقيقة عن بعض العيون وتقريب الأمر الى المريدين بالرموز والاشارات ، وأباحا ذلك وليس واحد منهما مأخوذا بدفعة السيادة ، وليس فى زمانهما دعوة سرية عامة كالدعوة التى لفت حسن بن الصباح من رأسه الى قدميه ، فلم لا يسوغ هذا المذهب فى قيادة الدهماء لحسن بن الصباح ؟ وهل من البعيد أنه أطلع على أفلاطون وفيثاغوراس كما أطلع على أفلوطين ؟ ان القول باقتباس الباطنية من هذين الحكيمين راجح متواتر ، فليس مما يخل بحكمة الحكيم أن ينصب نفسه للهداية ويسلم نفسه ورسالته الى عناية الله يتوجه به حيث أراد

***

ان المؤمنين الخالصين للايمان بغير مواربة ولا مراجعة أندر من الندرة بين بنى آدم وحواء ، وما من أحد آمن بعقيدة الا عرف فى بعض حالاته كيف يوفق بين الشك والاعتقاد وكيف يسلم الأمر لله ويستلهمه اليقين

وتسعون فى كل مائة ، ان لم نقل أكثر من ذلك ، يؤمنون بالعقيدة ايمان الوقاية أو ايمان الرغبة فيما يعدون به أنفسهم أو يعدهم به الهداة ، واذا استطاعت قوة الاعتقاد أن تقنع الملايين بالتسليم لقائد منجد أو دليل مرشد ، فأحرى بهذه القوة أن تقنع من ترفعه عقيدته فى نفسه ، أو فى دعوته ، الى مقام السيادة والقيادة ، وتبسط يده على خصومه مستحقين لعقابه ، وعلى أصحابه مستحقا منهم الطاعة والتسليم ..

لم يكن حسن بن الصباح خلوا من الايمان بعمله فيما نرى ، ولم يكن عسيرا عليه أن يركن الى دعوة تغريه بها ضرورة الفطرة ، ويحضه عليها فساد الزمن وسهولة المسوغ للخروج على المفسدين فيه ، ولا يعز عليه أن يعززها بعلامة من علمه الواضح أو من علمه الغامض وما يلتمع فيه من بريق يثبت عليه بالالهام حينا بعد حين ، فما عاش الرجل بقية حياته غائبا عن صوابه ولا مالكا لكل وعيه ، وبين هذا وذاك منزلة الغالب المغلوب والخادع والمخدوع ..

استولى الحسن على قلعة « آلموت » فى سنة ٤٨٣ هجرية ومات فى سنة ٥١٨ هجرية ، فظل مالكا لتلك القلعة باسطا نفوذه على ما حولها خمسا وثلاثين سنة ، لعله كان خلالها أقوى رجل فى الديار الاسلامية من مراكش الى تخوم الصين

وولى عهده ، وتسمى بالمهدى وانتحل البنوة الروحية للانتساب الى الامام رامستان بتعدد المراجع فى المذهب فانفتحت أمام الحسن أبواب الدعوة لنفسه باسم « نزار »

ومات « المستنصر » الخليفة الفاطمى سنة ٤٨٧ للهجرة الاسماعيلى على انتحال المرجع الذى يروقه أن يدعيه ، فهو حجة ومهدى وامام كما يشاء ..

***

وقد اعتمد فى توطيد سلطانه على ثلاث : الحيلة ، والغيلة ، والفتنة الدخيلة . فمن الحيلة أن السلطان السلجوقى ملكشاه سير اليه فرقة لمحاصرته بعد استيلائه على قلعة الموت بسنتين ، ولم يستكثر من الجند كما أوصاه وزيره نظام الملك استخفافا بشأن القلعة وحاميتها ، فلما أحاطت الفرقة بالقلعة بين الجبال الجرداء والقفار الموحشة وطال على جنودها العهد بلهو العواصم والحواضر أمر الحسن بقافلة تحمل الخمور فيما تحمل من المتاع فسيرت على مرأى من الجيش المحاصر ، فما وقعت أيديهم على زقاق الخمر[١] حتى أفرغوها فى أجوافهم وانطلقوا يقصفون[٢] ويهزجون ، فانقضت عليهم حامية القلعة وأمعنت فيهم قتلا ونهبا وتشريدا من دون أن تصاب الحامية بخسارة ذات بال

وأعاد ملكشاه الكرة وقد أصاخ الى نصيحة وزيره فى هذه المرة ، فضيق المحاصرون مسالك القلعة وساكنيها وبطلت الحيلة فاعتمد الرجل على الغيلة ، وأرسل الى الوزير فتى من فتيانه الفدائيين فقتله ، فعاد الجيش الذى سيره الوزير الى حيث استدعاه ملكشاه ، لحاجته اليه فى اتقاء الفتنة واتقاء الغارة من المغول

(١) زقاق الخمر : جمع زق بكسر الزاي : الجلد يتخذ للشراب وغيره .
(٢) يقصفون : قصف القوم : اقاموا في الاكل والشرب واللهو .

وتساعد الرجل مصادفات الحوادث .. فيموت ملكشاه ويزعم الأتباع والأشياع أنها كرامة المهدى تنجيه من أعدائه واحدا بعد واحد ، ويتنبه الرجل الى مواقع الفرص فلا تفوته منها فائتة ، فلما نشبت الفتنة بين ولدى ملكشاه جعل همه أن ينصر أحدهما على الآخر حتى يوشك أن يظفر بأخيه فيسلط على الجيش المنتصر سلاح الغيلة أو سلاح الفتنة الدخيلة ، ومن أساليبه فى هذه الفتنة أن يترك المحاربين فى شك ممن هو معهم ومن هو عليهم ، وقد يشيع عن أحد أعدائه فى دولة الأمير أنه من الاسماعيليين « الصباحيين » المستترين ، وقد يوهم الأمير غير ذلك فيقرب اليه ويظهر العداء لابن الصباح ومتبعيه

***

فلما آل العرش الى السلطان سنجر بن ملكشاه ، وكان من أقوى الملوك وأغناهم فى عصره ، لم يجد بدا من مصالحة ابن الصباح ، وقيل فى أسباب المصالحة أنه كان من أهمها شك السلطان فى حاشيته وقواده وأجناده ، وتخوفه من أن تكون الدعوة السرية قد قلبت عليه أقرب الناس اليه وهو لا يعلم ، فتعاقد مع ابن الصباح على المسالمة وترك له جباية الضرائب والأتاوات(١) فى اقليمه ، ويروى أنه وجد فى طريقه الى حصار « آلموت » خنجرا مغروسا فى فراشه مكتوبا عليه أن الذى غرسه هنا قادر على أن يغمده فى صدرك ، وأنه سمع عن أمراء الحصون أنهم يضمرون العقيدة الباطنية ويعلنون الطاعة للسلاجقة فى انتظار الأمر من شيخ الجبل ، فآثر المسالمة على القتال

ولم يبال شيخ الجبل بالانقطاع عن الدعوة الفاطمية ، بل لم يبال بسقوط الخلافة الفاطمية ولم يحجم عن تهديد خلفائها علانية وخفية ، وهمه قبل كل شيء أن يكون أتباعه خالصين لطاعته والثقة به فى غير مشاركة ولا هوادة ، فانقسمت الدعوة الاسماعيلية على نفسها وأصبح لها فى البلاد الفارسية والعراقية معسكران متنازعان : أحدهما معسكر ابن الصباح يدعو الى نزار ويدعى المهدية لشيخ الجبل ويحارب المعسكر

---

(١) الاتاوات : الاتاوة : المال الذي يؤخذ على الارض الخراجية .

الآخر من الاسماعيليين ، والثانى يدعو الى المستعلى وأبنائه ، وبقيت منها اليوم طائفة الاسماعيليين المعروفين باسم البهرة ، يقولون ان المهدى المنتظر سيظهر عما قريب من سلالة الخليفة « الآمر » الفاطمى وأنه يحضر موسم الحج فى كل عام ، فمن رأى الحجاج جميعا فى موسم من مواسم الحج فقد رآه ..

***

وحيرة المؤرخين والباحثين النفسانيين هى حياة الرجل فى السنوات الأخيرة من مقامه بقلعة آلموت . انه لم يكد يفارقها بعد دخولها ، ولم تكن له أسرة فيها غير امرأته وولديه ، وهذا الزعيم « الباطنى » الذى قيل عن مذهبه انه ذريعة الى استباحة المحرمات والتهالك على اللذات قد اتفق الكاتبون عنه على زهده واعتكافه وعزوفه عن المباح من الأطايب ، فضلا عن الحرام ، وزعم بعض المؤرخين حين قتل ابنه أنه قتله لمخالفته اياه فى شرب الخمر على الخصوص ، ولم يقتل ولدا واحدا بل قتل ولديه الاثنين وهو فى شيخوخة لا مطمع له بعدها فى الذرية ، وهذه هى حيرة أخرى من حيرات لا تحصى فى مسلك هذا الانسان العجيب كله ، وفى مسلكه قبيل وفاته على الخصوص

هل هو مجنون مطبق الجنون ؟ ان المجنون المطبق الجنون لايستغرب منه قتل أبنائه فى شباب ولا شيخوخة ، وتزول بهذا غرابة القتل ولكنها تزول لتخلفها غرابة أعضل وأدهى ، وتلك هى قدرة المجنون المطبق الجنون على التدبير المحكم عاما بعد عام ، وقدرته على حفظ مكانه ومكانته بين وزرائه وأعوانه ومنهم الأذكياء والدهاة وفيهم الشجاعة والهمة والاقدام ..

هل له عقيدة يصبر فى سبيلها على الشظف والضنك ويستبيح من أجلها اراقة الدماء ، دماء الأبناء كدماء الأعداء ؟

انه خلق العقيدة النزارية خلقا فمن البعيد أن يخلق العقيدة وينخدع ما ويصبر فى سبيلها على ما صبر عليه ويستبيح فى سبيلها ما استباح

والذى يبطل الحيرة فى اعتقادنا هو التفسير المقبول لطبيعة هذا الانسان العجيب ..

ونبدأ فنقول اننا ينبغى أن نستغرب من حسن بن الصباح ما هو غريب منه لا ما هو غريب من غيره ، ولو كانوا معظم الناس

فالغريب فى طباع الناس تجردهم من الحنان الأبوى أو فتور هذا الحنان فيهم ، ولكن هل خلا الجنس البشرى من آحاد يهون عندهم الحنان فى جانب النوازع القوية التى لها السلطان عليهم وليس لهم عليها سلطان ؟ هل خلا الجنس البشرى من آحاد نراهم بيننا تستهويهم الشهوات الصغار فضلا عن الشهوات الكبار ، فلا يبالون ما يصيب أبناءهم من جراء تلك الشهوات ؟ ..

وهل من البعيد أن يكون ابن الصباح هذا من أولئك الذين تملكهم نازعة تطغى على حنان الأبوة ؟

كلا ! ليس هذا بالبعيد على الاطلاق ، بل هو دأب الطامحين من أمثاله الى السيطرة ، ودأب الذين يهون عليهم شظف العيش ولا يهون عليهم الخضوع والبقاء فى زوايا الاهمال ، وقد يكون الولدان اللذان أمر بقتلهما قد تآمرا عليه مع بعض أعوانه المتطلعين الى مكانه كما جاء فى الروايات ، وقد يكون أحدهما هو الذى تآمر عليه كما هو الأرجح ويكون ظنه بالآخر انه لا يفلح ولا يؤمن على مصير الدولة بعده ، وقد يكون بطشه بابنه فى سبيل رسالته هو المسوغ المقبول امام ضميره لاقدامه على البطش بالغرباء فى هذا السبيل

***

فاذا كان الظن بجنونه المطبق حيرة ، وكان الظن بغفلته حيرة مثلها ، فالنفى الظنون للحيرة انه أطاع طبعه فى طلب الغلبة على الرغم منه ، وانه اتخذ من فساد زمانه حجة على وجوب رسالته وقداستها ، وانه راض نفسه على شدائد تلك الرسالة لتكون الشدائد التى يضطلع بها حجة له على صدقه ومطاوعة طبعه ، وانه كان عرضة لسورة الغضب ونوبة

الفتك فى أزمات طبعه ولكنها سورات[1] ونوبات دون الجنون المطبق فى جميع الأحوال ، وهذا كله جائز غير مستغرب . أما المستحيل فهو أنه مصاب بالجنون المطبق أو خادع لا عمل له ولا غواية من وراء عمله غير الخداع والتضليل ، أو أنه مغفل لايدرى موضع الغفلة من سريرته ، وهو يتسلل بالاقناع الى سرائر المئات والألوف ، ومنهم الأذكياء والألباء والحصفاء ..

---

(١) سورات : السورة : الشدة والثورة والسطوة .

السرية الباطنية

ولعل سيرة شيخ الجبل فى نقائضها المعلومة هى ألزم السير للتعريف بمعنى السرية الباطنيـة أو السرية الاسماعيلية على التخصيص ، فهذه السرية كانت تشتد وتتراخى تبعا للعمل الذى ينوطه[1] الامام بدعاته ، لا تبعا للفكرة أو للعقيدة التى يخالفون بها أصحاب الفكر والمعتقدات الأخرى ..

كانت السرية تشتد كلما خشى دعاة الامام فى بلاد أعدائهم على أنفسهم وعلى رؤسائهم وأئمتهم ، وكانت تشتد كلما كان الكتمان أنجح لمهمتهم وأعون على تشتيت أعدائهم وتبلبل الأفكار فيما حولهم ، وكانت تتراخى حتى لا سرية على الاطلاق حيث تكون الدولة دولتهم والأمور مؤاتية لهم ولسـياستهم ، وقد يعقدون المجالس ويحاضرون فى الأندية العامة لاعلان آرائهم واقناع معارضيهم كلما اطمأن بهم المقام فى ديارهم .

***

ومن الجائز أن تكون تلك الأعمال مرتبطة بالعقيدة الخاصة فى الامام ، حين يكون تعظيم الامام وتقديسه لازمين لاقناع الداعية أو الفدائى بالهجوم على الخطر ومواجهة المصاعب والأهوال فى غير اشـفاق على حياته أو حذر من عاقبة أمره ، ففى هذه الحالة يتصف الامام بالقداسة التى توجب على المريد طاعته وتضمن له النجاة فى هـذه الدنيا أو فى الدار الآخرة وكثيرا ما يستغنى الامام عن المغالاة بقداسته فى الأزمنـة العصيبة التى تلتهب فيها الحماسة الدينية ويشبع فيهـا الأمل باقتراب الأوان الموعود وتوالى العلامات والأشراط التى تؤذن بظهور المهـدى وانتصار زمرته على أعدائهم وأعدائه ، فاذا شـاع فى النفوس هـذا الأمل فلا حاجة بالامام الى عقائد المبالغة والمغالاة فى أمره ، وحسبه أنه

---

(١) ينوطه : يعلقه .

قائد مصدق مطاع يأمر بدعوته جند مصدقون مطيعون

واذا أردنا التوسع الذى يشمل جميع المذاهب وينتظم مذاهب السنة والشيعة جميعا ولا يخص الاسماعيلية أو النزارية وحدها فالخلاف على الامامة هو محور كل خلاف بين جميع المذاهب من جانب السنة أو من جانب الشيعة ، فكل ما عزز ضرورة الامام الحى فهو من عقائد الشيعة ، وكل اختلاف أردنا أن نعرف عقيدة الشيعة فيه فلنرجع بجانبى الرأى الى محور الخلاف كله ، فأيهما كان أقرب الى ضرورة الامام الحى فهو من مذهب الشيعة ، بغير حاجة الى البحث الطويل والاستقصاء البعيد

***

وقد لخص الغزالى هــذا الفارق فى كتاب المنقذ من الضلال فقال : « الصواب أنه لابد من الاعتراف بالحاجة الى معلم وأنه لابد أن يكون المعلم معصوما ، ولكن معلمنا المعصوم هو محمد صلى الله عليه وسلم : فاذا قالوا هو ميت فنقول ومعلمكم غائب ، فاذا قالوا : معلمنا قد علم الدعاة وبثهم فى البــلاد وهو ينتظر مراجعتهم ان اختلفوا أو أشكل عليهم مشكل ، فنقول : ومعلمنا قد علم الدعاة وبثهم وأكمل التعليم ، اذ قال الله تعالى : اليوم أكملت لكم دينكم . وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم كما لا تضر غيبته . يبقى قولهم : كيف يحكمون فيما لم يسمعوه ؟ أفبالنص ولم يسمعوه ، أم بالاجتهــاد بالرأى وهو مظنــة الخلاف ؟ فنقول : نفعل ما فعله معاذ رضى الله عنه لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اليمن ، اذ كان يحكم بالنص عند وجوده وبالاجتهاد عند عدمه ، بل كما يفعل دعاتهم اذا بعدوا عن الامام الى أقاصى الشرق ، اذ لايمكنهم أن يحكموا بالنص فان النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع غير المتناهية ولايمكنهم الرجوع فى كل واقعة الى بلدة الامام ، والى أن يقطع المسافة ويرجع يكون المستفتى قد مات أو فات الانتفاع بالرجوع فمن أشكلت عليه القبلة ليس له طريق الا أن يصلى باجتهاده ، اذ لو سافر الى بلدة الامام ليعرفه القبلة لفات وقت الصــلاة . فاذا أجيزت الصلاة الى غير القبلة بناء على الظن ــ ويقال ان المخطىء فى الاجتهاد له واحد وللمصيب أجران ــ فكذلك فى جميع المجتهدات .. »

ومهما يكن من قول فى تفصيلات الشعائر أو الفرائض فما كان منه أقرب الى تعليم الامام المعصـــوم فهو قول الشيعة وما عداه فهو قول السنيين وجميع المقرين للامامة على مذهبهم كالزيديين ، وهذا هو الذى يؤيد أن مرجع السرية كله هو الرأى فى الامامة لا عقائد مستورة أو خلائق مخالفة لأدب الدين أو العرف بين المسلمين وغير المسلمين

***

خذ لذلك مثلا اعلان بدء الصيام ، فان رؤية الهلال فيه كافية على مذهب السنيين ، ولكن هذا الرأى يغنى عن اعلان الامام للصـــيام فلا يأخذ به الاماميون ، بل يقولون ان المسلمين كانوا فى حياة النبى عليه السلام يصومون حين يصوم ، فلما أزمع السفر سألوه عن موعد الصيام فقال لهم : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » . ولم يكلهم الى الرؤية قبل ذلك وهو مقيم معهم يصوم فيصومون

ووجود علم مستور يتعلمه الناس من الامام دون غيره هو العقيدة التى لا محيـــد عنها لمن يقولون بالامامية ، وانما يختلف العلم المستور باختـــلاف الأئمة والأوقات والسائلين ، فقد يكون العلم المستور هو تأويل القرآن ، واجابة كل سائل عنه بما يقدر عليه ، وقد يكون العلم المستور سياسة محكمة لا تكشف لكل طالب ولا يجوز التردد فى طاعتها توقفا على فهمها ، فانها لو كشفت فى بعض الأزمنـــة لحاق الضرر بمن تشملهم تلك السياسة أجمعين ..

وقد فسر ابن الصبـــاح اسم قلعته بمعنى النسر المعلم ، فهى مرجع المؤمنين من أتباعه لا يستغنون عن تعليمها بالابتعاد عنها ، وقد ترخص بعض الاماميين فى أمر العصمة الواجبة للامام ، فأباح بعضهم نقد الامام كما فعل حسن بن الصباح فى نقد الخليفة المستنصر ، بل كما فعل داعى دعاة الخليفة نفسه هبة الله الشيرازى الذى سبقت الاشارة اليه ، ولكنهم يقولون ان الامام يصيب وهو مختار ، ويجرى مع الخطأ وهو مكره ، ولا سيما فى اختياره لولى عهده وصاحب الامامة من بعده ، فان من اختاره طائعا فهو الصواب المطاع

لقد صحبنا منشيء « الاسماعيلية الجديدة » من عهد بروزه فى ميدان الدعوة الفاطمية ، ولم نبدأ بسيرته من نشـأته الأولى . لأن حيـاته العامة لا تتوقف على أخباره فى أوائل نشأته .. فما من خبر منها متفق عليه حتى اسمه وموطنـه ونحلته ، فهو ينتسب الى اليمن ويذكر من نسبته أنه الحسن بن على بن محمد بن جعفر بن حسن بن محمد الصباح الحميرى ، ومنكرو دعواه يقولون انه قروى من خراسان ، ومنهم من يقول ان أباه كان يعمل فى الصياغة ، صـناعة الصابئة على شـواطيء بحر العجم ..

والثابت أنه مات ولم يظهر له فى حياته ولا بعد مماته أحد من ذوى قرابته ، وان دعوته لم تفلح فى بلاد اليمن بل أفلحت فيها دعوة الطيب ابن الآمر التى كانت تناقض الدعوة الى نزار امام الحسن المختار ، وقد أوصى الحسن بعده لرجل فارسى غريب عنه لا تربطه به نسبة ، ولعله من أقربائه المستورين ان صح أنه من الفرس وليس من أهل اليمن

ورويت عن صباه تلك القصة التى جمعت بينه وبين الخيـام ونظام الملك بمدرسة نيسابور ، ولكنها قصـة يرتاب فيها طـائفة من ثقات المؤرخين ، لأن نظام الملك ولد سنة (٤٠٨ للهجرة) فاذا كان ابن الصباح والخيام من لداته فقد بلغا اذن أكثر من مائة سنة ولو قدرنا أنهما أصغر من نظام الملك ببضع سنوات ، وفى ذلك موضع للشك غير ضعيف

وأيا كان الخبر الذى يثبت من أخبار صباه فهو لا يغير شيئا من ملامح « الشخصية » التى برز بها فى التاريخ ، وهى شخصية المغامر صاحب الدعوة التى انقطعت عن جذورها واتصلت به وبغاياته ومراميه ، وهذه بعد شخصية أثبت فى ملامحها من شخصية ميمون القداح وأحدث فى الدعوة الفاطمية ، وعلى دعوتها تقاس الدعوات التى اقترنت بالفاطمية فى تاريخها المعلوم أو تاريخها المجهول

بناة وهدامون .. ومهدمون

ينسب قيام الدولة الفاطمية الى جهود الدعاة الذين انبثوا فى المشرق والمغرب وافتنوا فى تبليغ الدعوة سرا وجهرا الى كل طائفة بالوسيلة التى تلائمها ، ويغلو بعض المؤرخين فى شأن هذه الجهود حتى يخيلوا لمن يقرأهم ان غير هذه الجهود لم يكن له فى اقامة الدولة الفاطمية شأن ذو بال ..

ولا شك فى براعة الدعوة الفاطمية وقوة أثرها فى التمهيد لقيام الدولة ، ولكننا لا ننسى أن بعض هذه الدعوة كان يسىء الى القضية ولا يحسن ، وان فريقا من الدعاة كانوا يخدمون أنفسهم ويضرون قضيتهم ، وان الدعوة لو انصرفت كلها الى الخدمة والتمهيد ولم ينصرف شىء منها للاساءة والتنفير لما بلغت غايتها ان لم يكن جو العالم الاسلامى متهيئا لقبول نظام جديد والاعراض عن نظام قديم

والواقع أن جو العالم الاسلامى قد تهيأ فى القرن الثالث لقبول هذا التبديل فى نظامه ، وكان هذا التهيؤ من شقين : شق ينكر النظام القائم وشق يرحب بالنظام المنتظر ويعطف عليه

وكانوا يسمون ذلك دلالات النجوم ، فيربطون بين مشيئة الانسان ومشيئة الكون كله ، ويلوح لهم حين يريدون التغيير ان التغيير كائن ولو لم يريدوه ، ولو لم يعملوا لتحقيق ما أرادوه

وتوجد الكلمة التى تحفظ حين تلفظ ، ويسمع الناس « ان الشمس ستشرق من مغربها » فيهمس بها بعضهم الى بعض ، ويعجب السامع مما سمع فلا ينساه

وقد كان علم النجوم قد استفاض فى كل مكان ، وليس أكثر من

مقـارنات الفلك التي يحسب المنجمون أنهـا علامة الغيب على الغير والأحداث ، وطلاب التغيير هم المستبشرون دائما بتلك العلامات وهم الذين يركنون اليها ويترقبونها ، ولا سيما حين يكون علم النجوم علما يحبه المجددون ويمارسونه ، ويبغضـه المحافظون ويتشاءمون به ولا يترقبون الخير من ورائه

وما كان أبو تمام ينظم قصيدة من قصائد المدح وحسب حين قال عن النجم ذى الذنب فى زمانه :

أين الرواية أين النجوم وما
صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
قد صيروا الأبرج العليا مرتبة
ما كان منقلبا أو غير منقلب
وخوفوا الأرض من دهياء داهيـة
اذا بدا الكوكب الغربى ذو الذنب

ولـكنه فى الواقع كان ينظر فى أوائل القرن الثالث الى الوجهتين المتقابلتين : وجهة الراضين عن نبوءات النجوم ووجهة المتبرمين بها ، وما زالت الوجهتان تنفرجان حتى شـهدت نهاية القرن غاية التفـاؤل وغاية التشاؤم بعلامات النجوم

قال صاحب زهر المعانى : « وكان أهل النجوم والحسـاب يذكرون ظهور المهدى بالله ويبشرون بدولته ، ثم ان الملوك والأضـداد أيقنوا بذلك ، وان صاحب الزمان تقدم للهجرة الى المغرب والمهدى فى كنفه .. حتى يكون أوان ظهوره وطلوع نوره .. وأن يكنوه بالشمس الطالعة »

وكان المهدى نفسه على علم بمراصد النجوم ، فكان يتفاءل بمقارناتها ويبشر بها أتباعه ، وهم بغير هـذه البشارة مصدقوه ، فاذا علموا أن الكون كله يتأهب «لطلوع الشمس من المغرب» فقد بلغ التصديق غاية اليقين

وقد أثر عن حفيد موسى الكاظم ــ كما جاء فى المقريزى ــ انه قال فى سـنة اثنتين وخمسين ومائتين ان الامام المنتظر سيظهر بعد اثنتين

وأربعين سنة ، ونظم الفهرى هذه النبوءة فقال :

الا يا شـيعة الحـق ذوى الايمـان والبـر
ومن هم نصـرة الله على التخـويف والزجـر
فعنـد الست والتسـ ـعين قطع القول فى العذر

وظل المتربصون بالدولة العباسية يقرأون فى ارصاد النجوم علامات زوالها الى ما بعد نهاية القرن الثالث وبعد بداية القرن الرابع ، فقال أبو طاهر القرمطى :

أغركم منى رجوعى الى هجر
فمما قريب سوف يأتيكم الخبر
اذا طلع المريخ فى أرض بابل
وقارنه النجمـان ، فالحذر الحذر
فمن مبلغ أهل العراق رسالة
بأنى أنا المرهوب فى البدو والحضر
أنا الداع للمهـدى لا شك أنتى
أنا الضيغم الضرغام والحية الذكر

وقد تقدم ان الناس ظنوا بأبى العلاء المعرى انه من رصدة النجوم ، فاذا بلغ بزمان أن يترقب فيه الضرير ارصاد السماء فهو زمان تعمل فيه العلامات الفلكية فعلها ، سواء أكان حب التغيير هو الذى علق الأبصار، والبصـائر بمسالك الكواكب ، أم كانت مسالك الكواكب هى التى شحذت فى نفوسهم حبهم للتغيير وتطلعهم الى الغيب من بصير وضرير

وفحوى ذلك كله ان السماء والأرض فى عرف أبناء القرن الثالث للهجرة كانتا تتطلعان الى شيء ، وان النـاس كانوا يتفـاءلون بذلك ويتشاءمون ، وأحرى الناس أن يتفاءلوا بعلامات التغيير هم طلاب التغيير

وجاءت الدعوة الفاطمية الى قوم متبرمين أو قوم غير مكترثين للدفاع عن النظام القائم أو دفع النظام الجديد

كان بين خدام الدولة العباسية نفسها من يبغضونها أو ينكرون حقها ،

ومن كان منهم لاينكر حق لخلفاء العباسيين فهو منكر لسلطان الترك والديلم ، معتقد أن أهل البيت المقبلين خير من أهل البيت المولين ، أو أهل البيت الذين تولت عنهم الولاية عجزا وسفها فليس لهم منها غير الأسماء

***

وكان بطش العباسيين بأبناء على من أسباب الكراهة لأصحاب الحكم وأسباب العطف على طلابه ، فكان مع العباسيين من خدامهم وأعوانهم من يقدسون صاحب الدعوة العلوية ويمقتون أصحاب العروش فى بغداد ، ولولا عامل من عمال بنى العباس فى الرملة لاعتقل المهدى وقتل قبل أن يصل الى المغرب حيث أقام الدولة . يقول جعفر الحاجب فى سيرته : « وصلنا الى الرملة فنزلنا بها عند عاملها ، وكان مأخوذا عليه فلم يدر من السرور برؤية مولانا المهدى ... كيف يخدمه ورفع المهدى فوق رأسه وقبّل يديه ورجليه »

ثم قال ان النجاب وصل من دمشق الى الرملة يصف له المهدى ويأمره بالبحث عنه والمهدى فى داره فانكب الرجل على رجلى المهدى يقبلهما ويبكى فطمأنه المهدى قائلا : « طب نفسا وقر عينا ، فوالذى نفسى بيده لا وصلوا الى أبدا ، ولتملكن أنا وولدى نواصى[1] بنى العباس .. »

وتبيّن غير مرة ان النجابين الاسماعيليين كانوا أسرع الى تبليغ المهدى وأعوانه من النجابين الذين تعقبوه وهم موعودون بالجزاء الجزيل على اعتقاله وتسليمه ، واستخدم الحمام الزاجل فى تبليغ الرسائل الى المهدى وهو فى طريقه كما جاء فى روايات مختلفة ، فان صح هذا فهو دليل على ولاء عجيب وايمان برسالة المهدى على طول طريقه من الشام الى المغرب ، وان لم يصح فقد صح ما هو أغرب منه وهو نجاة المهدى من عشرات الولاة والعمال فى الشام ومصر والمغرب ، بل نجاته بعد دخوله الحبس حيث اعتقل قبل مصيره الى المغرب الأقصى

وربما كان ولاء عامل تابع للأمراء أقل فى باب العجب من ولاء أمير قائم على عرش دولة كالدولة المصرية ، لا تعترف لخلفاء بغداد من بنى

---

(١) نواصي : جمع ناصية وهي منبت الشعر في مقدم الراس .

العباس بغير الدعاء على المنبر فى يوم الجمعة ، فقد روى عن كافور الأخشيدى ان الشريف أبا جعفر مسلم بن عبيد الله ناوله سوطه — وقد سقط منه — فاستعظم كافور هذا التواضع منه ومال على يده يقبلها وهو يقول : « نعيت الى نفسى ، فما بعد أن ناولنى ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سوطى غاية يتشرف لها .. »

هذه هى أشراط الساعة وعلامات الزمان التى وافتها دعوة الدعاة الفاطميين على قدر ، ولو لم تقترن دعوة الدعاة بهذه الأشراط التى تجمعت من فعل الحوادث التاريخية والبواعث النفسية لما تمكن الدعاة وحدهم من اقامة الدولة ولا تمكنوا من الاقناع وهو أهم أعمال الدعاة

***

ولتتابع الأمر الى غاياته فنقول ان الدعوة والحوادث التاريخية والبواعث النفسية كلها كانت خليقة أن تذهب سدى بغير نتيجة لو لم يقيض للدولة بناة وموطدون من أصحاب السلطان فيها ، يأخذون بزمام الأمور ويحسنون قيادتها على نهجها القويم الى أن تثبت دعائم الملك وتصمد البنية الجديدة لغواشى الزمن ، وهى بعد التأسيس عرضة لطوارىء الهدم والتوهين ..

وقد جرت العادة فى كل دولة جديدة أن يكون لها مؤسس وموطد : مؤسس هو رأس الأسرة وموطد هو خلف له يتناول منه الملك ولما يستقر قراره فيمنعه أن ينهار قبل أن يبلغ التمام ، ثم يتمه ويتركه لمن يأتون بعده بناة أو مسترسلين أو هدامين ينقضون ما بناه الأولون

ولم تكن دولة الفاطميين شذوذا من هذه القاعدة ، فأسسها المهدى عبيد الله ووطدها المعز لدين الله ، وكان كلاهما على نصيب وافر من الخلائق التى تنبغى لبناة الدول وموطدى العهود ، فلو تتابعت أعمال الدعاة ودواعى الزمن دون أن يتاح للدولة هذان البانيان لما برز لها من الأرض ركن ولا أساس

اتصف عبيد الله بقوة البنية وجمال السمت والهيبة ، كما اتصف

باليقظة مع سعة الحيلة ورباطة الجأش ، وعرف بالحزم واصالة الرأى وشدة المراس واستعصاء المقاد على المكابرة والعناد ، واجتمع له حسن التصريف ، فلم يفته قط أن يختار الوقت الملائم والرجل الملائم للعمل المطلوب كما ينبغى أن يكون ، وأعان ذلك كله بحب العمارة والتنظيم ، فوجدت الدولة الجديدة منه مؤسسا قليل النظراء

قيل فى قوة بنيته « انه كان بقوة عشرة رجال »

***

وليست هذه القوة نادرة فى أبناء على من السيدة الزهراء ومن غيرها ، فقد روى عن محمد بن الحنفية انه جلد الأرض بمصارع الروم الذى جاء الى دمشق يتحدى الأقوياء فى بلاد المسلمين كما تحداهم فى بلاده ، ولم تزل هذه القوة معهودة فيهم بعد الجيل الخامس ، فقيل عن يحيى بن عمر الملقب بالشهيد انه « كان له عمود حديد ثقيل يكون معه فى منزله وربما سخط على العبد أو الأمة من حشمه فيلوى العمود فى عنقه فلا يقدر أحد أن يحله عنه حتى يحله بيده »

وليست قوة البنية شرطا فى أصحاب العروش ، ولكن مؤسس الدولة يحتاج اليها اذا وجبت عليه الرحلة أحيانا من مكان الى مكان فجأة وعلى غير استعداد ، ووجب عليه أن يصبر على متاعب الاستخفاء ومتاعب الحاجة وأن يصرع المطارد ويسبق المتعقب ويبرز للقتال ولا يزال على أهبته لمقاومة أعدائه ومقاومة أنصاره المنشقين عنه ، فاذا تصدى لهذا ولم يرزق ضلاعة الأركان أوشك أن ينقطع بالمسعى دون غاية الطريق

أسعفته هذه البنية الوثيقة فى مآزقه وفى أيام سلطانه ، وأسعفته معها مهابة يعنو لها المؤمن به ومن يحاربه ولا يضمر مودته ، فلما كان أسيرا فى المغرب الأقصى كان صاحب « سجلماسة » ينكل بأعوانه ولا يجسر على مجابهته بما يسوءه ، وكان يعمل فى مغيبه ما لم يكن يجترىء على عمله وهو ناظر اليه

وقد تمت له المسعفات فى مآزق الحرج باليقظة الجريئة والحيلة التى

لا تفارقها رباطة الجأش وعزة الكرامة . فلما خرج من الشام الى مصر هربا من خلفاء بغداد سيروا الأدلاء الى كل بلد فى الطريق ينادون على الناس بأوصافه ويبرئون الذمة ممن يراه ولا يدل عليه ، ويجعلون لمن يسلمه عشرة آلاف دينار وزلفى تنفعه عند الخلفاء والأمراء . واتفق انه صلى الصبح يوما فى جامع عمرو فعرفه بعض المصلين بوصفه وهو يهم بالخروج من المسجد « وضرب بيده على كم الامام وقال له : « قد حصلت لى عشرة آلاف دينار »

***

ولو رجل غيره فى مثل ذلك الموقف العصيب لساخت به الأرض من الفزع ، ولكنه التفت الى الرجل غير مكترث وساله كأنه خلو الذهن من كل خبر : وكيف ذلك ؟ قال : لأنك أنت الرجل المطلوب . فضحك المهدى وعاد مع الرجل الى المسجد وهو يقول له : « عليك عهد الله وغليظ ميثاقه انتى اذا جمعت بينك وبين الرجل الذى تطلبه كان لى عليك ولصديقى هذا خمسة آلاف دينار ! .. » ولعله تفرس فى الرجل الغفلة فأخذه الى حلقة قد اجتمع الناس فيها ، وأدخله من جانبها وزاغ منه .. وأجمع النية فى تلك اللحظة على فراق مصر والمبادرة بالمسير الى المغرب

وفى مسيره الى المغرب تعقبه والى مصر وأدركه وتردد فى وصفه فأطلقه ولاح عليه انه يحدث نفسه بلحاقه اذا تثبت من حقيقته ، فما عتم المهدى أن عاد بعد الطلاقه يبحث عن كلب من كلاب الصيد يتعلق به ابنه — وكانت تربيته لابنه كما تقول فى مصطلح هذه الأيام تربية رياضية — فوقع فى نفس الوالى ان رجلا يعود بعد النجاة فى طلب كلب لا يظن به انه خائف على حياته وانه خارج فى طلب الخلافة وقال لأصحابه : « قبحكم الله . أردتم أن تحملونى على قتل هذا حتى آخذه . فلو كان يطلب ما يقال ، أو كان مريبا ، لكان يطوى المراحل ويخفى نفسه ، ولا كان رجع فى طلب كلب ... »

وقد يكون الوالى أطلقه لمال أخذه منه كما يقول عريب بن سعد فى

تاريخه ، وانه خشى من أصحابه أن يرتابوا فيه ويرفعوا أمره الى رؤسائه وأن يلحقوا من ورائه بالمهدى وركبه ، فكانت حكاية الكلب هذه حيلة لتضليل أولئك الأصحاب وصرفهم عن المطاردة وعن الوشاية بالوالى الى بغداد ..

***

ومن حزمه بعد مبايعته بالخلافة انه بادر على الأثر الى تجديد نظام الدعوة فى المغرب وفى مصر واليمن والعراق وخراسان ، وحمله على هذا التجديد أن أمر الدعوة لم يكن مجتمعا فى يديه أيام استتاره ، فتولى الدعاة ندب أعوانهم بغير مراجعة المهدى فى اختيارهم ، وتعود هؤلاء الأعوان أن يتلقوا أوامرهم من الدعاة الذين ندبوهم واختاروهم ، ولم تكن عاقبة هذا النظام مأمونة على الخليفة الجديد ولا على الخلافة الناشئة ، فانه خليق أن يجعله عالة على أتباعه وأن يطمع هؤلاء فى الاستبداد به وعصيان حكمه . فنقض نظام الدعوة وعزل رؤساء الدعاة ولم يستثن أكبرهم — داعى اليمن ابن حوشب — فعزله وهو الذى كان أستاذ دعاته فى الأقاليم ، وكان منهم عبد الله الشيعى الذى سبق المهدى الى المغرب واستقدمه اليها بعد التمهيد له وجَمْع القبائل على عهده ، وقد رابه من الشيعى هذا وأخيه العباس انهما على اتصال خفى بزعماء القبائل وانهما يستكثران على الخليفة أن يحصر السلطان فى يديه ، ونمى اليه انهما يأتمران به ويبيتان النية مع زعماء القبائل على قتله ، فأمر بقتلهما وأظهر الرضى عن غيرهما ممن ظن فيهم الظنون ، فجعل يفرقهم فى المناصب النائية كأنه يكافئهم ويعتمد عليهم ، وهو فى الواقع يقصيهم عن مواطن الخطر ويوقع بينهم الحذر والمنافسة

وأطلق دعاته الجدد ، ومن أبقى عليه من الأقدمين ، يجوسون خلال الديار الاسلامية ليبشروا به ويخذلوا الأنصار حول أعدائه ، فانطلق رسله الى بلاد الأمويين بالأندلس وبلاد الأدارسة بالمغرب ، ونشط رسله فى مصر واليمن والعراق وخراسان ، وأخذ بيديه أزمة الثورات فى كل اقليم من

تلك الأقاليم ، فاستمهل أعوانه كلما تعجلوا الثورة وظنوا أنهم قادرون عليها وأن الأوان قد آن للجهر بها ، ورأى هو بثاقب نظره ان ثورة الأطراف قبل فتح مصر ، أو قبل المسير اليها ، تغرير بالثوار، وان الثورة بعد فتح مصر تتمة منتظرة قد تأتي عفوا وقد تنشب دفعة واحدة مع سقوط هيبة الدولة العباسية ، فلا يعيي الثوار بالخروج عليها في غير حذر ولا ندم وقد صح تقديره بعد تسيير الحملة على مصر وتجربة الموقف مرتين

والراجح من المقابلة بين برامج المهدى انه كان مقسور اليد في حملاته على مصر . كان يوصي بالاناة والتريث حتى يفرغ العمل في التخذيل وكسب الأنصار ... ثم يضرب القدر ضربة من ضرباته التي تأتي على غير انتظار فيموت خليفة في بغداد ويستحكم الشقاق بين قواده ووزرائه ويغتنم الثائرون الفرصة قبل تمام الأهبة ، وتتوارد الكتب الى المهدى بالحض على الهجوم فلا يملك القعود والاكتفاء بالنظر الى هذه الأحداث من بعيد ، ولا يبلغ من ثقته بجدوى الهجوم أن يجمع له قوته ويترك المغرب خلوا من الجند مطمعة للمغيرين عليه والمنتقضين ممن بايعوه على دخل في أول عهده ، فينفذ الى المشرق حملة اضطرار لا حملة اختيار ، كالحملة التي عقد لواءها للزعيم البربرى حباسة ثم حمّله تبعة الاخفاق فيها والهرب منها بعد أن وصل الى الاسكندرية

***

أما الخطة التي يبدو انه كان يؤثرها ويختارها فهي ارجاء الحملة على مصر الى أن يفرغ من شأن المغرب ويقضي على فتنه ومشاغباته ، ويبتني فيه المدينــة التي أزمع أن يتخذها حصــنا له يحتمي به من المغيرين والمنتقضين ، وقد شغلته فتن المغرب زمنا وأحرجته أيما احراج بعـد مؤامرة عبد الله الشيعي وأخيه فقمع الفتنة قمعا عنيفا لا رحمة فيه ، ولم يسكن الى مقره بالمغرب الا بعد الفراغ من بناء المهدية حوالى سنة خمس بعد الثلثمائة ، فقال يومئذ : « لقد أمنت الآن على الفاطميات»..

ولم تفارقه طبيعة الحيطة والدهاء في بنائه للمهدية ، فانتقى لها موقعا

يحيط به البحر من جهات ثلاث ، وأقام عليها سورا من الغرب له بابان من الحديد زنة الواحد منهما ألف قنطار وبنى فيها الصهاريج وأجرى فيها القنوات وجعل للمؤن أقبية تسع ميرة الحامية عدة شهور ، وانتحى جانبا ثم بنى على مقربة من المهدية مدينــة أخرى سماها باسم زويلة احدى قبــائل البربر التى تواليه ، وخصـص زويلة لدكاكين التجار ومخازنهم تخفيفا عن المهدية وعزلا بين السكان ومرافقهم ، وأفضى الى خاصته بأنه انما فعل ذلك ليأمن غائلتهم . قال : « ان أموالهم عنـدى وأهاليهم هناك . فان أرادونى بكيد وهم بزويلة كانت أموالهم عندى فلا يمكنهم ذلك ، وان أرادونى بكيد وهم بالمهـدية خافوا على حرمهم هناك ، وبنيت بينى وبينهم سورا وأبوابا فأنا آمن منهم ليلا ونهارا ، لأنى أفرق بينهم وبين أموالهم ليلا وبين حرمهم نهارا »

***

بعد هذا استعد للحملة الكبرى على مصر وعقد لواءها لولى عهده القائم فدخل الاسكندرية سنة (٣٠٧ للهجرة) وتقدم الى الجيزة واحتل الفيوم ثم دهم الوباء جيشه وفتك بالألوف من جنده وحيل بينه وبين المدد من المغرب بعد انهزام أسطوله ، لأنه كان أضعف من أسطول العباسيين

ثم كانت الحملة الثالثة (سنة ٣٢١) وهو فى وهن الشيخوخة ، وقيل انه مات قبل أن يحكم تدبيرها ، وبلغ من هيبتـه بين أهل المغرب أن خليفته القائم كتم خبر وفاته سنة كاملة ، مخافة الانتقــاض ممن دانوا للحكم الجديد مهابة للمهدى ورهبة من نقمته

مات المهدى فى سنة (٣٢٢ للهجرة) وولد فى تاريخ مختلف عليه بين (سنة ٢٥٥ وسنة ٢٦٠ للهجرة) وبويع له بالخلافة وهو فى نحو الأربعين ، فكانت مدة حكمه أربعا وعشرين سنة ، ترك الدولة بعدها وقد استقر بنيانها ورسخت أركانها ودانت لها الدول التى كانت تنازعه فى المغرب وصقلية من الأغالبة والأدارسة ومن يؤازرهم من الأمويين بالأندلس والعباسيين ببغداد ، ولم يعرف عنه طوال أيامه بالمغرب حاكما أو غير

حاكم انه فرغ لمناعم نفسه أو غفل يوما عن سياسة ملكه ، وكانت له زوجة واحدة وانقضت حياته وفى سيرته رد بلسان الحال لا بلسان المقال على الذين رموه بالانتماء الى أعداء الدين ، بل أعداء الأديان وانه تواطأ سرا مع رسل الفساد والغواية لاستباحة المحرمات والاغراء بالفجور ، ولو لم يكن كذلك لما أبقى بعده ملكا مؤسسا يغالب عوادي الدهر من أول القرن الرابع الى نهاية القرن السادس ، أو يغالبها بآثاره الباقية الى اليوم

المعز لدين الله

واحتاجت الدولة الى التوطيد بعد التأسيس فقام بالقسط الأوفى من هذه المهمة ابن حفيده الملقب بالمعز لدين الله ، وهو الخليفة الذى فتحت مصر وبنيت القاهرة فى عهده ونقل مقر الملك اليها بعد انقضاء أربعين سنة على وفاة جده الكبير ، وقيل انها كانت نبوءة ممن يحسبون الأوقات فى مراحل التاريخ بالأربعينات

تولى الملك بعد المهدى ابنه « القائم بأمر الله » ثم المنصور بأمر الله ، وكلاهما جدير بأمانة ميراثه وان لم يبلغ من العظمة مبلغ المؤسس من قبله أو مبلغ الموطد من بعده . فعزز القائم الأسطول واحتل الشواطىء الايطالية حتى ثغر جنوة حماية لبلدة من غارة القراصنة ، ومات قبل التمكن من صد الخوارج الذين أطمعهم فيه موت أبيه ، ولولا اعتصامه بالمهدية لدالت الدولة كلها فى عشرة أعوام ، وارتقى ابنه المنصور الى العرش فاجتاح الخوارج أمامه وأسر زعيمهم القوى ابن كنداد وشتت جموعه ثم تردد بين صد الأمويين الذين أغاروا على مراكش فى هذه الأثناء وبين صد الافرنج الذين خيف منهم على شواطئه فوزع قواه بين هؤلاء وهؤلاء ليقف زحفهم ولا يخلى الطريق أمام أحدهم ، ومات مجهدا فى سنة (٣٤١ للهجرة) فارتقى العرش ابنه « معد أبو تميم » المعز لدين الله الذى كان بحق صاحب دور التوطيد بعد انتهاء دور التأسيس

***

قلنا فى كتاب « عبقرية خالد » ان ولاية أبى عبيدة على الشام كانت لازمة بعد ولاية خالد . لأن الدول تحتاج بعد دور الفتح الى غصن " تون مع السيف ..

وقد كان هـذا شأن المعز فى المغرب بعد جده .. فانه كان يحسن المجاملة الى جانب البأس والصرامة ، وكانت نشأته نشأة علم وفروسية أو نشأة غلبة بالبرهان وغلبة بالسيف والصولجان

كان المعز يحضر دروسه على أساتذته والحرب قائمة والمهدية محصورة ، فكان يتلقى دروس الفروسية علما وعملا ولما يفرغ من مراجعة الطروس والأسفار ، وتعلم لغات الأمم التى تتصل بالخلافة* الفاطمية جميعا ، فكان يحسن البربرية والرومية والايطالية والنوبية ، ويتوسع فى علوم العربية ، وكان له شعر ونثر يميل فيهما الى المحسنات لانتشارها على الألسنة والأقلام فى تلك الأيام

ويروى عن أنفته من الجهل انه سمع من بعض خدمه كلمة صقلية لا يعرفها واعتقد انها كلمة شتم ومهانة فحفظها وأنف أن يسأل عن معناها ولم يبرح حتى أتقن علم تلك اللهجة فاذا بالكلمة من أرذل شتائمها، وقد أنف من جهلها فأصبح يأنف من أن يواجهه أحد بمثلها ..

وبويع له بالخلافة وهو فى الرابعة والعشرين ، فهمه أول الأمر أن يستوثق من أمنع المعاقل التى يعتصم بها الخارجون على الدولة ، فصعد الى جبل أوراس وفيه من القبائل من لم يكن قد دخل فى طاعة آبائه فبايعوه ، وأسرع اليه المخالفون يتقربون اليه لما آنسوه من مودته وكرمه

وأظهر ما ظهر من خصال المعز التى يتصف بها بناة الدول انه كان حريصا على الانتفاع بالتجارب والعبر ، وانه كان يحسن اصطناع الرجال ، وانه كان جيد الفراسة فى أحوال الأمم واغتنام الفرصة من بينها لما يترقبه ويعقد العزيمة عليه ..

فلم ينس هزيمة الأسطول فى الحملة على مصر ، ولم يزل حتى أمن على شواطئه واستطاع بقوته البحرية أن يرد أساطيل الروم عن بلاده وعن جزر البحر الخاضعة لحكمه .. ثم جدد حفر الآبار فى الطريق الى مصر ليأمن قطع الزاد والماء عن جيشه

ومن اصطناعه للرجال انه كان يستخلص الخدام والأعوان ولا يغار

من تعظيمهم بين يديه بل يأمر الشعراء أن ينظموا القصائد فى مدحهم ويأذن لهم أن يخاطبوهم بها فى حضرته ، وكذلك أمر شعراءه أن يمدحوا قائده جوهر الصقلى وأمر العظماء والكبراء أن يترجلوا عند توديعه ، ولما تم لجوهر فتح مصر وأرسل وكيله الكتامى جعفر بن فلاح لفتح الشام تخطى هذا الوكيل جوهرا عند تبليغ بشارة الفتح الى المعز فلم يبدأ بابلاغها الى رئيسه « المباشر » ليبلغها من جانبه الى الخليفة ، فغضب المعز على جعفر بن فلاح ورد اليه كتبه ليعيدها من طريق جوهر اليه

ومن اصطناعه للرجال انه كان يعفو عن الشجعان من أعدائه ويوقع فى نفوسهم الأمن والطمأنينة بالتجربة بعد التجربة حتى يمحضوه الطاعة خالصة بغير ريبة ، ومن المشهور عنه انه كان اذا لقى أحدا من مخالفيه تركه ينصرف وهو يحسبه من حزبه ورأيه ، ولعل هذا كان سبب الاشاعة التى تواترت بين الرهبان والقسوس بتنصره وبقائه على النصرانية ، فان الخبر الذى جاء فى كتاب « الخريدة[1] النفيسة فى تاريخ الكنيسة » لأحد الرهبان يقول انه اعتزل الملك وترهب ومات فدفن فى مقبرة أبى سيفين ، ويقال فى سر ذلك انه تحدى البطرق ابرام أن يزحزح الجبل فجاءه بمن زحزحه على ملأ من الأمراء والكبراء وقادة الجند ورؤساء الدواوين

والثابت من الأخبار يغنى عن هذه الاشاعات ، فان الخليفة المعز أمر قائده جوهر ألا يتعرض لمخالف فى الدين ولا فى المذهب بما يعطل شعائر دينه أو مذهبه ، وأطاع جوهر مولاه ، فبنى الدير الذى عرف بدير الخندق بديلا من الدير الذى أصابه الهدم عند تمهيد الأرض لبناء القاهرة ، وجاء المعز فجدد كل ما تهدم من الصوامع والبيع[2] وجدد كنيسة « مركوريوس » التى تسمى بكنيسة أبى سيفين (لأن القديس كان يرسم على صهوة جواد وفى يديه سيفان) ... وقيل انه أمر باقامة البناء على المجذوب الذى أثار الدهماء استنكارا لبنائها وآلى ليبقين فى حفرة الأساس حتى يقام عليه ، فلم ينقذه من مصيره الا شفاعة البطرق له عند الخليفة ..

---

(١) الخريدة : المرأة الحيية الطويلة السكوت ، والعذراء ، (٢) البيع : جمع بيعة بكسر الباء ، كنيسة المسيحيين ،

فهـذا وما جبل عليه المعز من المجاملة وما تعوده من الترحيب فى مجلسه بالمتناظرين فى الأديان والمذاهب هو على التحقيق أصـل تلك الاشاعة عن مدفنه فى مقبرة الكنيسة ، ولعلها اشاعة نبتت بعد عصر المعز بعدة سنين ، يوم كانت هـذه الاشـاعة وما اليها موئل العزاء فى أيام الخليفـة الحاكم المخبول ، لمن كان يضطهـدهم من المخالفين ، وبينهم مسيحيون ومسلمون من الشيعة والسنيين

***

ومن تفرسه فى استطلاع أحوال الأمم واغتنام الفرص انه عول من اللحظة الأولى على فتح مصر ونشر فيها العيون والدعاة وجاءه من مصر وزراء يستعجلونه ويستحثونه ، وتلاحقت الأنباء بسوء الحال واشتداد الغلاء وفتك الوباء ، فلم يعجله ذلك كله كما أعجله ما سمعه عن تدهور الأخلاق بين ولاة الأمر ، ومنه فى رواية المقريزى ان صبيه عرضت فى مصر للبيع وطلب فيها البائع ألف دينار « فحضرت اليه فى بعض الأيام امرأة شابة على حمار لتطلب الصبية فساومته فيها وابتاعتها منه بستمائة دينار فاذا هى ابنة الأخشيد محمد بن طغج وقد بلغها خبر هذه الصبية ، فلما رأتها شغفتها حبا فاشترتها لتستمتع بها »

قال المقريزى : « فعاد الوكيل الى المغرب وحدث المعز بذلك فأحضر الشيوخ وأمر الوكيل فقصّ عليهم خبر ابنة الأخشيد مع الصبية الى آخره فقال المعز : يا اخواننا ! انهضوا لمصر فلن يحول بينكم وبينها شىء ، فان القوم قد بلغ بهم الترف الى أن صارت امرأة من بنـات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشترى جارية لتتمتع بها ، وما هذا الا من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم ، فانهضوا لمسيرنا اليهم .. »

وقد كان الفاطميون يحبون المواسم والمواكب ويتدعونها ويشجعون الرعية عليهـا ، ولكن المعز — على خلاف المعهود من سياسة أسرته — حظر الاحتفال بالنوروز بعد وصوله الى مصر منعا للتبذل الذى شـاع فيه على آخر أيام الأخشيديين ، وتطهيرا للأخلاق مما أصابها فى تلك

الأيام وأدرك منه المعز انه نذير بزوال ملك بنى الأخشيد

وقدم جوهر الى مصر فى سنة (٣٥٨ للهجرة) فاشترط عليه وجوه الأمة ورؤساؤها قبل التسليم أن يؤمنهم على عقائدهم ومألوفاتهم ، فكتب لهم عهد أمانه الذى قال فيه : « ذكرتم وجوها التمستم ذكرها فى كتاب أمانكم ، فذكرتها اجابة لكم وتطمينا لأنفسكم ، فلم يكن فى ذكرها معنى ولا فى نشرها فائدة ، اذ كان الاسلام سنة واحدة وشريعة متبعة ، وهى اقامتكم على مذهبكم وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض فى العلم والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بعدهم ... ولكم على أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام ... »

***

ووضع جوهر أساس القاهرة ، ولم يشأ المؤرخون أن ينسوا شهرة الفاطميين برصد النجوم — وهى شهرة صحيحة — فقالوا انها سميت بالقاهرة لأن المهندسين أقاموا على أسسها حبالا وعلقوا فى الحبال أجراسا ليسمعها العمال عند حلول الرصد المطلوب ، وان غرابا وقع على الحبال والمريخ فى الفلك فاهتزت الحبال وأخذ العمال فى وضع الحجارة فسميت المدينة باسم القاهر الذى يطلقه المنجمون على المريخ ، لأنه كان فى معتقد الأولين اله الحروب .. !

هذه القصة « أولا » تروى عن بناء الاسكندرية

وهى « ثانيا » لا تعقل ، لأن النجوم ترصد ليلا والغربان لا تطير بالليل ، ولو طارت ليلا أو نهارا لما كانت وقعة غراب على حبل كافية لتدق الأجراس تدق على جميع الأسوار ، ولو كانت الأجراس تدق بهذه السهولة لدقت قبل وقوع الغراب على الحبل لأسباب كثيرة تحرك الحبال كما تحركها هزة الغراب ، ولو كان تحقيق الرصد مبنيا على العلم لا على الرؤية لأمكن أن يبدأ التأسيس فى ساعة معلومة بغير حاجة الى الأجراس

To: www.al-mostafa.com

ثم من قال انه غراب وهو مجهول ؟ وكيف عرفوه . والمظنـون ان المهندسين هم الذين حركوا الحبال ؟ ولم لا يكون طيرا آخر أو جملة من الطير ؟ ..

وقد رويت القصة وتناقلها المؤرخون وتقبلها الكثيرون ، وفى التنبيه الى ما فيها من الاحالة[1] عبرة لمن يصدق السممة التى تخلقها الأقاويل من هذا القبيل ..

***

واتبع جوهر سنة دولته فى تخطيط المدن وتشييد العمائر ، فانهم تعودوا أن يبدأوا بتجديد المعالم والشارات ليستشعر الناس ألفة العهد الجديد بالنظر والسمع شيئا فشيئا قبل مطالبتهم بتغيير ما توارثوه وثبتوا عليه ، فشرع جوهر فى بناء مسجد العاصمة الجديدة (٣٥٩ للهجرة) وسماه الجامع الأزهر على اسم الزهراء فى أرجح الأقوال ، وكأنه أراد أن يستغنى بالعاصمة الجديدة ومسجدها عن القطائع عاصمة الطولونيين ومسجدها المشهور بمسجد ابن طولون ، وعن الفسطاط ومسجدها المشهور بالمسجد العتيق ، وكلتاهما — أى القطائع والفسطاط — كانت عاصمة للقطر فى أوانها ، واستحدث الأمراء بعد خراب القطائع عاصمة خارج الفسطاط سموها العسكر ثم أنشأ الفاطميون القاهرة معقلا ومقاما كدأبهم فى تجديد المعالم والشارات على ما ألمعنا اليه

وبعد فراغ جوهر من بناء القصور التى أعدت لاقامة الخلفاء أبلغ المعز فقدم الى الاسكندرية (شعبان ٣٦٢ للهجرة) وجلس لاستقبال رؤساء المدينة والوافدين اليها للتسليم عليه ثم خطبهم قائلا انه لم يقصد الى مصر طمعا فى زيادة ملك أو مال وانما قصد اليها لتأمين الأنفس وحماية طريق الحج ودرء الغارة عن ديار الاسلام ، وهو كلام يقول مثله كل فاتح ولكنه كان فى برنامج المعز خطة تمليها الضرورة عليه ، لأن تأمين الطريق الى الحجاز كان ضمانا لاستقرار الدولة الفاطمية ودفع الشبهات عنها ، اذ كان القرامطة يعملون باسمها وكان أعداء الدعوة الفاطمية

---

(١) الاحالة : احال الرجل : اتى بالمحال وتكلم به .

يشيعون عن القوم أنهم يقطعون طريق الحج عملا بمذهب الاسماعيليين ويزعمون ان الاسماعيليين يسقطون الحج من الفرائض ، فكان تأمين طريق الحجاز من قبــل مصر والشام خطــة تقضي بها مصلحة الحاكم والمحكوم ، ولم يلبث المعز فى القاهرة سنة واحدة حتى تفاقم خطب النزاع بينه وبين القرامطة وأعلن البراءة منهم وأعلنوا الخروج عليه ، وزحفت جموعهم الى مصر ومعها قبائل البادية التى تطلب الغنيمة وتخشى من عواقب تأمين الطريق ، فاستعد لهم المعز بعدة الحيلة حقنا للدماء وأرسل الى زعيم القبائل البدوية حسان بن الجراح الطائى من يطمعه المال اذا تراجع وتنحى عن أصحابه ، ووعده بمائة ألف دينار .. فقبل الصفقة ، وخرج المعز للقتال على اتفاق بينه وبين ابن الجراح أن ينهزم هذا بجموعه عند التقاء الصفوف ، وقد فعل وحمل معه أكياس الدنانير... ولكنها لم تحو من الدنانير الصحاح غير مئات تبدو على وجه الأكياس ومن تحتها قطع النحاس المذهبة يخفيها الزعيم المخدوع جميعا عن شركائه ، ودارت الدائرة على القرامطة فى ذلك اليوم فقنعوا من الغنيمة بالاياب ودبت المخاوف والشكوك بينهم وبين أصحابهم فلم يرجعوا بعدها الى غاراتهم على مصر

ولم ينته عهد التوطيد بانتهاء عهد المعز (فى سنة ٣٦٥ للهجرة) فان ابنه العزيز الذى تولى الملك بعــده كان من كفاة الملوك وكانت طاعته غالبة على المغرب ومصر وجزيرة العرب لا تخرج عليه خارجة فيهــا الا عجل بقمعها وأعاد الأمور فى أرجاء الدولة الى نصــابها ، ولكنه مات (سنة ٣٨٦) وقد بدأت فى أيامه دسائس القصــور وسياسة الحريم ، وتناثرت هنا وهناك بذور الانحلال التى اختفت الى حين فى ابان نضرة الدولة وزهوها ، ثم برزت وتفرعت مع ادبار الأمور وتعاقب الضــعفاء من الأمراء ..

الحاكم بأمر الله

قام بعد العزيز على سرير مصر أسطورة فى شخص انسان ، لو لم

يكن تاريخه خبرا يقينا لشك فيه المؤرخون أو جزموا بانكاره ، اذ كان مجموعة من النقائض والغرائب يكذب بعضها بعضا ولا يتصور العقل لأول وهلة انها تصدر من انسان واحد

ذلك هو الحاكم بأمر الله ..

كان يعمر ويخرب ، وكان يلين ويقسو ، وكان ينهى عن المراسم ثم يفرض منها ما يشبه العبادة ، وكان يجيز شعائر أهل السنة وأهل الذمة ثم يمنعها ويبطش بمن يعلنها .. وكان يحرم المباح ويبيح الكفر البواح ، وكان يبدل الليل بالنهار والنهار بالليل ، فمن فتح دكانا بالنهار جلده ومن أغلق دكانا بالليل رماه بالعصيان ، وكان يعتق العبيد والاماء ويفرق عليهم الهبات والأرزاق ثم يستعبد الأحرار ويدينهم بما يأنف منه الأرقاء ، وكان يخرج الى غيران الجبل فى الظلام ويختبىء فى حجرات قصره منذ مشرق الشمس الى المغيب ، وكان يدعى علم الغيب ويعاقب من يحرس ماله ومتاعه كأنه يشك فيه ، ثم يحاسب على الصغائر التى يغفرها المتنطسون ..

قال ابن خلدون : « ان حاله كان مضطربا فى الجور والعدل والاخافة والأمن والنسك والبدعة » . وقال ابن خلكان : « انه كان جوادا سمحا ، خبيثا ماكرا ، رديء الاعتقاد ، سفاكا للدماء ، قتل عددا من كبراء دولته صبرا ، وكان عجيب السيرة يخترع كل وقت أمورا وأحكاما يحمل الرعية عليها .. »

ولم يذكر عن ملك فى أحوال العقيدة ما ذكر عن هذا الحاكم بأمر الله ، وبأمره ، وبأمر المأمورين والأمراء

فمن مؤرخى القبط من يقول انه مات على النصرانية ، ومنهم من يقول انه كان يعبد المريخ ويتوهم انه يراه ويتحدث اليه ، ومن مؤرخى السنة من يقول انه ادعى الربوبية ، ومن أتباعه اليوم من ينفى الموت عنه ويزعم انه صعد الى السماء ليعود الى الأرض فى آخر الزمان ، وأطبقت النقائض على تاريخ حياته بتاريخ وفاته ، فلم يعلم أحد متى مات وكيف مات

وفى رأينا بعد هذا ان سيرة الحاكم هى أعجب السير وأوضح السير فى وقت واحد ...

هى أعجبها فى موازين النصوص والأوراق ، وهى أقلها عجبا فى ميزان علم النفس الذى لم ينفصل عن التاريخ قط فى الكلام عن دولة كما انفصل عنه فى الكلام على ملوك هذه الدولة

واضح من تطبيق علم النفس على أعراض هذا الرجل انها حالة من حالات الهوس بالأسرار أو الحالات التى تعرف بهوس الغموض (١)

أصحاب هذه الحالة مستغمضون مولعون بالأسرار ، يفرطون فى التفاؤل والتشاؤم لايمانهم بالرموز واعتقادهم ان الغيب يتحدث اليهم عن مكنوناته بتلميحات من الحوادث والمعانى المزدوجة التى تحمل فى أطوائها ما ينم عليه ظاهرها للعارفين ، واذا غلا الظن بأصحاب هذه الحالة كانت من الحالات التى تختلط بمرض الاضطهاد ، فيقع فى روع المريض أن الناس يضمرون له الشر ويتعقبهم بالتجسس والاستطلاع ، وينتقم منهم للوهم العارض والشبهة الكاذبة ، لأنه يصدق كل خبر عنهم غير الخبر الصراح

ويسكن المتهوسون بالأسرار الى مناظر الظلام ، ويستهويهم الليل بخفاياه ، وتروقهم الوحدة فى الخلوات ..

وليس المصاب بهذه الحالة مجنونا ذاهل الحس عما حوله فى جميع الأوقات ، بل هى نوبات تعتريه ولا تمنعه أن يبدع ابداع العباقرة والموهوبين فى بعض الفنون

أما علة هذا المرض فأنصار فرويد يرجعون بها كعادتهم الى صدمات الطفولة وأزماتها التى ترتبط بالجنس على الخصوص ، فتكمن فى الوعى الباطن وتتمكن منه على غير علم من ضحيتها ، حتى تنفجر دفعة واحدة أو رويدا رويدا فى مقتبل الشباب

وغير « الفرويديين » يعللونها باضطراب الحواس ولا سيما حاسة السمع وحاسة البصر ، فيتوهم المريض انه يرى ويسمع ما ليس يراه الأصحاء ولا يسمعونه ، ويحدث أحيانا أن ينظر الى الشىء الماثل فلا يراه

(١) Mystic Hallucinosis

ويصمى الى الصوت البين فلا يسمعه ، وقد يتفقون مع جماعة فرويد فى الرجوع بالعلة الى صدمات الطفولة وأزماتها دون أن يربطوها بالمسائل الجنسية ..

هذه الأعراض كلها ظاهرة فيما روى عن الحاكم من شتى المصادر ، ولم يكن الحاكم بمعزل عن البيئة التى تندس فيها الآفات الى نفس الطفل الناشىء ، فقد نشأ الحاكم كما أسلفنا فى عهد دسائس القصور وسياسة الحريم ، وتركه أبوه وهو فى الحادية عشرة من عمره وأقام على وصايته ثلاثة متنافسين هم المملوك برجوان والقاضى محمد بن النعمان والحسن بن عمار زعيم قبائل البربر من كتامة ، وأول هؤلاء برجوان كان غارقا فى دسائس القصور وسياسة الحريم

وقد أحاطت هذه الدسائس بالحاكم وهو فى سن الخطر ، لأنه لم يكن من الطفولة بحيث يجهل ما حوله ، ولم يكن من الفتوة بحيث يدرك ما يحاط به ويملك الوسائل الى استطلاعه . كان فى الحادية عشرة وكانت كل خفية من خفايا الدسائس تغريه بالتطلع وتوسوس له بالريبة والتساؤل ، فاذا كان مع هذا قد نشأ فى بيئة التنجيم وكبر وهو يصغى الى أحاديث الباطن والظاهر وأسرار الغيوب التى تنكشف للواصلين من الأئمة ، فلا عجب فى ابتلائه بتلك الآفة ، آفة الهوس بالأسرار أو الولع بوساوس الغموض ، ثم يجهز على البقية الباقية من عقله أولئك الوزراء والعشراء الذين يتلمسون مواطن الضعف فى نفوس الأمراء الناشئين فيمعنون فى استغلالها ويبالغون فى تحسينها وتزيينها ، كما فعل الدرزى والأخرم من حاشية الحاكم المقربين ، اذ قيل انهم وسوسوا له بمذهب الحلول وخاطبوه مخاطبة الأرباب ، وأطبقت آفة الاطلاع المضلل على آفة الاستطلاع المكبوت ..

ولم يكن الحاكم من المسرفين فى الشهوات فتختل أعصابه من قبل الاسراف ، ولم يكن يعاقر الخمر أو يستطيبها بل كان يحرمها وينهى عنها ولم يشرب النبيذ الا بالحاح طبيبه الذى خطر له أن يعالجه بادخال

السرور الى نفسه فى مجالس الغناء مع يسير من الشراب ، وانما « عرض له كما قال الطبيب يحيى الانطاكى فى تاريخه تشنج من سوء مزاج يابس فى دماغه وهو مزاج المرض الذى يحدث فى المالنخوليات واحتاج فى مداواته منه الى جلوسه فى دهن البنفسج وترطيبه به ، وان كثرة سهره أيضا وشغفه بمواصلة الركوب والهيمان الدائم مما يقتضيه هذا السوء المتقدم ذكره ، وان أبا يعقوب اسحاق بن ابراهيم بن انسطاس لما خدمه استماله الى أن تسامح فى شرب النبيذ وسماع الأغانى بعد هجره لها ومنع الكافة منها ، فاتصلحت أخلاقه وترطب مزاج دماغه واستقام أمر جسمه ، ولما مات أبو يعقوب وعاد الى الامتناع عن شرب النبيذ ومن سماع الغناء رجع الى ما كان عليه »

تلك هى خلائق الحاكم كما يصورها علم النفس ولا يصور لنا فيها شيئا من تلك الأعاجيب التى يستغربها مؤرخو النصوص والأوراق ، فان طفلا يصاب بالتشنج وتحيط به فى سن المراهقة دسائس القصور التى تحيط بالملوك الصغار ، وينشأ وهو يسمع الأحاديث عن التنجيم وأسرار البواطن والغيوب ، ثم يبتلى من حوله بالمتزلفين والمنقبين عن مواطن الضعف فى نفسه الحائرة — غير بدع أن يصاب بهوس الأسرار وأن تصدر منه تلك النقائض التى ينساق فيها على الرغم منه أو التى ينساق فيها مختارا لأنه يتوهم انه يروض نفسه بالتقشف والتهجد[١] ، وحمل الناس عليها والتقرب الى الله بعقاب من ينحرف عنها ، فتتكشف له الحجب التى لا تزال مسدلة دونه ، ويتهم نفسه كلما خفيت عليه مساتيرها بنقص فى الرياضة وقصور فى العبادة ، فلا يزال دهره بين خشوع العابد ومحاولة اليائس وقلق الحائر وايمان المستريح الى الظنون ، ودعوى المصدق لما يلقى عليه مما يستريح اليه

وسواء صح أن نكبة الحاكم كانت احدى جرائر « الحريم » ودسائس القصور أو كانت نكبته جريرة المرض وحده فقد صدقت فراسة المعز فى عاقبة التكثر من الزوجات والجوارى وأخذت سياسة القصور تتشعب

---

(١) التهجد : القيام فى الليل للصلاة .

وتستشرى[١] حتى تناولت كل شيء فى الدولة والمجتمع ، وكانت جرائرها آخر الأمر شرا قائما بذاته وشرا عصويا علي سائر الشرور ، لأنه كان حائلا دون اتقائها ومنعها كما كان حائلا دون معالجتها بعد وقوعها

فمن جراء دسائس القصور تمددت قوى الجيش وشجرت[٢] بينها نوازع الشقاق تبعا لاختلاف الأحزاب فى كل حريم ، فكان للدولة قوة من الترك وقوة من السودان الى جانب القوة التى كانت لها من البربر والعرب ، وأصبح حراس الأمن أول المزعجين للآمنين ولأنفسهم وللقادة والحكام

ولم يمض غير جيل واحد على قيام الدولة فى مصر حتى ابتليت بسياسة « البيروقراطية » أو تحكم الدواوين فوق ما ابتليت به من سياسة الحريم ..

وسبب هذه الآفة ولاية بعض الخلفاء فى سن الطفولة وولاية خلفاء آخرين كالأطفال وان بلغوا مبلغ الرجال . فقد ركنوا الى ترف القصور وقنعوا من الوزراء بجلب المال اليهم كلما طلبوه ، فقبض الجباة ورؤساء الدواوين والوزراء على أزمة الثروة وعلى أزمة السياسة وطمعوا لأنفسهم ولسادتهم فاستباحوا المصادرة وجمع الاتاوات من الرشوة والارهاب عدا ما يجمعون من الضرائب فى غير موعد

والمصائب لا تأتى فرادى كما يقال ، فان المجاعة من الداخل وهجوم الصليبيين وغير الصليبيين من الخارج قد أصابا الدولة بعجز فوق عجز حتى تعذر عليها التماسك والدفاع ، فدق عليها القول

وقد سمى عصر الخليفة « المستنصر » بالعصر الذهبى فى الدولة الفاطمية مع ما كان يتخلله من القحط والمجاعة والوباء ، وما سمى عصره بهذا الاسم لأنه صنع فيه شيئا خلال ستين سنة قضاها على العرش منذ جلس عليه وهو فى السابعة (سنة ٤٢٧ هجرية) الى أن مات وهو يدلف[٣] الى السبعين ، ولكنه كان عصرا كموسم الحصاد الذى تبرز فيه الثمرات والأشواك وتنضج فيه السنابل وما يحملها من الهشيم الذى ستذروه الرياح عما قريب او تطعمه النار ذات الوقود

---

(١) تستشري : تشتد · (٢) شجرت : تشابكت · (٣) يدلف : دلف الشيخ مشى وقارب الخطو ·

فلما مات تعاقب بعده على الخلافة من لا يحسب من البناة ولا من الهادمين ، وانما هو مهدوم تتداعى تحته قواعد الملك ، وقد يفارقها وهو قتيل ..

وكان بنو أيوب قد أخذوا بزمام السلطان فى مصر قبيل انتهاء الدولة الفاطمية ، فلما استقر الرأى فى أيام صلاح الدين على الدعاء للخليفة العباسي بدلا من الخليفة الفاطمي الملقب بالعاضد ، تجاوبت المنابر بالدعاء الجديد ولم يعلم به الخليفة الذى تحول عنه الدعاء ، لأنه كان يجود بنفسه فى مرض الوفاة ، فكانت سنة سبع وستين وخمسمائة للهجرة هى خاتمة الأجلين : أجل الخليفة الذى عمر احدى وعشرين سنة ، وأجل الدولة التى عمرت بين المغرب ومصر مائتى سنة وسبعين

وقد عزل أمراء الدولة بعد موت عميدها منفردين لينقرضوا بغير عقب ، وقال المقريزى عن صلاح الدين والخليفة الاخير : « وأضعف العاضد باستنفاد ما عنده من الأموال فلم يزل أمره فى ازدياد وأمر العاضد فى نقصان ... ومنع العاضد من التصرف حتى تبين للناس ما يريده من ازالة الدولة ... فلم يبق للعاضد سوى اقامة ذكره فى الخطبة.. هذا وصلاح الدين يوالى الطلب منه كل يوم ليضعفه ، فأتى على المال والخيل والرقيق وغير ذلك حتى لم يبق عند العاضد غير فرس واحد فطلبه منه وألجأه الى ارساله وأبطل ركوبه من ذلك الوقت وصار لا يخرج من القصر .. »

هذه قسوة لم يحسبها التاريخ على صلاح الدين ، لأنها من قسوة الزمن وجناية الأسلاف على الأخلاف ، أو هو قد حسبها فى حساب الموازنة بين المناقب والمسائب ، وبين حكم المروءة وحكم السياسة المشنوءة[1] وبين القضاء الذى يجريه صاحبه ، والقضاء الذى يجرى على قاضيه فيجزيه وكأنه يعاقبه ، فرجحت كفة الاقبال وهو دائم الرجحان ودالت دولة الزوال فشالت[2] كفتها فى ميزان الزمان

(١) المشنوءة : المكروهة . (٢) شالت كفتها : شال الميزان ارتفعت احدى كفتيه على الاخرى .

حضارة محتضرة ...

اذا استثنينا الحضارات المصرية الأولى فى أيام الفراعنة جاز أن يقال ان حضارة مصر فى عهد الفاطميين لم يعرف لها نظير بعد الميلاد ، ولا استثناء لعهد البطالسة ، لأنه عهد غلبت فيه الصبغة الأجنبية على الصبغة الوطنية ، خلافا للحضارة فى أيام الفاطميين ، فان صبغتها المصرية كانت غالبة على كل صبغة ، ومن ثم لم تتكرر فى وطن آخر على هذه الصورة ، وبقيت مصر على مذهبها الدينى الذى كانت عليه قبل قيام الدولة بين ربوعها ..

وتصدق كلمة الحضارة هنا على كل حضارة تقاس بمقياس الثقافة أو مقياس الصناعة أو مقياس الثروة أو مقياس الشؤون الاجتماعية

فلم توجد فى مكتبة بعد مكتبة الاسكندرية خزائن للكتب كالخزائن التى وجدت فى القصر الشرقى وتفاوت تقديرها بين ستمائة ألف مجلد ومليونين ، حسب اختلاف التقدير على ما يظهر بين عدد الكتب وعدد النسخ ، وقد كان فيها لبعض الكتب عشرات من النسخ للاعارة أو الاطلاع ..

وتنافست القصور فى اقتناء الكتب النادرة ، فكان فى كل قصر مكتبة تحتوى عشرات الألوف من كتب الفقه والأدب والرياضة والطب وسائر العلوم ..

وكان الخليفة يزور المكتبة العامة من حين الى حين فيترجل ويخلع نعليه ، وتعرض عليه الكتب الواردة ليأذن بوضعها فى الرفوف

وأنشئت دار الحكمة ودار العلم . هذه للمتعلمين وتلك للمعلمين ، وفتحت فيهما مجالس المناظرة والمحاضرة ، يخصص منهما قسم للرجال

وقسم للنساء ، وتنقل المناظرة أحيانا الى قصر الخليفة فيشترك فيها أو يشرف عليها ، ويأذن لكل ذى رأى أن يدلى برأيه فيها ، وان خالف به اجماع الآراء ..

وشاعت بين العامة ثقافتهم التى ترضيهم من ملاحم التاريخ المنثور أو المنظوم ، فلم يكن مجلس من مجالس السمر العامة يخلو من القصاصين أو الشعراء المنشدين ، يسمعون جمهرة النـاس طرفا من التـاريخ الشعبى والقصص الشعبية ، عدا مجالس الوعظ والتفقيـه التى تفتح للقصاد فى المعاهد أو المساجد من صلاة الفجر الى صلاة العشاء

وفى عهدهم أصلحت الدواوين ونظمت وسائل الرى وأعيدت مساحة الأرض وفكروا فى بناء الخزان عند أسوان ..

وتقدمت الفنون والصناعات ، وتنافس الفنانون والصناع فى هندسة البناء ، وفى النقش على الجـدران والحفر على الحجارة الـكريمة ، وشوهدت رسوم على النسيج تحكى اللوحات الفنية فى دقة التصوير وجمال التلوين ، وبلغ فن التصوير البارز والتصوير الناتئ غاية ما يبلغه فى عصر من العصور، وصيغت التماثيل من المعادن والجواهر فأوشكت قيمة المعدن المرتخص أن تناظر قيمة المعدن النفيس بفضل الصناعة والاتقان

وقد ألف الوصـافون اذا بالغوا فى وصف العجائب أن يشـبهوها بعجائب ألف ليلة وليلة ، ولكن عجائب ألف ليلة وليلة كانت كالنسخة المنقولة من ذخائر القصور فى تلك الحضـارة ، لولا ان نسخة الحقيقة كانت هى الأعجب والأبدع من نسخة الخيال

وكانت التجارة مددا للصناعة لا ينقطع ولايزال يعطيها كلما أخذ منها ويحثها على التوسع والمزيد : تأتى السفن من بحار المغرب وبحار الهند والصين بالخامات وتعود ببدائع المصنوعات ، أو تأتى ببدائع المصنوعات وتعود بما هو أبدع وأغلى ، دواليك فى مواسم العام كله لا تنى ذاهبة آيبة على مدى الصيف والشتاء

وتعددت المواسم والمحافل الاجتماعية ، وحافظت الدولة الجديدة على

مواسم الأزمنة الغابرة وأضافت اليها ، فبعد الغاء النوروز عند مقدم الخليفة المعز الى القاهرة عادوا الى الاحتفال به وأضافوا اليه الاحتفال بالغطاس وخميس العهد وأعياد الربيع ، وأحصى من مواسم العام غير ذلك رأس السنة ويوم عاشوراء ومولد النبي ومولد الامام وموالد آل البيت ، وليالى الوقود وهى ليال من رجب وشعبان يحتفل بها قبل نوافل الصيام ..![(1)]

وتناظرت محافل الليل ومحافل النهار ، ولا سيما فى شهر رمضان وليالى الأعياد ، وعود الخلفاء الشعب أن يستضيفوه ويمدوا له الأسمطة[(2)] ويخرجوا اليه يحيونه ويتلقون منه التحية ، وأصبح الوافدون الى مصر يحسبونها أمة فرغت للمواكب والمحافل والأسمار

ولم يكن قصارى ما فى تلك المواكب انها مظاهر لهو وفراغ تعطل فيها الأعمال وتنسى فيها تكاليف المعيشة . بل هى كانت فى حقيقتها معارض للفنون والصناعات ، يسير فيها أصحاب كل فن وصناعة على نظام معلوم ، ويتقدم كل طائفة نقيبها وأساتذتها يترنمون بمفاخر فنونهم وصناعاتهم ويعلنون عنها ويدلون عليها ، ومن هذه المواكب ما بقى الى اليوم فى زفة رمضان وزفة المحمل وزفة جبر البحر ، ومن تلك المحافل ما بقى فى طالعة رجب ونصف شعبان وغيرها من ليالى الذكرى للأموات والزيارة للاحياء

لا جرم كانت مصر ابان هذه الحضارة ملتقى الرواد والقصاد ، ولا جرم تحفل قصور الخلفاء والكبراء بمن يقصدون رحاب ذوى السلطان فى كل زمان ومكان ، وأولهم السياح والشعراء

فما من رحالة أنجبه العالم الاسلامى لم يتخذ من مصر مقاما أو مزارا فى تلك الأيام ، وما من قصر من قصور الملك فى المشرق والمغرب عمر فى ذلك العصر بمثل ما عمرت به القصور الفاطمية من الشعراء والأدباء

وأوصى الخلفاء والأمراء شعراءهم بالايجاز لازدحام القالة وكثرة المقال ، وزادوهم فى الجزاء لكيلا يقال انه قصد فى العطاء لا قصد فى الثناء ، فقال أحدهم ابن مفرج يخاطب الخليفة الحافظ :

---

(١) نوافل : جمع نافلة وهي عمل ما لا يجب عمله ، كالصيام في غير شهر الصيام . (٢) الاسمطة : جمع سماط وهو ما يبسط ليمد عليه الطعام .

أمرتنا أن نصوغ المدح مختصرا
لم لا أمرت ندى كفيك يختصر

ومن شعراء العصر من كان على خلاف مذهب الشيعة وكان يجهر بهذه المخالفة كعمارة اليمنى الذى قال :

مذاهبهم فى الجود مذهب سنة
وان خالفونى فى اعتقاد التشيع

وهو الذى بخع[1] نفسه على آثارهم وأوردها مورد الهلاك أملا فى نصرتهم واستعادة مجدهم ، فهو أحق الناس برثائهم ، وقصيدته التى قيل فيها انها أبلغ مانظم فى رثاء دولة هى أحق ما نودع به عمرانهم المهجور :

لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة
على فجيعتها فى أكرم الدول
قدمت مصر فأولتنى خلائفهـا
من المـكارم ما أربى على الأمل
مررت بالقصر والأركان خالية
من الوفود وكانت قبلة القبل
فملت عنهـا بوجهى خوف منتقـد
من الأعادى ووجـه الود لم يمل
أسلت من أسفى دمعى غداة خلت
رحابكم وغدت مهجورة السبل
أبكى على ماتراءت من مكارمكم
حال الزمان عليهـا وهى لم تحل
دار الضيـافة كانت أنس وافدكم
واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وكسوة الناس فى الفصلين قد درست
ورث منها جديد عندهم وبلى

---

(١) بخع : بخع نفسه أهلكها .

ومـوسـم كان فى يوم الخليج لكم
يأتى تجملكم فيه على الجمل
وأول العام والعيـدين كان لكم
فيهن من وبل جود ليس بالوشل[1]
والأرض تهتز فى يوم الغدير كما
يهتز ما بين قصريكم من الأسـل[2]
والخيـل تعرض فى وشى وفى شية
مثـل العرائس فى حلى وفى حلل
وماحملتم قرى الأضياف من سعة الأ
طباق الا على الأكتاف والعجل
وما خصصتم ببر أهل ملتكم
حتى عممتم به الأقصى من الملـل
كانت رواتبكم للذمتين وللضـ
ـيف المقيم وللطارى من الرسـل
ثم الطراز بتنيس الذى عظمت
منه الصلات لأهل الأرض والدول
باب النجاة هم دنيـا وآخرة
وحبهم فهو أصـل الدين والعمل
والله ما زلت عن حبى لهم أبدا
ما أخر الله لى فى مدة الأجل

ولم يؤخر له فى الأجل ، فانقضى أجل الدولة فى سنة سبع وستين وخمسمائة وانقضى أجل شاعرها فى سنة تسع وستين وخمسمائة

« قل اللهم مالك الملك تؤتى من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شىء قدير »

---

(١) الوشل : الماء القليل يتحلب من صخرة يقطر قليـلا قليلا .
(٢) الاسل : نبات يخرج قضبانا دقاقا . والرماح .

فهرس

صفحة

تمهيد ٦

القسم الاول : فاطمة الزهراء

أم الزهراء ٩
نشأتها ١٧
زواجها ٢٠
بلاغتها ٣٤
في الحياة ٤٠
وفاتها ٤٧
شخصية الزهراء ٥٢
الذرية الفاطمية ٥٦

القسم الثاني : .. والفاطميون

الفاطميون ٦٢
النسب ٦٩
الباطنية ٧٩
الباطنية الفاطمية ٩٢
حسن بن الصباح ١١٠
السرية الباطنية ١٢٧
بناة وهدامون ... ومهدمون ١٣١
المعز لدين الله ١٤٢
حضارة محتضرة ١٥٥

أبو الشهداء

الحسين بن علي

عباس محمود العقاد

أبو الشهداء

الحسين بن علي

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

تقــديم

سئل سعد زغلول مرة عن الكاتب الكبير عباس محمود العقاد. فقــال :

« أديب فحل ، له قلم جبار ، ورجولة كاملة ، ووطنية صافية ، واطلاع واسع • ما قرأت له بحثا ، أو رسالة في جريدة أو مجلة . الا أعجبت به غاية الاعجاب • وهو لا يعالج موضوعا الا أحاط به جملة وتفصيلا ، احاطة لا تترك بعدها زيادة لمستزيد ، وله أسلوب أدبي فريد » •

واذا كان هذا الحكم العادل يتطابق كل التطابق مع ما يمتاز به العقاد من مزايا وشمائل ، ومع ما تفردت به كتبه ومؤلفاته من روعة البيان ، وقوة التعبير ، ونصاعة الحجة ، فان هــذا الكتاب « أبو الشهداء ، الحسين بن علي » في مقدمة مؤلفاتــه الخالدة التي أبرزت الحقائــق التاريخيــة ، وعالجت الشؤون النفسية ، في افاضة وشمول ، وتدقيق وتمحيص ، بحيث لا يجد الناقد البصير ثغرة ينفذ منها الى شيء من التخطئة والتصويب ، أو الى فضل من الشرح والايضاح •

ولا شك أن من يطلع على سيرة أبي الشهــداء ، ويستجلي أحوال من خاضوا غمرات أحداثها سيعثر على فئتين من الناس هما على طرفي نقيض • فئة الحسين وأنصاره وأتباعه ومؤيديه التي تتمثل فيها أسمى وأشرف ما بلغته الانسانية في تاريــخ حضارتها ، وأنبل ما بثته الأديان ودعت اليه من خصال الخير ، واعلاء كلمة الحق ، والجود بالنفس في سبيل نصرة المظلوم ، والقضاء على الضلال ، والسادرين فيه • وفئة المناوئين للحسين ، الذين أعمتهم منافعهم الذاتية ، ومطامعهم الدنيوية عن جلال قدره ، ورفعة مقامه ، وقرابته من سيد الأنبيــاء والمرسلين ،

وانحداره من أكرم أبوين ، من أب نافح عن الاسلام بسيفه ، وروع قلوب أعدائه باقدامه وشجاعته ، ونور أذهان المؤمنين بواسع علمه وسحر بيانه • ومن أم مسطرة الأنفاس بنفحات النبوة ، مطهرة الأخلاق والشيم بعبق الوحي والرسالة •

وجدير بنا أن لا ننسى فئة ثالثة ثابت الى الرشد بعد أن ضلت بالانحياز الى أخصام الحسين ، واستيقظ فيها الضمير فانضمت الى صفه وقاتلت معه جنبا الى جنب واستشهد منها الكثير •

وهناك فئة غلب عليها الطمع في حطام الدنيا ، أو عمل ضعف الايمان عمله في نفوسهم ، أو أذعنوا لدواعي التهديد والوعيد ، فانقلبوا خاسئين الى صفوف الباطل ، أو استولت عليهم الحيرة فباتوا لا يدرون أي الفريقين أحق بالاتباع •

وسيرة الحسين هي قصة الصراع العنيف بينه وبين يزيد بن معاوية بن أبي سفيان • أو هي من جانب آخر قصة الصراع بين الأمويين والهاشميين ، هذا الصراع الذي كان مستحكما بينهم قبل الاسلام ، واستمر في أشكال متعددة بعده ، ثم استفحل واضطرم في خلافة علي بن أبي طالب الذي برز له معاوية ينازعه الخلافة ، مؤثرا الحرب والطعان على الاعتراف بحق الامام الصريح •

ان الصراع بين الحق والباطل قديم رافق الانسانية في جميع مراحلها • وقد بلغ هذا الصراع الذروة في حالات كثيرة من أبرزها ذلك الذي احتدم بين الحسين وأنصاره الأبرار من ناحية، وبين يزيد وزبانيته وعملائه من ناحية أخرى • ولم يكن في الواقع صراعا بين رجلين أو فئتين ، وانما كان بين اتجاهين في الحياة : اتجاه نحو الخير والكرم والأريحية والحرية والعدل وكل ما يرتفع بالانسان من درك الحيوانية الى أوج القداسة والبراءة والنقاء ، واتجاه نحو الشر واللؤم والاستعباد والظلم وكل ما ينحدر بالانسان الى حضيض المهانة والانحطاط •

كان الحسين ، بحكم نشأته ، وتربيته ، ومزاياه الفطرية ، وبحكم الوراثة الخلقية من أكرم بيت ، وأشرف خلق ، مؤمنا أصدق الايمان بالله ، حريصا أشد الحرص على شريعة الاسلام أن يمسها أحد مهما علت منزلته بسوء ، صلبا أشد الصلابة في

احقاق الحق ، ومراعاة أحكام الاسلام لا تأخذه في الله لومة لائم • ومن كان هذا شأنه ، وهذه مبادؤه ومعتقداته ، كان من العسير عليه أشد العسر ، لا بل من المستحيل أعظم ما تكون الاستحالة ، أن يغض الطرف ، أو أن يرضى بذلك الزيف الصارخ ، والإنحراف عن نهج الدين القويم ، وانكار حق الأمة في التشاور والاختيار ، وذلك في اسناد الخلافة الى يزيد ، وتوليته أمور المسلمين رغم أنوفهم ، وبوسائل الخداع ، وضروب التهديد والوعيد ، وهو من هو في تبذله واستهتاره وايثاره المجون على ما يتطلبه منصبه من الجد والوقار ، واللهو على ما يستدعيه مقامه من رعاية شؤون المسلمين ، والتفاني في سبيل اسعاد المؤمنين الذين يأبون كل الاباء أن يتولى من كان مثله امارة المؤمنين •

وهكذا ، وبعد طول تأمل وتفكير ، واستماع الى المشيرين بالاقدام ، والناصحين بالنكوص والاحجام ، وبعد ما بدا لعينيه العجب العجاب من ثبات العامرة قلوبهم بالايمان ، وتهافت الخائرة نفوسهم والمجبولة قلوبهم على ايثار الخذلان والاستسلام ، أقدم على خوض المعركة واضعا نصب عينيه الموت أو الشهادة في سبيل حق آمن به ، وتحمل من أجله ما لا يتحمله الا أولو العزم من الرجال •

وان من يتتبع أعمال هذا البطل الشهيد ، ويجيل الفكر والتأمل في أقواله وردوده على باطل خصومه ، منذ بدأت المعركة الى أن غلبت كثرة المبطلين قلة أصحاب الحق ليقع على أروع مشاهد البطولة والنخوة ، وأبرز مظاهر الشجاعة والحكمة ، مما يضفي عليه بحق وصدق لقب « أبي الشهداء » ويجعله أنموذجا للشهادة الصادقة في تاريخ البشرية جمعاء •

وأخيرا لا نرى بدا من التنويه بالخدمة التي يقدمها الى العالمين العربي والاسلامي السيد شريف عبد الرحمن الأنصاري صاحب المكتبة العصرية في صيدا وبيروت بتحمل عبء الطبع وتجديده لآثار الأديب الكبير عباس محمود العقاد ، فله خالص الشكر . ووافر الثناء •

صيدا ــ منيف لطفة

مقدمة المؤلف

يسرني أن أقدم الى حضرات القراء هذه الطبعة من كتاب « أبي الشهداء » ويعظم رجائي أن يصل الى أيد كثيرة غير التي وصل اليها في طبعاته السابقة ، وأن يتحقق له من عموم الرسالة بهذه المثابة ما يتمناه كل مؤلف لكل كتاب يريد به رسالة من الرسالات ٠

ليس من عادتي أن أطلع في كتبي بعد الفراغ من طبعها ، ويتفق أن تمضي السنوات دون أن ألقي عليها نظرة لغير مراجعة عاجلة ، فاذا حدث بعد ذلك أن أنظر فيها لتقديمها الى طبعة جديدة ، أمكنني أن أشعر بها شعور القارىء الذي يطلع عليها لأول مرة ، بعد أن شعرت بها شعور المؤلف الذي امتلأ بها وأدارها في نفسه عدة مرات ٠ وقد استغرب منها أمورا كالتي يستغربها القراء الذين يحكمون على موضوعاتها حكم « الأجانب الغرباء » ٠٠

عجبا ! ٠٠ ان مشكلة الحياة الكبرى لم تتغير منذ ألف وثلثمائة سنة ، ولم تزل الحرب على أشدها بين خدام أنفسهم وخدام العقائد والأمثلة العليا ، ولم يزل الشهداء يصلونها نارا حامية من عبيد البطون والأكباد ، ولم يزل « داؤنا العياء » كما قال أبو العلاء ! ٠٠

كان هذا شعوري بكتاب « أبي الشهداء » حين قرأته من جديد لتقديمه الى هذه الطبعة : مسكينة هذه الانسانية ! ٠٠ لا تزال في عطش شديد الى دماء الشهداء ، بل لعل العطش الشديد يزداد كلما ازدادت فيها آفات الأثرة والأنانية ونسيان المصلحة الخالدة في سبيل المصلحة الزائلة ، أو لعل العطش الشديد الى دماء الشهداء يزداد في هذا الزمن خاصة دون سائر الأزمنة الغابرة ، لأنه الزمن الذي وجدت فيه الوحدة الانسانية وجودا ماديا فعليا وأصبح لزاما لها أن توجد في الضمير وفي الروح كما

وجدت في الخريطة الجغرافية وفي برامج السفن والطائرات •

الوحدة الانسانية اليوم حقيقة واقعية عملية ، ولكنها حقيقة واقعية عملية في كل شيء الا في ضمير الانسان وروح الانسان •

حقيقة واقعية في اشتباك المصالح التجارية ، وفي اتصال الأخبار بين كل ناحية من الكرة الأرضية وناحية أخرى ••

حقيقة واقعيـة في اشتباك المصالح التجارية ، وفي اتصال التعبير ، فلا يضطرب عصب من أعصابها في أقصى المشرق حتى تتداعى له سائر الأعصاب في أقصى المغرب وفي أقصى الشمال والجنوب •

حقيقة واقعية في كل شيء الا في ضمير الانسان وفـي روح الانسان ، وهذا هو المهم والأهم اذا أريدت للانسانية وحـدة صحيحة صالحة جديرة بالدوام ••

ولن توجد هذه الوحدة الا اذا وجد الشهداء في سبيلهـا • فانعم بمقدم « أبي الشهداء » من جديد الى ضمائر فريق كبير من بني الانسان ، لعلهم يقدمون رسالته خطوة واحدة أو خطوات في سبيل اليقين والعمل الخالص لوجه الحق والكمال •

نتفاءل أو لا نتفاءل •• نتشاءم أو لا نتشاءم ••

ليست هذه هي المسألة ، وانما المسألة هي ان طريق التفاؤل معروف وطريق التشاؤم معروف ، فلا تتحقق مصلحة الانسانية الا اذا عمل لها كل فرد من أفرادها ، وهانت الشهادة من أجلها على خدامها ، وتقدم الصفوف من يقدم على الاستشهاد ومن ورائه من يؤمن بالشهادة والشهداء •

لا عظة ولا نصيحة ، ولكنها حقيقة تقرر كما تقرر الحقائق الرياضية • فلا بقاء للانسانية بغير العمل لها ، ولا عمل لها ان لم ينس الفرد مصلحته ، بل حياته في سبيلها ••

لا بقاء للانسانية بغير الاستشهاد ••

وفي هذه الآونة التي تتردد فيها هذه الحقيقة في كل زاوية من زوايا الأرض نلتفت نحن أبناء العربية الى ذكرى شهيدها الأكبر فنحني الرؤوس اجلالا « لأبي الشهداء » ••

عباس محمود العقاد

طبائع الناس

يتناوب طبائع الناس مزاجان متقابلان : مزاج يعمل أعماله للأريحية (١) والنخوة ، ومزاج يعمل أعماله للمنفعة والغنيمة .

والمزاجان لا ينفصلان كل الانفصال ..

فقد تقترن الأريحية بالمنفعة ، وتقترن المنفعة بالأريحية ، ولكنهما اذا اصطدما ـ ولا سيما في الأعمال الكبيرة ـ لم يعسر عليك أن تفصل المزاجين وتعزل المعسكرين . فهذا للأريحية حتى يجب (٢) المنفعة ويخفيها ، وهـذا للمنفعـة حتى يجب الأريحية ويخفيها ... أو كذلك يتراءيان .

وأصحاب المطالب الكبرى في التاريخ يعتمدون على هـذا المزاج كما يعتمدون على ذاك .. فمنهم من يتوسل الى الناس بما فيهم من الجشع والخسة وقرب المأخذ وسهولة المسعى ، ومنهم من يتوسل الى الناس بما فيهم من طموح الى النبل والنجـدة وركوب المخاطر ونسيان الصغائر في سبيل العظائم ..

ولكل منهما سبيله الى النفوس وأمله في النجاح على حسب الأوقات والبيئات ..

الا أن الأريحية آخذ من المنفعة بسنة من سنن الخلق التي لا تتبدل مع الأوقات والبيئات ..

لأن منفعة الانسان وجدت لفرد من الأفراد ..

أما الأريحية التي يتجاوز بها الانسان منفعته فقد وجدت للأمة كلها أو للنوع الانساني كله . ومن ثم يكتب لها الدوام اذا اصطدمت بمنافع هذا الفرد أو ذاك ..

ولقد يبدو من ظواهر الأمور أن الأمر على خلاف ما نقول ، لأن الحريص على منفعته يبلغها ويمضي قدما اليها ، فينال المنفعة

---

(١) الاريحية : خصلة يرتاح بها المرء الى السخاء والكرم .

(٢) جب الشيء : قطعه .

التي لا ينالها صاحب الاريحية لأنه يتركها اذا اصطدمت بما هو أجل منها ٠

وهذا صحيح مشهود لا مراء فيه ٠٠

ولكن النجاح في الحركات التاريخية لن يسمى نجاحا اذا هو لم يتجاوز حياة فرد أو طائفة من الافراد ٠ فاذا قيل أن حركة من الحركات التاريخية قد نجحت ، فمغزى ذلك بداهة أن الأفراد القائمين بها يذهبون وهي الباقية بعد ذهابهم ٠٠ ومن هنا يصح أن يقال ان الاريحية أبقى وأنجح اذا هي اصطدمت بالمنفعة الفردية ، لأن ذهاب الفرد هنا أمر مفروغ منه بعد كل حساب ، سواء أكان حساب الأريحيين أم حساب النفعيين ٠

وأصحاب الأريحيةاذن أبعد نظرا من دهاة الطامعين والنهازين للفرص والمغانم العاجلة ٠ لأنهم خلقوا بفطرتهم على حساب أعمار تتجاوز حساب عمرهم القصير ٠ فهم ــ شعروا أو لم يشعروا ــ بعيدو النظر الى عواقب الأمور ، وان خيل الى أناس أنهم طائشون متهجمون ٠

* * *

أما موقف المؤرخين في العطف على حركات التاريخ فهو على ما نرى موقف مزاج من هذين المزاجين ، وليس بموقف سبيل من سبل البحث أو مذهب من مذاهب التفكير ٠٠

فالذين يجنحون بمزاجهم الى المنفعة يفهمون أعذار المنتفعين وينكرون ملامتهم على ناقديهم ٠٠

والذين يجنحون بمزاجهم الى الأريحية يفهمون دوافع النخوة ويحسبونها عذرا لأصحابها أقوى من غواية المنافع والأرزاق ٠

الا أن الصواب هنا ظاهر جد الظهور لمن يريد أن يراه :

الصواب أن العطف على جانب المنفعة عبث لا معنى له ولا حكمة فيه ٠

وان العطف على جانب الأريحية واجب يخشى على الناس من تركه واهماله ، اذ كان تركه مناقضا لصميم الفطرة التي من أجلها فطر الناس على الاعجاب بكل ما يستحق الاعجاب ٠

فليس يخشى على الناس يوما أن ينسوا منافعهم ويقصروا في خدمة أنفسهم ، سواء عطف عليها المؤرخون أو أعرضوا عنها ساخرين منكرين ٠

ولكنهم يخسرون الأريحية اذا فقدوها وفقدوا الاعجاب بها والتطلع اليها ، وهي التي خلقت ليعجب بها الناس ٠ لأن حرص الانسان على منفعته لا يغنيهم في حياتهم العامة أو في حياتهم الباقية ٠ أما الأريحية التي يتجاوز بها الانسان نفسه في سبيل معنى من المعاني أو مثل عال من الامثلة العليا ، فهي الخليقة (١) النافعة للنوع الانساني بأسره ، وان جاز اختلافهم في كل معنى وفي كل مثال عال ٠٠

صراع بين الأريحية والمنفعة

في ماضي الشرق وحاضره كثير من الحركات التاريخية التي وقع الصدام فيها بين الأريحية والمنفعة على أكثر من غرض واحد ٠٠

ولكننا لا نحسبنا مهتدين الى نموذج لهذا الصدام أوضح في المبادىء وأهدى الى النتائج وأبين عن خصائص المزاجين معا من النموذج الذي عرضه لنا التاريخ في النزاع بين الطالبيين والأمويين ، ولا سيما النزاع بينهما على عهد الحسين بن علي ، ويزيد بن معاوية ٠

قلنا في كتابنا « عبقرية الامام » فحواه ان الكفاح بين علي ومعاوية ، لم يكن كفاحا بين رجلين او بين عقلين وحيلتين ٠٠ ولكنه كان على الحقيقة كفاحا بين الامامة الدينية والدولة الدنيوية ، وان الأيام كانت أيام دولة دنيوية فغلب الداعون الى هذه الدولة من حزب معاوية ، ولم يغلب الداعون الى الامامة من حزب الامام ٠

ولو حاول معاوية ما حاوله علي لأخفق وما أفلح ، ولو أراد علي أن يسلك غير مسلكه لما أفاده ذلك شيئا عند محبيه ولا عند مبغضيه ٠

---

(١) الخليقة : الطبيعة ٠

فاذا جاز لأحد أن يشك في هذا الرأي ، وأن يرجع بنجاح معاوية الى شيء من مزاياه الشخصية فذلك غير جائز في الخلاف بين الحسين ويزيد · وكل ما يجوز هنا أن يقال ان أنصار الدولة الدنيوية غلبوا أنصار الامامة على سنة الخلفاء الراشدين ، لأن مطالب الامامة غير مطالب الزمان ·

ما من أحد قط يزعم أن الصراع هنا كان صراعا بين رجلين أو بين عقلين وحيلتين · وانما هو الصراع بين الامامة والملك الدنيوي ، أو بين الأريحية والمنفعة في جولتهما الأولى ، ولم يكن ليزيد قط فضل كبير أو صغير بما قد بلغه من الفوز والغلبة ··

* * *

بل لا يمكن أن يتملق أحد هنا بما يتملق به أنصار المنافع عامة من « تقريره للنظام وحفظه للأمن العام » ··· فان يزيد لم يكن له فضل قط في قيام الدولة كما قامت على عهده وبعد عهده · وانما كانت الدولة تتماسك برغبة الراغبين في بقائها لا بقدرة الأمير المشرف عليها · وقد حدث بعد موت يزيد ان بويع ابنه معاوية الثاني بالشام ــ وكان من الزاهدين في الحكم ــ فنادى الناس الى صلاة جامعة ، وقال لهم : « أما بعد فاني قد ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم ، فأنتم أولى بأمركم فاختارا له من احببتم » ثم أوى الى بيته ومضت شئون الدولة على حالها حتى مات بعد ثلاثة أشهر ، وله مع هذا منافس قوي كعبد الله بن الزبير بالحجاز ·

فلا وجه للمفاضلة بين الحسين بن علي ويزيد بن معاوية ·· ورأي معاوية وأعوانه في هذا أسبق من رأي الطالبيين وخصوم الأمويين ، فقد ترددوا كثيرا قبل الجهر باختيار يزيد لولاية العهد وبيعة الخلافة بعد أبيه · ولم يستحسنوا ذلك قبل ازجائهم (١) النصح الى يزيد غير مرة بالاقلاع عن عيوبه

---

(١) أزجى الرجل الشيء دفعه برفق ·

وملاهيه • ولما أنكر بعض أولياء معاوية جرأة الحسين عليه في الخطاب ، وأشاروا عليه أن يكتب له كتابا « يصغر اليه نفسه » •• قال : « وما عسيت أن أعيب حسينا ؟ ••• والله ما أرى للعيب فيه موضعا » •

وثم تعلة أخرى يتعلل بها المفاضلون بين علي ومعاوية ولا موضع لها في المفاضلة بين ولديهما الحسين ويزيد • وتلك ما يزعمونه من غلبة معاوية على « علي » بحجته في الاقناع ونشاطه أو نشاط أصحابه في الدعوة السياسية ••

فهذه التعلة ان صلحت لتعليل نجاح معاوية ، فما هي بصالحة لتعليل نجاح يزيد ••

لان الذين انخدعوا أو تخادعوا للصيحة التي صاح بها معاوية في المطالبة بدم عثمان ، كانوا يرددون هذه الصيحة ويساعدهم على ترديدها حقد الثأر المزعوم وسورة (١) العصبية المهتاجة ، ثم يساعدهم على ترديدها في مبدأ الأمر أن معاوية لم يكن مجاهرا بطلب الخلافة ولا متعرضا لمزاحمة أحد على البيعة ، وانما كان يتشبث بمقتل عثمان والمطالبة بدمه ، ولا يزيد في دعواه على ادعاء ولاية الدم وصلة القرابة •

* * *

ولكن الصائحين بهذه الصيحة مع معاوية قد عاشوا حتى رأوا بأعينهم مبلغ الغيرة على تراث عثمان ، وعلموا أن الملك هو الغرض المقصود من وراء تلك الفتن والأرزاء ، وان معاوية لا يقنع بأن يملك لنفسه حتى يورث الملك ولده من بعده ، وليس هو من أهل الرأي ولا هو من أهل السلاح ولا هو ممن تتفق عليه اراء هؤلاء ، لكنه فتى عربيد يقضي ليله ونهاره بين الخمور والطنابير (٢) ، ولا يفرغ من مجالس النساء والندمان الا ليهرع الى الصيد فيقضي فيه الاسبوع بعد الاسبوع بين الأديرة والبوادي والآجام ، لا يبالي خلال ذلك تمهيدا للملك ولا تدريبا على حكم

---

(١) السورة : الحدة والشدة •

(٢) جمع طنبور بالضم وهو آلة للطرب ذات عنق طويل وستة أوتار من نحاس •

ولا استطلاعا لأحوال الرعية الذين سيتولاهم بعد أبيه ، ثقة بما صار اليه من التمهيد والتوطيد وما سوف يصير ٠

فكل خلاف جاز في المفاضلة بين علي ومعاوية غير جائز في المفاضلة بين الحسين ويزيد ٠٠ وانما الموقف الحاسم بينهما ، موقف الأريحية الصراح في مواجهة المنفعة الصراح ٠ وقد بلغ كلاهما من موقفه أقصى طرفيه وأبعد غايتيه ، فانتصر الحسين بأشرف ما في النفس الانسانية من غيرة على الحق وكراهـة للنفاق والمداراة ، وانتصر يزيد بأرذل ما في النفس الانسانية من جشع ومراء وخضوع لصغار المتع والأهواء ٠

أقام الحسين ليلته الاخيرة بكربلاء وهو لا ينتظر من عاقبته غير الموت العاجل بعد سويعات ، فاذن لاصحابه أن يتفرقوا عنه تحت الليل ان كانوا يستحيون ان يفارقوه في ضوء النهـار ٠ فأبوا الا ان يموتوا دونه ، وقال له مسلم بن عوسجة الأسدي : « أنحن نتخلى عنك ولم نعذر الى الله في اداء حقك ؟ ٠٠ أما والله لا أفارقك حتى أكسر في صدورهم رمحي واضربهم بسيفي ما بقي قائمه (١) بيدي ، ولو لم يكن معي سلاحي لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك » ٠ وقد بر بقسمه وبقي ومات ٠٠ ودنا منه حبيب بن مظاهر وهو يجود بنفسه ، فقال له : « لولا اني أعلم اني في أثرك لاحق بك لأحببت أن توصيني حتى احفظك بما أنت له أهل » ، فقال وكان آخر ما قال : « أوصيك بهذا ـ رحمك الله ـ أن تموت دونه » وأومأ بيده نحو الحسين ٠

***

وقتل الحسين ٠٠ وذهب الأمل في دولته ودولة الطالبيين من بعده الى أجل بعيد ، ولكنه كان يشتم بالكلمة العوراء فيهون على الرجل من أصحاب الأريحية أن يموت ولا يصبر على سماع تلك الكلمة أو يترك الجواب عليها ٠٠

فلما نعي الحسين في الكوفة نادى واليها ابن زياد الى الصلاة الجامعة ٠ وصعد الى المنبر ، وخطب القوم فقال : « الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية

---

(١) قائم السيف : مقبضه ٠

وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب الحسين بن علي وشيمته » ·

فما أتمها حتى وثب له من جانب المسجد شيخ ضرير هو عبد الله بن عفيف الأزدي الذي ذهبت احدى عينيه يوم الجمل وذهبت عينه الأخرى يوم صفين · فصاح بالوالي غداة يوم انتصاره وزهوه : « يا ابن مرجانة !·· أتقتل أبناء النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين ؟·· انما الكذاب أنت وأبوك والذي ولاك وأبوه » ·

فما طلع عليه الصباح الا وهو مصلوب ··

الى هذا الأفق الأعلى من الاريحية والنخوة ارتفعت بالنفس الانسانية نصرة الحسين ·

والى الاغوار المرذولة من الخسة والاثرة هبطت بالنفس الانسانية نصرة يزيد ·· وحسبك من خسة ناصريه ، أنهم كانوا يجزون بالحطام وهتك الأعراض على غزو « المدينة » النبوية واستباحة ذمارها (١) فيسرعون الى الجزاء ·· يسرعون اليه وليسوا هم بكافرين بالنبي الدفين في تلك المدينة ، فيكون لهم عذر الاقدام على أمر لا يعتقدون فيه التحريم !··

بل حسبك من خسة ناصريه أنهم كانوا يرعدون من مواجهة الحسين بالضرب في كربلاء لاعتقادهم بكرامته وحقه ، ثم ينتزعون لباسه ولباس نسائه فيما انتزعوه من أسلاب !·· ولو أنهم كانوا يكفرون بدينه وبرسالة جده ، لكانوا في شرعة المروءة أقل خسة من ذاك ·

· وتتقابل وسائل النجاح في المزاجين كما تتقابل المقاصد والغايات ··

فكان شمار معاوية وأشياعه : « ان لله جنودا من العسل » وهو يعني العسل الذي يداف (٢) بالسم ليخلي طريق النجاح من كل معترض فيها ولو كان من الأصدقاء · فكثرت روايات المؤرخين عن مقتل الحسن بن علي والأشتر النخعي بهؤلاء

---

(١) الذمار : بالكسر : كل ما يلزمك حمايته وحفظه كالحرم والاهل وان ضيعته لزمك اللوم فيه ·

(٢) داف الدواء : خلطه بالماء ·

الجنود !٠٠ وأعجب منها ما قيل عن مقتل عبد الرحمن بن خالد ، وقد كان نصيرا لمعاوية في حروب الشام ٠٠ فانه مات مسموما على ما اشتهر من الروايات ، لأنه رشح للخلافة بعد معاوية دون يزيد ٠٠ وعلم ذلك أقرباء عبد الرحمن بن خالد ، فقتلوا طبيب معاوية « ابن أثال » الذي اتهموه بسمه في الدواء ٠

ولو استباح الحسين وشيعته هذه الوسائل مرة واحدة ، لكانوا وشيكين أن يبلغوا مقصدهم من قريب ٠ فقد كان هانيء ابن عروة شيخ كندة من أنصار الحسين وأبيه ، وكانت كندة كلها تطيعه وتلبيه حتى قيل أنه «اذا صرخ لباه منهم ألف سيف» ٠ فزاره عبيد الله بن زياد والي يزيد على الكوفة ــ ليعوده في بعض مرضه ويتألفه ويستميله اليه ٠ وقيل ان هانئا عرض على مسلم بن عقيل بن أبي طالب أن يقتل عبيد الله بن زياد وهو عنده ، وقيل ان الذي عرض ذلك رجل من صحبة هانيء المقربين ٠ فأبى مسلم ما عرضه هذا وذاك ، وهو يومئذ طلبة ذلك الوالي ، وجنوده قد تعقبوه وأهدروا دمه وأجزلوا الوعود لمن يسلمه أو يدل عليه ، وقال : « انا أهل بيت نكره الغدر » ٠ ولو أنه بطش بابن زياد ، لقد بطش يومئذ بأكبر أنصار يزيد ٠٠

وليقل من شاء أن قتل ابن زياد كان صوابا راجحا ٠٠

وأن التحرج من قتله كان خطأ فادحا من وجهة السياسة أو من وجهة الأخلاق ، فالذي لا يشك فيه أنه ان كان صوابا فهو صواب سهل يستطيعه كثيرون ، وان كان خطأ فهو الخطأ الصعب الذي لا يستطيعه الا القليلون ٠٠

كذلك يقول من يقول ان الأريحية التي سمت اليها طبائع أنصار الحسين ، انما هي أريحية الايمان الذي يعتقد صاحبه أنه يموت في نصرة الحسين فيذهب لساعته الى جنات النعيم ٠٠ فهؤلاء الذين يقولون هذا القول يجعلون المنفعة وحدها باعث الانسان الى جميع أعماله ، حتى ما صدر منها عن عقيدة وايمان ٠ وينسون ان المنفعة وحدها لن تفسر لنا حتى الغرائز الحيوانية التي يصاب من جرائها الفرد طوعا أو كرها في خدمة نوعه ، بل ينسون أن أنصار يزيد لا يكرهون جنات النعيم ولا يكفرون بها ،

فلماذا لم يطلبوها كما طلبها أنصار الحسين ؟٠٠ انهم لم يطلبوها لأنهم منقادون لغواية أخرى ولأنهم لا يملكون عزيمة الايمان ونخوة العقيدة ، ولا تلك القوة الخلقية التي يتغلبون بها على رهبة الموت ويقدعون (١) بها وساوس التعلق بالعيش والخنوع للمتعة القريبة ٠ فلولا اختلاف الطبائع لظهر شغف الناس جميعا بجنات النعيم على نحو واحد ، ومضى الناس على سنة واحدة في الأريحية والفداء ، ومرجع الأمر اذن في آخر المطاف الى فرق واضح بين طبائع الاريحيين وطبائع النفعيين ٠

وكذلك يقول من يقول ان الأريحية في نفوس أنصار الحسين كانت أريحية أفراد معدودين ثبتوا معه ولم يخذلوه الى يومه الأخير ٠٠ وينسى هؤلاء ان الارتفاع ليقاس بالقمة الواحدة كما يقاس بالقمم الكثيرة ، وأن الغور ليسبر في مكان واحد كما يسبر في كل مكان ، وانما تكون الندرة هنا أدل على جلالة المرتقى الذي تطيقه النفس الواحدة أو الأنفس المعدودات ، ولا تطيقه نفوس الأكثرين ٠٠

فمدار الخلاف اذن في هذه الجولة التاريخية انما هو الفارق الخالد بين مزاجين بارزين كائنا ما كان تفسير المفسرين للعقائد الروحية والمطامع السياسية ، ولم يتلاق هذان المزاجان على تناحر وتناجز (٢) كما تلاقيا عامة في النزاع بين الطالبيين والأمويين ، وخاصة في النزاع بين الحسين ويزيد ٠

فحياة الحسين رضي الله عنه صفحة ، لا صفحة تماثلها في توضيح الفارق بين خصائص هذين المزاجين وبيان ما لكل منهما من عدة للنجاح في كفاح الحياة ، سواء نظرنا الى الأمد البعيد أو قصرنا النظر على الأمد القريب ٠

---

(١) قدع الرجل صاحبه : منعه وكفه ٠ والفرس : كبحه ٠

(٢) تناجز القوم : الحوا في القتال وتسافكوا دماءهم ٠

أسباب التنافس والخصومة

قبل أن يقف الحسين ويزيد متناجزين ، كانت الحوادث قد جمعت لهما أسباب التنافس والخصومة منذ أجيال ، وكان هذا التنافس بينهما يرجع الى كل سبب يوجب النفرة بين رجلين : من العصبية ، الى الترات (١) الموروثة ، الى السياسة ، الى العاطفة الشخصية ، الى اختلاف الخليقة والنشأة والتفكير ..

تنافس هاشم وأمية على الزعامة قبل أن يولد معاوية .. فخرج أمية ناقما الى الشام وبقي هاشم منفردا بزعامة بني عبد مناف في مكة . فكان هذا أول انقسام وتقسيم بين الأمويين والهاشميين : هؤلاء يعتصمون بالشام ، وهؤلاء يعتصمون بالحجاز ..

ثم علا نجم « أبي سفيان بن حرب بن أمية » في الحجاز ، فأصبحت له زعامة مرموقة الى جانب الزعامة الهاشمية . فلما ظهرت الدعوة المحمدية أخذته الغيرة على زعامته ، فكان في طليعة المحاربين للدعوة الجديدة . وندرت غزوة من الغزوات لم تكن فيها لأبي سفيان أصبع ظاهرة في تأليب القبائل وجمع الأموال . وشاءت المصادفات زمنا من الازمان أن يظل وحده على زعامة قريش في حربها للنبي عليه الصلاة والسلام . فمات الوليد بن المغيرة زعيم مخزوم ، ودان زعماء تيم وبني عدن وغيرهم من البطون القرشية الصغيرة بالاسلام ، وبقي أبو سفيان وحده على رأس الزعامة الجاهلية والزعامة الأموية في منازلة النبي ومن معه من المهاجرين والأنصار ، وبلغ من تغلغل العداء في هذه الأسرة للنبي عليه الصلاة والسلام ، أن أبا لهب عمه كان أوحد أعمامه في الكيد له والتأليب عليه ، وانما جاءه هذا من بنائه بأم جميل بنت حرب ، أخت أبي سفيان التي وصفها

(١) جمع ترة بكسر ففتح : الثأر .

القرآن بأنها « حمالة الحطب » كناية عن السعي في الشر وتأريث (١) نار البغضاء ··

ثم فتحت مكة ، فوقف أبو سفيان ينظر الى جيش المسلمين ويقول للعباس بن عبد المطلب : « والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما » ·· فلما قال العباس : « انها النبوة ! » قال : « نعم اذن ! ·· » ·

وقد أسلم أبو سفيان وابنه معاوية عند فتح مكة ، وكان اسلام بيته أعسر اسلام عرف بعد فتحها · فكانت زوجه هند بنت عتبة تصيح في القوم بعد اسلامه : « اقتلوا الخبيث الدنس الذي لا خير فيه ·· قبح من طليعة قوم ·· هلا قاتلتم ودفعتم عن أنفسكم وبلادكم ! ·· » ·

وظل أبو سفيان الى ما بعد اسلامه زمنا يحسب غلبة الاسلام غلبة عليه ، فنظر الى النبي مرة وهو بالمسجد نظرة الحائر المتعجب وهو يقول لنفسه : « ليت شعري (٢) بأي شيء غلبني ! » فلم يخف عن النبي عليه السلام معنى هذه النظرة ، وأقبل عليه حتى ضرب يده بين كتفيه وقال له : « بالله ، غلبتك يا أبا سفيان ! » ··

وكان في غزوة حنين يشهد هزيمة المسلمين الأولى فيقول : « ما أراهم يقفون دون البحر ! » وقيل انه كان في حروب الشام يهتف كلما تقدم الروم : « ايه بني الأصفر » ، فاذا تراجعوا عاد فقال : « ويل لبني الأصفر ! » ·

وقد تألفه النبي عليه السلام ما استطاع قبل فتح مكة وبعد فتحها ، فتزوج بنته أم حبيبة قبل الفتح وجعل بيته بعد الفتح حرما « من دخله فهو آمن ومن أغلق عليه داره فهو آمن » وأقامه على رأس المؤلفة قلوبهم الذين يزاد لهم في العطاء عسى أن يذهب ما في نفوسهم من الكراهة لغلبة الاسلام ··

ومع هذا كان المسلمون يوجسون (٣) منه فلا ينظرون اليه ولا يقاعدونه ، حتى برم (٤) بذلك وأحب أن يمسح ما

---

(١) أرث النار : أوقدها ·

(٢) ليت شعري : ليتني أعلم · (٣) أوجس الرجل من فلان : وقع في نفسه الخوف منه · (٤) برم بالشيء : ضجر منه ·

بصدورهم من قبله ·· فتوسل الى النبي أن يجعل معاوية كاتبا بين يديه وأن يأمره فيقاتل الكفار كما كان يقاتل المسلمين ·

ثم قبض النبي عليه السلام ، ونجم الخلاف على مبايعة الخليفة بعده بين المهاجرين والأنصار وبين بعض الصحابة من جهة أخرى ·· فاشرأب أبو سفيان الى هذه الفتنة ، وخيل اليه أنه مصيب بين فتوقها ثغرة ينفذ منها الى السيادة على قريش ، ثم السيادة من هذا الطريق على الأمة الاسلامية بأسرها ·· فدخل على « علي » والعباس ، يثيرهما ويعرض عليهما المعونة بما في وسعه من خيل ورجل · فنادى بهما : « يا علي ! وأنت يا عباس ! · ما بال هذا الأمر في أذل قبيلة من قريش وأقلها ؟ والله لو شئت لأملأنها عليه — على أبي بكر — خيلا ورجلا وآخذنها عليه من أقطارها » ··

وهو لا ريب لم يغضب لأن الخلافة قد فاتت بني هاشم ، ولا كان يسره أن تصير الخلافة اليهم فتستقر فيهم قرارا لا طاقة له بتحويله ·· ولكنه أراد خلافا يفتح الباب لزعامة أموية يملك بها زمام قريش والدولة العربية جمعاء ··

فلم يخف مقصده هذا على « علي » رضي الله عنه ، وقال : « لا والله لا أريد أن تملأها عليه خيلا ورجلا ، ولولا أننا رأينا أبا بكر لذلك أهلا ما خليناه واياها » · ثم أنبه قائلا : « يا أبا سفيان ! ·· ان المؤمنين قوم نصحة بعضهم لبعض ، وان المنافقين قوم غششة بعضهم لبعض · متخاونون وان قربت ديارهم وأبدانهم » ·

وانقضت خلافة أبي بكر وخلافة عمر والأمور تجري في مجراها الذي يأخذ على المطامع سبيلها ، ويخيف أصحاب الفتن أن يبرزوا بها من جحورها ··

حتى قامت خلافة عثمان بن عفان فانتصر بها الأمويون أيما انتصار ، لأنه رأس من رؤوسهم وابن عم قريب لزعماء بيوتهم ، وأصبحت الدولة الاسلامية أموية لا يطمع في خيراتها ولا ولاياتها الا من كان من أمية أو من حزبها · فمروان بن الحكم وزير الخليفة الأكبر يغدق العطاء على الأقرباء ويحبسها عن سائر

الناس ، ومعاوية بن أبي سفيان والي الشام يجتذب اليه الأقرباء والأولياء ومن يرجى منهم العون ويخشى منهم الخلاف •

فلما قتل عثمان رضي الله عنه كان المتقمون بمناصب الدولة وأموالها جميعا من الأمويين أو من صنائعهم المقربين ، ومال السلطان الى جانب أمية على كل جانب آخر من القرشيين وغير القرشيين •

لا جرم (١) كان الصراع بعد ذلك صراعا معروف النهاية من مطلع البداية ، فقتل علي بن أبي طالب غيلة (٢) وخلصت الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان ••

ثم بايع أناس من أهل العراق وفارس الحسن بن علي ، فلم يستقم له أمرهم وضاق صدره جدالهم ومحالهم ، وكان رجلا سكيتا (٣) يكره المنازعة ويجنح الى العزلة ، فصالح معاوية على شروط •• وفّي له معاوية بالمعجل منها والتوى عليها بمؤجلها • وزاد على ذلك كما تواتر في شتى الروايات أنه أغرى امرأته جعدة بنت الأشعث بسمه ، ووعدها أن يزوجها يزيد ويعطيها مائة ألف درهم ، فوفى بوعد المال ولم يف بوعد الزواج •

وقد أوصى الحسن رضي الله عنه أن يدفن عند قبر جده الا أن تخاف فتنة • فلما توفي أرادوا دفنه حيث أوصى ، فقام مروان بن الحكم وجمع بني أمية وزمرتهم ومنعوا مشيعيه •• فأنكر الحسين عليهم منع سبط النبي أن يدفن الى جوار جده ، فقيل له : « ان أخاك قال اذا خفتم الفتنة ففي مقابر المسلمين سعة • وهذه فتنة » •• فسكت على مضض •

أهداف معاوية

وقد كان معاوية ولا ريب ينوي أن يجعلها دولة أموية متعاقبة في ذريته من بعده ، منذ تصدى للخلافة وخلا له المجال من أقوى منافسيه ، الا أنه كان يتردد ويتكتم ولا يفضي بنيته الى أقرب

---

(١) لا جرم في الاصل بمنزلة (لا بد) ثم تحولت الى معنى القسم فصارت بمنزلة (حقا) • (٢) قتله غيلة أي اهلكه على غرة (٣) سكيت بوزن كميت وتشدد الكاف : آخر خيل السباق •

المقربين اليه ، ثم كبرت سنه وخاف أن يعجل عن قصده ، فمهد لبيعة ابنه يزيد ببعض التمهيد وتوصل الى ذلك بما طاب له من وسيلة ٠٠ فلباه أهل الشام وكتب ببيعته الى الآفاق ، ثم همه أمر الحجاز فكتب الى مروان بن الحكم عامله أن يجمع من قبله لأخذ البيعة منهم ليزيد ، فأبى مروان وأغرى رؤوس قريش بالاباء ، لأنه كان يتطلع الى الخلافة بعد معاوية ويحسبه أقدر عليها من يزيد ، لما اشتهر به من نقص وعبث ٠٠ فعزله معاوية وولى سعيد بن العاص مكانه ، فلم يجبه أحد الى ما أراد ٠ فكتب معاوية الى عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله ابن جعفر ، والحسين بن علي ، وأمر عامله سعيدا أن يوصل كتبه اليهم ويبعث اليه بجواباتها ٠ وقال لسعيد : « فهمت ما ذكرت من ابطاء الناس ، وقد كتبت الى رؤسائهم كتبا فسلمها اليهم ٠٠ ولتشد عزيمتك وتحسن نيتك ، وعليك بالرفق ٠ وانظر حسينا خاصة فلا يناله منك مكروه ، فان له قرابة وحقا عظيما لا ينكره مسلم ولا مسلمة ٠٠ وهو ليث عرين ، ولست آمنك ان ساورته ألا تقوى عليه » ٠

فأعيت سعيد بن العاص كل حيلة في اقناع وجهاء الناس وعامتهم بهذه البيعة البغيضة ، وخف معاوية الى مكة ومعه الجند وحقائب الأموال ، ودعا بأولئك النفر فقال لهم : « قد علمتم سيرتي فيكم وصلتي لأرحامكم ، يزيد أخوكم وابن عمكم ، وأردت أن تقدموا يزيد باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمرون وتجبون المال وتقسمونه » ٠

فأجاب عبد الله بن الزبير ، وخيره بين أن يصنع كما صنع رسول الله اذ لم يستخلف أحدا ، أو كما صنع أبو بكر ، اذ عهد الى رجل ليس من بني أبيه ، أو كما صنع عمر اذ جعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بني أبيه ٠

فقال معاوية مغضبا : « هل عندك غير هذا ؟ » ٠

قال : « لا » ٠

والتفت الى الآخرين يسألهم قائلا : « فأنتم ؟ » فوافقوا ابن الزبير ٠

فقال متوعدا : « أعذر من أنذر ! •• اني كنت أخطب فيكم فيقوم الي القائم منكم فيكذبني على رؤوس فأحمل ذلك وأصفح، واني قائم بمقالة ••• فأقسم بالله لئن رد علي أحدكم كلمة في مقامي هذا ، لا ترجع اليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف الى رأسه ، فلا يبقين رجل الا على نفسه » •

ثم أمر صاحب حرسه أن يقيم على رأس كل منهم رجلين مع كل واحد منهما سيف ، وقال له : « ان ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب ، فليضرباه بسيفهما » •

ثم خرج بهم الى المسجد ورقي المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه وقال :

ـ هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لا يبرم أمر دونهم ولا يقضى الا على مشورتهم ، وانهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوه على اسم الله •

فبايع الناس ••

وهكذا كانت البيعة ليزيد في الحجاز ••

ومات معاوية وهو يعلم أن بيعة كهذه لا تجوز ولا تؤمن عقباها •• فأوصى ابنه « انه لا يخاف الا هؤلاء من قريش : الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير » • قال : « فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته (١) العبادة واذا لم يبق أحد غيره بايعك • وأما الحسين بن علي فلا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه •• فان خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه ، فان له رحما ماسة وحقا عظيما •

« أما ابن الزبير فانه خب ضب (٢) ، فاذا أمكنته فرصة وثب •• فان هو فعلها فقدرت عليه ، فقطعه اربا اربا (٣) الا أن يلتمس منك صلحا ، فان فعل فاقبل واحقن دماء قومك ما استطعت » ••

---

(١) وقذ النعاس فلانا : غلبه ، وقذه الهم والمرض : هده وأضعفه •

(٢) الخب : بكسر الخاء وفتحها : الخداع ، والضب : الحقود ،

(٣) اربا اربا : عضوا عضوا •

خلافة يزيد

وآل الأمر على هذا النحو الى يزيد في سنة ستين للهجرة ، وهو بين الرابعة والثلاثين والخامسة والثلاثين ، ولكنه دون أنداده في تجارب الأيام ، وليس حوله من المشيرين والنصحاء أمثال المغيرة ، وزياد ، وعمرو بن العاص ، وغيرهم من القروم (١) الذين كانوا حول أبيه •• فتهيب ما هو مقدم عليه ، وكتب الى عامله بالمدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان : « أن خذ حسينا ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، بالبيعة أخذا شديدا ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام » •

فبعث الوليد الى مروان بن الحكم يستشيره •• وكان مروان يريد الخلافة لنفسه ، ولكنه علم بعد موت معاوية وقيام يزيد ان الأمر اليوم أمر بني أمية ، فان خرج منهم فقد خرج منهم أجمعين • فنصح للوليد نصيحة ذات وجهين : ظاهرها الشدة في الدعوة ليزيد وباطنها السعي الى الخلاص من يزيد ومنافسيه • فقال : « أرى أن تبعث الساعة الى هؤلاء النفر فتدعوهم الى البيعة • أما ابن عمر فلا أراه يرى القتال ، ولكن عليك بالحسين وعبد الله بن الزبير ، فان بايعا والا فاضرب أعناقهما •• » •

وضرب عنق الحسين وابن الزبير معناه الخلاص من أعظم المنافسين ليزيد •• ثم الخلاص من يزيد نفسه باثارة النفوس وايغار الصدور عليه !

وقد ذهب رسول الوليد الى الحسين وابن الزبير ، فوجدهما في المسجد •• فعلم الحسين ما يراد منه ، وجمع طائفة من مواليه يحملون السلاح ، وقال لهم وهو يدخل بيت الوليد « ان دعوتكم أو سمعتم صوتي قد علا فاقتحموا علي بأجمعكم ، والا فلا تبرحوا حتى أخرج اليكم » ••

فلما عرضوا عليه البيعة ليزيد قال : « أما البيعة فان مثلي لا يعطي بيعته سرا ، ولا أراك تقنع بها مني سرا » •

قال الوليد : « أجل ! » •

---

(١) جمع قرم بالفتح : السيد المعظم •

قال الحسين : « فاذا خرجت الى الناس فدعوتهم الى البيعة دعوتنا معهم فكان الأمر واحدا » •

ثم انصرف ومروان غاضب صامت لا يتكلم •• وما هو الا أن توارى الحسين حتى صاح بالوليد : « عصيتني والله ! لا قدرت منه على مثلها أبدا حتى تكثر القتلى بينكم وبينه » •

فأنكر الوليد لجاجته وقال له : « أتشير علي بقتل الحسين ! والله ان الذي يحاسب بدم الحسين يوم القيامة لخفيف الميزان عند الله » •

وهكذا انتهت المنافسة بين بني أمية وبني هاشم الى مفترق طريق لا سبيل فيه الى توفيق ، ولم تنقطع قط سلسلة هذه المنافسة منذ أجيال وان غلبها الاسلام في عهد النبوة ، وفي عهد الصديق والفاروق •

وكفى بالاسلام فضلا في هذا المجال أنه غلب العصبية بالعقيدة، فجعلها تابعة لها غير قادرة على الجهر بمخالفتها ! ولكن العصبية المكبوحة عصبية موجودة غير معدومة ••

وكثيرا ما يفلت المكبوح من عنانه ، وان طالت به الرياضة والانقياد ••

فاتفق كثيرا في مساجلات شتى بين كبار الصحابة ، أن بدرت الى اللسان بوادر العصبية والنبي عليه السلام حاضر ، فلما أشار عمر بقتل أبي سفيان — على خلاف رأي العباس في استبقائه وتألفه — قال العباس : « مهلا يا عمر ! فوالله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت مثل هذا •• ولكنك قد عرفت أنه من رجال عبد مناف » •

ولما توثب أسيد بن حضير لضرب أعناق المفترين على السيدة عائشة ، ثار به سعد بن عبادة وصاح به : « كذبت لعمر الله ! ما تضرب أعناقهم • أما والله ما قلت هذه المقالة الا انك قد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك — الأوس — ما قلت هذا •• » •

وقد مات الفاروق وهو يوصي عليا فيقول : « اتق الله يا علي ان وليت شيئا فلا تحملن بني هاشم على رقاب المسلمين » ••

ثم يلتفت الى عثمان فيقول له : « اتق الله ان وليت شيئا فلا تحملن بني أمية على رقاب المسلمين » ··

ومن عجائب الحيل التي تحاول بهـا الغرائز الانسانية أن تبقي وجودها وتمضي لطيتها (١) ، أن بني أمية انتفعوا من حرب الاسلام للعصبية في تعزيز عصبيتهم ، فجعلوها حجة على بني هاشم أن النبوة لا تحصر الأمر فيهم وأن الأنبياء لا يورثون ·· واذا نهضت هذه الحجة على بني هاشم ، فبنو أمية أقوى المنتفعين بها من بطون عبد مناف !

وقد أوجبت الضرورة قبول المجاملة في هذه المنافسات فترة من الزمن على عهد معاوية بن أبي سفيان ، فكان يلطف القول الى أبناء علي ويواليهم بالهدايا والمجاملات ، ولكنه كان مضطرا الى مجاملة آل علي ومضطرا الى تنقص علي والغض من دعواه · فكان بذلك مضطرا الى النقيضين في آن ·

انه ملك وبايع بالملك ليزيد وهو يعلم أنه غالب بالسلاح والمال ، مغلوب بالسمعة والشعور · فكان الناس يفضلون عليا عليه وهو لا يملك أن يفاضله بقرابة النبي ، ولا بالسابقة الى الاسلام ، ولا بالعراقة في قريش · فتجنب النسب والسابقة ، وعمد الى شخص علي في منازعات الخلافة ، فاتهمه بتفرقـة الكلمة بين المسلمين ، وأمر بلعنه على المنابر عسى أن يضعف من تلك المكانة التي هو مغلوب بها ويستبقي الدولة التي هو بها غالب ·· ولج في ذلك حتى قتـل أناسا لم يطيعوه في لعن علي واتهامه ، وأبى أن يجيب الحسن بن علي الى شرطه الذي أراد به أن يرفع اللعن عن أبيه ··· وكان معاوية على حصافته يجهل أنه قد أضاع سمعة وشعورا من حيث حارب عليا في مقام السمعة والشعور ··

وان مجاملة كهذه التي تحيي الرجل وتغض من قدر أبيه لهي أضعف مجاملة بين متلاقيين ، فضلا عن خصمين متنافسين قد آل بهما التنافس بعد أجيال الى مفترق الطريق ·

---

(١) الطية بالكسر : المقصد والجهة والمنزل الذي يقصده الرجل ·

زواج الحسين

وكأنما كانت هذه المنافسة الموصلة الجذور لا تكفي قصاص التاريخ ، فأضاف اليها أناس من ثقاتهم قصة منافسة أخرى هي وحدها كافية للنفرة بين قلبين متآلفين • وهي قصة زواج الحسين رضي الله عنه بزينب بنت اسحق التي كان يهواها يزيد هوى أدنفه (١) وأعياه •

وكانت زينب هذه على ما قيل أشهر فتيات زمانها بالجمال ، وكانت زوجة لعبد الله بن سلام القرشي والي العراق من قبل معاوية •

فمرض يزيد بحبها وأخفى سره عن أهله ، حتى استخرجه منه بعض خصيان القصر الذين يعينونه على شهواته •• فلما علم أبوه سر مرضه أرسل في طلب عبد الله بن سلام واستدعى اليه أبا هريرة وأبا الدرداء ، فقال لهما ان له ابنة يريد زواجها ولم يرض لها خليلا غير ابن سلام ، لدينه وفضله وشرفه ورغبة معاوية في تكريمه وتقريبه • فخدع ابن سلام بما بلغه وفاتح معاوية في خطبة ابنته ، فوكل معاوية الأمر الى أبي هريرة ليبلغها ويستمع جوابها • فكان جوابها المتفق عليه بينها وبين أبيها أنها لا تكره ما اختاروه ، ولكنها تخشى الضر وتشفق أن يسوقها الى ما يغضب الله • فطلق ابن سلام زوجته واستنجز معاوية وعده •• فاذا هو يلويه به ويقول بلسان ابنته انها توجس من رجل يطلق زوجته وهي ابنة عمه وأجمل نساء عصره ••

وقيل ان الحسين سمع بهذه المكيدة ، فسأل أبا هريرة أن يذكره عند زينب خاطبا •• فصدع أبو هريرة بأمره وقال لزينب : « انك لا تعدمين طلابا خيرا من عبد الله بن سلام » •

قالت : « من ؟ » قال : « يزيد بن معاوية والحسين بن علي ، وهما معروفان لديك بأحسن ما تبتغينه في الرجال » •

---

(١) أدنف المرض فلانا : أثقله •

واستشارته في اختيار أيهما ، فقال : « لا أختار فم أحد على فم قبّله رسول الله ، تضمين شفتيك في موضع شفتيه » ·

فقالت : « لا أختار على الحسين بن علي أحدا وهو ريحانة النبي وسيد شباب أهل الجنة » ·

فقال معاوية متغيظا :

أنعمي أم خـالـد   رب ساع لقـاعد

ولم يلبث الحسين أن ردها الى زوجها قائلا : « ما أدخلتها في بيتي وتحت نكاحي رغبة في مالها ولا جمالها ، ولكن أردت احلالها لبعلها » ·

فان صحت هذه القصة وهي متواترة في تواريخ الثقات ، فقد تم بها ما نقص من النفرة والخصومة بين الرجلين ، وكان قيام يزيد على الخلافة يوم فصل في هذه الخصومة ، لا يقبل الارجاء ، وكان بينهما كما أسلفنا مفترق طريق ··

* * *

مـوازنـة

لخص المقريزي المنافسة بين الهاشميين والأمويين في بيتين فقال :

عبد شمس قد أضرمت لبني ها
شم حربا يشيب منها الوليد
فابن حرب للمصطفى ، وابن هند
لعلي ، وللحسين يزيد

وسنعرض في ختام هذا الفصل عرضا موجزا لهذه المقابلة المتسلسلة بين أفراد الأسرتين لتحقيق الرأي فيها ، ولكننا نجتزىء هنا بالمقابلة بين الخصمين المتصاولين من هاشم وعبد شمس في شخصي الحسين ويزيد •• فأيا كان الميزان الذي يوزن به كل من الرجلين فلا مراء البتة في خير الرجلين ••

وما من رجل فاز حيث ينبغي أن يخيب ، كما قد فاز يزيد بن معاوية في حربه للحسين ، وما اختصم رجلان كان أحدهما أوضح حقا وأظهر فضلا من الحسين في خصومته ليزيد بن معاوية •

والموازنة بين هذين الخصمين هي في بعض وجوهها موازنة بين الهاشميين والأمويين من بداءة الخلاف بين الأسرتين ، وهي موازنة حفظت كفتيها على وضعهما زهاء سبعة قرون ، فلم يظهر في هذه القرون أموي قح ، الا ظهرت فيه الخصال الأموية المعهودة في القبيلة بأسرها ، ولم يظهر في خلالها هاشمي قح ، الا رأيت فيه ملامح من تلك الخصال التي بلغت مثلها الأعلى في محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام •

والهاشميون والأمويون من أرومة (١) واحدة ترتفع الى عبد مناف ، ثم الى قريش في أصلها الأصيل ••

---

(١) الارومة : أصل الشجرة ، وتستعار للحسب •

ولكن الأسرتين تختلفان في الاخلاق والامزجة وان اتحدتا في الأرومة ... فبنو هاشم في الاغلب الأعم مثاليون أريحيون ولا سيما أبناء فاطمة الزهراء ، وبنو أمية في الاغلب الأعم عمليون نفعيون ، ولا سيما الاصلاء منهم في عبد شمس من الآباء والأمهات .

وتفسير هذا الاختلاف مع اتحاد الأرومة غير عسير .. فان الأخوين في البيت الواحد قد يختلفان في الاخلاق والاعمال ، كما يختلف الغريبان من أمتين بعيدتين ، تبعا لاختلاف سلسلة الميراث في الأصول والفروع ، على ذلك النحو الذي يأذن أحيانا باختلاف الألوان والملامح في نسل واحد ، تأخذ كل شعبة منه بناحية من نواحي الوراثة .

ومن الثابت الذي لا نزاع فيه أن عبد المطلب وأمية كانا يختلفان حتى في الصورة والقامة والملامح ..

وفي نسل أمية شبهة نشير اليها ولا نزيد ، فهي محل الاشارة والمراجعة في هذا المقام ..

دخل دغفل النسابة على معاوية فقال له : « من رأيت من علية قريش ؟ » . فقال : « رأيت عبد المطلب بن هاشم وأمية ابن عبد شمس » . فقال : « صفهما لي » . فقال : « كان عبد المطلب أبيض ، مديد القامة ، حسن الوجه ، في جبينه نور النبوة وعز الملك ، يطيف به عشرة من بنيه كأنهم أسد غاب » . « فصف أمية » قال : « رأيته شيخا قصيرا ، نحيف الجسم ضريرا ، يقوده عبده ذكوان » فقال معاوية : « مه !.. ذاك ابنه أبو عمرو » . فقال دغفل : « ذلك شيء قلتموه بعد وأحدثتموه .. وأما الذي عرفت فهو الذي أخبرتك به » .

وذكر الهيثم بن عدي في كتاب المثالب أن أبا عمرو بن أمية كان عبدا لأمية اسمه ذكوان فاستلحقه ، ونقل أبو الفرج الأصبهاني — وهو من الأمويين — ما تقدم فلم يعرض له بتفنيد (١) ..

ووضح الفرق بين بني هاشم وبني أمية في الخلائق والمناقب

---

(١) التفنيد : الابطال والتكذيب

في الجاهلية قبل الاسلام • فكان الهاشميون سراعا الى النجدة ونصرة الحق والتعاون عليه •• ولم يكن بنو أمية كذلك •• فتخلفوا عن حلف الفضول الذي نهض به بنو هاشم وحلفاؤهم ، وهو الحلف الذي اتفق فيه نخبة من رؤساء قريش « ليكونن مع المظلوم حتى يؤدوا اليه حقه ، وليأخذن أنفسهم بالتآسي (١) في المعاش والتساهم في المال ، وليمنعن القوي من ظلم الضعيف والقاطن من عنف الغريب » واتفقوا على هذا الحلف لأن العاص ابن وائل اشترى بضاعة من رجل زبيدي ولواه بثمنها ، فنصروا الرجل الغريب على القرشي وأعطوه حقه ••

ولما تنافر عبد المطلب وحرب بن أمية الى نفيل بن عدي ، قضى لعبد المطلب وقال لحرب :

أبوك معاهر وأبوه عف ... وداد الفيل عن بلد حرام

يشير الى فيل أبرهة الذي أغار به على مكة • وقال عن أمية انه « معاهر » لأنه كان يتعرض للنساء ، وقد ضرب بالسيف مرة لأنه تعرض لامرأة من بني زهرة • وكان له تصرف عجيب في علاقات الزواج والبنوة ، فاستلحق عبده ذكوان وزوجه امرأته في حياته ، ولم يعرف سيد من سادات الجاهلية قط صنع هذا الصنيع •

اختلاف النشأة

وندع اختلاف الطبائع ومغامز النسب ثم ننظر في اختلاف النشأة والعادة — مع اختلاف الخلقة الجسدية — فنرى أنهما صالحتان لتفسير الفارق بين أبناء هاشم وأبناء عبد شمس بعد جيلين أو ثلاثة أجيال ••

فقد كان بنو هاشم يعملون في الرئاسة الدينية ، وبنو عبد شمس يعملون في التجارة أو الرئاسة السياسية •• وهما ما هما في الجاهلية من الربا والمماكسة (٢) والغبن والتطفيف (٣) والتزييف ، فلا عجب أن يختلف هذا الاختلاف بين أخلاق

(١) تآسي القوم : عزى بعضهم بعضا

(٢) ماكس المشتري البائع : طلب منه حط الثمن (٣) نقص المكيال •

الصراحة وأخلاق المساومة ، وبين وسائل الايمان ووسائل الحيلة على النجاح ٠

ويتفق كثيرا في الكهانات الوثنية أن يتصف رؤساء الأديان بصفات الرياء والدهاء والعبث بأحلام الأغرار والجهلاء ، ولكنهم يتصفون بهذه الصفة حين يعلمون الكذب فيما يمارسون من شعائر الكهانة ، ومظاهر العبادة ، ويتخذونها صناعة يرجونها لمنفعتهم أو لما يقدرون فيها من منفعة أولئك الأغرار والجهلاء ٠٠

أما أبناء هاشم فلم يكونوا من طراز أولئك الكهان المشعوذين، ولا كانوا من المحتالين بالكهانة على خداع أنفسهم وخداع المؤمنين والمصدقين بل كانوا يؤمنون بالبيت ورب البيت ، وبلغ من ايمانهم بدينهم أن عبد المطلب ـ جد النبي عليه السلام ـ أوشك أن يذبح ابنه فدية لرب البيت لأنه نذر « لئن عاش له عشرة بنين لينحرن أحدهم عند الكعبة » ، ولم يتحلل من نذره حتى استوثق من كلام العرافة بعد رمي القداح ثلاث مرات ٠

والأخلاق المثالية توائم الرئاسة الدينية التي يدين أصحابها بما يدعون اليه ٠٠ فان لم تكن في بني هاشم موروثة من معدن أصيل في الأسرة ، فهي أشبه بسمت (١) الرئاسة الدينية والعقيدة المتمكنة والشمائل المتبعة جيلا بعد جيل ، وهي أخلق أن تزداد في الأسرة تمكنا بعد ظهور النبوة فيها ، وأن يتلقاها بالوراثة والقدوة أسباط النبي وأقرب الناس اليه ٠٠

وانك لتنحدر مع أعقاب الذرية في الطالبيين ـ أبناء علي والزهراء ـ مائة سنة وأربعمائة سنة ، ثم يبرز لك رجل من رجالها فيخيلُ اليك أن هذا الزمن الطويل لم يبعد قط بين الفرع وأصله في الخصال والعادات ٠٠ كأنما هو بعد أيام معدودات لا بعد المئات وراء المئات من السنين ، ولا تلبث أن تهتف عجبا : ان هذه لصفات علوية لا شك فيها ، لانك تسمع الرجل منهم يتكلم ويجيب من يكلمه ، وتراه يعمل ويجزي من عمل له ، فلا تخطيء في كلامه ولا في عمله تلك الشجاعة والصراحة ، ولا ذلك الذكاء والبلاغ المسكت ، ولا تلك اللوازم التي اشتهر

---

(١) السمت : هيئة أهل الخير ٠

بها علي وآله وتجمعها في كلمتين اثنتين تدلان عليهـا أوفى دلالة ، وهما : « الفروسية والرياضة » ..

طبع صريح ، ولسان فصيح ، ومتانة في الأسر (١) يستوي فيها الخلق والخلق . ونخوة لا تبالي ما يفوتها من النفع اذا هي استقامت على سنة المروءة والاباء ..

فمن يحيى بن عمر ، الى علي بن أبي طالب ، خمسة أو ستة أجيال .. ولكن يحيى بن عمر يوصف لك ، فاذا هو صورة مصغرة من صور علي بن أبي طالب على نحو من الانحاء ، فمن أوصافه التي وصفه بها الكاتب الأموي أبو الفرج الأصبهاني انه كان « رجلا فارسا ، شجاعا ، شديد البدن ، مجتمع القلب بعيدا عن رهق (٢) الشباب وما يعاب به مثله » .

ومما روي عنه « انه كان مقيما ببغداد ، وكان له عمود حديد ثقيل يكون معه في منزله ، وربما سخط على العبد أو الأمة من حشمه .. فيلوي العمود في عنقه فلا يقدر أحد أن يحله عنه حتى يحله يحيى رضي الله عنه » .

ولما ضايقه الأمراء وضنوا عليه بجرايته في بيت المال ، كان يجوع ويمرض عليه الطعام فيأباه ويقول : « ان عشنا أكلنا » .

ثم ثار وبلغت أنباء ثورته بغداد ، فاقبلت عليهم الجموع المحشودة لقتاله ، وأسرع اليه بعض الأعراب فصاح به : « أيها الرجل ، أنت مخدوع .. هذه الخيل قد أقبلت » .. فوثب الى متن فرسه فجال به ، وحمل على قائد القوم فضربه ضربة بسيفه على وجهه .. فولى منهزما وتبعه أصحابه ، فجلس معهم ساعة وهو لا يبالي ما يكون .

ولما تكاثرت عليه الجموع وقتل بعـد ذلك ، اتهم الناس صاحبه الهيضم العجلي انه كان مدسوسا عليه ، وانه غرر به لينكص عنه عند احتدام القتال . فاقسم الرجل بالطلاق انه لم يكن له في الهزيمة صنع مدبر .. قال : « وانما كان يحيى يحمل وحده ويرجع ، فنهيته عن ذلك فلم يقبل .. وحمل مرة كما كان يفعل ، فبصرت عيني به وقد صرع في وسط عسكرهم ، فلما رأيته قتل انصرفت بأصحابي » .

---

(١) القوة وشدة الخلق .

(٢) الرهق بفتحتين : غشيان المحارم ، والسفه والاثم .

ويحيى الشهيد هذا هو الذي قال ابن الرومي جيميته المشهورة في وصف قتاله ومقتله ، وهي طويلة منها قوله يخاطب أمراء زمانه :

فلو شهد الهيجا بقلب أبيكم
غداة التقى الجمعان والخيل تمعج (١)
لأعطى يد العاني أو ارتد هاربا
كما ارتد بالقاع الظليم (٢) المهيج
ولكنه ما زال يغشى بنحره
شبا (٣) الحرب حتى قال ذو الجهل : أهوج
وحاشى له من تلكم غير أنه
أبى خطة الأمر الذي هو أسمج
وأين به عن ذاك ؟ ٠٠ لا أين ـ انه
اليه بعرقيه الزكيين محرج
كأني به كالليث يحمي عرينه
واشباله لا يزدهيه المهجهج
كدأب علي في المواطن قبله
ـ أبي حسن ـ والغصن من حيث يخرج
كأني أراه اذ هوى عن جواده
وعفر (٤) بالترب الجبين المشجج
فحب به (٥) جسما الى الأرض اذ هوى
وحب به روحا الى الله تعرج

وقد أصاب ابن الرومي الوصف والتعليل ، فما كان كل من يحيى ولا أسلافه من قبله الا عليا صغيرا يتأسى بعلي الكبير ، أو غصنا زاكيا يخرج من دوحته الكبرى ، « والغصن من حيث يخرج » كما قال ، ولولا قوة هذه الطبائع في أساس الأسرة الطالبية لما انحدرت على هذه الصورة الواضحة بعد ستة أجيال. فنحن نرى يحيى بن عمر بعد هذه الأجيال ـ وهو بعموده الحديدي وجرأته التي لا تتزعزع ويقينه الذي لا يلوي به

(١) معج الفرس : أسرع سيره في سهولة ٠ (٢) ذكر النعام ٠
(٣) الشبا جمع شباة وهي حد طرف الشيء ٠
(٤) عفره بالتراب : مرغه ٠ (٥) حب به : ما أحبه ٠

الاغراء والوعيد ــ كأنما هو نسخة من جده الكبير الذي يحمل باب خيبر وقد أعيا حمله الرجال ، وينهد لعمرو بن ود وقد تهيبه مئات الأبطال ، ويتوسط الصفوف حاسرا وقد برزوا له بشكة القتال ودروع النزال ..

ولم يكن لبني أمية ــ على نقيض هذا ــ نصيب ملحوظ من الخلائق المثالية والشمائل الدينية ، ولا كان ظهور النبوة في أسرة منافسة لأسرتهم من شأنه أن يمزز مناقبها فيهم كما يمتز بها أبناء بيتها وفروع أرومتها . بل لعله كان من شأنه أن يجنح بهم من طرف خفي الى صفات تقابل تلك الصفات ، ومزايا تعوض لهم ما فاتهم من تلك المزايا .. فتمكنت فيهم قبل ظهور النبوة وبعدها خلائقهم العملية التي دربتهم عليها المساومات التجارية وراضهم عليها مراس المطامع السياسية . فاشتهر أناس من رؤوسهم بمحاسن هذه الخلائق ومعائبها على السواء ، وشاعت عنهم صفات الحلم والصبر والحنكة والدهاء كما شاعت عنهم صفات المراوغة والجشع والاقبال على الترف ومناعم الحياة .

ولقد تقابل الحسين بن علي ويزيد بن معاوية في تمثيل الأسرتين ، كما تقابلا في كثير من الخلائق والحظوظ .. ولكنهما تفاوتا في تمثيل أسرتيهما كما تفاوتا في غير ذلك من وجوه الخلاف بينهما . فكان الحسين بن علي نموذجا لأفضل المزايا الهاشمية ولم يكن يزيد بن معاوية نموذجا لأفضل المزايا الأموية ، بل كان فيه الكثير من عيوب أسرته ولم يكن له من مناقبها المحمودة الا القليل .

وليس لنا هنا أن نفصل القول في أحوال كل من الرجلين وخصائص كل من النموذجين ، ولكننا نجتزىء منهما بما يملأ الكفتين في هذا الميزان ، وهو ميزان الأريحية والنفعية في حادث كبير من حوادث التاريخ العربي يندر نظيره في جميع التواريخ .

* * *

مكانة الحسين

واذا كانت المعركة كلها هي معركة الأريحية والنفعية ، فالمزية الأولى التي ينبغي توكيدها هنا للحسين بن علي رضي الله

عنه هي مزية نسبة الشريف ومكانه من محبة النبي عليه الصلاة والسلام ..

ان المؤرخ الذي يكتب هذا الحادث قد يكون عربيا مسلما أو يكون من غير العرب والمسلمين ، وقد يؤمن بمحمد أو ينكر محمدا وغيره من الأنبياء .. ولكنه يخطىء دلالة الحوادث التاريخية اذا استخف بهذه المزية التي قلنا انها أحق مزايا الحسين بالتوكيد في الصراع بينه وبين يزيد .

فليس المهم أن يؤمن المؤرخون بقيمة ذلك النسب الشريف في نفوسهم أو قيمته في علوم العلماء وأفكار المفكرين ، ولكنما المهم أن أتباع يزيد كانوا يؤمنون بحق ذلك النسب الشريف في الرعاية والمحبة ، وأنهم مع هذا غلبتهم منافعهم على شعورهم فكانو ن من حزب يزيد ولم يكونوا من حزب الحسين ..

لا هذه المزية في الحسين لما وضح الصراع بين الأريحية وا مية عند الفريقين ، ولا كان المصطرعون هنا وهناك من جين مختلفين ، ولا كان للمعركة كلها تلك الدلالة التي مفت النفس الانسانية في جانبين منها قويين ، يتنازعان حوادث لأمم والأفراد من زمان بعيد ، وسيظلان على نزاعهما هذا الى زمان بعيد .

ولقد كان الحسين بن علي بهذه المزية أحب انسان الى قلوب المسلمين ، وأجدر انسان أن تنعطف اليه القلوب .

كان النبي عليه السلام هو الذي سماه ، وسمى من قبله أخاه .. قال علي رضي الله عنه : « ولما ولد الحسن سميته حربا فجاء رسول الله فقال : (أروني ابني ما سميتموه ؟) . قلت : (حرب !) . فقال : (بل هو حسن) . فلما ولد الحسين سميته حربا ، فجاء رسول الله فقال : (أروني ابني .. ما سميتموه ؟) . قلت : (حرب !) فقال : (بل هو حسين) .. » .

وذهب الى الحسين واخوته كل ما في فؤاد النبي عليه السلام من محبة البنين ، وهو مشوق الفؤاد الى الذرية من نسله . فكان عليه السلام لا يطيق أذاهما ، ولا يحب أن يستمع الى بكاء منهما في طفولتهما ، على كثرة ما يبكي الأطفال الصغار . وخرج من بيت عائشة يوما ، فمر على بيت فاطمة فسمع حسينا يبكي ، فقال : « ألم تعلمي أن بكاءه يؤذيني ؟ » .

وكان يقول : « ادعي الي ابني » •• فيشمهما ويضمهما اليه ، ولا يبرح حتي يضحكهما ويتركهما ضاحكين • وروى أبو هريرة أنه كان عليه السلام يدلع (١) لسانه للحسين ، فيرى الصبي حمرة لسانه فيهش اليه ، وكان عيينة بن بدر ، شهده في بعض هذه المجالس فقال متعجبا : « يصنع هذا بهذا ؟ فوالله ان لي الولد وما قبلته قط ! » قال عليه السلام : « من لا يرحم ، لا يرحم ؟ » •

وخرج ليلة في احدى صلاتي العشاء وهو حامل حسنـا أو حسينا ، فوضعه ثم كبر للصلاة فأطال سجدة الصلاة ، قال راوي الحديث : « فرفعت رأسي فاذا بالصبي على ظهر رسول الله وهو ساجد فرجعت الى سجودي ، فلما قضى الصلاة قيل يا رسول الله : انك سجدت بين ظهري صلاتك سجدة أطلتها حتي ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحي اليك •• » قال : « كل ذلك لم يكن •• ولكن ابني ارتحلني (٢) فكرهت أن أعجله •• » •

وقام عليه السلام يخطب المسلمين ، فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران •• فنزل عليـه السلام من المنبر ، فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال : « صدق الله !•• (انما أموالكم وأولادكم فتنة) •• نظرت الى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتـى قطعت حديثـي ورفعتهما » •

ولا يوجد مسلم في العصر القديم أو العصر الحديث يحب نبيه كما يحب المؤمنون أنبياءهم ، ثم يصغر عنده حساب هذا الحنان الذي غمر به قلبه الكريم سبطيه وأحب الناس اليه •• فبهذا الحنان النبوي قد أصبح الحسين في عداد تلك الشخوص الرمزية التي تتخذ منها الأمم والملل عنوانا للحب ، أو عنوانا للفخر ، أو عنوانا للألم والفداء •• فاذا بها محبوب كل فرد ومفخرته ، وموضع عطفه واشفاقه ، كأنما تمت اليه وحـده بصلة القرابة أو بصلة المودة ••

وقد بلغ الحسين بهذا الحنان ـ مع الزمن ـ مبلغه من تلك المكانة الرمزية فأوشك بعض واصفيه أن يلحقه في حمله وولادته

(١) دلع لسانه : اخرجه • (٢) ارتحل الرجل بعيره : شد عليـه الرحل وعلاه •

ورضاعه بمواليد المعجزات • فقال بعضهم : « لم يولد مولود لستة أشهر وعاش الا الحسين وعيسى بن مريم » • وقال آخرون انه رضي الله عنه لم ترضعه أمه ولم ترضعه أنثى « واعتلت فاطمة لما ولدت الحسين وجف لبنها فطلب رسول الله مرضعة فلم يجد ، فكان يأتيه فيلقمه ابهامه فيمصه ويجعل الله في ابهام رسوله رزقا يغذيه ، ففعل ذلك أربعين يوما وليلة ، فأنبت الله سبحانه وتعالى لحمه من لحم رسول الله •• » •

وروي عنه غير ذلك كثير من الأساطير التي تحيط بها الأمم تلك الشخوص الرمزية التي تعزها وتغليها فتلتمس لها مولدا غير المولد المألوف ، والنشأة المعهودة ، وتلحقها أو توشك أن تلحقها بالخوارق والمعجزات ••

ولقد كانت حقيقة الحسين الشخصية كفؤا لتلك الصورة الرمزية التي نسجتها حوله الأجيال المتعاقبة قبل أن يرى منه أبناء جيله غير تلك الحقيقة •

فكان ملء العين والقلب في خلق وخلق ، وفي أدب وسيرة ، وكانت فيه مشابه من جده وأبيه •• الا أنه كان في شدته أقرب الى أبيه • قال رضي الله عنه مشيرا الى الحسن : « ان ابني هذا سيخرج من هذا الأمر ، أشبه أهلي بي الحسين » • واتفق بعض الثقات على أن « الغالب على الحسين الحلم والأناة كالنبي ، وعلى الحسين الشدة كعلي » •

* * *

صفات الحسين

وقد تعلم في صباه خير ما يتعلمه أبناء زمانه من فنون العلم والأدب والفروسية ، واليه يرفع كثير من المتصوفة وحكماء الدين نصوصهم التي يعولون عليها ويردونها الى علي بن أبي طالب رضي الله عنه •

وقد أوتي ملكة الخطابة من طلاقة لسان وحسن بيان وغنة صوت وجمال ايماء • ومن كلامه المرتجل قوله في توديع أبي ذر وقد أخرجه عثمان من المدينة بعد أن أخرجه معاوية من الشام : « يا عماه ! ان الله قادر أن يغير ما قد ترى • والله كل يوم في شأن • وقد منعك القوم دنياهم ومنعتهم دينك ، وما أغناك عما

منعوك وأحوجهم الى ما منعتهم ، فاسأل الله الصبر والنصر ، واستعذ به من الجشع والجزع ، فان الصبر من الدين والكرم ، وأن الجشع لا يقدم رزقا والجزع لا يؤخر أجلا » ٠

وكان يومئذ في نحو الثلاثين من عمره فكأنما أودع هـذه الكلمات شعار حياته كاملة منذ أدرك الدنيا الى أن فارقهـا في مصرع كربلاء ٠

وتواترت الروايات بقوله الشعر في أغراض الحكمة وبعض المناسبات البيتية ، ومن ذلك هذه الأبيات :

اغن عـن المخلـوق بالخالـق
تغن عـن الكاذب والصـادق
واسترزق الرحمـن من فضله
فليـس غـير الله مـن رازق
من ظن أن النـاس يغنـونـه
فليـس بالرحمـن بالواثق

ومنه هذان البيتان في زوجته وابنته :

لعمرك انني لأحب دارا
تكون بهـا سكينـة والربـاب
أحبهمـا وأبذل كـل ما لي
وليس لعاتب عنـدي عتـاب

وهما ــ سواء صحت نسبتهما اليه أو لم تصح ــ معبران عن خلقه في بيته وبين أهله ، فقد كان من أشد الآباء حدبـا على الأبناء وأشد الأزواج عطفا على النساء ، ومن وفاء زوجاته بعد مماته أن الرباب هذه التي ذكرت في البيتين السابقين خطبها أشراف قريش بعد مقتله فقالت : « ما كنت لأتخذ حما (١) بعد رسول الله » ٠٠ وبقيت سنة لا يظلها سقف حتى فنيت وماتت ، وهي لا تفتر عن بكائه والحزن عليه ٠٠

خلق كريم

وقد سن الحسين لمن بعده سنة في آداب الأسرة تليق بالبيت

(١) حمو المرأة : أبو زوجها ٠

الذي نشأ فيه ووكل اليه أن يرعى له حقه ويوجب على الناس مهابته وتوقيره ، فهو على فضله وذكائه وشجاعته ورجحانه على أخيه الحسن في مناقب كثيرة ومآثر عدة كان يستمع الى رأي الحسن ولا يسوءه بالمراجعة أو المخالفة . فلما هم الحسن بالتسليم لمعاوية كان ذلك على غير رضى من الحسين . فلم يوافقه وأشار عليه بالقتال ، فغضب الحسن وقال له : « والله لقد هممت أن أسجنك في بيت وأطين عليك بابه ، حتى أقضي بشأني هذا وأفرغ منه ثم أخرجك .. » .

فلم يراجعه الحسين بعدها وآثر الطاعة والسكوت ..

ومن رعايته لسنن الأسرة ووصايا الأبوة انه ركبه دين فساومه معاوية بمائتي ألف دينار أو بمبلغ جسيم من المال على عين « أبي بيزر » فأبى أن يبيعها مع حاجته الى بعض ما عرض عليه — لأن أباه تصدق بمالها لفقراء المدينة ، ولو أنه باعها لوقفها معاوية على أولئك الفقراء .

وقد أخذ نفسه بسمت الوقار في رعاية أسرته ورعاية الناس عامة .. فهابه الناس وعرف معاوية عنه هذه المهابة فوصفه لرجل من قريش ذاهب الى المدينة فقال : « اذا دخلت مسجد رسول الله فرأيت حلقة فيها قوم كأن على رؤوسهم الطير ، فتلك حلقة أبي عبد الله مؤتزرا الى أنصاف ساقيه .. » .

ولم يذكر عنه قط أنه كان يواجه الناس بتخطئة وهو يعلمهم و يبصرهم بشؤون دينهم ، الا أن تكون مكابرة أو لجاجة فله في جواب ذلك أشباه تلك القوارص التي كانت تؤثر عن أبيه .

وما لم تكن مكابرة أو لجاجة فهو يحتال على تصحيح الخطأ حيلة لا غضاضة فيها على المخطئين .

فمن آدابه وآداب أخيه في ذلك أنهما رأيا اعرابيا يخفف الوضوء والصلاة فلم يشاءا أن يجبهاه بغلطه وقالا له : « نحن شابان وأنت شيخ ربما تكون أعلم بأمر الوضوء والصلاة منا ، فنتوضأ ونصلي عندك ، فان كان عندنا قصور تعلمنا » . فتنبه الشيخ الى غلطه دون أن يأنف من تنبيههما اليه . ومر يوما بمساكين يأكلون فدعوه الى الطعام على عادة العرب ، فنزل وأكل معهم ثم قال لهم : « قد أجبتكم فأجيبوني » ودعاهم الى الغداء في بيته .

ورويت الغرائب في اختبار حذقه بالفقه واللغة كما رويت أمثال هذه الغرائب في امتحان قدرة أبيه عليهما السلام •• فقيل ان اعرابيا دخل المسجد الحرام فوقف على الحسن رضي الله عنه وحوله حلقة من مريديه فسأل عنه ، فقال لما عرفوه به : « واياه أردت •• جئت لأطارحه الكلام وأسأله عن عويص العربية » • فقال له بعض جلسائه : « ان كنت جئت لهذا فابدأ بذلك الشاب » • وأومأ الى الحسين عليه السلام ، فلما سلم على الحسين وسأله عن حاجته قال : « اني جئتك من الهرقل والجملل والأيتم والهمهم » فتبسم الحسين وقال :

ـ يا اعرابي ! •• لقد تكلمت بكلام ما يعقله الا العالمون •

فأجابه الأعرابي قائلا يريد الاغراب : وأقول أكثر من هذا ، فهل أنت مجيبي على قدر كلامي ؟ •• ثم أذن له الحسين فأنشد أبياتا تسعة ، منها :

هفا قلبي الى اللهو   وقد ودع شرخيه

فأجابه الحسين مرتجلا بتسعة أبيات في معناها ومن وزنها وقوافيها ، يقول منها :

فما رسم شجاني قد   محت آيات رسميه
سفور درجت ذيلين   في بوغاء قاعيه
هتوف مرجف تترى   على تلبيد ثوبيه

الى آخر الأبيات ••• ثم فسر له ما أراد من الهرقل وهو ملك الروم ، والجملل وهو قصار النخل ، والأيتم وهو بعض النبات ، والهمهم وهو القليب الغزير الماء ، وفي هذه الكلمات أوصاف البلاد التي جاء منها واشارة اليها ••

فقال الاعرابي : « ما رأيت كاليوم أحسن من هذا الغلام كلاما ، وأذرب (١) لسانا ، ولا أفصح منه منطقا » •

وتلك رواية من روايات على منوالها ، ان لم تنبىء بما وقع فهي منبئة بما تداوله الناس من شهرة الحسين في صباه الباكر بالعلم والفصاحة ••

ولخبرته بالكلام وشهرته بالفصاحة ، كان الشعراء يرتادونه

(١) ذرب اللسان اي حاد وفصيح

وبهم من الطمع في اصنافه أكبر من طمعهم في عطائه .. ولكنه على هذا كان يجري معهم على شرعة ذوي الأقدار والأخطار من أنداده ، فيبذل لهم الجوائز ما وسعه البذل ويؤثرهم على نفسه في خصاصة (١) الحال . وقد لامه أخوه الحسن في ذلك فكتب اليه « ان خير المال ما وقي به العرض » الا انه في الواقع لم يكن يعطي لوقاية العرض وكفى ، ولكنه كان يعطي من قصده من ذوي الحاجات ولا يخيب رجاء لمن استعان به على مروءة .

وفـاء وشجـاعة

وقد اشتهر مع الجود بصفتين من أكرم الصفـات الانسانية وأليقهما ببيته وشرفه ، وهما الوفاء والشجاعة .

فمن وفائه أنه أبى الخروج على معاوية بعد وفاة أخيه الحسن لأنه عاهد معاوية على المسالمة ، وقال لأنصاره الذين حرضوه على خلع معاوية أن بينه وبين الرجل عهدا وعقدا لا يجوز له نقضه حتى تمضي المدة ، وكان معاوية يعلم وفاءه وجوده معا ، فقال لصحبه يوما وقد أرسل الهدايا الى وجوه المدينة من كسي وطيب وصلات : « ان شئتم أنبأتكم بما يكون من القوم .. أما الحسن فلعله ينيل نساءه شيئا من الطيب ويهب ما بقي من حضره ولا ينتظر غائبا ، وأما الحسين فيبدأ بأيتام من قتل مع أبيه بصفين فان بقي شيء نحر بـه الجزر (٢) وسقـى بـه اللبن .. » .

وشجاعة الحسين صفة لا تستغرب منه لأنها « الشيء من معدنه » كما قيل . هي فضيلة ورثها عن الآباء وأورثها الأبناء بعده ، وقد شهد الحروب في افريقيـة الشماليـة وطبرستـان والقسطنطينية ، وحضر مع أبيه وقائعه جميعا من الجمـل الى صفين . وليس في بني الانسان من هو أشجع قلبا ممن أقدم على ما أقدم عليه الحسين في يوم كربلاء .

---

(١) الخصاصة : الفقر والحاجة .

(٢) جمع جزور وهو ما يباح ان يذبح من الابل .

وقد تربى للشجاعة كما تلقاها في الدم بالوراثة ، فتعلم فنون الفروسية كركوب الخيل والمصارعة والعدو من صباه ولم تفته ألعاب الرياضة التي تتم بها مرانة الجسم على الحركة والنشاط ·· ومنها لعبة تشبه « الجولف » عند الأوروبيين كانوا يسمونها المداحي : جمع مدحاة ، وهي أحجار مثل القرصة يحفرون في الأرض حفرة ويرسلون تلك الأحجار ، فمن وقع حجره في الحفيرة فهو الغالب ·

أما عاداته في معيشته فكان ملاكها لطف الحس وجمال الذوق والقصد في تناول كل مباح · كان يحب الطيب والبخور ، ويأنق للزهر والريحان ··

وروى أنس بن مالك انه كان عنده فدخلت عليه جارية بيدها طاقة من ريحان فحيته بها · فقال لها : « أنت حرة لوجه الله تعالى » فسأله أنس متعجبا : « جارية تجيئك بطاقة ريحان فتعتقها ؟ » · قال : « كذا أدبنا الله ·· قال تبارك وتعالى : (واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) ·· وكان أحسن منها عتقها » ·

وكان يميل للفكاهة ويأنس في أوقات راحته لأحاديث أشعب وأضاحيكه ، ولكنه على شيوع الترف في عصره لم يكن يقارب منه الا ما كان يجمل بمثله ·· حتى تحدث المتحدثون أنه لا يعرف رائحة الشراب ··

وكانت له صلوات يؤديها غير الصلوات الخمس ، وأيام من الشهر يصوم نهارها ويقوم ليلها ··

وقد عاش سبعا وخمسين سنة بالحساب الهجري ، وله من الأعداء من يصدقون ويكذبون ·· فلم يعبه أحد منهم بمعابة ولم يملك أحد منهم أن ينكر ما ذاع من فضله ، حتى حار معاوية بعيبه حين استمظم جلساؤه خطاب الحسين له · واقترحوا عليه أن يكتب اليه بما يصغره في نفسه · فقال انه كان يجد ما يقوله في علي ، ولكن لا يجد ما يقوله في حسين ·

تلك جملة القول في سيرة أحد الخصمين ··

خلق يزيد

ويقف خصمه أمامه موقف المقابلة والمناقضة لا موقف المقارنة والمعادلة في معظم خلائقه وعاداته وملكاته وأعماله .

فيزيد بن معاوية عريق النسب في بني عبد مناف ثم في قريش ، ولكن الأصدقاء والخصوم والمادحين والقادحين متفقون على وصف الخلائق التي اشتهر بها أبناء هذا الفرع من عبد مناف . وأشهرها الأثرة ، وأحمد ما يحمد منها أنها تنفع الناس من طريق النفع لأصحابها . وندر من وجوه الأمويين في الجاهلية أو الاسلام من اشتهر بخصلة تجلب الى صاحبها ضررا أو مشقة في سبيل نفع الناس ..

وبيت أبي سفيان بيت سيادة مرعية لا مرام فيها ..

ولكن الحقيقة التي ينبغي أن نذكرها في هذا المقام أن معاوية ابن أبي سفيان لم يكن ليرث شيئا من هذه السيادة التي كان قوامها كله وفرة المال ، لأن أبا سفيان على ما يظهر قد أضاع ماله في حروب الاسلام ولم يكن له من الوفر ما يبقى على كثرة الوراث . وروي أن امرأة استشارت النبي عليه السلام في التزوج بمعاوية فقال لها : « انه صعلوك !.. » .

كذلك ينبغي أن نذكر حقيقةً أخرى في هذا المقام ، وهي أن معاوية لم يكن من كتاب الوحي كما أشاع خدام دولته بعد صدر الاسلام ، ولكنه كان يكتب للنبي عليه السلام في عامة الحوائج وفي اثبات ما يجبى من الصدقات وما يقسم في أربابها ، ولم يسمع عن ثقة قط انه كتب للنبي شيئا من آيات القرآن الكريم .

وعرفت لمعاوية خصال محمودة من خصال الجد والسيادة كالوقار والحلم والصبر والدهاء ، ولكنه على هذا كان لا يملك حلمه في فلتات تميد بالملك الراسخ ، ومنها قتله حجر بن عدي وستة من أصحابه لأنهم كانوا ينكرون سب علي وشيعته ، فما زال بقية حياته يندم على هذه الفعلة ويقول : « ما قتلت أحدا الا وأنا أعرف فيم قتلته ما خلا حجرا فاني لا أعرف بأي ذنب قتلته .. » .

وأم يزيد هي ميسون بنت مجدل الكلبية من كرائم بني كلب المعرقات في النسب ، وهي التي كرهت العيش مع معاوية في دمشق وقالت تتشوق الى عيش البادية :

للبس عباءة وتقر عيني احب الي من لبس الشفوف
وبيت تخفق الأرواح فيه أحب الي من قصر منيف ..

ومن هذه الأبيات قولها :

وخرق (١) من بني عمي فقير أحب الي من علج عنيف ! ..

فأرسلها وابنها يزيد الى باديتها ، فنشأ يزيد مع أمه بعيدا عن أبيه .

وقد أفاد من هذه النشأة البدوية بعض أشياء تنفع الأقوياء ، ولكنها على ما هو مألوف في أعقاب السلالات القوية تضيرهم وتجهز على ما بقي من العزيمة فيهم ..

فكان ما استفاده من بادية بني كليب بلاغة الفصحى ، وحب الصيد ، وركوب الخيل ، ورياضة الحيوانات ولا سيما الكلاب .

وهذه صفات في الرجل القوي تزينه وتشحذ قواه ، ولكنها في أعقاب السلالات ـ أو عكارة البيت كما يقال بين العامة ـ مدعاة الى الاغراق في اللهو والولع بالفراغ لأنها هي عنده كل شيء وليست مددا لغيرها من كبار الهمم وعظائم الهموم .

وهكذا انقلبت تلك الصفات في يزيد من المزية الى النقيصة .. فكان كلفه بالشعر الفصيح مغريا له بمعاشرة الشعراء والندماء في مجالس الشراب ، وكان ولعه بالصيد شاغلا يحجبه عن شواغل الملك والسياسة ، وكانت رياضته للحيوانات مهزلة تلحقه بأصحاب البطالة من القرادين والفهادين ، فكان له قرد يدعوه « أبا قيس » يلبسه الحرير ويطرز لباسه بالذهب والفضة ويحضره مجالس الشراب ، ويركبه أتانا في السباق ويحرص على أن يراه سابقا مجليا على الجياد ، وفي ذلك يقول يزيد كما جاء في بعض الروايات :

---

(١) الخرق بكسر الخاء من الفتيان : الظريف في سماحة .

تمسـك أبـا قيس بفضـل عنانهـا
فليس عليهـا ان سقطـت ضمـان

الا من رأى القـرد الذي سبقت بـه
جيـاد أمـير المـؤمنـين أتـان

وقد يكون عبد الله بن حنظلة مبالغا في المذمة حين قال فيما نسب اليه : « والله ما خرجنا مع يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء • ان رجلا ينكح الأمهات والبنات والأخوات ويشرب الخمر ويدع الصلاة ، والله لو لم يكن معي أحد من الناس لأبليت الله فيه بلاء حسنا » •

ولكن الروايات لم تجمع على شيء كاجماعها على ادمانه الخمر ، وشغفه باللذات ، وتوانيه عن العظائم •• وقد مات بذات الجنب وهو لما يتجاوز السابعة والثلاثين ، ولعلها اصابة الكبد من ادمان الشراب والافراط في اللذات • ولا يعقل أن يكون هذا كله اختلاقا واختراعا من الأعـداء لأن الناس لم يختلقوا مثل ذلك على أبيه أو على عمرو بن العاص ، وهما بغيضان أشد البغض الى أعداء الأمويين •• ولأن الذين حاولوا ستره من خدام دولته لم يحاولوا الثناء على مناقب فيه تحل عندهم محل مساوئه وعيوبه ، كأن الاجتراء على مثل هذا الثناء من وراء الحسبان •

ولم يكن هذا التخلف في يزيد من هزال في البنية أو سقم اعتراه كذلك السقم الذي يعتري أحيانا بقايا السلالات التي تهم بالانقراض والدثور ، ولكنه كان هزالا في الأخلاق وسقما في الطوية •• قعد به عن العظائم مع وثوق بنيانه وضخامة جثمانه واتصافه ببعض الصفات الجسدية التي تزيد في وجاهة الأمراء كالوسامة وارتفاع القامة • وقد أصيب في صباه بمرض خطير ــ وهو الجدري ــ بقيت آثاره في وجهه الى آخر عمره ، ولكنه مرض كان يشيع في البادية ولم يكن من دأبه أن يقعد بكل من أصيب به عن الطموح والكفاح •

وعلى فرط ولعه بالطراد حين يكون الطراد لهوا وفراغا ، كانت همته الوانية تفتر به عن الطراد حين تتسابق اليه عزائم الفرسان في ميادين القتال ، ولو كان دفاعا عن دينه ودنياه •

فلما سير أبوه جيش سفيان بن عوف الى القسطنطينية لغزو الروم ودفاعا عن بلاد الاسلام ــ أو بلاد الدولة الأموية ــ تثاقل وتمارض حتى رحل الجيش وشاع بعد ذلك أنه امتحن في طريقه ببلاء المرض والجوع ، فقال يزيد :

ما أن أبالي بما لاقت جموعهم
بالفرقدونة من حمى ومن موم
اذا اتكأت على الأنماط مرتفقا
بدير مران عندي أم كلثوم

فأقسم أبوه حين بلغه هذان البيتان ليلحقن بالجيش ليدرأ عنه عار النكول والشماتة بجيش المسلمين بعد شيوع مقاله في خلواته ..

ومن أعجب عجائب المناقضة التي تمت في كل شيء بين الحسين ويزيد أن يزيد لم يختص بمزية محمودة تقابل نظائرها من مزايا الحسين ، حتى في تلك الخصال التي تأتي بها المصادفة ولا فضل فيها لأصحابها ومنها مزية السن وسابقة الميلاد ..

فلما تنازعا البيعة كان الحسين في السابعة والخمسين مكتمل القوة ناضج العقل وفي المعرفة بالعلم والتجربة ، وكان يزيد في نحو الرابعة والثلاثين لم يمارس من شئون الرعاة ولا الرعية ما ينفعه بين هؤلاء أو هؤلاء .

ومزية السن هذه قد يطول فيها الأخذ والرد بين أبناء العصور الحديثة ، ولكنها كانت تقطع القول في أمة العرب حيث نشأ الأسلاف والأخلاف على طاعة الشيوخ ورعاية الاعمار ... وهذا على أن السابعة والخمسين ليست بالسن التي تعلو بصاحبها في الكبر حتى تسلبه مزية الفتوة ومضاء العزيمة ..

وكذلك لا يقال أن « الوراثة المشروعة » في الممالك كان لها شأن يرجح بيزيد على الحسين في ميزان العروبة والاسلام . فقد كان توريث معاوية ابنه على غير وصية معروفة من السلف بدعة هرقلية كما سماها المسلمون في ذلك الزمان ، ولم يكن معقولا أن العرب في صدر الاسلام يوجبون طاعة يزيد لأنه ابن

معاوية وهم لم يوجبوا طاعة آل النبي في امر الخلافة لأنهم قرابة محمد عليه السلام ٠

فقد شاءت عجائب التاريخ اذن أن تقيم بين ذينك الخصمين قضية تتضح فيها النزعة النفعية على نحو لم تتضحه قط في أمثالها من القضايا ، وقد وجب أن ينخذل يزيد كل الخذلان لولا النزعة النفعية التي أعانته وهو غير صالح لأن يستعين بها بغير أعوان من بطانته وأهله ٠ ولئن كان في تلك النزعة النفعية مسحة تشوبها من غير معدنها الوضيع لتكونن هي عصبية القبيلة من بني أمية ، وهي هنا نزعة موارية تعارض الايمان الصريح ولا تسلم من الختل والتلبيس ٠

لهذا شك بعض الناس في اسلام ذلك الجيل من الأمويين ، وهو شك لا نرتضيه من وجهة الدلائل التاريخية المتفق عليها ٠ فقد يخطر لنا الشك في صدق دين أبي سفيان لأن أخبـاره في الاسلام تحتمل التأويلين ، ولكن معاوية كان يؤدي الفرائض ويتبرك بتراث النبي ويوصي أن تدفن معه أظافره التي حفظها الى يوم وفاته ٠ وليس بيسير علينا أن نفهم كيف ينشأ معاوية الثاني على تلك التقوى وذلك الصلاح وهو ناشيء في بيت مدخول الاسلام ، يتصارح أهله أحيانا بما يتم على الكفر به أو التردد فيه ٠٠

انما هي الأثرة ، ثم الخرق في السياسـة ، ثم التمادي في الخرق مع استثارة العناد والعداء ٠ وفي تلك الأثرة ولواحقها ما ينشيء المقابلة من أحد طرفيها في هـذه الخصومـة ، ويتم المناظرة في شتى بواعثها بين ذينك الخصمين الخالدين ، ونعني بهما هنا المثالية والواقعية ، وما الحسين واليزيد الا المثالان الشاخصان منهما للعيان ٠٠

رجال العسكرين

كان الحسين في طريقه الى الكوفة ــ يوم دعاه شيعته اليها ــ يسال من يلقاهم عن أحوال الناس فينبئونه عن موقفهم بينه وبين بني أمية ، وقلما اختلفوا في الجواب ..

سأل الفرزدق وهو خارج من مكة ــ والفرزدق مشهور بالتشيع لآل البيت ــ فقال له : « قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية ، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء » .

وقال له مجمع بن عبيد العامري : « أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم (١) فهم ألب (٢) واحد عليك ، وأما سائر الناس بعدهم فان قلوبهم تهوى اليك وسيوفهم غداً مشهورة عليك » .

وقد أصاب الفرزدق وأصاب مجمع بن عبيد ، فان الناس جميعاً كانوا بأهوائهم وأفئدتهم مع الحسين بن علي ما لم تكن لهم منفعة موصولة بملك بني أمية ، فهم اذن عليه بالسيوف التي تشهرها الأيدي دون القلوب .

وقد « أعظمت الرشوة » للرؤساء وأعظمت لهم من بعدها الوعود والآمال ، فعلموا أن دوام نعمتهم من دوام ملك بني أمية ..

فأما الرؤساء الذين كانت لهم مكانتهم بمعزل عن الملك القائم ، فقد كانوا ينصرون حسيناً ولا ينصرون الأمويين .. أو كانوا يصانعون الأمويين ولا يبلغون بالمصانعة أن يشهروا الحرب على الحسين .

ومن هؤلاء هانيء بن عروة من كبار الزعماء في قبائل كندة ،

---

(١) جمع غرارة بالكسر وهي شبه العدل . (٢) الالب : الجمع الكثير من الناس . وهم عليه ألب واحد أي مجتمعون عليه .

وشريك بن الأعور ، وسليمان بن صرد الخزاعي ، وكلاهما من ذوي الشرف والدين ·

بل كان من العاملين لبني أمية من يخزه ضميره اذا بلغ العداء للحسين أشده ، فيترك معسكر بني أمية ليلوذ بالمعسكر الذي كتب عليه الموت والبلاء - كما فعل الحر بن يزيد الرياحي في كربلاء وقد رأى القوم يهمون بقتل الحسين ولا يقنعون بحصاره · فسأل عمر بن سعد قائد الجيش : « أمقاتل أنت هذا الرجل ؟ » · فلما قال « نعم » ترك الجيش الأموي وذهب يقترب من الحسين حتى داناه فقال له :« جعلت فداك يا ابن رسول الله · أنا صاحبك حبستك عن الرجوع وجعجعت (١) بك في هذا المكان ، وما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضته عليهم ، ووالله لو علمت أنهم ينتهون بك الى ما أرى ما ركبت مثل الذي ركبت ، واني تائب الى الله مما صنعت ، فهل ترى لي من توبة ؟ » ·

فقبل الحسين توبته وجعل الرجل يقاتل من ساعتها حتى قتل ، وآخر كلمة على لسانه فاه بها : « السلام عليك يا أبا عبد الله ! » ·

فمجمل ما يقال على التحقيق انه لم يكن في معسكر يزيد رجل يعينه على الحسين الا وهو طامع في مال ، مستميت في طمعه استماتة من يهدر الحرمات ولا يبالي بشيء منها في سبيل الحطام ·

ولقد كان لمعاوية مشيرون من ذوي الرأي كعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وزياد بن أبيه ، وأضرابهم من أولئك الدهاة الذين يسميهم التاريخ أنصار دول وبناة عروش ··

وكان لهم من سمعة معاوية وذرائعه شعار يدارون به المطامع ويتحللون من التأثيم ··

لكن هؤلاء بادوا جميعا في حياة معاوية ، ولم يبق ليزيد مشير واحد ممن نسميهم بأنصار الدول وبناة العروش ، وانما بقيت له شرذمة على غراره أصدق ما توصف به أنها شرذمة جلادين ، يقتلون من أمروا بقتله ويقبضون الأجر فرحين ··

(١) جعجع البعير : حركه للاناخة أو النهوض · والبعير : برك · والرحى : صاتت ·

فكان أعوان معاوية ساسة وذوي مشورة ..

وكان أعوان يزيد جلادين وكلاب طراد في صيد كبير ..

وكانوا في خلائقهم البدنية على المثال الذي يمهد في هذه الطغمة من الناس ، ونمني به مثال المسخام المشوهين .. أولئك الذين تمتلىء صدورهم بالحقد على أبناء آدم ولا سيما من كان منهم على سواء الخلق وحسن الأحدوثة ، فاذا بهم يفرغون حقدهم في عدائه وان لم ينتفعوا بأجر أو غنيمة ، فاذا انتفعوا بالأجر والغنيمة فذلك هو حقد الضراوة الذي لا تعرف له حدود ..

وشر هؤلاء جميعا هم شمر بن ذي الجوشن ، ومسلم بن عقبة ، وعبيد الله بن زياد . ويلحق بزمرتهم على مثال قريب من مثالهم عمر بن سعد بن أبي وقاص ..

فشمر بن ذي الجوشن كان أبرص كريه المنظر قبيح الصورة، وكان يصطنع المذهب الخارجي ليجعله حجة يحارب بها عليا وأبناءه ، ولكنه لا يتخذه حجة ليحارب بها معاوية وأبناءه .. كأنه يتخذ الدين حجة للحقد ، ثم ينسى الدين والحقد في حضرة المال .

ومسلم بن عقبة مخلوق مسمم الطبيعة في مسلاخ (١) انسان .

« وكان أعور أمغر (٢) ثائر الرأس ، كأنما يقلع رجليه من وحل اذا مشى » .

وقد بلغ من ضراوته بالشر وهو شيخ فان مريض ، أنه أباح المدينة في حرم النبي عليه السلام ثلاثة أيام ، واستعرض أهلها بالسيف جزرا كما يجزر القصاب الغنم حتى ساخت (٣) الأقدام في الدم ، وقتل أبناء المهاجرين والأنصار وذرية أهل بدر ، وأخذ

(١) جلد . (٢) أبيض في وجهه حمرة . (٣) ساخت الاقدام في الطين : دخلت وغابت .

البيعة ليزيد بن معاوية على كل من استبقاه من الصحابة والتابعين على أنه عبد قن (١) لأمير المؤمنين ..!

وانطلق جنده في المدينة الى جوار قبر النبي يأخذون الأموال ويفسقون بالنساء ، حتى بلغ القتلى في تقدير الزهري سبعمائة من وجوه الناس وعشرة آلاف من الموالي ، ثم كتب الى يزيد يصف له ما فعل وصف الظافر المتهلل ، فقال بعد كلام طويل : « فأدخلنا الخيل عليهم ... فما صليت الظهر أصلح الله أمير المؤمنين الا في مسجدهم !.. بعد القتل الذريع والانتهاب العظيم .. وأوقعنا بهم السيوف وقتلنا من أشرف لنا منهم واتبعنا مدبرهم وأجهزنا على جريحهم وانتهبناها ثلاثا كما قال أمير المؤمنين أعز الله نصره ، وجعلت دور بني الشهيد عثمان بن عفان في حرز وأمان ، والحمد لله الذي شفا صدري من قتل أهل الخلاف القديم والنفاق العظيم ، فطالما عتوا وقديما ما طغوا . أكتب هذا الى أمير المؤمنين وأنا في منزل سعيد بن العاص مدنفا مريضا ما أراني الا لما بي .. فما كنت أبالي متى مت بعد يومي هذا ... » .

وكل هذا الحقد المتأجج في هذه الطوية العفنة انما هو الحقد في طبائع المسخاء الشائهين ... يوهم نفسه انه الحقد من ثأر عثمان أو من خروج قوم على ملك يزيد ..

وكان عبيد الله بن زياد متهم النسب في قريش ، لأن أباه زيادا كان مجهول الأب فكانوا يسمونه زياد بن أبيه . ثم الحقه معاوية بأبي سفيان لان أبا سفيان ذكر بعد نبوغ زياد ، انه كان قد سكر بالطائف ليلة فالتمس بغيا فجاءوه بجارية تدعى سمية ، فقالت له بعد مولد زياد أنها حملت به في تلك الليلة ..

وكانت أم عبيد الله جارية مجوسية تدعى مرجانة فكانوا يعيرونه بها وينسبونه اليها ، ومن عوارض المسخ فيه ــ وهي عوارض لها في نفوس العرب دخلة تورث الضغن والمهانة ــ انه كان ألكن اللسان لا يقيم نطق الحروف العربية .

---

(١) القن بالكسر : العبد الذي أبوه مملوك . وعبد قن : خالص العبودية .

فكان اذا عاب الحروري من الخوارج ، قال : « هروري » فيضحك سامعوه ، وأراد مرة أن يقول أشهروا سيوفكم ، فقال افتحوا سيوفكم .. فهجاه يزيد بن مفرغ قائلا :

ويوم فتحت سيفك من بعيد
اضعت وكل أمرك للضياع

ولم يكن أهون لديه من قطع الأيدي والأرجل والامر بالقتل في ساعة الغضب لشبهة ولغير شبهة . ففي ذلك يقول مسلم بن عقيل وهو صادق مؤيد بالأمثال والمثلات : « ويقتل النفس التي حرم الله قتلها على الغضب وسوء الظن ، وهو يلهو ويلعب كأن لم يصنع شيئا » .

وقد كانت هذه الضراوة على أعنفها وأسوئها يوم تصدى عبيدالله بن زياد لمنازلة الحسين لأنه كان يومئذ في شرة الشباب (١) لم يتجاوز الثامنة والعشرين ، وكان يزيد يبغضه ويبغض أباه لأنه كان قد نصح لمعاوية بالتمهل في الدعوة الى بيعة يزيد ، فكان عبد الله من ثم حريصا على دفع الشبهة والغلو في اثبات الولاء للعهد الجديد ..

والذين لم يمسخوا في جبلتهم وتكوينهم هذا المسخ من أعوان يزيد بن معاوية ، كان الطمع في المناصب والأموال واللذات قد بلغ ما يبلغه المسخ من تحويل الطبائع وطمس البصائر ومغالطة النفوس في الحقائق ...

ومن هذا القبيل ، عمر بن سعد بن أبي وقاص الذي أطاع عبيدالله بن زياد في وقعة كربلاء ولم يعدل بتلك الوقعة عن نهايتها المشئومة ، وقد كان العدول بها عن تلك النهاية في يديه .

فقد أغرى عمر بن سعد بولاية الري ، وهي درة التاج في ملك الأكاسرة الأقدمين . وكان يتطلع اليها منذ فتحها أبوه القائد النبيل العزوف ، وينسب اليه أنه قال وهو يراوِد نفسه على مقاتلة الحسين :

فوالله ما أدري واني لحائر
أفكر في أمري على خطرين

---

(١) شرة الشباب : نشاطه .

أأترك ملك الري منيتي
أم أرجع مأثوما بقتل حسين
وفي قتله النار التي ليس دونها
حجاب ، وملك الري قرة عيني

فان لم تكن هذه الأبيات من لسانه فهي ولا شك من لسان حاله ، لأنها تسجل الواقع الذي لا شبهة فيه ..

ومن الواقع الذي لا شبهة فيه أيضا ، أن عمر بن سعد هذا لم يخل من غلظة في الطبع على غير ضرورة ولا استفزاز ، فهو الذي ساق نساء الحسين بعد مقتله على طريق جثث القتلى التي لم تزل مطروحة بالعراء .. فصحن وقد لمحنها على الطريق صيحة أسالت الدمع من عيون رجاله ، وهم ممن قاتل الحسين وذويه ..

هؤلاء وأمثالهم لا يسمون ساسة ملك ولا تسمى مهنتهم تدعيم سلطان ، ولكنهم يسمون جلادين متنمرين يطيعون ما في قلوبهم من غلظة وحقد ، ويطيعون ما في أيديهم من أموال ووعود .. وتسمى مهمتهم مذبحة طائشة لا يبالي من يسفك فيها الدماء أي غرض يصيب ..

ومنذ قضي على يزيد بن معاوية أن يكون هؤلاء وأمثالهم أعوانا له في ملكه ، قضي عليه من ساعتها أن يكون علاجه لمسألة الحسين علاج الجلادين الذين لا يعرفون غير سفك الدماء والذين يسفكون كل دم أجروا عليه ..

وهكذا كان ليزيد أعوان اذا بلغ أحدهم حده في معونته فهو جلاد مبذول السيف والسوط في سبيل المال ..

وكان للحسين أعوان اذا بلغ أحدهم حده في معونته فهو شهيد يبذل الدنيا كلها في سبيل الروح ..

وهي اذن حرب جلادين وشهداء ..

الحسين في مكة

عمل يزيد بوصية أبيه ، فلم يكن له هم منذ قيامه على الملك الا أن يظفر ببيعة الحسين وعبد الله بن الزبير في مقدمة النفر الذين أنكروا العهد له في حياة معاوية ..

وكان الوليد بن عقبة بن أبي سفيان والي معاوية يومئذ على المدينة . فلما جاءه كتاب يزيد بنعي أبيه، وأن يأخذ أولئك النفر بالبيعة « أخذا شديدا ليس فيه رخصة (١) » دعا اليه بمروان بن الحكم ، فأشار بمشورته التي جمعت بين الاخلاص وسوء النية .. وفحواها أن يبعث الى الحسين وابن الزبير ، فأن بايعا والا ضرب عنقيهما !

وحدث بين الحسين والوليد ما تقدمت الاشارة اليه في محضر مروان ، اذ عاد الحسين الى بيته . وقد عول على ترك المدينة الى مكة كما تركها ابن الزبير من قبله .. فخرج منها لليلتين بقيتا من شهر رجب سنة ستين للهجرة ، ومعه جل أهل بيته واخوته وبنو أخيه ، ولزم في مسيره الى مكة الطريق الأعظم فلم يتنكبه (٢) كما فعل ابن الزبير مخافة الطلب من ورائه ، فصحت في الرجلين فراسة معاوية في هذا الأمر الصغير ، كما صحت في غيره من كبار الأمور ..

وانصرف الناس في مكة الى الحسين عن كل مطالب بالخلافة غيره ، ومنهم ابن الزبير . فكان ابن الزبير يطوف بالكعبة كل يوم ويتردد عليه في صباحه ومسائه ، يتعرف رأيه وما نمي اليه من آراء الناس في الحجاز ، والعراق ، وسائر الأقطار الاسلامية .

فلبث الحسين في مكة أربعة أشهر على هذه الحال ، يتلقى بين آونة وآونة دعوات المسلمين الى الظهور وطلب البيعة ، ولا

---

(١) الرخصة بالضم : التسهيل في الامر والتيسير خلاف التشديد والاذن . (٢) تنكبه : تجنبه واعتزل عنه .

سيما أهل الكوفة وما جاورها ‥ فقد كتبوا اليه يقولون ان هنالك مائة ألف ينصرونك ، وألحوا في الكتابة يستعجلونه الظهور ٠

وتردد الحسين طوال هذه الأشهر فيما يفعل بهذه الدعوات المتتابعات ، فبدا له أن يتمهل حتى يتبين جلية القوم ويستطلع طلعهم من قريب ‥

وآثر أن يرسل اليهم ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب يمهد له طريق البيعة ان رأى فيها محلا لتمهيد ، وكتب الى رؤساء أهل الكوفة قبل ذلك كتابا يقول فيه : « أما بعد ، فقد أتتني كتبكم وفهمت ما ذكرتم من محبتكم لقدومي عليكم ، وقد بعثت اليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل، وأمرته أن يكتب الي بحالكم وأمركم ورأيكم ‥ فان كتب الي أنه قد أجمع رأي ملئكم وذوي الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت علي به رسلكم وقرأت في كتبكم ، أقدم عليكم وشيكا ان شاء الله ٠ فلعمري ما الامام الا العامل بالكتاب ، والآخذ بالقسط ، والدائن بالحق ، والحابس نفسه على ذات الله ، والسلام » ٠

ثم بلغ الحسين أن مسلما قد نزل الكوفة ، فاجتمع على بيعته للحسين اثنا عشر ألفا ، وقيل ثمانية عشر ألفا ، فرأى أن يبادر اليه قبل أن يتفرق هذا الشمل ويطول عليهم عهد الانتظار والمراجعة ، فظهر عزمه هذا لمشيريه من خاصته وأهل بيته فاختلفوا في مشورتهم عليه بين موافق ومثبط وناصح بالمسير الى جهة غير جهة العراق ٠

كان أخوه محمد بن الحنفية يرى ــ وهو بعد في المدينة ــ أن يبعث رسله الى الأمصار ويدعوهم الى مبايعته قبل قتال يزيد فان أجمعوا على بيعته فذاك ، وان اجتمع رأيهم على غيره « لم ينقض الله بذلك دينه ولا عقله » ‥

وكان عبد الله بن الزبير يقول له : « ان شئت أن تقيم بالحجاز آزرناك ونصحنا لك وبايعناك ، وان لم تشأ البيعة بالحجاز توليني أنا البيعة فتطاع لا تعصى » ٠

ويزعم كثير من المؤرخين ان ابن الزبير كان متهم النصيحة للحسين •• ومن هؤلاء المؤرخين أبو الفرج الأصبهاني • قال : « ان عبد الله بن الزبير لم يكن شيء أثقل عليه من مكان الحسين بالحجاز •• ولا أحب اليه من خروجه الى العراق طمعا في الوثوب بالحجاز •• لأن ذلك لا يتم له الا بعد خروج الحسين ، فلقيه وقال له : « على أي شيء عزمت يا أبا عبد الله ؟ » •

فأخبره برأيه في اتيان الكوفة وأعلمه بما كتب به مسلم بن عقيل ، فقال الزبير : « فما يحبسك ؟•• فوالله لو كان لي مثل شيعتك بالعراق ما تلومت (١) في شيء » •

ولعل أنصح الناس له في هذه المسألة كان عبد الله بن عباس لما بينهما من القرابة وما عرف به ابن عباس من الدهـاء •• سأله :

ـ ان الناس أرجفوا (٢) أنك سائر الى العراق ، فما أنت صانع ؟••

قـال :

ـ قد أجمعت السير في أحد يومي هذين •

فأعاذه ابن عباس بالله من ذلك ، وقال له :

ـ اني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك • ان أهل العراق قوم غدر • أقم بهذا البلد فانك سيد أهل الحجاز ، فان كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فلينفوا عدوهم ثم أقدم عليهم ، فان أبيت الا أن تخرج فسر الى اليمن ، فان بها حصونا وشعابا ولأبيك بها شيعة •

فقال له الحسين :

ـ يا ابن عم ! ••• اني أعلم أنك ناصح مشفق ، ولكني قد أزمعت وأجمعت على المسير •

قال ابن عباس :

ـ ان كنت لا بد فاعلا ، فلا تخرج أحدا من ولدك ولا حرمك ولا نسائك ، فخليق أن تقتل وهم ينظرون اليك كما قتل ابن عفان •

---

(١) تلوم فلان في الامر : تلبث وانتظر انتظار من يتجنب الملام •

(٢) أرجف القوم : أكثروا من الاخبار السيئة •

السفر الى العراق

وخرج في الثامن من ذي الحجة لا ينتظر العيد بمكة ، لأن أخبار البيعة بالكوفة حفزته الى التعجيل بالسفر قبل فوات الأوان ..

وكان مسلم بن عقيل قد نزل بالكوفة ، فأقبل عليه الناس ألوفا ألوفا يبايعون الحسين على يديه .. وبلغوا ثمانية عشر ألفا في تقدير ابن كثير وثلاثين ألفا في تقدير ابن قتيبة .

وهال الأمر النعمان بن بشير — والي الكوفة — فحار فيما يصنع بمسلم وأتباعه وهم يزدادون يوما بعد يوم ، فصمد المنبر وخطب الناس معلنا أنه لا يقاتل الا من قاتله ولا يثب الا على من وثب عليه ..

وتسابق أنصار بني أمية الى يزيد ينقلون اليه ما يجري بالكوفة ، فأشار عليه سرجون الرومي مولى أبيه أن يعزل النعمان ويولي الكوفة عبيد الله بن زياد ، مضمومة الى البصرة التي كان يتولاها في ذلك الحين .

وقدم عبيد الله الى الكوفة فكان أول ما عمل بها أن جمع اليه عرفاء المدينة — أي مشايخ أحيائها — فأمرهم أن يكتبوا له أسماء الغرباء ومن في أحيائهم من «طلبة أمير المؤمنين والحرورية وأهل الريب» ، وأنذرهم « أيما عريف وجد في عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه اليه ، صلب على باب داره ، وألغيت تلك العرافة من العطاء .

والتمس وجوه المدينة من شيعة الحسين يترضاهم ويستخرج خفاياهم . فسأل عمن تخلف منهم عن لقائه وعلى رأسهم هانيء ابن عروة ، فقيل له انه مريض لا يبرح داره .. وكان يتعلل بالمرض تجنبا للقائه والسلام عليه .

فذهب عبيد الله اليه يعوده ويتلطف اليه ، وجاء في بعض الروايات أنه قد أشير على مسلم بن عقيل بقتله وهو في بيت هانيء ، فأبى أن يغتاله وهو آمن في بيت مريض يعوده ..

وقال ابن كثير ما فحواه انهم أشاروا على مسلم بن عقيل بقتله وهو في دار شريك بن الأعور، وقد علم شريك أن عبيد الله سيعوده .. فبعث الى هانيء بن عروة يقول له : « ابعث مسلم ابن عقيل يكون في داري ليقتل عبيد الله اذا جاء يعودني » .. فتحين مسلم عن قتله ، وسأله شريك : « ما منعك أن تقتله ؟ » قال : « بلغني حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان الايمان قيد الفتك ، لا يفتك مؤمن) ، وكرهت أن أقتلـه في بيتك » .. قال شريك : « أما لو قتلته لجلست في الثغر لا يستعدي به أحد ، ولكفيتك أمر البصرة ، ولكنت تقتله ظالما فاجرا » .

ثم مات شريك بعد ثلاثة أيام ...

وتضطرب الأقاويل في وقائع هذه الأيام لتلاحقها وكثرتها وكثرة رواتها والعاملين فيها .. ولكن الشائع من تلك الاقاويل ينبئنا عن عنت شديد لقيه عبيد الله بن زياد في مغالبة مسلم وشيعته ، وأنه هرب مرة من المسجد لأن الناس بصروا بمسلم مقبلا فتصايحـوا بعبيـد الله فاعتصم بقصره وأغلـق عليه أبوابه ..

واجتمع الى مسلم أربعة آلاف من حزبه ، فأمر من ينادي في الناس بشعار الشيعة : « يا منصور !.. أمت » . ثم تقدم الى قصر الامارة في تعبئة كتعبئة الجيش .

ولم يكن في القصر الا ثلاثون رجلا من الشرط وعشرون من أهل الكوفة . فخامر الياس عبيد الله وظن أنه هالك قبل أن يدركه الغوث من مولاه . ولكنه تحيل بما في وسع المستميت من حيلة هي على أية حال أجدى وأسلم له من التسليم ، فأنفـذ أنصاره الى كل صوب في المدينة يعدون ويتوعدون .. وانطلق هؤلاء الأنصار يرجفون بقرب وصول المدد الزاخر من يزيد ، وينذرون الناس بقطع العطاء وأخذ البريء بالمذنب والغائب بالشاهد ويبذلون المال لمن يرشى بالمال ، والوعد لمن يقنع بالوعد الى حين ..

وتوسلوا بكل وسيلة تبلغ بهم ما أرادوا من تخذيل الناس عن مسلم بن عقيل حتى كانوا يرسلون الزوجة وراء زوجها والأم وراء ولدها والأخ وراء أخيه ، فيتعلقون بهم حتى يقفلوا الى دورهم أو يدخلوا بهم في زمرة عبيد الله ..

فلما غربت شمس ذلك اليوم ، نظر مسلم حوله فاذا هو في خمسمائة من أولئك الآلاف الأربعة .. ثم صلى المغرب فلم يكن وراءه في الصلاة غير ثلاثين تسللوا من حوله تحت الظلام ، وبقي وحيدا في المسجد لا يجد معه من يدله على منزل يأوي اليه .

وتسمع عبيد الله من القصر حين سكنت الجلبة ، وسأل أصحابه أن يشرفوا ليروا من بقي من تلك الجموع .. فلم يروا أحدا ولم يسمعوا صوتا . فخيل اليهم أنها مكيدة حرب وأن القوم رابضون تحت الظلال ، فأدلى بالقناديل والمشاعل حتى اطمأن الى خلو المسجد وتفرق مسلم وأتباعه ، فدعا الى الصلاة الجامعة وأمر المنادين في أرجاء الكوفة : « ألا برئت الذمة من رجل من الشرطة والعرفاء والمناكب — رؤوس العرفاء — والمقاتلة ، صلى العشاء الا في المسجد » .

وأقام الحراس خلفه وهو يصلي بمن أجابوه وقد امتلأ بهم المسجد ، فخطبهم بعد الفراغ من صلاته قائلا : « برئت ذمة الله من رجل وجدنا ابن عقيل في داره » .

وصاح في رئيس شرطته : « يا حصين بن نمير ! .. ثكلتك أمك ان ضاع باب سكة من سكك الكوفة وخرج هذا الرجل ولم تأتني به ، وقد سلطتك على دور أهل الكوفة فابعث مراصد على أفواه السكك .. وأصبح غدا فاستبرىء (١) الدور وجس خلالها حتى تأتيني بهذا الرجل .. » .

وما هي الا سويعات حتى جيء بابن عقيل وقد دافع الشرط عن نفسه ما استطاع . ووصل الى القصر جريحا مجهدا ظمآن فأهوى الى قلة عند الباب فيها ماء بارد ، فقال له أحد أصحاب

---

(١) استبرأ : طلب الابراء من الدين أو الاثم ونحوهما .

عبيد الله : « أتراها ما أبردها ! والله لا تذوق منها قطرة حتى تذوق الجحيم في نار جهنم ! » ٠

وأنكر عمر بن حريث هذه الفظاعة من الرجل ، فجاءه بقلة عليها منديل ومعها قدح فصب منها في القدح وأدناه منه ، فاذا هو ينفث الدم في القدح كلما رفعه للشرب منه حتى امتلأ وسقطت فيه ثنيتاه ، فحمد الله وقال : « لو كان لي من الرزق المقسوم لشربته » ٠

وأدخلوه علي عبيد الله فنظر الى جلسائه وفيهم عمر بن سعد بن أبي وقاص ، فناشده القرابة ليسمعن منه وصية ينفذها بعد موته ٠ فأبى أن يصغي اليه !٠٠ ثم أذن له عبيد الله فقام معه فقال مسلم : « ان علي بالكوفة دينا استدنته سبعمائة درهم ، فبع سيفي ودرعي فاقضها عني ، وابعث الى الحسين من يرده ، فاني قد كتبت اليه أعلمه أن الناس معه ولا أراه الا مقبلا » ٠٠

فعاد عمر الى عبيد الله فأفشى لـه السر الذي ناجاه بـه وأوصاه أن يكتمه ٠ ثم دعا عبيد الله بالحرسي الذي قاومه مسلم وضربه على رأسه واسمه بكير بن حمران ـ فأسلم مسلما اليه وقال :

ـ لتكن أنت الذي تضرب عنقه ٠

وصعدوا به الى أعلى القصر فأشرفوا به على الجموع المحيطة به وضربوا عنقه ، فسقط رأسه الى الرحبة وألقيت جثته الى الناس ٠ ثم أرسل برأسه الى يزيد مع رؤوس سراة في المدينة كان مسلم يأوي اليهم أول مقدمه اليها ، ومنهم هانيء بن عروة الذي تقدمت الاشارة اليه ٠

طلائـع الفشـل

كان مقتل مسلم بن عقيل في التاسع من ذي الحجة ليلة العيد ٠٠ وكان خروج الحسين من مكة قبل ذلك بيوم واحد ، فلـم يسمع بمقتله الا وهو في آخر الطريق ٠٠

ولما شارف العراق أحب أن يستوثق مرة أخرى قبل دخوله ، فكتب الى أهل الكوفة كتابا مع قيس بن سهر الصيداوي يخبرهم بمقدمه ويحضهم على الجد والتساند ، فوافى قيس القادسية وقد رصد فيها شرط عبيد الله فاعتقلوه وأشخصوه اليـه .. فأمره عبيد الله أن يصعد القصر فيسب « الكذاب بن الكذاب الحسين بن علي » وينهى الناس أن يطيعوه .

فصعد قيس وقال : « أيها الناس .. ان هذا الحسين بن علي خير خلق الله . ابن فاطمة بنت رسول الله ، وأنا رسوله اليكم ! وقد فارقته بالحـاجز فأجيبوه ، والعنـوا عبيد الله بن زياد وأباه .. » .

فما كان منهم الا أن قذفوا به من حالق ، فمات ..

وحدث مثل هذا مع عبد الله بن يقطر .. فأبى أن يلعن الحسين ، ولعن عبيد الله بن زياد ، ألقوا به من شرفات القصر الى الأرض فاندكت عظامه ولم يمت ، فذبحوه ..

وجعل الحسين كلما سأل قادما من العراق أنباه بمقتل رسول من رسله أو داعية من دعاته ، فأشار عليه بعض صحبه بالرجوع ، وقال له غيرهم : « ما أنت مثل مسلم بن عقيل ، ولو قدمت الكوفة لكان الناس اليك أسرع .. » .

« وثب بنو عقيل فأقسموا لا يبرحون حتى يدركوا ثأرهم أو يذوقوا ما ذاق مسلم ..

ولم ير الحسين بعد ذلك أن يصحب معه أحدا الا على بصيرة من أمره وما هو لاقيه ان تقدم ولم ينصرف لشأنه .. فخطب الرهط الذين صحبوه وقال لهم :

« وقد خذلتنـا شيعتنـا .. فمـن أحب منكـم أن ينصرف فلينصرف ، ليس عليهم منا ذمام .. » .

فتفرقوا الا أهل بيته وقليلا ممن تبعوه في الطريق ..

الحسين والحر بن يزيد

والتقى الركب عند جبل ذي حسم بطلائع جيش عبيد الله يقودها الحر بن يزيد التميمي اليربوعي في ألف فارس ، أمروا بأن لا يدعوا الحسين حتى يقدموا به على عبيد الله في الكوفة ·

فأمر الحسين مؤذنه بالآذان لصلاة الظهر ، وخطب أصحابه وأصحاب الحر بن يزيد فقال :

ـ أيها الناس اني لم آتكم حتى أتتني كتبكم ورسلكم أن أقدم علينا فليس لنا امام ، لعل الله يجمعنا بك على الهدى والحق فقد جئتكم ·· فان تعطوني ما أطمئن اليه من عهودكم ومواثيقكم أقدم مصركم ، وان لم تفعلوا أو كنتم لقدومي كارهين انصرفت عنكم الى المكان الذي أقبلت منه ··

فلم يجبه أحد ··

فقال للمؤذن :

ـ أقم الصلاة !

وسأل الحر :

ـ أتريد أن تصلي أنت بأصحابك وأصلي بأصحابي ؟

فقال الحر :

ـ بل نصلي جميعا بصلاتك ··

ثم تياسر الحسين الى طريق العذيب ، فيلفها وفرسان عبيد الله يلازمونه ويصرون على أخذه الى أميرهم وصده عن وجهته حيثما اتجه غير وجهتهم ، فأقبل عليهم يعظهم وهم يصغون اليه فقال :

« أيها الناس ! ·· ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله مخالفا لسنة رسول الله يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان ، فلم يغير ما عليه بفعل ولا قول كان حقا على الله أن يدخله مدخله · ألا وأن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالفيء ، وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله ، وأنا أحق من غيري ··

« وقد أتتني كتبكم ورسلكم ببيعتكم وأنكم لا تسلموني ولا تخذلوني ، فان بقيتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم ، وأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نفسي مع أنفسكم وأهلي من أهلكم ، فلكم في أسوة . وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدي ، وخلعتم بيعتي ، فلعمري ما هي لكم بنكير ، والمغرور من اغتر بكم ، فحظكم أخطأتم ، ونصيبكم ضيعتم .. ومن نكث فانما ينكث على نفسه وسيغني الله عنكم والسلام » .

فانصت الحر بن يزيد وأصحابه ثم توجه اليه يحذره العاقبة وينبئه : « لئن قاتلت لتقتلن ! » .

فصاح به الحسين :

ـ أبالموت تخوفني !.. ما أدري ما أقول لك .. ولكني أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه وهو يريد نصرة رسول الله ، فخوفه ابن عمه وأنذره أنه لمقتول فأنشد :

سأمضي وما بالموت عار على الفتى
اذا ما نوى خيرا وجاهد مسلما
وآسى الرجال الصالحين بنفسه
وخالف مثبورا (١) وفارق مجرما
فان عشت لم أندم ، وان مت لم ألم
كفى بك ذلا أن تعيش وترغما

ثم سار الركبان ينظر بعضهما الى بعض كلما مال الحسين نحو البادية أسرع الحر بن يزيد فرده نحو الكوفة . حتى نزلا بنينوى ، فاذا راكب مقبل عليه بالسلاح ، يحيي الحر ولا يحيي الحسين ، ثم أسلم الحر كتابا من عبيد الله يقول فيه : « أما بعد فجعجع بالحسين حتى يبلغك كتابي ويقدم عليك رسولي ، فلا تنزله الا بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء .. وقد أمرت رسولي أن يلزمك فلا يفارقك حتى يأتيني بانفاذك أمري والسلام » .

(١) المثبور : الخاسر الهالك .

فلما بدا من الحر بن يزيد أنه يريد أن ينفذ أمر عبيد الله ابن زياد ويخشى رقيبه الذي أمر ألا يفارقه حتى ينفذ أمره ، قال أحد أصحاب الحسين ـ زهير بن القين :

ـ انه لا يكون والله بعد ما ترون الا ما هو أشد منه · يا ابن رسول الله ! ·· ان قتال هؤلاء أهون علينا من قتال من يأتي بعدهم · فلعمري ليأتينا من بعدهم ما لا قبل لنا به · فلنناجز هؤلاء ·

فأعرض الحسين عن مشورته وقال :

ـ اني أكره أن أبدأهم بقتال ·

عمر بن سعد

وكان الديلم قد ثاروا على يزيد بن معاوية واستولوا على دستبي بأرض همذان ، فجمع لهم عبيد الله بن زياد جيشا عدته أربعة آلاف فارس بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص الذي يذكر الديلم اسم أبيه ـ سعد ـ فاتح بلادهم ، وقد وعد بولاية الري بعد قمع الثورة الديلمية ، فلما قدم الحسين الى العراق قال عبيد الله لعمر :

ـ نفرغ من الحسين ثم تسير الى عملك ·
فاستعفاه ، وعلم عبيد الله موطن هواه فقال له :
ـ نعم نعفيك على أن ترد الينا عهدنا ··
فاستمهله حتى يراجع نصحاءه ·· فنصح له ابن أخته ابن المغيرة بن شعبة ـ وهو من أكبر أعوان معاوية ـ ألا يقبل مقاتلة الحسين ، وقال له :

ـ والله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض لو كان لك ، خير من أن تلقى الله بدم الحسين ·

وبات ليلته يقلب وجوه رأيه ، حتى اذا أصبح ذهب الى ابن زياد ، فاقترح عليه أن يبعث الى الحسين من أشراف الكوفة من ليس يغني في الحرب عنهم ·· فأبى ابن زياد الا أن يسير الى الحسين أو ينزل عن ولاية الري ·· فسار على مضض وجنوده

متثاقلون متحرجون ، الا زعانف المرتزقة الذين ليس لهم من خلاق •

وكان جنود الجيش يتسللون منه ويتخلفون بالكوفة •• فندب عبيد الله رجلا من آعوانه ـ هو سعد بن عبد الرحمن المنقري ـ ليطوف بها ويأتيه بمن تخلف عن المسير لقتال الحسين ، وضرب عنق رجل جيء به وقيل انه من المتخلفين ، فأسرع بقيتهم الى المسير •

وقد أدرك الجيش الحسين وهو بكربلاء على نحو من خمسة وعشرين ميلا الى الشمال الغربي من الكوفة : نزل بها في الثاني من المحرم سنة احدى وستين ••

وخلا الجو في الكوفة لرجلين اثنين يسابق كلاهما صاحبه في اللؤم وسوء الطوية ، وينفردان بتصريف الأمر في قضية الحسين دون مراجعة من ذي سلطان •• وهما عبيد الله بن زياد ، وشمر ابن ذي الجوشن •

عبيد الله المغموز النسب الذي لا يشغله شيء ، كما يشغله التشفي لنسبه المغموز من رجل هو بلا مراء أعرق العرب نسبا في الجاهلية والاسلام •• فليس أشهى اليه من فرصة يتنزل فيها ذلك الرجل على حكمه ، ويشعره فيها بذله ورغمه ••

شمر بن ذي الجوشن

وشمر بن ذي الجوشن الأبرص الكريه الذي يمضه من الحسين ما يمض كل لئيم مشنوء من كل كريم محبوب وسيم •

وكان كلاهما يفهم لؤم صاحبه ويعطيه فيه حقه وعذره ، فهما في هذه الخلة متناصحان متفاهمان ••!

ولم يكن أيسر من حل قضية الحسين على وجه يرضي يزيد ويمهد له الولاء في قلوب المسلمين ولو الى حين •• لولا ذلك الضغن الممتزج بالخليقة الذي هو كسكر المخمور لا موضع معه لرأي مصيب ، ولا لتفكير في عاقبة بعيدة أو قريبة ••

فالحسين في أيديهم ليس أيسر عليهم من اعتقاله وابقائه بأعينهم في مكان ينال فيه الكرامة ولا يتحفز لثورة •

لكنهما لم يفكرا في أيسر شيء ولا أنفع شيء للدولة التي يخدمانها •• وانما فكرا في النسب المغموز والصورة الممسوخة ، فلم يكن لهما من هم غير ارغام الحسين واشهاد الدنيا كلها على ارغامه •

تلقى ابن زياد من عمر بن سعد كتابا يقول فيه أن الحسين « أعطاني أن يرجع الى المكان الذي أقبل منه أو أن نسيره الى أي ثغر من الثغور شئنا ، أو أن يأتي يزيد فيضع يده في يده » •

والذي نراه نحن من مراجعة الحوادث والأسانيد أن الحسين ربما اقترح الذهاب الى يزيد ليرى رأيه ، ولكنه لم يعدهم أن يبايعه أو يضع يده في يده ••• لأنه لو قبل ذلك لبايع في مكانه واستطاع عمر بن سعد أن يذهب به الى وجهته ، ولأن أصحاب الحسين في خروجه الى العراق قد نفوا ما جاء في ذلك الكتـاب ومنهم عقبة بن سمعان حيث كان يقول : « صحبت الحسين من المدينة الى مكة ومن مكة الى العراق ، ولم أفارقه حتى قتـل وسمعت جميع مخاطباته الى يوم قتله •• فوالله ما أعطاهم ما يزعمون من أن يضع يده في يد يزيد ولا أن يسيروه الى ثغر من الثغور ، ولكنه قال : « دعوني أرجع الى المكان الذي أقبلت منه أو دعوني أذهب في هذه الأرض العريضة حتى ننظر الى ما يصير اليه أمر الناس » •

ولعل عمر بن سعد قد تجوز في نقل كلام الحسين عمدا ليأذنوا له في حمله الى يزيد فيلقي عن كاهله مقاتلته وما تجر اليه من سوء القالة ووخز الضمير ، أو لعل الأعوان الأمويين قد أشاعوا عن الحسين اعتزامه للمبايعة ليلزموا بالبيعة أصحابه من بعده ، ويسقطوا حجتهم في مناهضة الدولة الأموية ••

وأيا كانت الحقيقة في هذه الدعوى فهي تكبر مأثمة عبيد الله وشمر ولا تنقص منها • ولقد كانا على العهـد بمثليهما •• كلاهما كفيل أن يحول بين صاحبه وبين خالجة من الكرم تخامره أو تغالب اللؤم الذي فطر عليه ، فلا يصدر منهما الا ما يوائم لئيمين لا يتفقان على خير ••

وكانت جنح عبيد الله الى شيء من الهوادة حين جاءه كتاب عمر بن سعد ، فابتدره شمر ينهاه ويجنح الى الشدة والاعتساف، فقال له :

– أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك والى جنبك ! والله لئن رحل من بلادك ولم يضع يده في يدك ليكونن أولى بالقوة والعزة ولتكونن أولى بالضعف والعجز .. فلا تعطه هذه المنزلة ، ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه ، فان عاقبت كنت ولي العقوبة ، وان عفوت كان ذلك لك .

ثم أراد أن يوقع بعمر ويتهمه عند عبيد الله ليخلفه في القيادة ثم يخلفه في الولاية ، فذكر لعبيد الله أن الحسين وعمر يتحدثان عامة الليل بين المعسكرين ..

فعدل عبيد الله الى رأي شمر وأنفذه بأمر منه أن يضرب عنق عمر ان هو تردد في اكراه الحسين على المسير الى الكوفة أو مقاتلته حتى يقتل . وكتب الى عمر يقول له :

« أما بعد .. فاني لم أبعثك الى الحسين لتكف عنه ولا لتمنيه السلامة والبقاء ولا لتطاوله ولا لتعتذر عنه ولا لتقعد له عندي شافعا ... أنظر فان نزل الحسين وأصحابه واستسلموا فابعث بهم الي مسلما ، وان أبوا فازحف اليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فانهم لذلك مستحقون فان قتل الحسين فأوطيء الخيل صدره وظهره فانه عاق مشاق قاطع ظلوم .. فان أنت مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع ، وان أنت أبيت فاعتزل جندنا وخل بين شمر بن ذي الجوشن وبين العسكر والسلام » .

وختمت مأساة كربلاء كلها بعد أيام معدودات ..

ولكنها أيام بقيت لها جريرة لم يحمدها طالب منفعة ولا طالب مروءة ، ومضت مئات السنين وهي لا تمحو آثار تلك الأيام في تاريخ الشرق والاسلام ..

خطأ الشهداء

خروج الحسين من مكة الى العراق حركة لا يسهل الحكم عليها بمقياس الحوادث اليومية ، لأنها حركة من أندر حركات التاريخ في باب الدعوة الدينية أو الدعوة السياسية ‧‧ لا تتكرر كل يوم ولا يقوم بها كل رجل ولا يأتي الصواب فيها ـ ان أصابت ـ من نحو واحد ينحصر القول فيه، ولا يأتي الخطأ فيها ـ ان أخطأت ـ من سبب واحد يمتنع الاختلاف عليه ‧ وقد يكون العرف فيها بين أصوب الصواب وأخطأ الخطأ فرقا صغيرا من فعل المصادفة والتوفيق ، فهو خليق أن يذهب الى النقيضين ‧

هي حركة لا يأتي بها الا رجال خلقوا لأمثالها فلا تخطر لغيرهم على بال ، لأنها تعلو على حكم الواقع القريب الذي يتوخاه في مقاصده سالك الطريق اللاحب (١) والدرب المطروق‧

هي حركة فذة يقدم عليها رجال أفذاذ ، من اللغو أن ندينهم بما يعمله رجال من غير هذا المعدن وعلى غير هذه الوتيرة ‧‧ لأنهم يحسون ويفهمون ويطلبون غير الذي يحسه ويفهمه ويطلبه أولئك الرجال ‧‧

هي ليست ضربة مغامر من مغامري السياسة ، ولا صفقة مساوم من مساومي التجارة ، ولا وسيلة متوسل ينزل على حكم الدنيا أو تنزل الدنيا على حكمه ، ولكنها وسيلة من يدين نفسه ويدين الدنيا برأي من الآراء هو مؤمن به ومؤمن بوجوب ايمان الناس به دون غيره ‧‧ فان قبلته الدنيا قبلها وان لم تقبله فسيان عنده فواته بالموت أو فواته بالحياة ، بل لعل فواته بالموت أشهى اليه ‧‧

هي حركة لا تقاس اذن بمقياس المغامرات ولا الصفقات

---

(١) الواضح البين ‧

ولكنها تقاس بمقياسها الذي لا يتكرر ولا يستمد على الطلب من كل رجل أو في كل أوان ..

ولا ننسى أن السنين الستين التي انقضت بعد حركة الحسين، قد انقضت في ظل دولة تقوم على تخطئته في كل شيء وتصويب مقاتليه في كل شيء ..

ان القول بصواب الحسين معناه القول ببطلان تلك الدولة، والتماس العذر له معناه القاء الذنب عليها . وليس بخاف على أحد كيف ينسى الحياء وتبتذل القرائح أحيانا في تنزيه السلطان القائم وتأثيم السلطان الذاهب . فليس الحكم على صواب الحسين أو على خطئه اذن بالأمر الذي يرجع فيه الى أولئك الصنائع المتزلفين الذين يرهبون سيف الدولة القائمة ويغنمون من عطائها ، ولا لصنائع مثلهم يرهبون بعد ذلك سيفا غير ذلك السيف ويغنمون من عطاء غير ذلك العطاء ..

انما الحكم في صواب الحسين وخطئه لأمرين لا يختلفان باختلاف الزمان وأصحاب السلطان ، وهما البواعث النفسية التي تدور على طبيعة الانسان الباقية ، والنتائج المقررة التي مثلت للعيان باتفاق الأقوال .

وبكل من هذين المقياسين القويين نقيس حركة الحسين في خروجه على يزيد بن معاوية ، فنقول انه قد أصاب ..

أصاب اذا نظرنا الى بواعثه النفسية التي تهيمن عليه ولا يتخيل العقل أن تهيمن عليه بواعث غيرها ..

وأصاب اذا نظرنا الى نتائج الحركة كلها نظرة واسعة ، لا يستطيع أن يجادل فيها من يأخذ الأمور بسنة الواقع والمصلحة أو من يأخذ الأمور بسنة النجدة والمروءة ..

فما هي البواعث النفسية التي قامت بنفس الحسين يوم دعي في المدينة بعد موت معاوية لمبايعة ابنه يزيد ؟

هي بواعث تدعوه كلها أن يفعل ما فعل ولا تدعو مثله الى صنيع غير ذلك الصنيع . وخير لبني الإنسان ألف مرة أن يكون فيهم خلق كخلق الحسين الذي أغضب يزيد بن معاوية ، من أن يكون جميع بني الانسان على ذلك الخلق الذي يرضى به يزيد .

فأول ما ينبغي أن نذكره لفهم البواعث النفسية التي خامرت نفس الحسين في تلك المحنة الأليمة ، أن بيعة يزيد لم تكن بالبيعة المستقرة ولا بالبيعة التي يضمن لها الدوام في تقدير صحيح ..

فهي بيعة نشأت في مهد الدس والتمليق ، ولم يجسر معاوية عليها حتى شجعه عليها من له مصلحة ملحة في ذلك التشجيع ..

كان المغيرة بن شعبة واليا لمعاوية على الكوفة ، ثم هم بعزله واسناد ولايته الى سعيد بن العاص جريا على عادته في اضعاف الولاة قبل تمكنهم ، وضرب فريق منهم بفريق حتى يعينه بعضهم على بعض ولا يتفقوا عليه . فلما أحس المغيرة نية معاوية ، قدم الشام ودخل على يزيد وقال له كالمستفهم المتعجب :

ــ لا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة ؟

ولم يكن يزيد نفسه يصدق أنه أهل لها أو أن بيعته مما يتم بين المسلمين على هينة . فقال للمغيرة :

ــ أو ترى ذلك يتم ؟

فأراه المغيرة أنه ليس بالعسير ، اذا أراده أبوه ..

وأخبر يزيد أباه بما قال المغيرة ، فعلم هذا أن فرصته سانحة وأنه سيبادل معاوية رشوة آجلة برشوة عاجلة .. يرشوه باعانته على بيعة يزيد ، ويأخذ منه الرشوة ببقائه على ولاية الكوفة الى أن يقضى في أمر هذه البيعة ، وله في التمهيد لها نصيب ..

فلما لقي معاوية سأله هذا عما أخبره به يزيد ، فأعاده عليه وهو يزخرفه له بما يرضيه . قال :

ــ قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان ، وفي يزيد منك خلف فاعقد له ، فان حدث بك حادث كان كهفا للناس وخلفا منك ، ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة .

فسأله معاوية وهو يتهيب ويتأنى :

ــ ومن لي بذلك ؟..

قال :

ــ أكفيك أهل الكوفة ، ويكفيك زياد أهل البصرة ، وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك .

فرده معاوية الى عمله كما كان يتمنى ، وأوصاه ومن معه ألا يتعجلوا باظهار هذه النية ·· ثم استشار زياد بن أبي سفيان، فأطلع هذا بعض خاصته على الأمر وهو يقول :

ـ ان أمير المؤمنين ، يتخوف نفرة الناس ويرجو طاعتهم ·· ويزيد صاحب رسلة (١) وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد·· فالق أمير المؤمنين وأد اليه فعلات يزيد وقل له رويدك بالأمر ، فأحرى أن يتم لك ولا تعجل فان دركا في تأخير خير من فوت في عجلة ··

فأشار عليه صاحبه « ألا يفسد على معاوية رأيه ولا يبغضه في ابنه » · وعرض عليه أن يلقى يزيد فيخبره أن أمير المؤمنين كتب اليك يستشيرك في البيعة له وانك تتخوف خلاف الناس لهنات ينقمونها عليه ، وأنك ترى له ترك ما ينقم عليه لتستحكم له الحجة على الناس ·

وقالوا ان يزيد كف عن كثير مما كان يصنع بعد هذه النصيحة ، وأن معاوية أخذ برأي زياد في التؤدة فلم يجهر بعقد البيعة حتى مات زياد ··

وقد أحس معاوية الامتعاض من بيته قبل أن يحسه من الغرباء عنه · فكانت امرأته « فاختة » بنت قرظة بن حبيب بن عبد شمس تكره بيعة يزيد وتود لو آثر بالبيعة ابنها عبد الله ، فقالت له :

ـ ما أشار به عليك المغيرة ؟ ·· أراد أن يجعل لك عدوا من نفسك يتمنى هلاكك كل يوم ·

واشتدت نقمة مروان بن الحكم ـ وهو أقرب الأقرباء الى معاوية ـ حين بلغته دعوة العهد ليزيد فأبى أن يأخذ العهد له من أهل المدينة ، وكتب الى معاوية : « ان قومك قد أبوا اجابتك الى بيعتك » · فعزله معاوية من ولاية المدينة وولاها سعيد بن العاص · فأوشك مروان أن يثور ويعلن الخروج وذهب الى أخواله من بني كنانة فنصروه وقالوا له :

---

(١) الرفق واللين ·

ـ نحن نبلك في يديك وسيفك في قرابك • فمن رميته بنا أصبناه ومن ضربته قطعناه •• الرأي رأيك ، ونحن طوع يمينك ••

ثم أقبل مروان في وفد منهم كثير الى دمشق ، فذهب الى قصر معاوية وقد أذن للناس ، فمنعه الحاجب لكثرة من رأى معه فضربوه واقتحموا الباب • ودخل مروان وهم معه حتى سلم على معاوية وأغلظ له القول • فخاف معاوية هذا الجمع من وجوه قومه وترضى مروان ما استطاع ، وجعل له ألف دينار كل شهر ومائة لمن كان معه من أهل بيته •

ولم يكن مروان وحده بالغاضب بين بني أمية من بيعة يزيد، بل كان سعيد بن عثمان بن عفان يرى أنه أحق منه بالخلافة لأنه ابن عثمان الذي تذرع معاوية الى الخلافة باسمه فقال لمعاوية :

ـ يا أمير المؤمنين •• علام تبايع ليزيد وتتركني !•• فوالله لتعلم أن أبي خير من أبيه وأمي خير من أمه ، وانك انما نلت ما نلت بأبي ••

فسرى (١) معاوية عنه •• وقال له ضاحكا هاشا :

ـ يا ابن أخي !•• أما قولك ان أباك خير من أبيه ، فيوم من عثمان خير من معاوية •• وأما قولك ان أمك خير من أمه ، ففضل قرشية على كلبية فضل بين ، وأما أن أكون نلت ما أنا فيه بأبيك فانما الملك يؤتيه الله من يشاء •• قتل أبوك رحمه الله فتواكلته بنو العاص وقامت فيه بنو حرب ، فنحن أعظم بذلك منة عليك ، وأما أن تكون خيرا من يزيد فوالله ما أحب أن داري مملوءة رجالا مثلك بيزيد •• ولكن دعني من هذا القول وسلني أعطك ، وولاه خراسان ••

فكان أكبر بني أمية أعظمهم أملا في الخلافة بعد معاوية ، وكان بغضهم لبيعة يزيد على قدر أملهم فيها ، وهؤلاء ـ وان جمعتهم مصلحة الأسرة فترة من الزمن ـ لم تكن منافستهم هذه ليزيد بالعلامة التي تؤذن بالبقاء وتبشره بالضمان والقرار ••

---

(١) سرى عنه او عن قلبه كشف عنه الهم •

وعلى هذا النحو ولدت بيعة يزيد بين التوجس والمساومة والاكراه •• وبهذه الجفوة قوبلت بين أخلص الأعوان وأقرب القرباء ••

وظهر من اللحظات الأولى ، ان المغيرة بن شعبة كان سمسارا يصافق (١) على ما لا يملك •• فقد ضمن الكوفة والبصرة ومنع الخلاف في غيرهما ، فاذا الكوفة أول من كره بيعة يزيد ، واذا البصرة تتلكأ في الجواب وواليها يرجيء الأمر ويوصي بالتمهل فيه فلا يقدم عليه معاوية في حياته ، واذا أطراف الدولة من ناحية همذان تثور ، واذا بالحجاز يستعصي على بني أمية سنوات ، واذا باليمن ليس فيها نصير للأمويين ، ولو وجدت خارجا يعلن الثورة عليهم لكانت ثورتها كثورة الحجاز ••

بل يجوز أن يقال ــ مما ظهر في حركة الحسين كل الظهور ــ أن الشام نفسها لم تنطو على رجل يؤمن بحق يزيد وبطلان دعوى الحسين • فقد كانوا يتحرجون من حرب الحسين ويتسلل من استطاع منهم التسلل قبل لقائه ، الا أن يهدد بقطع الأرزاق وقطع الرقاب •

والحوادث التي تلت حركة الحسين الى ختام عهد يزيد أدل مما تقدم على اضطراب عهده وقلة ضمانه ، لأن الأحداث والنذر لم تزل تتوالى بقية حياته وبعد موته بسنين •

ونحن اليوم نعلم من التاريخ كيف انتهت هذه الحوادث والنذر في عهد يزيد أو بعد عهده ، فيخيل الينا أن عواقبها لم تكن تحتمل الشك ولم يكن بها من خفاء • ولكن الذين استقبلوها كانوا خلقاء الا يروا فيها طوالع ملك تعنو (٢) له الرؤوس ويرجى له طول البقاء •

بواعث الخروج

نعم كانت هناك ندحة عن الخروج لو كان يزيد في الخلافة رضي المسلمين من العقل والخلق وسلامة التدبير وعزة الموئل

---

(١) يبايع ويساوم • (٢) تخضع •

والدولة ، وكان المسلمون قد توافوا على اختياره لحبهم اياه ، وتعظيمهم لعقله وخلقه واطمئنانهم الى سياسته واعتمادهم على صلاحه واصلاحه ..

ولكنه على نقيض ذلك ، كان كما علمنا رجلا هازلا في أحوج الدول الى الجد ، لا يرجى له صلاح ولا يرجى منه اصلاح. وكان اختياره لولاية العهد مساومة مكشوفة قبض كل مساهم فيها ثمن رضاه ومعونته جهرة وعلانية من المال أو الولاية او المصانعة ، ولو قبضوا مثل هذا الثمن ليبايعوا وليا للعهد شرا من يزيد لما همهم أن يبايعوه وان تعطلت حدود الدين وتقوضت معالم الأخلاق ..

وأعجب شيء أن يطلب الى حسين بن علي أن يبايع مثل هذا الرجل ويزكيه أمام المسلمين ، ويشهد له عندهم أنه نعم الخليفة المأمول صاحب الحق في الخلافة وصاحب القدرة عليها .. ولا مناص للحسين من خصلتين : هذه ، أو الخروج !.. لأنهم لن يتركوه بمعزل عن الأمر لا له ولا عليه ..

ان بعض المؤرخين من المستشرقين وضعاف الفهم من الشرقيين ينسون هذه الحقيقة ولا يولونها نصيبها من الرجحان في كفة الميزان.

وكان خليقا بهؤلاء أن يذكروا أن مسألة العقيدة الدينية في نفس الحسين لم تكن مسألة مزاج أو مساومة ، وأنه كان رجلا يؤمن أقوى الايمان بأحكام الاسلام ويعتقد أشد الاعتقاد أن تعطيل حدود الدين هو أكبر بلاء يحيق به وبأهله وبالأمة العربية قاطبة في حاضرها ومصيرها . لأنه مسلم ولأنه سبط محمد ... فمن كان اسلامه هداية نفس فالاسلام عند الحسين هداية نفس وشرف بيت ..

وقد لبث بنو أمية بعد مصرعه ستين سنة يسبونه ويسبون أباه على المنابر ، ولم يجسر أحد منهم قط على المساس بورعه وتقواه ورعايته لأحكام الدين في أصغر صغيرة يباشرها المرء سرا أو علانية ، وحاولوا أن يعيبوه بشيء غير خروجه على دولتهم فقصرت ألسنتهم وألسنة الصنائع والأجراء دون ذلك . فكيف يواجه مثل هذا الرجل خطرا على الدين في رأس الدولة

وعرش الخلافة مواجهة الهوادة والمشايعة والتأمين ؟ وكيف يسام أن يرشح للامامة من لا شفاعة له ولا كفاية فيه الا أنه ابن أبيه ؟٠٠

لقد كان أبوه معاوية على كفاءة ووقار وحنكة ودراية بشؤون الملك والرئاسة ، وكان له مع هذا نصحاء ومشيرون أولو براعة وأحلام تكبح من السلطان ما جمح وتقيم ما انحرف وتملي له فيما عجز عنه ٠ وهذا ابنه القائم في مقامه لا كفاءة ولا وقار ولا نصحاء ولا مشيرون ، الا من كان عونا على شر أو موافقا على ضلالة ٠ فما عسى أن تكون الشهادة له بالصلاح للامامة الا تغريرا بالناس وقناعة بالسلامة أو الأجر المبذول على هذا التغرير ؟٠٠

ثم هي خطوة لا رجعة بعدها اذا أقدم عليها الحسين بما أثر عنه من الوفاء وصدق السريرة ٠ فاذا بايع يزيد فقد وفى له بقية حياته كما وفى لمعاوية بما عاهده عليه ، ولا سيما حين يبايع يزيد على علم بكل نقيصة فيه قد يتملل بها المتملل لنقض البيعة وانتحال أسباب الخروج ٠

فملك يزيد لم يقم على شيء واحد يرضاه الحسين لدينه أو لشرفه أو للأمة الاسلامية ٠ ومن طلب منه أن ينصر هذا الملك فانما يطلب منه أن ينصر ملكا ينكر كل دعواه ولا يحمد له حالة من الأحوال ، ولا تنس بعد هذا كله أن هذا الملك كان يقرر دعائمه في أذهان الناس بالغض من الحسين في سمعة أبيه وكرامة شيعته ومريديه ٠ فكانوا يسبون عليا على المنابر وينعتونه بالكذب والمروق والعصيان ، وكانوا يتحرون أنصاره حيث كانوا فيقهرونهم على سبه والنيل منه بمشهد من الناس ، والا أصابهم العنت والعذاب وشهروا في الأسواق بالصلب والهوان ٠ فمجاراة هذه الأمور كلها في مفتتح ملك جديد معناه أنها سنة قد وجبت واستقرت الجيل بعد الجيل بغير أمل في التغيير والتبديل ٠ فمن أقر هذه السنة في مفتتح هذا الملك الجديد فقد ضعف أمله وضعف أمل أنصاره فيه يوما بعد يوم ، وازداد مع الزمن ضعفا كما ازدادت حجة خصومة قوة عليه ٠

هذه هي البواعث النفسية التي كانت تجيش في صدر الحسين يوم دعاه أولياء بني أمية الى مبايعة يزيد والنزول عن كل حق له ولأبنائه ولأسرته في امامة المسلمين ، كائنا من كان القائم بالامر وبالغا ما بلغ من قلة الصلاح وبطلان الحجة . وهي بواعث لا تثنيه عن الخروج ولا تزال تلح عليه في اتخاذ طريق واحد من طريقين لا معدل عنهما ، وهما الخروج ان كان لا بد خارجا في وقت من الأوقات ، أو التسليم بما ليست ترضاه له مروءة ولا يرضاه له ايمان ..

مصرع وانتصار

أما نتائج الحركة كلها ــ اذا نظرنا اليها نظرة واسعة ــ فهي أنجح للقضية التي ثار ينصرها من مبايعة يزيد .

فقد صرع الحسين عام خروجه ، ولحق به يزيد بعد ذلك باقل من أربع سنوات ...

ولم تنقض ست سنوات على مصرع الحسين حتى حاق الجزاء بكل رجل اصابه في كربلاء ، فلم يكد يسلم منهم أحد من القتل والتنكيل مع سوء السمعة ووسواس الضمير .

ولم تعمر دولة بني أمية بعدها عمر رجل واحد مديد الأجل، لم يتم لها بعد مصرع الحسين نيف وستون سنة .. وكان مصرع الحسين هو الداء القاتل الذي سكن في جثمانها حتى قضى عليها ، وأصبحت ثارات الحسين نداء كل دولة تفتح لها طريقا الى الأسماع والقلوب ..

ولاصابة هذه الحركة في نتائجها الواسعة دخل في روع بعض المؤرخين أنها تدبير من الحسين رضي الله عنه ، توخاه منذ اللحظة الأولى وعلم موعد النصر فيه . فلم يخامره الشك في مقتله ذلك العام ، ولا في عاقبة هذه القتلة التي ستحيق لا محالة بقاتليه بعد أعوام .

فقال ماربين الألماني في كتابه (السياسة الاسلامية) : « ان حركة الحسين في خروجه على يزيد انما كانت عزمة قلب كبير عز عليه الاذعان وعز عليه النصر العاجل ، فخرج بأهله وذويه

ذلك الخروج الذي يبلغ به النصر الآجل بعد موته ، ويحيي به قضية مخذولة ليس لها بغير ذلك حياة » ٠

فان لم يكن رأي الكاتب حقا كله ، فبعضه على الأقل حق لا شك فيه ويصدق ذلك ــ في رأينا ــ على حركة الحسين بعد أن حيل بينه وبين الذهاب لوجهه الذي يرتضيه ، فآثر الموت كيفما كان ولم يجهل ما يحيق ببني أمية من جراء قتله ٠٠ فهو بالغ منهم بانتصارهم عليه ما لم يكن ليبلغه بالنجاة من وقعة كربلاء ٠

وقد جرى ذكر الموت على لسان الحسين من خطوته الأولى وهو يتهيأ للرحيل ويودع أصحابه في الحجاز ، فقال لهم : « ان الموت حق على ولد آدم » ولم يخف عليه أنه يركب الخطة التي لا يبالي راكبها ما يصيبه من ذلك القضاء ٠

لكنه لم يكن ييأس من اقناع الناس والتفاهم به منذ خطوته الأولى ٠ ولم يعقد عزمه على ملاقاة الموت حتى ساموه الرغم ، وأبوا عليه أن ينصرف الى أي منصرف قبل التسليم المبين ، مسوقا على الكره منه الى عبيد الله بن زياد ٠٠

وتتباين آراء المتأخرين خاصة في خروج الحسين بنسائه وأبنائه ، أكان هو الاحزم والاكرم أم كان الاحزم والاكرم أن يخرج بمفرده حتى يرى ما يكون من استجابة الناس له أو اعراضهم عنه وضعفهم في تأييده ٠

وليس للمتأخرين أن يقضوا في مسالة كهذه بعقولهم وعاداتهم ، لأنها مسألة يقضي فيها بحكم العقل العربي وعاداته في أشباه هذه المواقف ٠ وقد كان اصطحاب النساء والأبناء عادة عربية في البعوث التي يتصدى لها المرء متعمدا القتال دون غيره فضلا عن البعوث التي قد تشتبك في القتال وقد تنتهي بسلام كبعثة الحسين ٠

فكان المقاتلون في وقعة ذي قار يصطحبون حلائلهم وذراريهم ويقطعون وضن الرواحل ــ أي أحزمتها ــ قبل خوض المعركة ، وكان المسلمون والمشركون معا يصطحبون الحلائل والذراري في غزوات النبي عليه السلام ، وكان مع المسلمين في حرب الروم

صفوة نساء قريش وعقائل بيوتاتها ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يصطحب زوجة أو أكثر من زوجة في غزواته وحروبه ، وحكم الواحدة هنا حكم الكثيرات ، وهي عادة عربية عريقة يقصدون بها الاشهاد على غاية العزم وصدق النية فيما هم مقبلون عليه ، وفي معلقة ابن كلثوم اشارة مجملة الى معنى هذه العادة العربية من قديم عصورها حيث يقول :

على آثارنا بيض حسان
نحاذر أن تقسم أو تهونا
يقتن جيادنا ويقلن لستم
بعولتنا اذا لم تمنعونا

وقد كان الحسين رضي الله عنه يندب الناس لجهاد يخوضونه ان قضي عليهم أن يخوضوه فلا يبالون ما يصيبهم في أنفسهم وفي أبنائهم واموالهم ، لانهم يطلبون به ما هو أعز على المؤمن من النفس والولد والمال ، فليس من المروءة أن يندبهم لأمر ولا يكون قدوة لهم فيه ٠

وكان على الحسين وقد أزمع الخروج أن يجمع له أقوى حجة في يديه ويجمع على خصومه أقوى حجة تنقلب عليهم ، اذا غلبوه وأخفق في مسعاته ٠٠ فيكون أقوى ما يكون وهو منتصر ، ويكونون أبغض ما يكونون وهو مخذول ٠٠

والمسلم الذي ينصر الحسين لنسبه الشريف أولى أن ينصره غاية نصره وهو بين أهله وعشيرته ، والا فما هو بناصره على الاطلاق ، وتنقلب الآية في حالة الخذلان ، فينال المنتصر من البغضاء والنقمة على قدر انتصاره الذي يوشك أن ينقلب عليه ٠

صواب الشهداء

وجملة ما يقال ان خروج الحسين من الحجاز الى العراق ، كان حركة قوية لها بواعثها النفسية التي تنهض بمثله ولا يسهل عليه أن يكبتها أو يحيد بها عن مجراها ٠٠

وانها قد وصلت الى نتائجها الفعالة من حيث هي قضية عامة تتجاوز الأفراد الى الأعقاب والاجيال ، سواء أكانت هذه القضية نصرة لآل الحسين أم حربا لبني أمية ••

انما يبدو الخطأ في هذه الحركة حين ننظر اليها من زاوية واحدة ضيقة المجال قريبة المرمى ، وهي زاوية العمل الفردي الذي يراض بأساليب المعيشة اليومية ويدور على النفع العاجل للقائمين به والداعين اليه ••

فحركة الحسين لم تكن مسددة الأسباب لمنفعة الحسين بكل ثمن وحيثما كانت الوسيلة ••

وعلة ذلك ظاهرة قريبة ••

وهي أن الحسين رضي الله عنه طلب الخلافة بشروطها التي يرضاها ولم يطلبها غنيمة يحرص عليها مهما تكلفه من ثمن ومهما تتطلب من وسيلة ••

وهنا غلطة الشهداء ••

بل قل : هنا صواب الشهداء ••

ومن هو الشهيد ان لم يكن هو الرجل الذي يصاب ويعلم أنه يصاب لان الواقع يخذله ولا يجري معه الى مرماه ؟

منذ القدم ، أخطأ الشهداء هذا الخطأ ، ولو أصابوا فيه لما كانوا شهداء ولا شرفت الدنيا بفضيلة الشهادة ••

فالحسين رضي الله عنه قد طلب خلافة الراشدين حيث لا تتسنى خلافة الراشدين ، أو حيث تتسنى الدولة الدنيوية التي يضن بها أصحابها ويتكالبون عليها ويتوسلون اليها بوسائلها ••

فكانت عنايته بالدعوة والاقناع أعظم جدا من عنايته بالتنظيم والالزام ••

نزل رسوله الأول مسلم بن عقيل بالكوفة صفر اليدين من المال حتى احتاج فيها أن يقترض سبعمائة درهم هي التي أوصى بردها الى أصحابها قبل قتله ••

وتلك عقبة من العقبات التي تعوق الدعوات الكبار ، ولكنها على هذا لم تكن بالعقبة العصية التذليل ••

فلو أنه قد طلب المال من وسائله الدنيوية أو السياسية ، لما استعصى عليه أن يأخذ منه ما يكفيه · فلعله كان ميسورا له بعد أن تجمع حوله الأنصار وبايع الحسين على يديه ثلاثون ألفا كما جاء في بعض الروايات · ففي تلك اللحظة لعله كان يستطيع أن يحيط بقصر الوالي الأموي ويستولي عليه وينشيء الحكومة الحسينية فيه · ثم لعله كان يستطيع بعد ذلك أن يوجه الدعاة الى أطراف الدولة الشرقية ليتلقى البيعة ويقيم الولاة ويحشد الأجناد ··

فاذا كان هذا فاته حتي خف الأمويون لدرء الخطر عنهم وبعثوا الى الكوفة بعبيد الله بن زياد ، فقد سيق عبيد الله هذا في يوم من الأيام الى يديه وكان في وسعه أن يبطش به ويستوي على كرسيه ويحرم يزيد بن معاوية نصيرا من أعنف أنصاره ··

وقد فاته هذا لأن شريعة الخلافة لا تبيحه في رأيه ، أو لأنه اعتقد أن الحق بين وأن الباطل بين ··· فلا حاجة به بعد التمييز بينهما الى فتكة الغدر كما سماها ، ولا محل عنده لاهدار الدماء وهو ينعى على الدولة القائمة أنها تهدر الدماء بالشبهات ··

ولقد رأى مسلم أن حق صاحبه في الخلافة قائم على شيء واحد وهو اقبال الناس اليه طائعين ومبايعتهم اياه مختارين · فأما وقد تفرقوا عنه رهبة من السلطان أو ضعفا في اليقين ، فالرأي عنده أن يكتب الى صاحبه يعلمه بانفضاض الناس عنه ويثنيه عن القدوم ، ولا حق له عليهم بعد ذلك حتى يثوبوا اليه ··

وقيام الخلافة على هذا الاختيار عقيدة لا نفهمها نحن الآن ، ولكن قد يفهمها يومئذ من كان على مقربة من عهد النبوة وعهد الصديق والفاروق ··

فقد كان الصراع بين الحسين ويزيد أول تجربة من قبيلها بعد عهد النبوة وعهد الخلفاء الأولين ··

ولم يكن لها ما تذكر به في أقرب جيرة لها فضلا عن أرجاء لا شبهة فيه بين الحق والباطل وبين الفضيلة والنقيصة ··

لكنه في بيعة الحسين كان قد وضح وضوح الصبح لذي عينين ..

وكان ذلك كما قلنا أول تجربة من قبيلها بعد عهد الفداء في سبيل العقيدة والايمان .. بعد العهد الذي كان الرجل فيه يخرج من ماله وينفصل من ذويه ويتجرد لحرب أبيه وأخيه وبنيه ان خالفوه في أمر الاسلام .. بعد العهد الذي كان القليل فيه من المسلمين يصدون الكثير من المشركين وفي أيديهم السلاح والعتاد ومن ورائهم المعاقل والأزواد ... بعد العهد الذي تغير فيه الناس ، وخيل الى من كان يعهدهم على غير تلك الحال أنهم متغيرون ..

الناس عبيد الدنيا

فكيف ينخذل الحسين وينتصر يزيد في عالم شهد النبوة وشهد الخلافة على سنة الراشدين ؟ ان كلمة واحدة قالها الحسين في ساعة يأسه تشف عن مبلغ يقينه بوجوب الحق وعجبه من أن يكون الأمر غير ما وجب ، وذلك حيث قال : « الناس عبيد الدنيا، والدين لعق (١) على ألسنتهم يحوطونه ما درت به معائشهم ، فاذا محصوا (٢) بالبلاء قل الديانون » .

ان الطبائع الأرضية لا تنخدع في صلاح الناس ولا تعجب هذا العجب لأنها لا تخرج من نطاقها المحدود ولا تصدق ما وراءه من الآمال والوعود .

انها لا تضل عن طريق المنفعة لأنها لا تعرف غيرها من طريق، انها تؤثر القنديل الخافت في يدها على الكوكب اللامع في السماء ، لا لأنها لا ترى الكوكب اللامع في السماء ، بل لأنها ترى القنديل والكوكب فتعلم أن هذا قريب وأن ذاك جد بعيد ..

انها لا تنخدع بالسراب لأنها لا تخرج من عقر دارها ولا تشعر بظمأ الفؤاد ولا تنظر الى السراب ..

---

(١) لعق الصبي العسل لحسه أي أكله باصبعه . (٢) محص الله الذنب اذهبه . ومحص الذهب بالنار خلصه مما يشوبه من التراب .

ولكن طبيعة الشهداء غير طبيعة المساومة على البيع والشراء ..

طبيعة المساومة موكلة بالحرص على الهنات ..

وطبيعة الشهادة موكلة ببذل الحياة لما هو أدوم من الحياة ..

وشتان طبيعة وطبيعة ، وشتان خطأ الشهداء وخطأ المساومين .

وليست موازين المساومة بالموازين الفذة التي يصلح عليها أمر بني الانسان ، فان بني الانسان ما بهم غنى قط عن الذين يخطئون لأنهم أرفع من المصيبين ، وانهم لهم الشهداء .

وانهم لعلى صواب في المدى البعيد ، وان كانوا على خطأ في المدى القريب .. مدى الأجواف والمعدات والجلود لا مدى الأرواح والاخلاد ..

من هؤلاء كان الحسين رضي الله عنه ، بل هو أبو الشهداء وينبوع شهادة متعاقبة لا يقرن بها ينبوع في تاريخ البشر أجمعين .

فلا جرم يصيب في المدى البعيد ويخطيء في المدى القريب .. مدى المنفعة التي تناله هو في معيشة يومه ، وهو المدى الذي لا يأسف عليه ولا ينص (١) الركاب اليه ..

---

(١) نص الراكب ناقته : رفعها في السير وحركها حتى استقصى ما

الحرم المقدس

عرفت قديما باسم « كور بابل » ثم صحفت الى كربلاء ، فجعلها هذا التصحيف عرضة لتصحيف آخر يجمع بين الكرب والبلاء ، كما رسمها بعض الشعراء ..

ولم يكن لها ما تذكر به في اقرب جيرة لها فضلا عن ارجاء الدنيا البعيدة منها .. فليس لها من موقعها ، ولا تربتها ، ولا من حوادثها ، ما يغري أحدا برؤيتها ثم يثبت في ذاكرة من يراها ساعة يرحل عنها .

فلعل الزمن كان خليقا أن يعبر بها سنة بعد سنة وعصرا بعد عصر ، دون أن يسمع لها اسم أو يحس لها بوجود .. الا آن تذكر « نينوى » وجيرتها فتدخل في زمرة تلك الجيرة بغير حساب .

وشاءت مصادفة من المصادفات أن يساق اليها ركب الحسين بعد أن حيل بينه وبين كل وجهة أخرى ، فاقترن تاريخها منذ ذلك اليوم بتاريخ الاسلام كله . ومن حقه أن يقترن بتاريخ بني الانسان حيثما عرفت لهذا الانسان فضيلة يستحق بها التنويه والتخليد .

فهي اليوم حرم يزوره المسلمون للعبرة والذكرى ، ويزوره غير المسلمين للنظر والمشاهدة ، ولكنها لو أعطيت حقها من التنويه والتخليد ، لحق لها أن تصبح مزارا لكل آدمي يعرف لبني نوعه نصيبا من القداسة وحظا من الفضيلة ، لأننا لا نذكر بقعة من بقاع هذه الأرض يقترن اسمها بجملة من الفضائل والمناقب أسمى وألزم لنوع الانسان من تلك التي اقترنت باسم كربلاء ، بعد مصرع الحسين فيها .

فكل صفة من تلك الصفات العلوية التي بها الانسان انسان وبغيرها لا يحسب غير ضرب من الحيوان السائم .. فهي مقرونة في الذاكرة بأيام الحسين رضي الله عنه في تلك البقعة الجرداء .

وليس في نوع الانسان صفات معنويات أنبل ولا ألزم له من الايمان والفداء والايثار ويقظة الضمير وتعظيم الحق ورعاية الواجب والجلد في المحنة والأنفة من الضيم والشجاعة في وجه الموت المحتوم ·· وهي ــ ومثيلات لها من طرازها ــ هي التي تجلت في حوادث كربلاء منذ نزل بها ركب الحسين ، ولم تجتمع كلها ولا تجلت قط في موطن من المواطن تجليها في تلك الحوادث ، وقد شاء القدر أن تكون في جانب منها أشرف ما يشرف به أبناء آدم ، لأنها في الجانب الآخر منها أخزى ما يخزى به مخلوق من المخلوقات ··

وحسبك من تقويم الأخلاق في تلك النفوس ، أنه ما من أحد قتل في كربلاء الا كان في وسعه أن يتجنب القتل بكلمة أو بخطوة، ولكنهم جميعا آثروا الموت عطاشا جيعا مناضلين على أن يقولوا تلك الكلمة أو يخطوا تلك الخطوة ، لأنهم آثروا جمال الأخلاق على متاع الحياة ··

أو حسبك من تقويم الأخلاق في نفس قائدها وقدوتها أنهم رأوه بينهم فافتدوه بأنفسهم ، ولن يبتعث المرء روح الاستشهاد فيمن يلازمه الا أن يكون هو أهلا للاستشهاد في سبيله وسبيل دعوته ، وأن يكون في سليقة الشهيد الذي يأتم به الشهداء ·

نموت معك

أقبل الفتى الصغير علي بن الحسين على أبيه ·· وقد علم أنهم مخيرون بين الموت والتسليم فسأله :

ــ ألسنا على الحق ؟··

قال الوالد المنجب النجيب :

ــ بلى والذي يرجع اليه العباد ··

فقال الفتى :

ــ يا أبه !·· فاذن لا نبالي !··

وهكذا كانوا جميعا لا يبالون ما يلقون ، ما علموا أنهم قائمون بالحق وعليه يموتون ··

وأراد الحسين ــ وقد علم أن التسليم لا يكون ــ أن يبقى للموت وحده وألا يعرض له أحدا من صحبه · فجمعهم مرة بعد مرة وهو يقول لهم في كل مرة : « لقد بررتم وعاونتم والقوم

لا يريدون غيري • ولو قتلوني لم يبتغوا غيري أحدا •• فاذا جنكم (١) الليل فتفرقوا في سواده وانجوا بأنفسكم » ••

فكأنما كان قد أراد لهم الهلاك ولم يرد النجاة ، وفزعوا من رجائهم اياه كما يفزع غيرهم من مطالبتهم بالثبات والبقاء • وقالوا له كأنهم يتكلمون بلسان واحد : « معاذ الله والشهر الحرام •• ماذا نقول للناس اذا رجعنا اليهم ؟ أنقول لهم انا تركنا سيدنا وابن سيدنا وعمادنا ، تركناه غرضا للنبل ودريئة (٢) للرماح وجزرا للسباع ، وفررنا عنه رغبة في الحياة ؟ معاذ الله •• بل نحيا بحياتك ونموت معك •• » •

قالوا له نموت معك ولك رأيك : ولم يخطر لأحد منهم أن يزين له العدول عن رأيه ايثارا لنجاتهم ونجاته • ولو خادعوا أنفسهم قليلا لزينوا له التسليم وسموه نصيحة مخلصين يريدون له الحياة ، ولكنهم لم يخادعوا أنفسهم ولم يخادعوه ، ورأوا أصدق النصيحة له أن يجنبوه التسليم ولا يجنبوه الموت ، وهم جميعا على ذلك •

ولم يكونوا جميعا من ذوي عمومته وقرباه ، بل كان منهم غرباء نصحوا له ولأنفسهم هذه النصيحة التي ترهب العار ولا ترهب الموت • فقال له زهير بن القين : « والله لوددت أني قتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى أقتل هكذا ألف مرة ، ويدفع الله بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك » •

وقال مسلم بن عوسجة كأنه يعتب لما اختار له من السلامة : « أنحن نخلي عنك ؟ وبم نعتذر الى الله في أداء حقك ؟ لا والله حتى أطعن في صدورهم برمحي وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي ، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم لقذفتهم بالحجارة • والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسوله فيك • وأما والله لو علمت أنني أقتل ثم أحيى ثم أحرق ثم أحيى ثم احرق ثم أذرى ويفعل بي ذلك سبعين مرة ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك •• » •

---

(١) جنه الليل : ستره واخفاه • (٢) كل ما استتر به الصياد ليختل الصيد اي يخدعه •

وجيء الى رجل من أصحابه الغرباء بنبأ عن ابنه في فتنة الديلم ، فعلم أن الديلم أسروه ولا يفكون اساره بغير فداء ، فأذن له الحسين أن ينصرف وهو في حل من بيعته ويعطيه فداء ابنه • فأبى الرجل اباء شديدا ، وقال : « عند الله أحتسبه ونفسي » ثم قال للحسين : « هيهات أن أفارقك ثم أسأل الركبان عن خبرك • لا يكن والله هذا أبدا » ••

وقد تناهت هذه المناقب الى مداها الأعلى في نفس قائدهم الكريم •• يخيل الى الناظر في أعماله بكربلاء أن خلائقه الشريفة كانت في سباق بينها أيها يظفر بفخار اليوم ، فلا يدرى أكان في شجاعته أشجع ، أم في صبره أصبر ، أم في كرمه أكرم ، أم في ايمانه وأنفته وغيرته على الحق بالغا من تلك المناقب المثلى أقصى مداه •• الا انه كان يوم الشجاعة لا مراء ، وكانت الشجاعة فضيلة الفضائل التي تمدها سائرها بروافد من كل خلق نبيل يعينها على شأنها • فكان الحسين ـ شبل علي ـ في شجاعته الروحية والبدنية معا غاية الغايات ، وكان مضرب المثل بين الرعيل الأول من أشجع الشجعان في أبناء آدم وحواء •

ملك جاشه •• وكل شيء من حوله يوهن الجاش ، ويحل عقدة العزم ، ويغري بالدعة والمجاراة ••

ملك جاشه ومن حوله نساؤه وأبناؤه في نضارة العمر ، يجوعون ويظمأون ، ويتشبثون به ويبكون ، وملك جأشه روية وأناة ولم يملكه وثبة واثب الى الغضب أو هيجة مهتاج الى الوغى ، فكان قبل القتال وفي حومة القتال قويا بصيرا ينفض الضعف عن عزائمه ، كما ينفض الأسد غبرات الحصباء عن لبده ، ولم يخامره الأسف قط في ذلك الموقف المرهوب الا من أجل أحبائه وأعزائه الذين يراهم ويرونه ويسمع صيحتهم ويسمعونه • فقال وهو ينظر الى الأخبية ومن فيها : « لله در ابن عباس فيما أشار به علي ! » •

وجلس ليلة القتال في خيمته يعالج سهاما له بين يديه ويرتجز وأمامه ابنه العليل :

يا دهر أف لـك مـن خليـل
كم لك بالاشـراق والأصيـل
مـن صاحـب ومـاجد قتيـل
والدهر لا يقنـع بالبديـل
والأمـر في ذاك الى الجليـل
وكـل حـي سالـك سبيلـي .

فرد ابنه عبرته لكيلا يزيده ألما على ألمه . وسمعته أختـه زينب ، فلم تقو على حنانها ووجلها ، وخرجت اليه من خبائها حاسرة تنادي : « واثكلاه ! اليوم مات جدي رسول الله وأمي فاطمة الزهراء وأبي علي وأخي الحسين فليت الموت أعدمنـي الحياة يا حسيناه ! يا بقية الماضين وثمالة الباقين ! » .

فبكى لبكائها ولم ينثن ذرة عن عزمه الذي بات عليه ، وقال لهـا :

– يا أخت ! لو ترك القطا لنام .. ولم يزل يناشدهـا .. ويعزيها وهو في قرارة نفسه مستقر كالطود على مواجهة الموت واباء التسليم أو النزول على « حكم ابن مرجانة » كما قال .. ثم احتملها مغشيا عليها حتى أدخلها الخباء ..

تزول الممالك وتدول الدول وتنجح المطامع أو تخيب وتحضر المطالب أو تغيب . وهذه الخلائق العلوية في صدر الانسان أحق بالبقاء من الممالك وما حوته ، ومـن الدول ومـا حفظته أو ضيعته ، بل أحق بالبقاء من رواسي الأرض وكواكب السماء ..

حرب النور والظلام

وكانت فئة الحسين صغيرة كما علمنا قد رصدت لها هنالك تلك الفئة الكبيرة التي تناقضها أتم مـا يكـون التناقض بين طرفين ، وتباعدها أبعد ما تكون المسافة بين قطبين ، فكل ما فيها أرضي مظلم مسف بالغ في الاسفاف ، وليس فيها من النفحـة العلوية نصيب ..

اللمصادفات نظام وتدبير ..؟!

نحن لا نعلم الا أنها مصادفات يخفى علينا ما بينهما من الوشائج والصلات .. ولكنها ـ لذلك ـ هي الأعاجيب التي تستوقف النظر لعجبها العاجب ، وان لم تستوقفه لما يفهمه فيها من نظام وتدبير .

فجيرة كربلاء كانت قديما من معاهد الايمان بحرب النور والظلام ، وكان حولها أناس يؤمنون بالنضال الدائم بين أورمزد وأهرمان . ولكنه كان في حقيقته ضربا من المجاز وفنا من الخيال .

وتشاء مصادفات التاريخ الا أن ترى هذه البقاع التي آمنت باورمزد وأهرمان حربا هي أولى أن تسمى حرب النور والظلام من حرب الحسين ومقاتليه ..

وهي عندنا أولى بهذه التسمية من حروب الاسلام والمجوسية في تلك البقاع وما وراءها من الأرض الفارسية لأن المجوسي كان يدافع شيئا ينكره .. ففي دفاعه معنى من الايمان بالواجب كما تخيله ورآه ، ولكن الجيش الذي أرسله عبيد الله بن زياد لحرب الحسين كان جيشا يحارب قلبه لأجل بطنه أو يحارب ربه لأجل واليه . اذ لم يكن فيهم رجل واحد يؤمن ببطلان دعوى الحسين أو رجحان حق يزيد ، ولم يكن فيهم كافر ينفح (١) عن عقيدة غير عقيدة الاسلام ، الا من طوى قلبه على كفر كمين هو مخفيه ، ولا نخالهم كثيرين ..

ولو كانوا يحاربون عقيدة بعقيدة ، لما لصقت بهم وصمة النفاق ومسبة الأخلاق .. فعداوتهم ما علموا أنه الحق وشعروا أنه الواجب أقبح بهم من عداوة المرء ما هو جاهله بعقله ومعرض عنه بشعوره ، لأنهم يحاربون الحق وهم يعلمون ..

ومن ثم كانوا في موقفهم ذاك ظلاما مطبقا . ليس فيه من شعور الواجب بصيص واحد من عالم النور والفداء .. فكانوا حقا في يوم كربلاء قوة من عالم الظلام تكافح قوة من عالم النور .

---

(١) يدافع .

أقربهم الى العذر يومئذ من اعتذر بالفرق والرهبة لأنهم أكرهوه بالسيف على غير ما يريد •• فكان الجبن أشرف ما فيهم من خصال السوء

وكان منهم أناس كتبوا الى الحسين يستدعونه الى الكوفة ليبايعوه على حرب يزيد ، فلما ندبهم عمر بن سعد للقائه وسؤاله أحجموا عما ندبهم له واستعفوه ، لأن جوابهم ان سألوه في شأن مجيئه اليهم : انني جئتكم ملبيا ما دعوتهم اليه ! ••

وركب أناسا منهم الفزع الدائم بقية حياتهم لأنهم عرفوا الاثم فيما اقترفوه عرفانا لا تسعهم المغالطة فيه ، ومن هؤلاء رجل من بني أبان بن دارم كان يقول :

– قتلت شابا أمرد مع الحسين بين عينيه أثر السجود •• فما نمت ليلة منذ قتلته الا أتاني فيأخذ بتلابيبي حتى يأتي جهنم فيدفعني فيها ، فاصيح فما يبقى أحد في الحي الا سمع صياحي •

ورأى هذا الرجل صاحب له بعد حين وقد تغير وجهه واسود لونه ، فقال له : « ما كدت أعرفك » ، وكان يعرفه جميلا شديد البياض ••

ومنهم من كان يتزاور (١) عن الحسين في المعمعة ، ويخشى أن يصيبه أو يصاب على يديه ، ولو أنهم حاربوه لأنهم علموا أنه أهل للمحاربة فلم يتزاوروا عنه ولم يتحاشوه لكانت الحرب هنالك حربا بين رأيين ومذهبين وشجاعتين ، ولكنهم كشفوا أنفسهم بتحاشيهم اياه • فاذا هم يحاربون رأيهم الذي يدينون به ، ووليهم الذي يضمرون له الحرمة والكرامة ، وفي ذلك خزيهم الأثيم •

على أن الجبن والجشع لا يفسران كل ما اقترفه جيش عبيد الله من شر ولؤم في أيام كربلاء •

فلا حاجة بالجبان ولا بالجشع الى التمثيل والتنكيل أو التبرع بالايذاء حيث لا تلجئه الضرورة اليه ، وليس قتل الطفل الصغير الذي يموت من العطش وهو على مورد الماء

(١) يعدل وينحرف •

بالأمر الذي يلجيء اليه الجبن أو يلجيء اليه طلب المال ، وقد حدث في أيام كربلاء من امثال هذا البغي اللئيم شيء كثير رواه الأمويون ، ولم تقتصر روايته على الهاشميين والطالبيين أو أعداء بني أمية !

وينبغي أن نفهم ذلك على وجه واحد لا سبيل الى فهمه بغيره، وهو نكسة الشر في النفس البشرية ، حين تلج بها مغالطة الشعور وحين تغاضب عنانها حتى تعييها المغالبة فينطلق بها العنان •

فالرجل الخبيث المغرق في الخيانة قد يتصرف في خلوته تصرف الأنذال ثم لا يبالي أن يعرف نذالته وهو بنجوة من أعين الرقباء • ولكن أربعة الآلاف لا يتصارحون بالنذالة بينهم ولا يقول بعضهم لبعض أنهم يعملون ما يستحقون به التحقير والمهانة ولا تقبل لهم فيه معذرة ولا علالة • وانما شأنهم في هذه الحالة أن يصطنعوا الحماسة ويجاهدوا التردد ما استطاعوا ليظهروا في ثوب الغلاة المصدقين الذين لا يشكون لحظة في صدق ما يعملون ، فيغمض الرجل منهم عينيه ويستتر بغشاء من النفاق حتى ليوشك أن يخدع نفسه عن طوية فؤاده ••

وتلك لجاجة المغالطة في الشعور ••

أما مجاذبة النفس عنانها وانطلاقها بعد هذه المجاذبة المخفقة، فالشواهد عليها كثيرة فيما نراه كل يوم •• يحاول الرجل أن يتجنب الخمر فلا يستطيع ، فاذا هو قد خلع العذار (١) وغرق فيها ليله ونهاره غير مبال بما يقال كأنما هو القائل : « دع عنك لومي فان اللوم اغراء » •

وتحب المرأة أن تستحي وتتوارى من المسبة في هواها ، ثم يغلبها هواها فاذا هي قد ألقت حياءها للريح ، وصنعت ما تحجم عنه التي لم تنازع نفسها قط في هوى ، ولم تشعر قط بوطأة الخجل والاستتار •

---

(١) العذار : جانب الوجه المحاذي للاذن والشعر النابت عليه • وخلع فلان عذاره : اي القى عنه الحياء فصار يفعل ما يشاء ولا يبالي •

واندفاع المتهجمين على الشر في حرب كربلاء بغير داع من الحفيظة ولا ضرورة ملزمة تقضي بهـا شريعـة القتال ، لهو الاندفاع الذي يسير لنا عمق الشعور بالاثم في نفوس أصحاب يزيد • وقد رأينا من قبـل عمق الشعور بالحـق في أصحاب الحسين ، وما بنا من حاجة الى البحث عن علة مثل هذه العلة لمن خلقوا مجرمين وخلقت معهم ضراوة الحقد والايذاء لهذا الميدان وغير هذا الميدان ، كشمر بن ذي الجوشن ، ومن جرى مجراه •• فهؤلاء لا يصنعون غير صنيعهم الأثيم كلما وجدوا السبيل اليه •

على أنها ــ بعد كل هذا ــ حرب بين الكرم واللؤم ، وبين الضمير والمعدة ، وبين النور والظلام •• فشأنها على اية حال أن تصبح مجالا من الطرفين لقصارى ما يبلغه الكرم وقصارى ما يبلغه اللؤم ، وقد بلغت في ذلك أقصى مدى الطرفين •

ومن المتعذر بعد وقـوف هاتين القوتين موقـف المرافيـة والمناجزة ، أن نتقصى أوائل القتال ونتتبع ترتيب الحـوادث واحدة بعد واحدة على حسب وقوعها •• فان الأقوال في سرد حوادث كربلاء لا تتفق على ترتيب واحد ، سواء كـان هـذا الترتيب في رواية أنصار الحسين أو رواية أنصار يزيد •

الا أن الترتيب الطبيعي يستبين للعقل من سبب الوقوف في ذلك المكان ، وهو منع الحسين أن ينصرف الى سبيله وأن يرد الماء حتى يكرهه العطش الى التسليم ، وكان الموقف كما وصفـه أبو العلاء بعد ذلك بأربعة قرون :

منع الفتى هينا (١) فجر عظائمـا
وحمى نمير (٢) الماء فانبعث الدم

ولم يمتنع طريق الماء في بادىء الأمر دفعة واحدة لأن حراس المورد من جماعة عمر بن سعـد ، لم يكونوا على جزم بمـا يصنعون في مواجهة الحسين وصحبه •• فلما اندفـع بعـض

---

(١) الهين بوزن سيد وتخفيف الياء : السهل اللين والضعيف الذليل •
(٢) النمير من الماء الناجع في الري •

أصحاب الحسين الى الماء بالقرب والأداوي (١) ، مانعهم القوم هنيهة ثم أخلوا لهم سبيل النهر خوفا وحيرة ، فشربوا وملأوا قربهم وأداواهم بما يغنيهم عن الاستقاء الى حين ٠

والظاهر أن الشر كله كان في حضور شمر بن ذي الجوشن على تلك الساحة ، متربصا كل التربص بمن يتوانى في حصار الحسين ومضايقته فيعزله ويعرضه لسوء الجزاء ، ثم يطمع من وراء ذلك أن يتولى قيادة الجيش وامارة الري بعد عزل عمر بن سعد بن أبي وقاص ٠٠ فبطل التردد شيئا فشيئا ، وتعذر على الحسين وأصحابه بعد الهجمة الأولى أن يصلوا الى الماء ٠ ولبثوا أياما وليس في معسكرهم ذو حياة من رجل أو امرأة أو طفل أو حيوان الا وهو يتلظى على قطرة ماء فلا ينالها ، ومنهم الطفل العليل والشيخ المكدود والحيوان الأعجم ، وصياح هؤلاء الظماء من حرقة الظمأ يتوالى على مسمع الحسين ليل نهار وهو لا يملك لهم غير الوصاية بالصبر وحسن المؤاساة ٠

وفي ذلك المأزق الفاجع ، نضحت طبائع اللؤم في معسكر ابن زياد بشر ما تنضح به طبيعة لئيمة في البنية الآدمية ٠٠ فاقترفوا من خسة الأذى ما تنزه عنه الوحوش الضاريات ، وجعلوا يتلهون ويتفكهون بما تقشعر منه الجلود وتندى له الوجوه ، ونكاد نمسك عن تسطيره أسفا وامتعاضا لولا أن القليل منه جزء لا ينفصل من هذه الفاجعة ، وبيان لما يلي من وقعها في النفوس وتسلسل تراثها الى أمد بعيد ٠٠

مآثم مخزية

فمن هذه المآثم المخزية أن الحسين برح به العطش فلم يباله ٠٠ ولكنه رأى ولده عبد الله يتلوى من ألمه وعطشه ، وقد بح صوته من البكاء ، فحمله على يديه يهم أن يسقيه ويقول للقوم : « اتقوا الله في الطفل ان لم تتقوا الله فينا » فأوتر رجل من نبالة الكوفة قوسه ، ورمى الطفل بسهم وهو يصيح ليسمعه العسكران . « خذ اسقه هذا » ٠٠ فنفذ السهم الى أحشائه !!٠٠

---

(١) جمع اداوة وهي اناء صغير من جلد يتخذ للماء ٠

وكانوا يصيحون بالحسين متهاتفين : « ألا ترى الى الفرات كأنه بطون الحيات ؟!٠٠ والله لا تذوقه حتى تموت ومن معك عطشا » ٠

ولما اشتد عطش الحسين دنا من الفرات ليشرب ، فرماه حصين بن نمير بسهم وقع في فمه ٠٠ فانتزعه الحسين وجعل يتلقى الدم بيديه فامتلأت راحتاه بالدم ، فرمى به الى السماء وقد شخص ببصره اليها وهو يقول : « ان تكن حبست عنا النصر من السماء ، فاجعل ذلك لما هو خير منه ، وانتقم لنا من القوم الظالمين ! » ٠

وقد كان منع الماء ـ قبل الترامي بالسهام ـ نذيرا كافيا بالحرب ، يبيح الحسين أن يصيب منهم من يتعرض للاصابة ٠٠ ولكنه رأى شمر بن ذي الجوشن ـ أبغض مبغضيه المؤلبين عليه ـ يدنو من بيوته ويجول حولها ليعرف منفذ الهجوم عليها ، فأبى على صاحبه السلم بن عوسجة أن يرميه بسهم وقد أمكنه أن يصميه (١) وهو من أسد الرماة ٠٠ لأنه كره أن يبدأهم بعداء ٠٠

وكأنه لمح منهم ضعف النية وسوء الدخلة في الدفاع عن مولاهم ، وعلم أنهم لا يخلصون في حبه ، ولا يؤمنون بحقه ، وأنهم يخدمونه للرغبة أو الرهبة ولا يخدمونه للحق والذمة ٠٠ فطمع أن يقرع ضمائرهم وينبه غفلة قلوبهم ، ورمى بآخر سهم من سهام الدعوة قبل أن يرمي بسهم واحد من سهام القتال٠ فخرج لهم يوما بزي جده عليه السلام متقلدا سيفه لابسا عمامته ورداءه ، وأراهم أنه سيخطبهم ، فكان أول ما صنعوه دليلا على صدق فراسته فيهم ، لأن رؤساءهم ومؤلبيهم أشفقوا أن يتركوا له آذان القوم فينفذ الى قلوبهم ويلمس مواقع الاقناع من الدابهم ٠ فضجوا بالصياح والجلبة وأكثروا من العجيج والحركة ليحجبوا كلامه عن أسماعهم ويتقوا أثر موعظته فيهم ، وهو بتلك الهيئة التي تغضي عنها الأبصار وتعنو لها الجباه ٠٠

---

(١) أصمى الصائد الطير : رماه فقتله مكانه وهو يراه ٠

ولكنه صابرهم حتى ملوا ، و ن اخوانهم شجيجهم هـذا الذي يكشفون به عن عجزهم وخوفهـم ، ولا يوجـب الثقة بدعواهم عند اخوانهم •• فهدأوا بعد لحظات وسمعوه بعـد الحمد والصلاة : « أنسبوني من أنا •• هل يحل لكم قتلـي وانتهاك حرمتي ؟ ألست ابن بنت نبيكم ؟•• أولم يبلغكم ما قاله رسول الله لي ولأخي : هذان سيدا شباب أهل الجنـة ؟ ويحكم !•• أتطلبونني بقتيل لكم قتلته أو مال لكم استهلكته ؟•

ثم نادى بأسماء أنصاره الذين استدعوه الى الكوفة ثم خرجوا لحربه في جيش ابن زياد • فقال : « يا شيث بن الربعي ! يـا حجار بن أبجر ! يا قيس بن الاشعث ! يا يزيد بن الحـارث ! يا عمر بن الحجاج !•• ألم تكتبوا الي أن قد أينعت الثمـار واخضرت الجنبات ، وانما تقدم على جند لك مجند ؟ »••

فزلزلت الأرض تحت أقدامهم بهذه الكلمات وبلغ بها المقنع ممن فيه مطمع لاقناع ، وتحولت الى صفه فئة تعلم انها تتحول الى صف لن تجد فيه غير الموت العاجل ، واستطابت هذا الموت ولم تستطب البقاء مع ابن زياد لاغتنام الغنيمة وانتظار الجزاء من المناصب والأموال •

ولم تكن كلمة الحسين كل ما شهره عسكره من سلاح الدعوة قبل الاحتكام الى السيف •• فقد كانت للبطل المجيد زهير بن القين كلمات في أهل الكوفة أمضى من السيوف والرماح حيث تصيب ، فركب فرسه وتعرض لهم قائلا : « يا أهل الكوفة ! نذار لكم من عذاب الله نذار ، ان حقا على المسلم نصيحة المسلم، ونحن حتى الآن أخوة على دين واحد ما لم يقع بيننا وبينكم السيف ، فاذا وقع السيف انقطعت العصمة وكنا نحن أمـة وأنتم أمة •• ان الله قد ابتلانا واياكم بذرية نبيه محمد صلى الله عليه وسلم لينظر ما نحن وأنتم عاملون ، وانا ندعوكم الى نصر حسين وخذلان الطاغية ابن الطاغية عبيد الله بن زياد ، فانكم لا تدركون منهمـا الا سوءا : يسمـلان (١) أعينكم ، ويقطعان أيديكم وأرجلكم ويمثلان بكم ، ويرفعانكم على جذوع

---

(١) سمل عينه فقأها •

النخل ويقتلان أماثلكم وقراءكم أمثال حجر بن عدي وأصحابه وهانيء بن عروة وأشباهه » ٠

فوجم منهم من وجم ، وتوقح منهم من توقح ، على ديدن (١) المريب المكابر اذا خلع العذار ولم يأنف من العار ، وتوعدوه وتوعدوا الحسين معه أن يقتلوهم أو يسلموهم صاغرين الى عبيد الله بن زياد ٠

تخاذل وضعف

ولا يظهر من عدد الفريقين ساعة القتال أن المتحولين الى معسكر الحسين كانوا كثيرين أو متلاحقين ٠ ولكن بداءة التحول كانت مما يخيف ويزعج ، لأنها اشتملت على قائد كبير من قواد ابن زياد هو الحر بن يزيد الذيأرسلوه في أول الأمر ليحلىء (٢) الحسين عن دخول الكوفة ، وقد كان يحسب أن عمله ينتهي الى هذه المراقبة ولا يعدوها الى القتال وسفك الدم ٠٠ فلما تبين نية القتال ، أقبل يدنو نحو عسكر الحسين قليلا قليلا ، وتأخذه رعدة وينتابه ألم شديد ٠٠ حتى راب امره صاحبه المهاجر بن اوس فقال له :

والله ان أمرك لمريب ٠٠ ما رأيت منك قط مثل مـا أراه الآن ، ولو قيل من أشجع أهل الكوفة ما عدوتك ٠٠

ــ اني أخير نفسي بين الجنة والنار ، ولا أختار على الجنة شيئا ولو قطعت أو حرقت ٠٠

ثم ضرب فرسه ، ولحق بالحسين وهو يعتذر قائلا :

ــ لو علمت أنهم ينتهون الى ما أرى ما ركبت مثـل الذي ركبت ، واني قد جئتك تائبا مما كان مني الى ربي ، مؤاسيا لك بنفسي حتى أموت بين يديك !٠٠

---

(١) عادة ٠ (٢) حلأ القوم : منعهم وطردهم ٠

ولن يخلو معسكر ابن زياد من مئات كالحر بن يزيد يؤمنون ايمانه ويودون لو يلحقون به الى معسكر الحسين ، ويزعجهم أن يتحول أمامهم الى المعسكر وهم ناظرون اليه ، لأنه يبكتهم ويكشف مغالطتهم بينهم وبين أنفسهم ويحضهم على الاقتداء به والتدبر في أسباب ندمه ،لا لأنه ينتقص عددهم أو ينذر بالهزيمة في ميدان القتال •• فكلهم ولا ريب يشعر بشعوره ويعتقد في فضل الحسين على يزيد مثل اعتقاده ، وبعيد على العقل أن يصدق في هؤلاء الشراذم أنهم قد أطاعوا يزيد لأنه صاحب بيعة حاصلة وأنهم قد « تأدبوا بأدب الدولة » أدبا يغلب شعور الجماعة وايمان المرء بحق الشريعة وحرمة البيت النبوي ، ويهون عليه قتل سبط النبي في هذا السبيل ، وكيف وان منهم لمن بايع الحسين على البعد ودعاه اليه ليقود « الجند المجند » الى قتال يزيد ؟فكلامهم في البيعة الحاصلة لغط يلوكونه بألسنتهم ولا يستر ما في طويتهم ، وليس أثقل على أمثال هؤلاء من عيم المغالطة كلما تلجلج في مكانه وحركته القدوة التي يريدونها ولا يقوون عليها ، كتلك القدوة الماثلة بصاحبهم الحر بن يزيد •

لا جرم كان أعظم الجيشين قلقا وأشدهما حيرة وأعجلهما الى طلب الخلاص من هذا المأزق الثقيل هو أكبر الفئتين وأقوى المعسكرين ••

شجاعة جند الحسين

كان هناك معسكران احدهما صغير يلح عليه العطش والضيق، ولكنه كان مطمئنا الى حقه يلقى الموت في سبيله ويزيده العطش والضيق طمأنينة الى هذا المصير ••

والمعسكر الآخر أكبر المعسكرين ولكنه كان « يخون » نفسه في ضمير كل فرد من أفراده ، وتملكه الحيرة بين ندم وخوف وتبكيت ومغالطة واضطراب ، يحز في الأعصاب ويقذف المرء الى الخلاص كيفما كان الخلاص ••

وطال القلق على دخيلة عمر بن سعد فأطلقه سهما في الفضاء كأنه كان متشبثا بصدره فاستراح منه بانطلاقه ••

فزحف الى مقربة من معسكر الحسين ، وتناول سهما فرماه من فرسه الى المعسكر وهو يصيح :

ـ أشهدوا لي عند الأمير انني أول من رمى الحسين ..

ثم تتابعت السهام فبطلت حجة السلم وذهب كل تأويل في نية القوم ، وقال الحسين وهو ينظر الى السهام وينظر الى أصحابه :

ـ قوموا يا كرام فهذه رسل القوم اليكم .

وبذلك بدأ القتال ..

وقد تأهب الحسين لهذه المنازلة المنتظرة ، وان كان على انتظاره اياها قد تريث حتى يبدأوه بالعدوان من جانبهم ، وحتى يجب عليه الدفاع وجوبا لا خلاف فيه ..

فاختار له رابية يحتمي بها من ورائه ، ووسع وهدتها حتى أصبحت خندقا لا يسهل عبوره .. فأوقد فيه النار ليمنع عليهم الالتفاف به من خلفه ، وهم في كثرتهم التي ترجح عدة صحبه ستين ضعفا قادرون على مهاجمته من جميع نواحيه .

وكان معه اثنان وثلاثون فارسا وأربعون راجلا .. وهم نيف وأربعة آلاف يكثر فيهم الفرسان وراكبو الابل ويحملون صنوفا مختلفة من السلاح ..

ومع هذا التفاوت البعيد في عدة الفريقين ، كان العسكر القليل كفؤا للعسكر الكثير لو جرى القتال على سنة المبارزة التي كانت دعوة مجابة في ذلك العصر ، اذا اختارها أحد الفريقين ..

فان آل علي جميعا كانوا من أشهر العرب ـ بل من أشهر العرب والعجم ـ بالقوة البدنية والصبر على الجراح والاضطلاع بعناء الحرب ساعات بعد ساعات ، ومنهم من كان يلوي الحديد فلا يقيمه غيره ، ومنهم محمد بن الحنفية الذي صرع جبابرة القوة البدنية بين العرب والعجم في زمانه ، ومن أشهر هؤلاء الجبابرة رجل كان في أرض الروم يفخر به أهلها .. فأرسله ملكهم الى معاوية يعجز به العرب عن مصارعته واتقاء بأسه . فجلس محمد بن الحنفية وطلب من ذلك الجبار الرومي أن يقيمه ، فكان كأنما يحرك جبلا لصلابة أعضائه وشدة أسره .

فلما أقر الرجل بعجزه رفعه محمد فوق رأسه ثم جلد به الأرض مرات ·

والحسين رضي الله عنه قد كان هو ومن معه من شباب آل علي ممن ورث هذه القوة البدنية كما ورثوا ثبات الجأش وحمية الفؤاد ، وكانوا كفؤا لمبارزة الأنداد واحدا بعد واحد حتى يفرغ جيش عبيد الله من فرسانه القادرين على المبارزة ، ولا يبقى منهم غير الهمل (١) يتبددون في منازلة الشجعان ، كما تتبدد السائمة (٢) المذعورة بالمرام ··

وكان مع الحسين نخبة من فرسان العرب كلهم لهم شهرة بالشجاعة والبأس وسداد الرمي بالسهم ومضاء الضرب بالسيف، ولن تكون صحبة الحسين غير ذلك بداهة وتقديرا لا يتوقفان على الشهرة الذائعة والوصف المتواتر ، لأن مزاملة الحسين في مثل تلك الرحلة هي وحدها آية على الشجاعة في ملاقاة الموت وكرم النحيزة (٣) في ملاقاة الفتنة والاغراء ·· فاذا جرى القتال كله مبارزة بين أمثال هؤلاء ومن يبرزون لهم من جيش عبيد الله ، فهم كفء للمنازلة وليس أملهم في الغلب بضعيف ·

وقد بدأ القتال بهجوم الخيل من قبل جيش ابن زياد ، فاشرع (٤) أصحاب الحسين لها رماحهم وجثوا على الركب ينتظرونها فلم تقم الخيل للرماح وأوشكت أن تجفل مولية بفرسانها ··

فعدل الفريقان الى المبارزة ، فلم يتعرض لها أحد من جيش ابن زياد الا فشل أو نكص على عقبيه ، فخشي رؤوس الجيش عقبى هذه المبارزة التي لا أمل لهم في الغلبة بها ، وصاح عمر ابن الحجاج برفاقه :

ـ أتدرون من تقاتلون ؟·· تقاتلون فرسان المصر وقوما مستميتين · لا يبرز اليهم منكم أحد فانهم قليل ·· لو لم ترموهم الا بالحجارة لقتلتموهم ··

---

(١) الابل بلا راع · (٢) الماشية ترعى حيث شاءت · (٣) الطبيعة والسجية ·

(٤) أشرع الرمح نحوه سدده ·

فاستصوب عمر بن سعد مقاله ، ونهى الناس عن المبارزة ..

فلما برز عابس بن أبي شبيب الشاكري بعد ذلك وتحداهم للمبارزة ، تحاموه لشجاعته ووقفوا بعيدا منه . فقال لهم عمر :

ـ ارموه بالحجارة ..

فرموه من كل جانب .. فاستمات وألقى بدرعه ومغفره (١) وحمل على من يليه ، فهزمهم وثبت لجموعهم حتى مات .

وعجزت خيل القوم مع كثرتها عن مقاومة خيل الحسين ، وهي تنكشف كل ساعة عن فارس قتيل .. فبعث عروة بن قيس مقدم الفرسان في جيش ابن زياد يقول لعمر بن سعد : « ألا ترى ما تلقى خيلي هذا اليـــوم من هذه العدة اليسيرة ؟ .. ابعث اليهم الرجال والرماة » فبعث اليه بخمسمائة من الرماة وعلى رأسهم الحسين بن نمير ، فرشقوا أصحاب الحسين بالنبل حتى عقروا الخيل وجرحوا الفرسان والرجال .

وكان أبو الشعثاء يزيد بن زياد الكندي ممن عدل الى جيش الحسين وهو من أشهر رماة زمانه . فلما تكاثر عليهم رمـي النبال والسهام ، جثا بين يدي الحسين وأرسل مائة سهم لم يكد يخيب منها خمسة أسهم .. وقاتل حتى مات ..

وكان الذين عدلوا الى عسكر الحسين أشد أنصاره عزمة في القتال وهجمة على الموت ، ومنهـم الحر بن يزيد الذي تقدم ذكره . فجاهد ما استطاع ليقنع أصحابه الأولين بالكف عـن حرب الحسين أو بالعدول الى صفه .. وقام على فرسه يخطب أهل الكوفة ويزجرهم ، فسكتوا هنيهة ثم رشقوه بالنبل فعقروا فرسه وجرحوه .. فما زال يطلب الموت ويتحرى من صفوفهم أكثفها جمعا وأقتلها نبلا حتى سقط مثخنا بالجراح وهو ينادي الحسين : « السلام عليكم يا أبا عبد الله » .

ولم يكن من أصحاب الحسين الا من يطلب الموت ويتحرى مواقعه وأهدافه .. فكان نافع بن هلال البجلي يكتب اسمه على

---

(١) المغفر : حلقات من حديد تسبغ على العنق فتقيه من ضرب السيوف

أفواق (١) نبله ويرسلها فيقتل بهـا ويجرح ، وقلما يخطىء مرماه • فأحاطوا به وضربوه على ذراعيه حتى كسرتا ، ثـم أسروه والدم يسيل من وجهه ويديه ، فحسبوه يلين للوعيـد ويجزع من التمثيل به ، فأسمعهم ما يكرهون وراح يستزيد غيظهم ويقول لهم : « لقد قتلت منكم اثني عشر رجلا سوى من جرحت ، ولو بقيت لي عضد وساعد لزدت » •

مصرع الحسين

واستهدف الحسين رضي الله عنه لأقواس القوم وسيوفهم ، فجعل أنصاره يحمونه بأنفسهم ولا يقاتلون الا بـين يديـه • وكلما سقط منهم صريع ، أسرع الى مكانه من يخلفه ليلقى حتفه على أثره •

فضاقت الفئة الكثيرة بالفئة القليلة ، وسول لهم الضيق بما يعانون من ثباتها أن يقوضوا الأخبية التي أوى اليها النسـاء والأطفال ليحيطوا بالمسكر القليل من جميع جهاته • ثم أخذوا في احراقها ، وأصحاب الحسين يصدونهم ويدافعونهم ، فرأى رضي الله عنه أن اشتغال أصحابه بمنعهم يصرفهم عن الاشتغال بقتالهم ، فقال لهم :

ــ دعوهم يحرقونها •• فانهم اذا أحرقوها لا يستطيعون أن يجوزوا اليكم منها ••

وظل على حضور ذهنه وثبات جأشه في تلك المحنة المتراكبة التي تعصف بالصبر وتطيش بالألبـاب •• وهو جهـد عظيم لا تحتويه طاقة اللحم والدم ، ولا ينهض به الا أولو العزم من أندر من يلد آدم وحواء •• فانه رضي الله عنه كان يقاسي جهد العطش والجوع والسهر ونزف الجراح ومتابعة القتال ، ويلقي باله الى حركات القوم ومكائدهم ، ويدبر لرهطه ما يحبطون به تلك الحركات ويتقون به تلك المكائد ، ثم هو يحمل بـلاءه وبلاءهم •• ويتكاثر عليه وقر الأسى لحظة بعد لحظة كلما فجع

---

(١) جمع فوق بالضم وهو موضع الوتر من السهم •

بشهيد من شهدائهم • ولا يزال كلما أصيب عزيز من أولئك الأعزاء حمله الى جانب اخوانه وفيهم رمق ينازعهم وينازعونه وينسون في حشرجة الصدور ما هم فيه •• فيطلبون الماء ويحز طلبهم في قلبه كلما أعياه الجواب ، ويرجع الى ذخيرة بأسه فيستمد من هذه الآلام الكاوية عزما يناهض به الموت ويمرض به عن الحياة •• ويقول في أثر كل صريع : « لا خير في العيش من بعدك » ويهدف صدره لكل ما يلقاه ••

وانه لفي هذا كله ، وبعضه يهد الكواهل ويقصم الأصلاب •• اذا بالرماح والسيوف تنوشه (١) من كل جانب ، واذا بالقتل يتعدى الرجال المقاتلين الى الأطفال والصبيان من عترته وآل بيته ، وسقط كل من معه واحدا بعد واحد فلم يبق حوله غير ثلاثة يناضلون دونه ويتلقون الضرب عنه ، وهو يسبقهم ويأذن لمن شاء منهم أن ينجو بنفسه وقد دنت الخاتمة ووضح المصير ••

وكان غلام من آل الحسين ــ هو عبد الله بن الحسن أخيه ــ ينظر من الأخبية ، فرأى رجلا يضرب عمه بالسيف ليصيبه حين أخطأ زميله ، فهرول الغلام الى عمه وصاح في براءة بالرجل :

ــ يا ابن الخبيثة •• أتقتل عمي ؟

فتعمده الرجل بالسيف يريد قتله ، فتلقى الغلام ضربته بيده فانقطعت وتعلقت بجلدها •• فاعتنقه عمه وجعل يواسيه وهو مشغول بدفاع من يليه ••

ثم سقط الثلاثة الذين بقوا معه ، فانفرد وحده بقتال تلك الزحوف المطبقة عليه • وكان يحمل على الذين عن يمينه فيتفرقون ، ويشد على الخيل راجلا ويشق الصفوف وحيدا ، ويهابه الرعديد فيبتعدون ، ويهم المتقدمون بالاجهاز عليه ثم ينكصون •• لأنهم تحرجوا من قتله ، وأحب كل منهم ان يكفيه غيره مغبة وزره ، فغضب شمر بن ذي الجوشن وأمر الرماة أن يرشقوه بالنبل من بعيد ، وصاح بمن حوله :

---

(١) ناش الرجل الشيء : تناوله بيده •

ــ ويحكم !.. ماذا تنتظرون بالرجل !.. اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم ..

فاندفعوا اليه تحت عيني شمر مخافة من وشايته وعقابه .. وضربه زرعة بن شريك التميمي على يده اليسرى فقطعها ، وضربه غيره على عاتقه فخر على وجهه ، ثم جعل يقوم ويكبو وهم يطعنونه بالرماح ويضربونه بالسيف حتى سكن حراكه ، ووجدت بعد موته رضوان الله عليه ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة غير اصابة النبل والسهام ، وأحصاها بعضهم في ثيابه فاذا هي مائة وعشرون .

ونزل خولي بن يزيد الأصبحي ليحتز راسه ، فملكته رعدة في يديه وجسده ، فنحاه شمر وهو يقول له :

ــ فت الله في عضدك (١) !..

واحتز الرأس وأبى الا أن يسلمه اليه في رعدته ، سخرية به وتماديا في الشر ، وتحديا به لمن عسى أن يتعاه عليه ! وقضى الله على هذا الخبيث الوضر أن يصف نفسه بفعله وصفا لا يطرقه الشك والاتهام ، فكان ضغنه هذا كله ضغنا لا معنى له ولا باعث اليه الا أنه من أولئك الذين يخزيهم اللؤم فيسليهم بعض السلوى أن يؤلموا به الكرام ، ويجعلوه تحديا مكشوفا كأنه معرض للزهو والفخار ، وهم يعلمون أنه لا يفخر به ولا يزهى ! ولكنهم يبلغون به مأربهم اذا آلموا به من يحس فيهم الضعة والعار ..

وبقيت ذروة من الحمية يرتفع اليها مرتفع ..

وبقيت وهدة من الخسة ينحدر اليها منحدرون كثيرون ..

فلم يكن في عسكر الحسين كله الا رمق واحد من الحياة باق في رجل طعين مثخن بالجراح ، تركوه ولم يجهزوا عليه لظنهم أنه قد مات ..

---

(١) فت في عضده أو ساعده : كسر قوته وأوهنه .

ذلك الرجل الكريم هو سويد بن أبي المطاع أصدق الأنصار وأنبل الأبطال ..

فأبى الله لهذا الرمق الضعيف أن يفارق الدنيا بغير مكرمة يتم بها مكرمات يومه ، وتشتمل عليها النفوس الكثيرات فاذا هي حسبها من شرف مجد وثناء ..

تنادى القوم بمصرع الحسين فبلغت صيحتهم مسمعه الذي أثقله النزع وأوشك أن يجهل ما يسمع . فلم يخطر له أن يسكن لينجو وقد ذهب الأمل وحم الختام ، ولم يخطر له انه ضعيف منزوف يعجل به القوم قبل أن ينال من القوم أهون منال ، ولم يحسب حساب شيء في تلك اللحظة العصيبة الا أن يجاهد في القوم بما استطاع ، بالغا ما بلغ من ضعف هذا المستطاع ..

فالتمس سيفه فاذا هم قد سلبوه ، ونظر الى شيء يجاهد به فلم تقع يده الا على مدية صغيرة لا غناء بها مع السيوف والرماح .. ولكنه قنع بها وغالب الوهن والموت ، ثم وثب على قدميه من بين الموتى وثبة المستيئس الذي لا يفر من شيء ولا يبالي من يصيب وما يصاب . فتولاهم الذعر وشلت أيديهم التي كانت خليقة أن تمتد اليه ، وانطلق هو يثخن فيهم قتلا وجرحا حتى أفاقوا له من ذعرهم ومن شغلهم بضجتهم وغنيمتهم . فلم يقووا عليه حتى تعاون على قتله رجلان .. فكان هذا حقا هو الكرم ر جد في عسكر الحسين الى الرمق الأخير .

خسة ووحشية

وكان حقا لا مجازا ما توخيناه حين قلنا انهما طرفان متناقضان ، وأنها حرب بين أشرف ما في الانسان وأوضع ما في الانسان .

فبينما كان الرجل في عسكر الحسين ينهض من بين الموتى ولا يضن بالرمق الأخير في سبيل ايمانه ، اذا بالآخرين يقترفون أسوأ المآثم في رأيهم — قبل رأي غيرهم — من أجل غنيمة هينة لا تسمن ولا تغني من جوع . فلو كان كل ما في عسكر الحسين

ذهبا ودرا لما أغنى عنهم شيئا وهم قرابة أربعة آلاف ·· ولكنهم، ما استيقنوا بالعاقبة ــ قبل أن يسلم الحسين نفسه الأخير ــ حتى كان همهم الى الأسلاب التي يطلبونها حيث وجدوها ، فأهرعوا الى النساء من بيت رسول الله ينازعونهن الحلي والثياب التي على أجسادهن ، لا يزعهم عن حرمات رسول الله وازع من دين أو مروءة · وانقلبوا الى جثة الحسين يتخطفون ما عليها من كساء تخللته الطعون حتى أوشكوا أن يتركوها على الأرض عارية ، لولا سراويل لبسها رحمه الله ممزقة وتعمد تمزيقها ليتركوها على جسده ولا يسلبوها · ثم ندبوا عشرة من الفرسان يوطئون جثته الخيل كما أمرهم ابن زياد ، فوطئوها مقبلين ومدبرين حتى رضوا صدره وظهره ·

وقد يساق الغنم هنا معذرة للاثم بالغا ما بلغ هذا من العظم ، وبالغا ما بلغ ذلك من التفاهة · لكنهم في الحقيقة قد ولعوا بالشر للشر من غير ما طمع في مغنم كبير أو صغير · فحرموا الري على الطفل الظامىء العليل وأرسلوا الى أحشائه السهام بديلا من الماء ، وقتلوا من لا غرض في قتله وروعوا من لا مكرمة في ترويعه ·· فربما خرج الطفل من الأخبية ناظرا وجلا لا يفقه ما يجري حوله ، فينقض الفارس الرامح فوق فرسه ويطعنه الطعنة القاضية بمرأى من الأم والأخت والعمة والقريبة ، ولم تكن في الذي حدث من هذا القبيل مبالغة يزعمونها كما زعم أجرام الذمم بعد ذلك عن حوادث كربلاء وجرائر كربلاء · فقد قتل فعلا في كربلاء كل كبير وصغير من سلالة علي رضي الله عنه ، ولم ينج من ذكورهم غير الصبي علي زين العابدين ·· وفي ذلك يقول سراقة الباهلي :

عين جودي بعبرة وعويل
واندبي ما ندبت آل الرسول
سبعة منهم لصلب علي
قد أبيدوا وسبعة لعقيل

وما نجا علي زين العابدين الا بأعجوبة من أعاجيب المقادير، لأنه كان مريضا على حجور (١) النساء يتوقعون له الموت هامة اليوم أو غد ، فلما هم شمر بن ذي الجوشن بقتله ، نهاه عمر ابن سعد عنه اما حياء من قرابة الرحم أمام النساء — وقد كان له نسب يجتمع به في عبد مناف — وأما توقعا لموته من السقم المضني الذي كان يعانيه .. فنجا بهذه الأعجوبة في لحظة عابرة ، وحفظ به نسل الحسين من بعده ، ولولا ذلك لباد .

ثم قطعوا الرؤوس ورفعوها أمامهم على الحراب ، وتركوا الجثث ملقاة على الأرض لا يدفنونها ولا يصلون عليها كما صلوا على جثث قتلاهم .. ومروا بالنساء حواسر من طريقها فولولن باكيات وصاحت زينب رضي الله عنها :

— يا محمداه ! .. هذا الحسين بالعراء وبناتك سبايا وذريتك مقتلة تسفي (٢) عليها الصبا ..

فوجم القوم مبهوتين وغلبت دموعهم قلوبهم . فبكى العدو كما بكى الصديق ! ..

لم تنقض في ذلك اليوم خمسون سنة على انتقال النبي محمد عليه السلام من هذه الدنيا الى حظيرة الخلود : محمد الذي بر بدينهم ودنياهم فلم ينقل من الدنيا حتى نقلهم من الظلمة الى النور ، ومن حياة التيه في الصحراء الى حياة عامرة يسودون بها أمم العالمين ثم هذه خمسون سنة لم تنقض بعد ، واذا هم في موكب جهير يجوب الصحراء الى مدينة بعد مدينة : سباياه بنات محمد حواسر على المطايا وأعلامه رؤوس أبنائه على الحراب ، وهم داخلون به دخول الظافرين !

وبقيت الجثث حيث نبذوها بالعراء « تسفي عليها الصبا » .

فخرج لها مع الليل جماعة من بني أسد كانوا ينزلون بتلك الأنحاء .. فلما أمنوا العيون بعد يوم أو يومين سروا مع القمراء الى حيث طلعت بهم على منظر لا يطلع القمر على مثله — شرفا ولا وحشة — في الآباد بعد الآباد ..

---

(١) جمع حجر بكسر الحاء وهو الحضن .

(٢) أسفت الريح التراب حملته .

وكان يوم المقتل في العاشر من المحرم ·· فكان القمر في تلك الليلة على وشك التمام ·· فحفروا القبور على ضوئه ، وصلوا على الجثث ودفنوها ، ثم غادروها هناك في ذمة التاريخ · فهي اليوم مزار يطيف به المسلمون متفقين ومختلفين ، ومن حقه أن يطيف به كل انسان ، لأنه عنوان قائم لأقدس ما يشرف به هذا الحي الآدمي بين سائر الأحياء ·

فما أظلت قبة السماء مكانا لشهيد قط هو أشرف من تلك القباب بما حوته من معنى الشهادة وذكرى الشهداء ··

موطن الرأس

اتفقت الأقوال في مدفن جسد الحسين عليه السلام ، وتعددت أيما تعدد في موطن الرأس الشريف ..

فمنها أن الرأس قد أعيد بعد فترة الى كربلاء فدفن مع الجسد فيها ..

ومنها أنه أرسل الى عمرو بن سعيد بن العاص والي يزيد على المدينة ، فدفنه بالبقيع عند قبر أمه فاطمة الزهراء ..

ومنها أنه وجد بخزانة ليزيد بن معاوية بعد موته ، فدفن بدمشق عند باب الفراديس ..

ومنها أنه كان قد طيف به في البلاد حتى وصل الى عسقلان ، فدفنه أميرها هناك وبقي بها حتى استولى عليها الافرنج في الحروب الصليبية .. فبذل لهم الصالح طلائع وزير الفاطميين بمصر ثلاثين ألف درهم على أن ينقله الى القاهرة حيث دفن بمشهده المشهور . قال الشعراني في طبقات الأولياء : « ان الوزير صالح طلائع بك رزيك خرج هو وعسكره حفاة الى الصالحية ، فتلقى الرأس الشريف ووضعه في كيس من الحرير الأخضر على كرسي من الابنوس وفرش تحته المسك والعنبر والطيب ، ودفن في المشهد الحسيني قريبا من خان الخليلي في القبر المعروف » .

وقال السائح الهروي في الاشارات الى أماكن الزيارات : « وبها ـ أي عسقلان ـ مشهد الحسين رضي الله عنه : كان رأسه بها ، فلما أخذتها الفرنج نقله المسلمون الى مدينة القاهرة سنة تسع وأربعين وخمسمائة » .

وفي رحلة ابن بطوطة أنه سافر الى عسقلان « وبه المشهد

الشهير » حيث كان رأس الحسين بن علي عليه السلام ، قبل أن ينقل الى القاهرة » ٠

وذكر سبط بن الجوزي فيما ذكر من الأقوال المتعددة أن الرأس بمسجد الرقة على الفرات ، وأنه لما جيء به بين يدي يزيد بن معاوية قال : « لأبعثنه الى آل أبي معيط عن رأس عثمان » وكانوا بالرقة ، فدفنوه في بعض دورهم ثم دخلت تلك الدار بالمسجد الجامع ، وهو الى جانب سوره هناك ٠

فالأماكن التي ذكرت بهذا الصدد ستة في ست مدن هي : المدينة ، وكربلاء ، والرقة ، ودمشق ، وعسقلان ، والقاهرة ، وهي تدخل في بلاد الحجاز والعراق والشام وبيت المقدس والديار المصرية ٠ وتكاد تشتمل على مداخل العالم الاسلامي كله من وراء تلك الأقطار ، فان لم تكن هي الأماكن التي دفن فيها رأس الحسين فهي الاماكن التي تحيا بها ذكراه لا مراء ٠٠

وللتاريخ اختلافات كثيرة ، نسميها بالاختلافات اللفظية أو العرضية ، لأن نتيجتها الجوهرية سواء بين جميع الأقوال ، ومنها الاختلاف على مدفن رأس الحسين عليه السلام ٠ فأيا كان الموضع الذي دفن به ذلك الرأس الشريف ، فهو في كل موضع أهل للتعظيم والتشريف ٠ وانما أصبح الحسين ـ بكرامة الشهادة وكرامة البطولة وكرامة الأسرة النبوية ـ معنى يحضره الرجل في صدره وهو قريب أو بعيد من قبره ٠ وان هذا المعنى لفي القاهرة ، وفي عسقلان ، وفي دمشق ، وفي الرقة ، وفي كربلاء ، وفي المدينة ، وفي غير تلك الأماكن سواء ٠

وقاحة ابن زياد

ويقل الاختلاف أو يسهل التجاوز عنه كذلك فيما حدث بين فاجعة كربلاء ولقاء يزيد ٠٠

فالمتواتر الموافق لسير الأمور أنهم حملوا الرؤوس والنساء الى الكوفة ، فأمر ابن زياد أن يطاف بها في أحياء الكوفة ثم ترسل الى يزيد ٠

وكانت فعلة يداورنها بالتوقح فيها على سنة المأخوذ الذي لا يملك مداراة ما فعل ٠ فبات خولي بن يزيد ليلته بالرأس في

بيته ، وهو يمني نفسه بغنى الدهر كما قال . فاقسمت امرأة له حضرمية : « لا يجمع رأسها ورأسه بيت وفيه رأس ابن رسول الله » .

ثم غدا الى قصر ابن زياد وكان عنده زيد بن أرقم من أصحاب رسول الله .. فرآه ينكث (١) ثنايا الرأس حين وضع أمامه في أجانة (٢) ، فصاح به مغضبا :

ـ ارفع قضيبك عن هاتين الثنيتين .. فوالذي لا اله غيره لقد رأيت شفتي رسول الله على هاتين الشفتين يقبلهما .. وبكى ..

فهزىء به ابن زياد وقال له :

ـ لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك ، لضربت عنقك !

فخرج زيد وهو ينادي في الناس غير حافل بشيء :

ـ أنتم معشر العرب العبيد بعد اليوم .. قتلتم ابن فاطمة وآثرتم ابن مرجانة ، فهو يقتل شراركم ويستعبد خياركم .

وأدخلت السيدة زينب بنت علي رضي الله عنها ، وعليها أرذل ثيابها ومعها عيال الحسين واماؤها .. فجلست ناحية لا تتكلم ولا تنظر الى ما أمامها . فسأل ابن زياد :

ـ من هذه التي انحازت ناحية ومعها نساؤها ؟

فلم تجبه .. فأعاد سؤاله ثلاثا وهي لا تجيبه ، ثم أجابت عنها احدى الاماء :

ـ هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فاجترأ ابن زياد قائلا :

ـ الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وأبطل أحدوثتكم ..

وقد كانت زينب رضي الله عنها حقا جديرة بنسبها الشريف في تلك الرحلة الفاجعة التي تهد عزائم الرجال .. كانت كأشجع وأرفع ما تكون حفيدة محمد وبنت علي وأخت الحسين . وكتب لها أن تحفظ بشجاعتها وتضحيتها بقية العقب الحسيني من الذكور .. ولولاها لانقرض من يوم كربلاء ..

---

(١) نكث الرجل الارض بعصا او باصبعه ضربها ، يفعل ذلك المفكر المهموم . (٢) لقن تغسل فيه الثياب .

فلم تمهل ابن زياد أن ثارت به قائلة :

ــ الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه وطهرنا من الرجس تطهيرا •• انما يفضح الفاسق ويكذب الفاجر ، وهو غيرنا والحمد لله •

فقال ابن زياد :

ــ قد شفى الله نفسي من طاغيتك والعصاة •

فغلبها الحزن والغيظ من هذا التشفي الذي لا ناصر لها منه، وقالت :

ــ لقد قتلت كهلي ، وأبدت أهلي ، وقطعت فرعي واجتثثت أصلي ، فان يشفك هذا فقد اشتفيت ••

فتهاتف ابن زياد ساخرا وقال :

ــ هذه سجاعة (١) •• لعمري لقد كان أبوها سجاعا شاعرا•

فقالت زينب :

ــ ان لي عن السجاعة لشغلا •• ما للمرأة والسجاعة ؟

علي زين العابدين

ثم نظر ابن زياد الى غلام عليل هزيل مع السيدة زينب فسأله:

ــ من أنت ؟

قال : علي بن الحسين •

قال : أولم يقتل الله علي بن الحسين ؟

قال : كان لي أخ يسمى عليا قتله الناس •

فأعاد ابن زياد قوله : الله قتله •

فقال علي : الله يتوفى الأنفس حين موتها ، وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله ••

فأخذت زيادا عزة الاثم وانتهره قائلا :

ــ ويلك جرأة لجوابي !

وصاح الخبيث الأثيم بجنده :

ــ اذهبوا به فاضربوا عنقه ••

---

(١) السجاع والسجاعة : الآتي بالسجع في كلامه •

فجاشت بعمة الغلام قوة لا يردها سلطان ، ولا يرهبها سلاح .. لأنها قوة من هان لديه الموت وهانت عليه الحياة ، فاعتنقت الغلام اعتناق من اعتزم ألا يفارقه الا وهو جثة هامدة ،وأقسمت لئن قتلته لتقتلني معه . فارتد ابن زياد مشدوها وهو يقول متعجبا :

ـ يا للرحم .. اني لأظنها ودت أني قتلتها معه ..

ثم قال : « دعوه لما به » .. كأنه حسب أن العلة قاضية عليه .

وعلي هذا هو زين العابدين جد كل منتسب الى الحسين عليهما السلام ، وكان كما قال ابن سعد في الطبقات : « ثقة كثير الحديث عاليا رفيعا ورعا » ، وكما قال يحيى بن سعيد : « أفضل هاشمي رأيته في المدينة » ..

ولولا استماتة عمته كما ترى ، لقد كادت تذهب بهذه البقية الباقية كلمة على شفتي ابن زياد !

الرأس عند يزيد

ولما قضى الخبيث نهمة كيده من الطواف برأس الحسين في الكوفة وأرباضها (١) ، أنفذه ورؤوس أصحابه الى دمشق مرفوعة على الرماح ، ثم أرسل النساء والصبيان على الاقتاب (٢) ، وفي الركب علي زين العابدين مغلول الى عنقه يقوده شمر بن ذي الجوشن ومحضر بن ثعلبة .. فتلاحق الركبان في الطريق ودخلا الشام معا الى يزيد .

وتكرر منظر القصر بالكوفة في قصر دمشق عند يزيد .. ولا نستغرب أن يتكرر بعضه حتى يظن انه قد وقع في التاريخ خلط بين المنظرين ، لأن المناسبة في هذا المقام تستوحي ضربا واحدا من التعقيب وضربا واحدا من الحوار ..

فارتاع من بمجلس يزيد من نبأ المقتلة في كربلاء حين بلغتهم ، وقال يحيى بن الحكم وهو من الأمويين :

---

(١) جمع ربض بفتحتين : ما حول المدينة من بيوت ومساكن . (٢) جمع قتب بفتحتين : اكاف صغير أي برذعة على قدر سنام البعير .

لهام (١) بجنـب الطف أدنى قرابـة
من ابن زياد العبد ذي الحسب الوغل (٢)

سميـة أمسـى نسلهـا عدد الحصى
وبنت رسول الله ليسـت بـذي نسـل

فأسكته يزيد .. وقال وهو يشير الى الراس وينكت ثناياه بقضيب في يده : (أتدرون من أين أتي هذا ؟.. انه قـال : « أبي علي خير من ابيه وأمي فاطمة خير من آمه ، وجدي رسول الله خير من جده وانا خير منه وأحق بهذا الامر » .. فاما أبوه فقد تحاج أبي وابوه الى الله وعلم الناس أيهما حكم له ، واما أمه فلعمري فاطمة بنت رسول الله خير من امي ، وأما جـده فلعمري ما احد يؤمن بالله واليوم الاخر يرى لرسول الله فينا عدلا ولا ندا ، ولكنه أتي من قبل فقهه ولم يقرأ : قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء) ..

وهو كلام ينسب مثله الى معاوية في رده على حجج علي في الخلافة .. ولعل يزيد قد استعاره من كلام أبيه وزاد عليه .

ونظر بعض أهل الشام الى السيدة فاطمـة بنت الحسين ـ وكانت جارية وضيئة (١) ـ فقال ليزيد : « هب لي هذه » ، فأرعدت وأخذت بثياب عمتها .. فكان لعمتها في الذود عنهـا موقف كموقفها بقصر الكوفة ، ذيادا عن أخيها زين العابدين ، وصاحت بالرجل :

ـ كذبت ولؤمت .. ما ذلك لك ولا له .

فتغيظ يزيد وقال : « كذبت ، ان ذلك لي .. ولو شئـت لفعلت » .

قالت : « كلا والله .. ما جعل الله لك ذلك ، الا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا » .

فاشتد غيظ يزيد وصاح بها : « اياي تستقبلين بهذا ؟.. انما خرج من الدين أبوك وأخوك » .

---

(١) الهام : الرأس . (٢) الوغل : النذل الساقط .

(١) الوضيء : الحسن النظيف البهيج ، وهي وضيئة .

قالت : « بدين الله ودين أبي وأخي وجدي اهتديت أنت وأبوك وجدك » ..

فلم يجد جوابا غير أن يقول : « بل كذبت يا عدوة الله » .

فقالت : « أنت أمير تشتم ظالما ، وتقهر بسلطانك » .

فاطرق وسكت ..

وأدخل علي بن الحسين مغلولا ، فأمر يزيد بفك غله وقال له :

ــ ايه يا ابن الحسين .. أبوك قطع رحمي وجهل حقني ونازعني سلطاني ، فصنع الله به ما رأيت ..

قال علي :

ــ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها . ان ذلك على الله ليسير ، لكيلا تأسوا (١) على ما فاتكم ولا تفرحوا بما أتاكم والله لا يحب كل مختال فخور . فتلا يزيد الآية : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » ثم زوى وجهه وترك خطابه ..

وكان لقاء نساء يزيد خيرا من لقائه .. فواسين السيدة زينب والسيدة فاطمة ومن معهما ، وجعلن يسألنهن عما سلبنه بكربلاء فيرددن اليهن مثله وزيادة عليه ..

وأحب يزيد أن يستدرك بعض ما فاته ، فلجأ الى النعمان ابن بشير واليه الذي عزله من الكوفة لرفقه بدعاة الحسين .. وأمره أن يسير آل الحسين الى المدينة ويجهزهم بما يصلحهم . وقيل انه ودع زين العابدين ، وقال له : « لعن الله ابن مرجانة .. أما والله لو أني صاحب أبيك ما سألني خصلة أبدا الا أعطيته اياها ، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدي . ولكن الله قضى ما رأيت يا بني ! .. كاتبني من المدينة ، وأنه الي كل حاجة تكون لك » .

---

(١) تأسوا : تحزنوا . (٢) زوى ما بين عينيه : جمعه وقبضه وأماله .

تبعة يزيد

والناس في تقدير التبعة التي تصيب يزيد من عمل ولاته مشارب وأهواء ، يرجع كل منهم الى مصدر من مصادر الرواية فيبني عليه حكمه ·

فمنهم من يرى انه بريء من التبعة كل البراءة ·· ومنهم من يرى أنه أقر فعلة ابن زياد ثم ندم عليها ·· ومنهم من يقول أنه قد أمر بكل ما اقترفه ابن زياد وتوقع حدوثه ولم يمنعه وهو مستطيع أن يمنعه لو شاء ·

والثابت الذي لا جدال فيه ، ان يزيد لم يعاقب أحدا من ولاته كبر أو صغر على شيء مما اقترفوه في فاجعة كربلاء ، وان سياسته في دولته بعد ذلك كانت هي سياسة أولئك الولاة على وتيرة واحدة مما حدث في كربلاء ، فاستباحة المدينة ــ دار النبي عليه السلام ــ وتحكيم مسلم بن عقبة في رجالها ونسائها ، ليست بعمل رجل ينكر سياسة كربلاء بفكره وقلبه ، أو سياسة رجل تجري هذه الحوادث على نقيض تدبيره وشعوره وما زال يزيد وأخلافه يأمرون الناس بلعن علي والحسين وآلهما على المنابر في أرجاء الدولة الاسلامية ، ويستفتون من يفتيهم باهدار دمهم وصواب عقابهم بما أصابهم · ومن تجب لعنته على المنابر بعد موته بسنين ، فقتله جائز أو واجب في رأي لاعنيه ·

ومن أفرط في سوء الظن ، رجح عنده أن عبيد الله بن زياد كان على اذن مستور بكل ما صنع ، ويملي (١) لهم في هذا الظن أن استئصال ذرية الحسين من الذكور خطة تهم يزيد لوراثة الملك في بيته وعقبه ، ويفيده أن يقدم عليها مستترا من وراء ولاته ثم ينصل (٢) منها ويلقي بتبعتها عليهم · ولو لم يكن ذلك لكان عجيبا أن توكل حياة الحسين وأبنائه وآله الى والي الكوفة بغير توجيه من سيده ومولاه ·· فقد كان الزمن الذي انقضى منذ خروج الحسين من مكة الى نزوله بالطف على الفرات

---

(١) أملى الراعي للبعير : ارخى له ووسع · ولفلان في غيه : أطال ·
(٢) نصل من الذنب : خرج وتبرأ ·

كافيا لبلوغ الخبر الى يزيد ورجوع الرسل بالتوجيه الضروري في هذا الموقف لوالي الكوفة وغيره من الولاة ، فان لم يكن الأمر تدبيرا متفقا عليه فهو المساءة التي تلي ذلك التدبير في السوء والشناعة ، وهي مساءة التهاون الذي لا تستقيم على مثله شئون دولة · وقد روى ابن شريح اليشكري أن عبيد الله صارحه بعد موت يزيد فقال : « أما قتلي الحسين فانه أشار الي يزيد بقتله أو قتلي فاخترت قتله » وهو كلام متهم لا تقوم به حجة على غائب قضى نحبه ··

ويبدو لنا أن الظن بتهاون يزيد هنا أقرب الى الظن بايعازه وتدبيره ·· لأنه جرى عليه طوال حكمه والقى حبل ولاته على غاربهم وهو لاه بصيده وعبثه ، وأنه ربما ارتاح في سريرتـه بادىء الأمر الى فعلة ابن زياد وأعوانه ·· ولكنه ما عتم أن رأى بوادر العواقب توشك أن تطبق عليه بالوبال من كل جانب ، حتى تيقظ من غفلته بعد فوات الوقت فعمد الى المحاسنة والاستدراك جهد ما استطاع ، ولم يكن في يقظته على هذا معتصما بالحكمة والسداد ··

ولقد رأى البوادر منه غير بعيد ، ولما تنقض ساعات على ذيوع الخبر في بيته قبل عاصمة ملكه ·· فنعى ابن الحكم فعلة ابن زياد ، وناح نساؤه مشفقات من هول ما سمعن ورأين ، وبكى ابنه الورع الصالح معاوية فكان يقول اذا سئل : « نبكي على بني أمية لا على الماضين من بني هاشم » ··

ومهما تكن غفلة يزيد ، فما أحد قط يلمح تلك البوادر ثم يجهل أنها ضربة هوجاء لن تذهـب بغـير جريرة ، ولن تهون جريرتها في الحاضر القريب ولا في الآتي البعيد ··

والواقع انها قد استتبعت بعدهـا جرائر شتـى لا جريرة واحدة ، وما تنقضي جرائرها الى اليوم ··

فلم تنقض سنتان حتى كانت المدينة في ثورة حنـق جارف يقتلع السدود ويخترق الحدود ·· لأنهم حملوا اليها خبر الحسين محمل التشهير والشماتة · وضحك واليهم عمرو بن سعيد حين

سمع أصوات البكاء والصراخ من بـ ت آل النبي ، فكان يتمثل قول عمرو بن معد يكرب :

عجت (١) نسـاء بنـي زياد عجـة
كعجيـج نسوتنـا غـداة الأرتـب

وكانت بنت عقيل بن أبي طالب تخرج في نسائهـا حاسرة وتنشد :

ماذا تقولون ان قـال النبي لكـم :
ماذا فعلتم •• وأنتـم آخر الأمـم ؟
بعترتي ، وبأهلي ، بعـد مفتقدي ••
منهم أسـارى ومنهم ضرجوا بـدم
ما كان هـذا جزائي اذ نصحـت لكم
أن تخلفوني بسـوء في ذوي رحمـي

فكان الأمويون يجيبون بمثل تلك الشماتة ، ويقولون كما قال عمرو بن سعيد : « ناعية كناعية عثمان » •

ولا موضع للشماتة هنا بالحسين ، لأنه قد أصيب على باب عثمان وهو يذود عنه ويجتهد في سقيه وسقي آل بيته •• ولكنها شماتة هوجاء لا تعقل ما تصنع ولا ما تقول •

ثـورة المدينـة

وللقدر المتـاح لجت بالولاة الأمويين رغبتهـم في تلفيـق « المظاهرات الحجازية » ، فلم يرعوا ما بأهل المدينة من الحزن اللاعج (١) والأسى الدفين • وجعلوا همهم كله أن يكرهـوا القوم على نسيان خطب الحسـين واصطنـاع الولاء المغتصب ليزيد • فحملوا الى دمشق وفدا من أشراف المدينة لم يـ ـثوا أن عادوا اليها منكرين لحكم يزيد مجمعين على خلع بيعته • و• احوا

(١) عج : صاح ورفع صوته •

(١) المحرق •

يقولون لأهل المدينة : « انا قدمنا من عند رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ، ويضرب بالطنابير ، ويعزف عنده القيان ، ويلعب بالكلاب ، ويسمر عنده الخراب » .

وقال رئيسهم عبد الله بن حنظلة الأنصاري وهو ثقة عند القوم لصلاحه وزهده : « لو لم أجد الا بني هؤلاء ـ وكان له ثمانية بنين ـ لجاهدت بهم . وقد أعطاني وما قبلت عطاءه الا لأتقوى به » .

والتهبت نار الثورة بالألم المكظوم والدعوة الموصولة فأخرج المدنيون والي يزيد وجميع من بالمدينة من الأمويين ومواليهم وأعلنوا خلعهم للبيعة ..

وصدق ابن حنظلة النية ، فكان يقدم بنيه واحدا بعد واحد حتى قتلوا جميعا ، وقتل بعدهم أنفة من حياة يسام فيها الطاعة ليزيد وولاته ..

وبدا في ثورة المدينة أن يزيد لم يستفد كثيرا ولا قليلا من عبرة كربلاء ، لأنه سلط على أهلها رجلا لا يقل في لؤمه وغله وسوء دخلته ، وولعه بالشر والتعذيب ، وعبثه بالتقتيل والتمثيل ، عن عبيد الله بن زياد ، وهو مسلم بن عقبة المري . فأمره أن يسوم الثائرين البيعة بشرطه ، وأن يستبيح مدينتهم ثلاثة أيام ان لم يبادروا الى طاعته ، وكان شرطه الذي سامهم اياه بعد اقتحام المدينة وانقضاء الأيام الثلاثة التي انتظر فيها طاعتهم « انهم يبايعون أمير المؤمنين على انهم خول له يحكم في دمائهم وأموالهم ما شاء » .

واذا كان شيء أثقل على النفوس من هذا الشرط ، وأقبح في الظلم من استباحة الأرواح والأعراض في جوار قبر النبي عليه السلام .. فذاك هو ولاية هذا النكال بيد مجرم مفطور على الغل والضغينة مثل مسلم بن عقبة ، كأنه يلقي على الناس وزر مرض النفس ومرض الجسد ومرض الدم الذي أبلاه ، ولم يبل ما في طويته من رجس ومكيدة . « فاستعرض أهل المدينة بالسيف جزرا كما يجزر القصاب الغنم ، حتى ساخت الأقدام في الدم وقتل أبناء المهاجرين والأنصار » .

وأوقع كما قال ابن كثير « من المفاسد العظيمة في المدينة النبوية ما لا يحد ولا يوصف » •• ولم يكفه أن يسفك الدماء ويهتك الأعراض حتى يلتذ باثارة الآمال والمخاوف في نفوس صرعاه قبل عرضهم على السيف ، فلما جاءوه بمعقل بن سنان صاحب رسول الله هش له وتلقاه بما يطمعه ، ثم سأله « أعطشت يا معقل ؟•• حوصوا له شربة من سويق اللوز الذي زودنا به أمير المؤمنين » •• فلما شربها قال له : « أما والله لا تبولها من مثانتك أبدا •• وأمر بضرب عنقه •• » •

ويروي ابن قتيبة أن عدد من قتل من الأنصار والمهاجرين والوجوه ألف وسبعمائة ، وسائرهم من الناس عشرة آلاف سوى النساء والصبيان ••

وحادث واحد من حوادث التمثيل والاستباحة يدل على سائر الحوادث من أمثاله •• دخل رجل من جند مسلم بن عقبة على امرأة نفساء من نساء الأنصار ومعها صبي لها • فقال : « هل من مال ؟ » •

قالت : « لا •• والله ما تركوا لنا شيئا » •

قال : « والله لتخرجن الي شيئا أو لأقتلنك وصبيك هذا » •

فقالت له : « ويحك •• انه ولد ابن أبي كبشة الأنصاري صاحب رسول الله » • فأخذ برجل الصبي والثدي في فمه ، فجذبه من حجرها فضرب به الحائط فانتثر دماغه على الأرض •

وهو مثل من أمثال قد تكررت بعدد تلك البيوت التي قتل فيها أولئك الألوف من النسوة والاطفال والآباء والأمهات •••

وقد مات هذا السفاح وهو في طريقه الى مكة يهم بأن يعيد بها ما بدأ بالمدينة •• فدفن في الطريق وتعقبه بعض الموتورين من أهل المدينة فنبشوا قبره وأحرقوه •

جريرة العدل

ولم تنقض سنوات أربع على يوم كربلاء حتى كان يزيد قد قضى نحبه ، ونجمت بالكوفة جريرة العدل التي حاقت بكل من مد يدا الى الحسين وذويه ••

فسلط الله على قاتلي الحسين كفؤا لهم في النقمة والنكال يفل حديدهم بحديده ويكيل لهم بالكيل الذي يعرفونه • وهو المختار بن أبي عبيد الثقفي داعية التوابين من طلاب ثأر الحسين • فأهاب بأهل الكوفة أن يكفروا عن تقصيرهم في نصرته، وأن يتعاهدوا على الأخذ بثأره فلا يبقين من قاتليه أحد ينعم بالحياة ، وهو دفين مذال (١) القبر في العراء ••

فلم ينج عبيد الله بن زياد ، ولا عمرو بن سعد ، ولا شمر بن ذي الجوشن ، ولا الحصين بن نمير ، ولا خولي بن يزيد ، ولا أحد ممن أحصيت عليهم ضربة أو كلمة أو مدوا أيديهم بالسلب والمهانة الى الموتى أو الأحياء ••

وبالغ في النقمة فقتل وأحرق ومزق وهدم الدور وتعقب الهاربين ، وجوزي كل قاتل أو ضارب أو ناهب بكفاء عمله •• فقتل عبيد الله وأحرق ، وقتل شمر بن ذي الجوشن وألقيت أشلاؤه للكلاب ، ومات مئات من رؤسائهم بهذه المثلات وألوف من جندهم وأتباعهم مغرقين في النهر أو مطاردين الى حيث لا وزر لهم ولا شفاعة •• فكان بلاؤهم بالمختار عدلا لا رحمة فيه ، وما نحسب قسوة بالآثمين سلمت من اللوم أو بلغت من العذر ما بلغته قسوة المختار •

ولحقت الجريرة الثالثة بأعقاب الجريرة الثانية في مدى سنوات معدودات ••

فصمد الحجاز في ثورته أو في تنكره لبني أمية الى أيام عبد الملك بن مروان ، وكان أحرج الفريقين من سبق الى أحرج المعملين • وأحرج المعملين ذاك الذي دفع اليه ــ أو اندفع اليه ــ الحجاج عامل عبد الملك •• فنصب المنجنيق على جبال مكة ، ورمى الكعبة بالحجارة والنيران فهدمها وعفى (١) على ما تركه منها جنود يزيد بن معاوية • فقد كان قائده الذي خلف مسلم بن عقبة وذهب لحصار مكة أول من نصب لها المنجنيق وتصدى لها بالهدم والاحراق ••

---

(١) اذال غلامه : أهانه •

(١) عفت الريح الدار : محتها ودرستها •

وما زالت الجرائر تتلاحق حتى تقوض من وطأتها ملك بني أمية ، وخرج لهم السفاح الأكبر وأعوانه في دولة بني العباس •• فعموا بنقمتهم الأحياء والموتى ، وهدموا الدور ، ونبشوا القبور ، وذكر المنكوبون بالرحمة فتكات المختار بن أبي عبيد ، وتجاوز الثأر كل مدى خطر على بال هاشم وأمية يوم مصرع الحسين •

لقد كانت ضربة كربلاء ، وضربة المدينة ، وضربة البيت الحرام ، أقوى ضربات أمية لتمكين سلطانهم وتثبيت بنيانهم وتغليب ملكهم على المنكرين والمنازعين •• فلم ينتصر عليهم المنكرون والمنازعون بشيء كما انتصروا عليهم بضربات أيديهم ولم يذهبوا بها ضاربين حقبة ، حتى ذهبوا بها مضروبين الى آخر الزمان •

وتلك جريرة يوم واحد هو يوم كربلاء •• فاذا بالدولة العريضة تذهب في عمر رجل واحد مديد الأيام ، واذا بالغالب في يوم كربلاء أخسر من المغلوب اذا وضعت الأعمار المنزوعة في الكفتين ••

***

من الظافر ؟

غبن أن يفوت الانسان جزاؤه الحق على عمله وخلقه ..

وأثقل منه في الغبن أن ينقلب الأمر فيجزى المحسن بالاساءة، ويجزى المسيء بالاحسان ..

وقد تواضع الناس منذ كانوا على معنى للتاريخ والأخلاق ، ووجهة للشريعة والدين ..

والجزاء الحق هو الوجهة الواحدة التي تلتقي فيها كل هذه المقاصد الرفيعة .. فاذا بطل الجزاء الحق ففي بطلانه الاخلال كل الاخلال بمعنى التاريخ والأخلاق ، ولباب الشرائع والأديان . وفيه حكم على الحياة بالعبث وعلى العقل الانساني بالتشويه والخسار .

والجزاء الحق غرض مقصود لذاته يحرص عليه العقل الانساني كرامة لنفسه ويقينا من صحته وحسن أدائه ، كالنظر الصحيح نحسبه هو غرضا للبصر يرتاح الى تحقيقه ويحزن لفواته وان لم يكن وراء ذلك ثواب أو عقاب ، لأن النظر الصحيح سلامة محبوبة والاخلال به داء كريه .

ولا يستهدف هذا القسطاس المستقيم لمحنة من محنه التي تزري بكرامة العقل الانساني ، كاستهدافه لها وهو في مصطدم التضحية والمنافع ، أو في الصراع بين الشهداء وأصحاب الطمع والحيلة ..

ففي هذا المصطدم يبدو للنظرة الأولى أن الرجل قد أضاع كل شيء وانهزم ، وهو في الحقيقة غانم ظافر .

ويبدو لنا أنه قد ربح كل شيء وانتصر وهو في الحقيقة خاسر مهزوم ..

ومن هنا يدخل التاريخ ألزم مداخله وأبينها عن قيمة البحث فيه ، لأنه المدخل الذي يفضي الى الجزاء الحق والنتيجة الحقة ، وينتهي بكل عامل أفلح أو أخفق في ظاهر الأمر الى نهاية مطافه وغاية مسماه في الأمد الطويل ·

وقد ظفر التاريخ في الصراع بين الحسين بن علي ويزيد بن معاوية بميزان من أصدق الموازين التي تتاح لتمحيص الجزاء الحق في أعمال الشهداء وأصحاب الطمع والحيلة ، فقلما تتاح في أخبار الأمم شرقا أو غربا عبرة كهذه العبرة بوضوح معالمها أو أشواطها ، وفي تقابل النصر والهزيمة فيها بين الطوالع والخواتم ، على اختلاف معارض النصر والهزيمة ··

فيزيد في يوم كربلاء هو صاحب النصر المؤزر الذي لا يشوبه خذلان ··

وحسين في ذلك اليوم هو المخذول الذي لم يطمح خاذله من وراء الظفر به الى مزيد ··

ثم تنقلب الآية أيما انقلاب ··

ويقوم الميزان ، فلا يختلف عارفان بين كفة الرجحان وكفة الخسران ··

وهذا الذي قصدنا الى تبيينه وجلائه بتسطير هذه الفصول ·

وما من عبرة أولى من هذه بالتبيين والجلاء لدارس التاريخ ودارس الحياة وطالب المعنى البعيد في أطوار هذا الوجود ·

ولسنا نقول ان الصراع بين الحسين ويزيد مثل جامع لكل ألوان الصراع بين الشهادة والمنفعة أو بين الايمان والمآرب الأرضية ، فان لهذا الصراع لألوانا تتعدد ولا تتكرر على هذا المثال ، وان له لعناصر لم تجتمع كلها في طرفي الخصومة بين الرجلين ، وأشواطا لم تتخذ الطريق الذي اتخذته هذه الخصومة في البداية أو النهاية ·

ولسنا نقول أن الصراع بين الحسين ويزيد مثل جامع لكل ألوان الصراع وتفردها بارزة ماثلة للتأمل والتعقيب ، وهي ان مسألة الحسين ويزيد قد كانت صراعا بين خلقين خالدين ، وقد

كانت جولة من جولات هذين الخلقين اللذين تجاولا أحقابا غابرات ولا يزالان يتجاولان فيما يلي من الأحقاب ، وقد أسفرا عن نتيجة فاصلة ينفرد لها مكان معروف بين سائر الجولات ، وليست جولة أخرى منهن بأحق منها بالتعليق والتصديق ••

ووجهتنا من هذه العبرة أن يعطى كل خلق من أخلاق العاملين حقه بمعيار لا غبن فيه ••

فاذا سعى أحد بالحيلة فخدع الناس وبلغ مأربه فليكن ذلك مغنمه وكفى ، ولا ينفعه ذلك في استلاب السمعة المحبوبة والعطف الخالص والثناء الرفيع ••

واذا خسر أحد حياته في سبيل ايمانه فلتكن تلك خسارته وكفى ، ولا ينفعه ذلك في استلاب السمعة المحبوبة والعطف الخالص والثناء الرفيع ••

واذا خسر أحد حياته في سبيل ايمانه فلتكن تلك خسارته وكفى ، ولا ينكب فوق ذلك بخسارة في السمعة والعطف والثناء •

فلو جاز هذا لكان العطف الانساني أزيف ما عرفناه في هذه الدنيا من الزيوف ، لأن خديعة واحدة تشتريه وتستبقيه • وما من زيف في العروض الأخرى الا وهو ينطلي يوما وينكشف بقية الأيام ••

واذا كان احتيال الانسان لنفسه معطيه كل ما تهبه الدنيا من غنم النفع والمحبة والثناء ، فقد ربح المحتالون وخسر نوع الانسان •

واذا كانت خسارة المرء في سبيل ايمانه تجمع عليه كل خسارة ، فالأحمق الفاشل من يطلب الخير للناس ويغفل عن نفسه في طلابه •

فكفى الواصل ما وصل اليه ••

وكثير عليه أن يطمع عند الخلف والسلف فيما ادخرته الانسانية من الثناء والعطف لمن يكرمونها بفضيلة الشهادة والتضحية ، ويخسرون •

وهذا الفيصل (١) العادل أعدل ما يكون فيما بين الحسين ويزيد ..

فاذا قيل ان معاوية قد عمل وقد أفلح بالحيلة والدهاء ، فيزيد لم يعمل ولم يفلح بحيلة ولا دهاء .. ولكنه ورث المنافع التي يشتري بها الأيدي والسيوف ، فجال بها جولة رابحة في كفاح الضمائر والقلوب .

فينبغي ألا يربح بهذه الوسيلة ، فأما وقد ربح .. فينبغي أن يقف الربح عند ذاك ، وينبغي للعذر الكاذب والثناء المأجور ألا يحسبا على الناس بحساب العذر الصادق والثناء الجميل .

وقد تزلف الى يزيد من يتزلفون الى أصحاب المال والسلطان ثم أخذوا أجورهم ، فينبغي أن يقوم ذلك الثناء بقيمة تلك الأجور وأن يكون ما قبضوه من أجر غاية ما استحقوه ، ان كانوا مستحقيه .

أما أن يضاف ثناء الخلود الى صفقة أولئك المأجورين ، فقد أصبح ثناء الخلود اذن صفقة بغير ثمن ، أو هو علاوة مضمونة على صفقة كل مأجور ..

ان صاحب الثناء المبذول لا يسأل عن شيء غير العطاء المبذول ، ولكن التاريخ خليق أن يسأل عن أعمال وأقوال قبل أن يبذل ما لديه من ثناء .

وليس في تاريخ يزيد عمل واحد صحيح أو مدعى ولا كلمة واحدة صحيحة أو مدعاة ، تقيمه بحيث أراده المأجورون من العذر الممهد والمدح المعقول ، أو تخوله مكان الترجيح في الموازنة بينه وبين الحسين ..

كل أخطائه ثابتة عليه ــ ومنها بل كلها ــ خطؤه في حق نفسه ودولته ورعاياه . وليس له فضل واحد ثابت ولا كلمة واحدة مأثورة تنقض ما وصفه به ناقدوه وعائبوه .

---

(١) الفيصل : السيف القاطع . والقضاء بين الحق والباطل . وحكم فيصل أي ماض .

فقد كانت له ندحة (١) عن قتل الحسين ، وكان يخدم نفسه ودولته لو أنه استبقاه حيث يتقيه ويرعاه ..

وكانت له ندحة عن ضرب الكعبة واستباحة المدينة وتسليط أمثال مسلم بن عقبة وعبيد الله بن زياد على خلائق الله .

وكانت له ندحة عن السمعة التي لصقت به ولم تلصق به افتراء ولا ادعاء كما يزعم صنائعه ومأجوروه ، لأن واصفيه بتلك السمعة لم يلصقوا مثلها بأبيه ..

ومن كان حقه في النعمة التي نعم بها مغتصبا ينتزعه عنوة ، لا يكن حقه في الفضل والكرامة جزافا (٢) لا حسيب عليه .

وتسديد العطف الانساني هنا فرض من أقدس الفروض على الناظرين في سير الغابرين . لأن العطف الانساني هو كل ما يملك التاريخ من جزاء ، وهو الثروة الوحيدة التي يحتفظ بها الخلود ..

واننا لندع الخطأ في سياسة النفعيين ، وننظر اليهم كأنهم مصيبون في السياسة بصراء بمواقع التدبير .

فعلى هذه الصفة ـ لو تمت لهم ـ لا يحق لخادم زمانه أن ينازع الشهداء في ذخيرة العطف الخالد ، وهم خدام العقائد التي تتخطى حياة الأجيال كما تتخطى حياة الأجيال كما تتخطى حياة الأفراد ..

فان حرمان الشهداء حقهم في عطف الأسلاف خطأ في الشعور ، وخطأ كذلك في التفكير ..

والناس خاسرون اذا بطل عطفهم على الشهداء ، وليس قصارى أمرهم أنهم قساة أو جاحدون .. لأن الشهادة فضيلة تروح وتأتي وتكثر حينا وتندر في غير ذلك من الأحيان . أما حب المنفعة فان سميته فضيلة فهو من الفضائل التي لن تفارق الأحياء أجمعين ، من ناطقة وعجماء .

على أن الطبائع الآدمية قد أشربت حب الشهداء والعطف عليهم وتقديس ذكرهم بغير تلقين ولا نصيحة ، وانما تنحرف

---

(١) سعة .

(٢) الجزاف بالضم : بيع الشيء وشراؤه من غير وزن ولا كيل .

عن سواء هذه السنة لعوارض طارئة أو باقية تمنعها أن تستقيم معها • وأكثر ما تأتي هذه العوارض من تضليل المنفعة والهوى القريب ، أو من نكسة في الطبع تغريه بالضغن على كل خلق سوي وسجية سمحة محببة الى الناس عامة ، أو من الافراط في حب الدعة حتى يجفل المرء من الشهادات استهوالا لتكاليفها واستعظاما للقدوة بها ، فيتهم الشهداء بالهوج ويتعقب أعمالهم بالنقد لكيلا يتهم نفسه بالجبن والضعة ويستحق المذمة واللوم في رأي ضميره • وان لم يتهمهم بالهوج ولم يتعقبهم بالنقد ، وقف من فضائلهم موقف ازورار وفتور •• وجنح الى معذرة الآخرين والتفاهم بينه وبين من لا يستشهدون ، ثم يعارضون الشهداء فيما يطمحون اليه •

ومعظم المؤرخين الذين يعارضون الشهداء ودعاتهم لغير منفعة أو نكسة هم من أصحاب الدعة المفرطة وأنصار السلامة الناجية ، ويغلب على هذه الخلة أن تسلبهم ملكة التاريخ الصحيح لانها تعرضهم للخطأ في الحكم والتفكير ، كما تعرضهم للخطأ في العطف والشعور •

ومن المعقبين على تاريخ هذه الفترة عندنا ــ في العربية ــ مؤرخ يتخذ منه المثل لكل من العذر والعطف حين يصل الأمر الى الاستشهاد كراهة للظلم ودرءا للمنكرات ، وهو الأستاذ محمد الخضري صاحب تاريخ الأمم الاسلامية رحمه الله ••

ففي تعقيبه على ثورة المدينة التي قدمنا الاشارة اليها يقول: ان الانسان ليعجب من هذا التهور الغريب والمظهر الذي ظهر به أهل المدينة في قيامهم وحدهم بخلع خليفة في امكانه أن يجرد عليهم من الجيوش ما لا يمكنهم أن يقفوا في وجهه • ولا ندري ما الذي كانوا يريدونه بعد خلع يزيد ؟•• أيكونون مستقلين عن بقية الأمصار الاسلامية ، لهم خليفة منهم يلي أمرهم أم حمل بقية الأمة على الدخول في أمرهم ؟ وكيف يكون هذا وهم منقطعون عن بقية الأمصار ولم يكن معهم في هذا الامر أحد من الجنود الاسلامية ؟•• انهم فتقوا فتقا وارتكبوا جرما فعليهم

جزء عظيم من تبعة انتهاك حرمة المدينة ، وكان اللازم على يزيد وأمير الجيش أن لا يسرف في معاملتهم بهذه المعاملة •• فانه كان من الممكن أن يأخذهم بالحصار •• » •

ويخيل اليك وأنت تقرأ كلام الأستاذ عن هذه الفترة كلها أن لديه أعذارا ليزيد وليس لديه عذر لأهل المدينة • لأنه يفهم كيف يغضب المرء لما في حوزته ، ولا يفهم كيف تضيق به كرامة الظلم وغيرة المقيدة عن الاحتمال ••

وشعوره هذا يحول بينه وبين الحكم الصحيح على حوادث التاريخ ، لأنه يحول بينه وبين انتظار هذه الحوادث حيث تنتظر لا محالة ، واستبعادها حيث هي بعيدة عن التقدير •

فلم يحدث قط في مواجهة الظلم وانتزاع الدول المكروهة أن شعر الناس كما أرادهم الأستاذ أن يشعروا أو فكروا في الأمر كما أرادهم أن يفكروا ••

ومستحيل حدوث هذا أشد الاستحالة ، وليس قصاراه (١) أنه لم يحدث من قبل في حركات التاريخ ••

فهذه الحركات التي تواجه الدول المكروهة لا تنتظر — ولا يمكن أن تنتظر — حتى تربي قوتها وعدتها على ما في أيدي الدولة التي تكرهها من قوة وعدة ••

ولكنها حركة أو دعوة تبدأ بفرد واحد يجترىء على ما يهابه الآخرون ، ثم يلحق به ثان وثالث ورابع ما شاء له الاقتناع وضيق الذرع بالأمور ، ثم ما ينالهم من نقمة فيشيع الغضب وينكشف الظلم عمن كان في غفلة عنه ، ثم يشتد الحرج بالظالم فيدفعه الحرج الى التخبط على غير هدى ، ويخرج من تخبط غليظ أحمق الى تخبط أغلظ منه وأحمق •• فلا هم يقفون في امتعاضهم وتذمرهم ولا هو يقف في بطشه وجبروته ، حتى يغلو به البطش والجبروت فيكون فيه وهنه والقضاء عليه •

على هذا النحو يعرف المؤرخ الذي يعالج النفوس الآدمية ما هو من طبعها وما هو خليق أن ينتظر منها ، فلا يعالجها حق

---

(١) قصارى بضم القاف : الجهد والغاية •

العلاج على أنها مسألة جمع وطرح في دفتر الحساب بين هـذا الفريق وذاك الفريق .

وعلى هذا النحو تكون حركة الحسين قد سلكت طريقهـا الذي لا بد لها أن تسلكه ، وما كان لها قط من مسلك سواه

وصل الأمر في عهد يزيد الى حد لا يعالج بغير الاستشهاد وما نحا منحاه ..

وهذا هو الاستشهـاد ومنحـاه . وهو ـ بالبداهـة التي لا تحتاج الى مقابلة طويلة ـ منحى غير منحى الحساب والجمع والطرح في دفاتر التجار .

ومع هذا يدع المؤرخ طريق الشهادة تمضي الى نهاية مطافها ثم يتناول دفتر التجار كما يشاء .. فانه لواجد في نهاية المطاف أن دفتر التجار لن يكتب الربح آخرا الا في صفحة الشهداء .

فالدعاة المستشهدون يخسرون حياتهم وحياة ذويهم ،ولكنهم يرسلون دعوتهم من بعدهم ناجحة متفاقمة فتظفر في نهايـة مطافها بكل شيء حتى المظاهر العرضية والمنافع الأرضية ...

وأصحاب المظاهر العرضية والمنافع الأرضية يكسبون في أول الشوط ثم ينهزمون في وجه الدعوة المستشهدة حتى يخسروا حياتهم أو حياة ذويهم ، وتوزن حظوظهم بكل ميزان ، فاذا هم بكل ميزان خاسرون ...

وهكذا أخفق الحسين ونجح يزيد ...

ولكن يزيد ذهب الى سبيله وعوقب أنصاره في الحياة والحطام والسمعة بعده بشهور ، ثم تقوضت دولته ودولة خلفائه في عمر رجل واحد لم يجاوز الستين ..

وانهزم الحسين في كربلاء وأصيب هو وذووه من بعده ولكنه ترك الدعوة التي قام بها ملك العباسيين والفاطميين وتملك بها أناس من الأيوبيين والعثمانيين ، واستظل بها الملوك والأمراء بين العرب والفرس والهنود ، ومثل للناس في حلـة من النور تخشع لها الأبصار ..

وباء بالفخر الذي لا فخر مثله في تواريخ بني الانسان غير مستثنى منهم عربي ولا أعجمي ولا قديم ولا حديث .

أبو الشهداء

فليس في العالم أسرة أنجبت من الشهداء من أنجبتهم أسرة الحسين عدة وقدرة وذكرة •• وحسبه أنه وحده في تاريخ هذه الدنيا الشهيد ابن الشهيد أبو الشهداء في مئات السنين ••

وأيسر شيء على الضعفاء الهازلين أن يذكروا هنا طلب الملك ليغمروا به شهادة الحسين وذويه ••

فهؤلاء واهمون ضالون مغرقون في الوهم والضلال ••

لأن طلب الملك لا يمنع الشهادة ، وقد يطلب الرجل الملك شهيدا قديسا ويطلبه وهو مجرم بريء من القداسة ••

وانما هو طلب وطلب ، وانما هي غاية وغاية ، وانما المعول في هذا الأمر على الطلب لا على المطلوب •

فمن طلب الملك بكل ثمن ، وتوسل له بكل وسيلة ، وسوى فيه بين الغصب والحق وبين الخداع والصدق وبين مصلحة الرعية ومفسدتها ، ففي سبيل الدنيا يعمل لا في سبيل الشهادة •

ومن طلب الملك وأباه بالثمن المعيب ، وطلب الملك حقا ولم يطلبه لأنه شهوة وكفى ، وطلب الملك وهو يعلم أنه سيموت دونه لا محالة ، وطلب الملك وهو يعتز بنصر الايمان ولا يعتز بنصر الجند والسلاح ، وطلب الملك دفعا للمظلمة وجلبا للمصلحة كما وضحت له بنور ايمانه وتقواه ، فليس ذلك بالعامل الذي يخدم نفسه بعمله ، ولكنه الشهيد الذي يلبي داعي المروءة والأريحية ويطيع وحي الايمان والعقيدة ويضرب للناس مثلا يتجاوز حياة الفرد الواحد وحياة الأجيال الكثيرة ••

من ثم يقيم الآية على حقيقة الحقائق في أمثال هذا الصراع بين الخلقين أو بين المزاجين والتاريخين ..

وهي ان الشهادة خصم ضعيف مغلوب في اليوم والأسبوع والعام ..

ولكنها أقوى الخصوم الغالبين في الجيل والأجيال ومدى الأيام .

وهي حقيقة تؤيدها كل نتيجة نظرت اليها بعين الأرض أو بعين السماء على أن تنظر اليها في نهاية المطاف .

ونهاية المطاف هي التي يدخلها « نوع الانسان » في حسابه ويوشج (١) عليها وشائج عطفه واعجابه . لأنه لا يعمل لوجبات ثلاث في اليوم ، ولا ينظر الى عمر واحد بين مهد ولحد ، ولكنه يعمل للدوام وينظر الى الخلود ..

* * *

---

(١) يربط ويعلق ويشبك .

عاشق الجمال

اذا لحقت السيرة بعالم المثال الذي يتطلع اليه خيال الشعراء وتتغنى به قرائح أهل الفن ، فقد تنزهت عن ربقة (١) الجسد وأصبحت صورة من الصور المثلى في عالم الجمال ..

ومن آيات الجمال انه يتحدى المنفعة ويؤثر البطولة على السلامة ..

فاذا تعلقت القريحة بالجمال ، فلا جرم تزن الأمور بغير ميزان الحساب والصفقات .. فتعرض عن النعمة وهي بين يديها وتقبل على الألم وهي ناظرة اليه ، وتلزمها سجية العشق الآخذ بالأعنة ، فتنقاد له ولا تنقاد لنصيحة ناصح أو عذل عاذل .. لأن المشغوف بالجمال ينشده ولا يبالي ما يلقاه في سبيله ..

وقد تمثلت سجية عاشق الجمال في كل شعر نظمه شعراء الحسين وذويه تعظيما لهم وثناء عليهم .. فلم يتجهوا اليهم ممدوحين وانما اتجهوا اليهم صورا مثلى يهيمون بها كما يهيم المحب بصورة حبيبه ، ويستعذبون من أجلها ما يصيبهم من ملام وايلام .

وفي معنى كهذا المعنى يقول الكميت شاعر أهل البيت :

طربت وما شوقا الى البيض أطرب
ولا لعبا مني ، وذو الشيب يلعب

---

(١) الربقة : عروة في حبل تجعل في عنق البهيمة او يدها تمسكها .

ولم يلهني دار ولا رسم منزل
ولم يتطربني بنان مخضب
ولا أنا ممن يزجر الطير همه
أصاح غراب أم تعرض ثعلب
ولا السانحات البارحات عشية
أمر سليم القرن أم أمر أعضب (١)
ولكن الى أهل الفضائل والنهى
وخير بني حواء ، والخير يطلب
الى النفر البيض الذين بحبهم
الى الله فيما نالني أتقرب
بني هاشم ، رهط النبي ، فانني
بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب
خفضت لهم مني جناحي مودة
الى كنف عطفاه أهل ومرحب
يشيرون بالأيدي الي وقولهم
ألا خاب هذا ، والمشيرون أخيب
فطائفة قد كفرتني بحبكم
وطائفة قالوا : مسيء ومذنب
فما ساءني تكفير هاتيك منهم
ولا عيب هاتيك التي هي أعيب

---

(١) السانح : الطير الذي يمر من اليسار الى اليمين وعكسه البارح ، والاعضب : المكسور ·

يعيبونني من حبهم وضلالهم
على حبكم ، بل يسخرون وأعجب
وقالوا : ترابي (١) هواه ورأيه
بذلك أدعى فيهم وألقب
على ذاك اجرياي ، فيكم ضريبتي
ولو جمعوا طرا علي وأجلبوا
وأحمل أحقاد الأقارب فيكم
وينصب لي في الأبعدين فانصب

وقد مر بنا حديث زين العابدين رضي الله عنه ، وهو غلام عليل أوشك أن يتخطفه الموت بكلمة من عبيد الله بن زياد لأنه استكبر « أن تكون به جرأة على جوابه » .

فهذا الغلام العليل قد عاش حتى انعقد له ملك القلوب حيث انعقد ملك الأجسام لهشام بن عبد الملك سيد ابن زياد وآله ..

وذهب هشام بين جنده وحشمه يحج البيت ويترضى الناس ، فلم يخلص الى الحجر الأسود لتزاحم الحجيج عليه . وانه لجالس على كرسيه ينتظر انفضاض الناس اذا بزين العابدين يقبل الى الحجر الأسود في وقاره وهيبته ، فيتنحى له الحجيج ويحفوا به وهو يستلم الحجر مطمئنا غير معجل .. ثم يعود من حيث أتى والناس مشيعوه بالتجلة والدعاء .

وتهول رجلا من حاشية هشام هذه المهابة التي لم يرها لمولاه فيسأل : « من هذا الذي هابه الناس هذه الهيبة ! » .

ويخشى هشام أن يطلع جنده على مكانة رجل لم يتطاول الى

---

(١) من كني علي بن ابي طالب « ابو تراب » وترابي نسبة اليه .

مثل مكانته بسلطانه وعتاده فيقول : « لا أعرفه » .. ويقتضب الجواب .

وهذا الذي تصدى له شاعر آخر قد غامر بحياته ونواله ليقول بالقصيد المحفوظ ما ثقل على لسان هشام أن يقوله في كلمتين عابرتين ..

وذلك هو الفرزدق حيث قال :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته
والبيت يعرفه والحيل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم
هذا التقي النقي الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة ان كنت جاهله
بجده أنبياء الله قد ختموا
وليس قولك من هذا بضائره
العرب تعرف من أنكرت ، والعجم
اذا رأته قريش قال قائلها :
الى مكارم هذا ينتهي الكرم
من معشر حبهم دين ، وبغضهم
كفر ، وقربهم منجى ومعتصم

وتصدى عبيد الله بن كثير لأمير مكة ــ خالد بن عبيد الله ــ فلعنه وهو قادر على قتله لأنه يلعن عليا وحسينا في خطبه ، وأنشد :

لعن الله من يسب عليا
وحسينا من سوقة وامام

أيسب المطهرون جدودا

والكرام الآباء والأعمام

يأمن الطير والحمام ولايا

من آل الرسول عند المقام

طبت بيتا وطاب أهلك أهلا

أهل بيت النبي والاسلام

رحمة الله والسلام عليه

كلما قام قائم بسلام

وتنقضي السنون وتتسامح العربية بشاعر فحل لم يسلم من لسانه أحد ، ولم ينزه أحدا من المجزلين أو المقترين عليه عن استحقاق الهجاء .. فكان ينشد الأبيات المقذعة ، ويسأل عن صاحبها فيقول : « لم يستحقها أحد بعينه بعد ، ولسوف يستحقها كثيرون » .

هذا الشاعر العجيب هو دعبل الخزاعي الذي يهز أوتار النفوس بأمثال هذه الأبيات في آل البيت :

مدارس آيات خلت من تلاوة

ومنزل وحي مقفر العرصات ! ..

لآل رسول الله بالخيف من منى

وبالركن والتعريف والجمرات

ديار علي ، والحسين وجعفر

وحمزة ، والسجاد ذي الثفنات (١)

(١) كان علي بن الحسين يلقب بذي الثفنات لان جبهته اصبحت كثفنة البعير — أي ركبته — من كثرة السجود .

ديار عفاها كل جون مبادر
ولم تعف للأيام والسنوات

الى أن يقول :

ملامك في أهل النبي فانهم
أحباي ما عاشوا وأهل ثقاتي

فيا رب زدني من يقيني بصيرة
وزد حبهم يا رب في حسناتي

أحب قصي الرحم من أجل حبهم
وأهجر فيهم أسرتي وبناتي

لقد حفت الأيام حولي بشرها
واني لأرجو الأمن بعد وفاتي

ألم تر أني من ثلاثين حجة
أروح وأغدو دائم الحسرات

أرى فيئهم في غيرهم متقسما
وأيديهم من فيئهم صفرات

فآل رسول الله نحف جسومهم
وآل زياد حفل القصرات (١)

بنات زياد في القصور مصونة
وآل رسول الله في الفلوات !..

اذا وتروا مدوا الى أهل وترهم
أكفا عن الأوتار منقبضات !..

---

(١) القصرة الرقبة ، وحفل القصرات أي غلاظ الرقاب من السمن .

ووهب علي بن موسى الرضا للشاعر جائزة من دراهمه المضروبة باسمه وخلع عليه من ثيابه ، فبذل له أهل الشام «قم» ثلاثين ألف درهم ليبيعهم الخلعة فضن بها • ثم ترصدوا له في الطريق ليأخذوها منه عنوة تبركا وذكرى • فسمح بالمال ولم يسمح بالخلعة •• واسترضوه فلم يرض الا أن يعطوه كما من أكمامها ليدفن معه في كفنه ، وتقسموا الخلعة بينهم فخورين بها غير مبالين ما بذلوه في ثمنها •

وانقضت فترة لم تطل •• وتسامعت العربية بشاعر آخر أفحل من دعبل وأقدر منه على التصرف بالهجاء والمديح •

ذلك هو أبو العباس علي بن الرومي الذي نسي ممدوحيه من آل طاهر وبني العباس ليذكر حق حفيده الحسين يحيي بن عمر الشهيد • ولو كلفه ذكره القتل والحرمان •

وفي بعض ما ساقه من النذر لأمراء زمانه مهلكة له قلما يفلت منها قائل بحياته ، وذاك حيث يقول من قصيدته الجيمية :

غررتم لئن صدقتم أن حالة
تدوم لكم ، والدهر لونان ، أخرج
لعل لهم في منطوى الغيب ثائرا
سيسمو لكم والصبح في الليل مولج
بمجر تضيق الأرض من زفراته
له زجل ينفي الوحوش وهزمج (١)

---

(١) الهزمجة اختلاط الصوت ، والمجر الجيش الكبير • والزجل رفع الصوت •

يـود الـذي لاقـــوه أن سـلاحـــه

هنالـك خلخـال عليـه ودملج (١)

فيـدرك ثـأر الله أنصـــار دينـه

ولله أوس آخـــرون وخـزرج

ويقضـي امـام الحـق فيكـم قضاءه

مبينا ، وما كل الحوامل (٢) تخدج (٣)

وكل أولئك شاعر ينسي التقوى في مواطن شتى من عمله وقوله ولا ينساها في حق الشهداء من آل الحسين وصحبه •• لأنه يحس الجمال احساس الشعراء ويهتز « للصورة المثلى » اهتزاز الأريحية التي يحلم بها رواد الخيال • فهم هنا بمربأة (٤) من قيود العيش ووساوس الحاجة واعباء النوازع الأرضيـة ، يستوحون سليقة القول فيما ينبغي أن يقال •• فيجري على لسانهم كأنهم مسوقون اليه ••

بل كل أولئك شاعر لا يسخو بالمدح وهو موصول بالعطاء الجزيل ، ثم هو يسخو به للشهداء وآلهم على غير أمل في نوال ، وعلى خوف شديد من الحرمان والوبال ••

وشاعر آخر لم يكن يهجو من الناس هذا أو ذاك ، ولكنه كان سيىء الظن بالناس أجمعين •• وكان يقول ما بدا له في الدنيا والدين ، ولكنه يجامل مع المجاملين فـلا يقصر عن شأوهم في السابقين أو اللاحقين •

---

(١) حلي يلبس في المعصم •

(٢) الحوامل : الحبالى • (٣) خدجت الدابة : القت ولدها قبل أوانه وان كان تام الخلق • (٤) المربأة : المكان المرتفع يراقب منه العدو •

ذلك هو أبو العلاء المعري حيث قال في الفجر والشفق :

وعلى الدهر من دماء الشهيد
ين علي ونجله شاهدان
فهما في أواخر الليل فجرا
ن ، وفي أولياته شفقان
ثبتا في قميصه ليجيء الحشـ
ـر مستعديا الى الرحمن

وان وحي الشعر من سرائر النفوس لأصدق حكما من لسان التاريخ اذا اختلف الحكمان ..

ولكنهما قد توافيا معا على مقال واحد .. فجلوا لنا من سيرة الحسين رضي الله عنه صورة الجمال في عالم المثال ، وكذلك يعيش ما عاش في أخلاد الناس .

الفهرست

الموضوع		صفحه
تقديم		٥
مقدمة المؤلف		٩
مزاجان تاريخيان	: طبائع الناس	١١
الخصومـــة	: اسباب التنافس	٢٠
الخصمان	: موازنة	٣٠
أعوان الفريقين	: رجال المعسكرين	٥١
خروج الحسين	: الحسين في مكة	٥٧
هل اصاب	: خطأ الشهداء	٧١
كربـــلاء	: الحرم المقدس	٨٦
جريرة كربلاء	: موطن الرأس	١١٠
نهاية المطاف	: من الظافر ؟	١٢٤
في عالم الجمال	: عاشق الجمال	١٣٤

عباس محمود العقاد

عَائِشَةُ

الصِّدِّيقَة بنتُ الصِّدِّيق

المرأة العربية

كانت نظرة العرب إلى المرأة نظرة طبيعية مرتجلة .

ونعني بالنظرة الطبيعية المرتجلة أنها النظرة التي لا يشوبها إحساس دخيل من وهم العقائد أو حكم التشريع ، ولكنها تمضي على الفطرة التي توحيها ضرورة الساعة أو ضرورة البيئة ، وتختلف على حسب اختلاف هذه الضرورات .

فالعرب لم يضربوا اللعنة قط على المرأة في جاهليتهم الأولى ، لأن اللعنة التي ضربت على المرأة في القرون الأولى وامتدت إلى القرون الوسطى إنما جاءت من الإيمان بالخطيئة التي انحدرت بآدم وحواء من نعيم الفردوس ، وأصبحت المرأة ملعونة موصومة بالنجاسة والشر عند بعض الناس لأنهم ألقوا عليها تبعة الشهوات التي تثيرها فيهم وجعلوها حبالة للشيطان، مذ كانوا يحسون بغوايته الخفية كلما أحسوا بغواية الشهوة الحيوانية ،ومناطها المرأة قبل غيرها من هذه الأحياء .

فالعرب لم ينظروا قط إلى المرأة هذه النظرة ، ولم يحكموا عليها قط بالنجاسة والأصالة في الشر والحبائة ، لأنهم لم يعرفوا الخطيئة بهذا المعنى في عهد الجاهلية .

كذلك لم يعرفوا التشريع الموضوع الذي يحكم عليها بالاستعباد والحطة

المتفق عليها في المنزلة الاجتماعية ، وإنما عُرِف هذا وأشباهه عند الرومان قبل الإيمان بالخطيئة وقبل الإيمان بالدين، لأنهم كانوا أصحاب ملك عريض لا غنى لهم فيه عن ترتيب الحقوق والمعاملات بين أبناء المجتمع وبناته كافة ، فلما رتبوا هذه الحقوق نظروا إلى المرأة في زمانهم نظرتهم إلى كل ضعيف تابع لغيره . ولم يلاحظوا في ذلك عنتاً خاصاً بها ولا ضغينة «جنسية» موجهة إليها دون غيرها . لأنهم نظروا هذه النظرة بعينها إلى أبنائهم الصغار وإلى القاصرين منهم على الإجمال ، فعاملوهم معاملة الضعفاء وأعطوهم من الحقوق ما يعطاه الضعفاء ، وهم مع ذلك في عزة الأقارب والأبناء .

هذه النظرة أيضاً لم يعرفها العرب في جاهليتهم الأولى ، لأنهم لم يضطروا إلى وضع تشريع كامل لدولة كاملة . ولكنهم تركوا أنفسهم على سجيتها كما تختلف بها عاداتها ومأثوراتها . وارتجلوا معاملة المرأة ارتجالاً كما تدعوهم إلى ذلك ضرورة البيئة أو ضرورة اللمحة الحاضرة . فربما عاملوها معاملة الرقيق المستضعف في بعض الأحيان . وربما نسبوا إليها الأبناء دون الآباء من الرجال في أحيان أخرى .

والمرجع في كل أولئك إلى أحوال المعيشة العامة في الجزيرة العربية .

وخلاصتها السريعة أنها أحوال نزاع شديد على المرعى وموارد الماء ، لقلة المرعى وكثرة طلاب هذا وذاك .

وهذا النزاع الشديد يجعل القدرة على « حماية الذمار » مقدمة على كل قدرة ، لأنها مسألة تتعلق بها الحياة والفناء :

وهو كذلك خليق أن يجعل المرأة في بعض الأحوال كَلاًّ ثقيلاً على عواتق ذويها ، لأنها تستنفد القوت ولا تشترك في حمايته والذود عنه .

وهذا الذي يفسر لنا كثيراً من النقائض العجيبة في الآداب العربية ، لأنها — عند الرجوع بها إلى أسبابها — لا تحسب من النقائض ولا تزال متشابهة متقاربة في الأصول .

فمن ذلك مثلاً أن الحرب نشبت بين بني بكر وبني تغلب أربعين سنة لأن البسوس ابنة منقذ أضافت رجلاً فضرب كليب ناقة ذلك الرجل وهو في ضيافة البسوس، فأقسم ابن اختها جساس لها « ليُقتلن غداً جمل هو أعظم عقراً من ناقة جارك » ، وقتل كليباً سيد بني تغلب في ثأر تلك الناقة ، أو من أجل كرامة امرأة في ناقة جارها .

وإلى جانب ذلك يعلم القارىء أن قبائل من العرب كانت تدفن بناتها في طفولتها فراراً من عارها أو إشفاقاً من نفقتها .

ويلوح أنهما نقيضان لا يلتقيان .

والواقع أنهما غير نقيضين ، وأن البيئة التي تدعو إلى إحدى الخصلتين حقيقة أن تدعو إلى الأخرى .

فإن آداب الحماية تجعل المرأة أحق شيء بأن يحمى وأن يغار عليه الحماة ، لأنها أمس بالرجل من ارض المرعى ومن ماء البئر ومن الجمل والناقة، فمن فرط فيها فما هو بقادر على حماية شيء من هذه الأشياء .

ومن هنا فرط الغيرة على العرض وإيثار الموت للبنت على العار .

وإذا رجعنا إلى الأصل في « آداب الحماية » وهو النزاع الشديد الذي أوجبه شح الأرض بالري والطعام ، فالحاجة إلى القوت خليقة أن تغري بالقسوة المهينة وأن توسوس للمعوزين في سنوات الضيق بالتخلص ممن يستنفد القوت ولا يعين على تحصيله أو الذود عن موارده ، ونعني بهن البنات الزائدات عن حاجة القبيلة في تلك السنوات .

وربما ظن بعضهم أن الوأد كله من مخافة العار كما قال البحتري وهو يعزي بني حميد ذلك العزاء العجيب عن فقد فتاة :

أتبكي من لا ينازل بالسيـ ـف مشيحاً ولا يهز اللواء

ويختم عزاءه بقوله :

ولعمري ما العجز عندي إلا أن تبيت الرجال تبكي النساء

فقد قال في تلك القصيدة .

لم يئد كثرهن قيس تميم عيلة ، بل حمية وإبـاء

يشير إلى قيس بن عاصم سيد بني تميم الذي أقسم ليئدن كل بنت ولدت له لأن ابنته اختارت صاحبها الذي سباها على العودة إلى أهلها ، فكلام البحتري إن صدق فإنما يصدق على قيس وأمثاله . ولكنه لا ينفي أن العرب وجد فيهم من يئد البنات عيلة — أي إشفاقاً من النفقة — كما وجد فيهم من يئد البنات أنفة من العار . وآية ذلك أن صعصعة بن ناجية كان يشتري البنات من آبائهن ليستحييهن فيقبلون ذلك ويبيعونهن راضين عن بيعهن ، حتى قيل إنه افتدى ثمانين ومائتي وليدة بالشراء . ولو كان آباؤهن يئدونهن خشية العار وحده لما أغنى عنهم إقصاؤهن وهن في قيد الحياة ، ولحق بهم في بيعهن عار لا يقبله من يأنف من العار .

والقرآن الكريم يقول : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق » .

ونخرج من هذا جميعه بأن هذه النقائض الظاهرة مصدرها واحد ، وهو النزاع على الرزق وما أوجبه من تقديس فضائل الحماية والدفاع عن الحرمات . فهذا المصدر يفسر لنا وأد البنات خشية الإملاق كما يفسر لنا وأدهن خشية العار ، ويفسر لنا احتقار البكاء على المرأة كما يفسر لنا إعزاز جارها حتى لتنشب الحرب أربعين سنة غضباً من إصابة ناقة في جوار خالة رئيس ، ويرجع كله إلى نظرة طبيعية تجري مع الحوادث في مجراها ، فلا يشوبها وهم من عقيدة دينية ولا يخالطها قيد من أحكام التشريع .

* * *

ومن لوازم هذا النزاع الشديد في مظهر آخر من مظاهر البادية العربية

أنه جعل المرأة عاملة نافعة في حياة الأسرة وحياة القبيلة ، لأن المعيشة الضنك التي كان يعيشها البدوي في صحرائه المجدبة تأبى عليه الترف والبذخ ولا تتسع لإسراف المدني الذي ينفق على المرأة ولا أرب له عندها غير المتعة والمسرة، ولا عمل لها عنده غير الراحة والزينة . فكانت المرأة العربية — في البادية خاصة — تعمل كل ما تستطيع أن تعمله لخدمة أسرتها وقبيلتها ، وتعلم كل ما تستطيع أن تعلمه لإتقان عملها وتجويد خدمتها . فكانت ترعى الإبل والشاء وتمخض اللبن وتغزل الصوف وتصنع الخيام وتضمد الجراح وتطب لنفسها في شؤون الحمل والولادة وتحذق من هذه الشؤون ما تجهله المرأة الحضرية في كثير من أمم العصر الحديث ، وتعينها على ذلك حاجتها إلى تطبيب نفسها وقيامها على رعي الأحياء التي تلازمها في غدوها ورواحها وفي صحتها ومرضها وفي حملها وولادتها وفي اختيار الأصلح والأجدى لنسلها ونتاجها .

وقد رويت عن نساء العرب صفات أخرى للحمل والرضاعة تشبه هذه الصفة في جملة معناها ، وهي صفات لا يشترط أن تطابق العلم الحديث في جميع تحليلاته وتفصيلاته ، بل حسبها على سذاجتها أن تدل على طب معروف في علاج الحمل والولادة والرضاع ، وأن الأمر في هذه الشؤون لم يكن عند المرأة العربية هملاً متروكاً للمصادفات ، كما يشاهد ذلك في بيئة الكثير من الحضريات المعاصرات .

* * *

إلا أن الشظف الذي كان يعم الجزيرة العربية ويذكي فيها ذلك النزاع الشديد على الرزق لم يكن خالياً من الجوانب التي يرق فيها ويلطف وتسري منها الرقة واللطف إلى العلاقة بين الرجال والنساء ، فتنعم المرأة بالرفق الذي يرفع من مكانتها ويهذب من معاملتها في سائر البيئات الإنسانية لا في الجزيرة العربية وحدها .

وأهم هذه الجوانب جانب النشأة في بيئة الحضارة ، وجانب النشأة في بيئة السيادة .

فالحضارة تصقل الطباع وتهذب حواشي النفوس وتغني القبائل عن القتال وعن ثورة الغضب للدمار المهدد بالليل والنهار ، وأول ما يظهر هذا الصقل والتهذيب في العلاقة بين الرجل والمرأة لأنها العلاقة التي تمتحن بها الكياسة وآداب الخطاب .

والسيادة تعلم السادة أن يعنوا بمكان بناتهم من العزة والرخاء ، فلا يسلموهن لمن ينزل بهن عن منزلة العقائل المبجلات اللواتي يغنين في بيوتهن عن الخدمة المسفة والعيش الذليل .

ولهذا كان سادة العرب يختارون الأزواج لبناتهم ثم لا يكتفون باختيارهم حتى يشركوهن في الرأي ويدخلوهن في المشورة ،ومن أنباء ذلك التي استفاضت في الأدب العربي أن الحارث بن عوف المري قدم على أوس بن حارثة الطائي خاطباً فدخل أوس على زوجته ودعا ببنته الكبرى فقال لها : يا بنية ! هذا الحارث ابن عوف سيد من سادات العرب قد جاءني طالباً خاطباً وقد أردت أن أزوجك منه فما تقولين ؟ قالت : لا تفعل . قال : ولم ؟ قالت : لأني امرأة في وجهي ردة وفي خلقي بعض العهدة ، ولست بابنة عمه فيرعى رحمي ، وليس بجارك في البلد فيستحي منك ، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني فيكون علي وعليك من ذلك ما فيه .

فصرفها ودعا بابنته الوسطى وعرض عليها ما عرضه على الكبرى . فقالت : إني خرقاء وليست بيدي صناعة ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني !

فلما دعا بأختهما الصغرى قالت : « ... ولكنني والله الجميلة وجهاً الصناع يداً الرفيعة خلقاً الحسيبة أباً ، فإن طلقني فلا أخلف الله عليه بخير ! » .

وهذه الفتاة الصغرى — واسمها بُهيسة — هي التي تزوجها الحارث

وزفت إليه ، فأنكرت منه أن يدخل عليها في ثياب العرس والحرب قائمة بين عبس وذبيان فلا يشغله عن الطيب والزفاف أن يصلح بينهما ... فأكبر منها زوجها هذه الحكمة ، وسعى في الصلح بين الحيين حتى استجيب إليه .

وممن جاءت الأنباء على اختلاف الروايات باستشارتهن في الزواج هند بنت عقبة أم معاوية بن أبي سفيان . وقد خطبها سيدان من قومها .فاستخبرت أباها عنهما فقال يصفهما : « أما أحدهما ففي ثروة وسعة من العيش ، إن تابعته تابعك ، وإن ملت عنه حط إليك ، تحكمين عليه في أهله وماله . وأما الآخر فموسع عليه منظور إليه في الحسب الحسيب والرأي الأريب ، مدْره أرومته وعز عشيرته ، شديد الغيرة لا ينام على ضمة ولا يرفع عصاه عن أهله » .

فقالت : « يا أبت ! الأول سيد مضياع للحرة ، فما عست أن تلين بعد إبائها وتضيع تحت جناحه إذا تابعها بعلها فأشرت وخافها أهلها فأمنت؟ساء عند ذلك حالها وقبح عند ذلك دلالها . فإن جاءت بولد أحمقت ، وإن أنجبت فمن خطأ ما أنجبت ، فاطو ذكر هذا عني ولا تسمه علي بعد ! وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة الحرة العفيفة . وإني لأخلاق مثل هذا لموافقة . فزوجنيه » .

ويلوح من تكرار هذه الأنباء أن استشارة البنات في أمر زواجهن كان سنة من السنن المرعية بين سادات العرب لا يشذ عنها إلا القليل .

* * *

ومن البديه أن هذه العادات والآداب التي تنشأ من بيئة الوطن ومناخه تعم الأمة برمتها ولا يقع فيها التفاوت إلا ما لا بد منه بين فرد وفرد ، أو بين طبقة وطبقة ، على المثال الذي قدمناه .

بيد أنك قد ترى في الأمة طائفة من عليتها أو بيتاً من بيوتها يخيل إليك أنهم خصوا من دونها بصفوة هذه الآداب ونقاوة هذه العادات .

أو يخيل إليك أن آداب الأمة كلها إنما كانت تحضيراً مقصوداً لهذه الطائفة أو لهذا البيت ، يأخذون منه بالخلاصة المصفاة واللباب المختار .

فإذا صح هذا الوصف في قبيلة من قبائل العرب فهو أصح ما يكون في قبيلة بني تَيْم ، ثم في بيت أبي بكر الصديق الذي كان في موضع الذؤابة من هذه القبيلة .

فقد اجتمعت لبني تيم خلاصة الآداب التي نجمت من فرائض الحماية والذود عن الذمار ، ثم تناولتها بالصقل والتهذيب بيئة السيادة وبيئة الحضارة .

وكان بيت الصديق على التخصيص مثلا في هذه الآداب جميعها يحتذى به بين الحواضر العربية .

لأن سيادة هذا البيت لم تكن سيادة طغيان وقتال ، ولكنها كانت سيادة شرف وأمانة ، وكانت حصته في الجاهلية من مقاوم الشرف حصة الوفاء بالمغارم وضمان الديون ، وعمله الأكبر في الجاهلية يدور على التجارة ومعاملة الناس ولا يدور على البأس والإكراه .

فنشأ البيت كله على الرفق والدماثة ورقة الحاشية ، واشتهر بتدليل نسائه وبناته حتى قيل – كما جاء في الأغاني – إنهن كن أحظى خلق الله عند أزواجهن . وكانت عند الحسين بن علي رضوان الله عليهما أم إسحاق بنت طلحة ، فكان يقول : « والله لربما حملت ووضعت وهي مصارمة لي لا تكلمني » .

وندر من أبناء الصديق رضي الله عنه من لم يكن له مع امرأته شأن يذكر في باب المحبة بين الأزواج .

فعبد الله أكبر أولاده بنى بعاتكة بنت زيد العدوية فهام بها وشغل عن خاصة أمره وعامته ، حتى نصح له أبوه بطلاقها فطلقها وهو كاره ، ثم أدركه الندم فنظم فيها القصائد ومنها :

أعاتك لا أنساك ما ذرّ شارق وما لاح نجم في السماء محلق
أعاتك قلبي كل يوم وليلة لديك بما تخفي النفوس معلق
ولم أر مثلي طلق اليوم مثلها ولا مثلها في غير شيء تطلق

وأخوه عبد الرحمن نفله عمر بن الخطاب ليلى ابنة الجودي من حسان غسان الموصوفات بالقسامة والجمال فلازمها ولم يفارقها فترة إلا نظم الشعر في الحنين إليها ، ومن قوله فيها :

تذكرت ليلى والسماوة بيننا فما لابنة الجودي ليلى وماليا
وأنى تلاقيها ! بلى . ولعلها إذا الناس حجوا قابلا أن توافيا

وأفرط في التعلق بها حتى لامته شقيقته السيدة عائشة رضي الله عنها وما زالت به حتى جفاها ، فعادت تلومه في جفائها وتقول له : « أفرطت في الأمرين . فإما أن تنصفها ، وإما أن تجهزها إلى أهلها ». فجهزها إلى أهلها.

ومن ذرية الصديق « ابن أبي عتيق » صاحب عمر بن أبي ربيعة شاعر الغزل المشهور ، وكان يسمع بالجفاء بينه وبين الثريا فيركب من مدينة إلى مدينة ليصلح بينهما ، ولا يترجل عن مطيته حتى يتم الصلح على ما يرومه .

وهو مع هذا كان يتحرج من نزوات عمر ويسأله : ألم تخبرني أنك ما أتيت حراماً قط ؟ فيقول : بلى ! فيستخبره عن قوله :

وما نلت منها محرماً غير أننا كلانا من الثوب المورد لابس

ثم لا يتركه حتى يجيبه بما يدفع شكه ويرده إلى حسن ظنه .

* * *

فآداب الرجال والنساء في بني تيم كانت مثالاً للرعاية التي تظفر بها المرأة العربية في بيئة السيادة وبيئة الحضارة .

ولكنها لم تزل عربية في قرارها ، ولم تنقطع عن آداب الأمة التي جعلت

عرضها أحق شيء بالحماية ، وأقمن حصن أن تمنعه وتغار عليه .

فكان أبو بكر نفسه مثلاً من أمثلة الغيرة بين أهله وقومه ، وقد قال ابن سيرين : كان أغير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر . وروى عن عبد الله ابن عمرو بن العاص أن نفراً من بني هاشم دخلوا على زوجته أسماء بنت عميس فكره دخولهم عليها وشكاهم إلى النبي عليه السلام فقام على المنبر فقال : لا يدخلن رجل بعد يومي هذا على مغيّبة إلا أن يكون معه رجل أو أثنان .

ولما شبّب عمر بن أبي ربيعة بعائشة بنت طلحة التيمية تجمع فتيان تيم فأنذروه لئن تعرض لها بعد ذلك ليقتلنه شر قتلة ، فأقسم لا عاد .

وعائشة هي التي كانت تعاتب في كشف وجهها فتقول : « إن الله وسمني بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم ، فما كنت لأستره . ووالله ما في وصمة يقدر أن يذكرني بها أحد » .

فهو دلال لا ينسى الصيانة ، ورفق لا ينسى الغيرة ، وآداب سيادة وحضارة لا تنسى الأصول المعروفة في آداب البداوة .

وفي هذه البيئة التي تحوطها الحمية والرعاية نشأت ربّة هذه الدراسة وموضوع هذا الكتاب : عائشة بنت الصديق رضي الله عنها .

ولكنها تفردت برعاية لم تشركها فيها ولائد هذه البيئة . فقد تربت على النعمة والخير ، وتدربت على العزة والكرامة ، وتعلمت القراءة التي لم يكن يتعلمها من نجباء الأبناء في بيوت السادة إلا القلة المعدودة .

فصح أن يقال إن الرعاية التي ظفرت بها ربة هذه الدراسة كانت هي خلاصة الكرامة التي هيأتها لبناتها حمية البداوة، وصقلتها مع الزمن شمائل الحضر ومآثر الشرف والسيادة .

المـرأة المسلمة

جاء الإسلام فبدأ من النهاية التي انتهت إليها آداب الحضارة والسيادة وهي خلاصة العرف الذي تعارف عليه سادة الحضر في معاملة المرأة العربية.

إلا أنه جعل هذا العرف حقاً مكتوباً على الرجال لكل امرأة من كل طبقة ، ولم يقصره على عقائل البيوتات كما كان مقصوراً عليهن في آداب الجاهلية بحكم الاصطلاح والعادة ، يتبعه من يرضاه ويهمله من يأباه .

ثم زاد على هذا العرف منزلة من الرعاية لم تصل إليها أرفع النساء في أرفع البيوتات قبل الدعوة المحمدية ، لأنه جعلها مناط التكليف ووجه إليها الخطاب في كل شيء كما وجهه إلى الرجال . إلا ما هو من خصائص عمل الرجال في العرف المستقيم .

فالمرأة في شريعة الإسلام إنسان مرعيّ الحقوق والواجبات... « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف . وللرجال عليهن درجة » .

وكل امرأة أو فتاة — من العلية أو السوقة — لا يصح زواجها حتى يرجع إليها فيه « فلا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا البكر حتى تستأذن » وعلامة إذنها السكوت كما جاء في بعض الأحاديث .

ولها أن تملك ما تشاء وأن تبيع وتشتري ما تشاء ، وأن تشترك في الإرث وكان حراماً عليها ، لأنها لا تحمل الدرع ولا تضرب بالسيف . بل

كان من حق الرجل أن يتخذها هي ميراثاً ينتقل إليه كرهاً كما يرث الخيل والإبل والحطام . فأبطل الإسلام ذلك حيث جاء في القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً » .

وقضى بأن تبايع النساء كما بايع الرجال ، فلا تغني عن مبايعتهن مبايعة آبائهن وأزواجهن وأوليائهن . ونص القرآن الكريم على ذلك حيث جاء في سورة الممتحنة : « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم » .

وأبى الإسلام إلا أن يكفل لها حسن المودة كما كفل لها حسن المعاملة وأن يوسع لها من حقوق البر والعطف كما وسع لها من حكم الشريعة . فأوصى المسلمين أن يستقبلوا ولادتها بالرضى ، وزجر الذين يستقبلونها على غيظ وحرد : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب. ألا ساء ما يحكمون » .

ومن الآداب القرآنية أن يغالب الرجل كراهتها إذا تغير قلبه من نحوها عسى أن يثوب إلى حبها أو يكون في احتمالها خيرٌ له ولها : « وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » .

وكانت وصايا النبي (ص) على منهاج أوامر القرآن في إنصاف المرأة ورعايتها ، فكان عليه السلام يقول : « خيركم خيركم للنساء » ... و « ... ما أكرم النساء إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم » .

وأسند الوصاة بها في بعض الأحاديث إلى وحي جبريل حيث قال :

« ما زال جبريل يوصيني بالنساء حتى ظننت أنه يحرم طلاقهن » .

والتعليم الذي كان في بيوت السادة فلتة لا يقاس عليها بين الرجال فضلاً عن النساء جاء الإسلام فجعل « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » واستحبه عليه السلام حتى للإماء حيث قال : « أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها ، وأدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران » .

* * *

هذه هي المنزلة التي تبوأتها المرأة في الشريعة الإسلامية .

وهذه هي المعاملة التي أوجبتها آداب الإسلام على المسلمين كافة ، وهي أرفع من كل أدب ترقت إليه الجاهلية في الجوانب التي تهذبت فيها معاملة المرأة بين ذوي السيادة والحضارة من أهلها ، وأضيفت إليها على عهد الإسلام جوانب شتى لم يكن للمرأة فيها أيسر نصيب من رعاية أو إنصاف .

ومهما يكن من الرأي في موقف العصور الحديثة من المرأة — وهو ما نعرض له في ختام هذا الكتاب — فالذي لا ريب فيه أن الإسلام قد رفعها درجات فوق أرفع منزلة بلغتها بين العرب أو بين الأمم الأخرى ، وأن المسلم الذي يعمل بدينه يوليها من البر فوق ما طلبته لنفسها ، لو أنها كانت في زمان يطلب فيه النساء لأنفسهن حقاً من الحقوق .

* * *

ولم تكن تلك غاية المرتقى

فإن الفرائض الدينية تطاع ولا تطاع ، وهي على هذه موكلة بالتعميم الذي يستوي فيه جميع المسلمين المخاطبين بالتكليف . وإنما طاعة التكليف فضيلة تعلوها فضائل الاختيار والرغبة والاشتياق إلى الإنجاز ، كأن الإنجاز هو المثوبة التي تغني عن المثوبة الموعودة . وها هنا تتفاوت المراتب وترتقي الفضائل من التعميم الشائع إلى الامتياز والرجحان ، وتستبق النفوس حتى

يكون العمل المفروض أمنية محبوبة يؤلم النفس أن تعاق دونها ولا تبلغ الغاية منها .

وتلك عليا مراتب الأنبياء .

وهي المرتبة التي سما إليها صاحب الدعوة الإسلامية بما تهيأ له من تمام الأريحية الإنسانية وملاك الفطرة النبوية .

فالحق أن محمداً عليه السلام لم يفرض على نفسه الشريفة محاسنة المرأة كما تفرض الأوامر السماوية على من يطيعها ولا مسرة له في طاعتها ، ولكنه حاسنها فطرة كما حاسن كل مخلوق حي ولا سيما الضعفاء . وجعل البر بها مقياس المفاضلة بين أخلاق الرجال وعنوان المنافسة في طلب الخير والكمال . فقال غير مرة : « خيركم خيركم للنساء » .

وبلغ من ذلك أنه يأوي إلى البيت « فيكون في مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة » وأنه استحب خدمة الزوجة في منزلها فقال : « خدمتك زوجتك صدقة » وكان أكيس رجل في معاملة أهل بيته ، يشفق أن يرينه غير باسم في وجوههن ، ويزورهن جميعاً في الصباح والمساء ، وإذا خلا بهن « كان ألين الناس، ضحاكاً بساماً » كما قالت عائشة رضي الله عنها .

ومن المبالغات المألوفة في تناهي الرحمة أن يقال « إنه أرحم به من أمه وأبيه » .

لكنه عليه السلام كان حقاً أرحم بأهله من آبائهن وأمهاتهن حتى الذين اشتهروا بالحدب الشديد على ذوي الرحم كأبي بكر الصديق رضوان الله عليه .

ففي الأحاديث عن عائشة أنها قالت : « كان بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم كلام . فقال : من ترضين أن يكون بيني وبينك ؟ أترضين بأبي عبيدة بن الجراح ؟ قلت . لا . ذلك رجل هين لين يقضي

لك . قال : أترضين بأبيك ؟ قلت : نعم . فأرسل إلى أبي بكر فجاء ، فقال : اقصصي ! فقلت : بل اقصص أنت ... فقال : هي كذا وكذا ... فقلت : اقصد ! فرفع أبو بكر يده فلطمني وقال : تقولين يا بنت أم رومان : اقصد ؟ من يقصد إذا لم يقصد رسول الله ؟ فجعل الدم يسيل من أنفي ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لم نرد هذا ... وجعل يغسل الدم بيده من ثيابي ، ويقول : رأيت كيف أبعدك الله منه ... »

وكان بره بمن مات من أزواجه أكرم من بره بمن يعشن معه ويراهن كل يوم . فلما ماتت زوجته الأولى خديجة رضي الله عنها حزن عليها وسمى العام الذي قبضت فيه « عام الحزن » ووفى لذكراها طوال حياته ، حتى لقد كانت عائشة تغار منها وهي في قبرها أشد من غيرتها من زوجاته اللواتي يعشن معها في كنفه ، وقالت له يوماً : هل كانت إلا عجوزاً بدلك الله خيراً منها ؟ فقال لها مغضباً : « لا والله ! ما أبدلني الله خيراً منها . آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء » .

وإن هذا الوفاء لذكرى الزوجة الغابرة لخليق أن يرضي المرأة — حين تنسى غيرتها — أشد من رضاها عن مكاشفتها بالتفضيل في حياتها لجمالها وشبابها ونعيم عشرتها وصفاتها .

* * *

ونحن لا نعتسف التوفيق والترتيب حين نقول عن ربة هذا الكتاب — عائشة بنت الصديق — إنها لوحظت في آداب العرب والإسلام كأنها الوجهة التي اتجهت إليها هذه الآداب في طريق الارتقاء والتهذيب .

فمن قسمتها في آداب العرب النسائية أنها نشأت في خلاصة تيم الذين اشتهروا بظرف الرجال وتدليل النساء .

من قسمتها في الإسلام أنها ملكت حقوق المرأة المسلمة ، وتجاوزتها

فملكت الحظوة التي يضفيها على نسائه نبي كريم ، يتجاوز الحقوق المفروضة صعداً في معارج الكمال ، وكانت هي بعد هذا صاحبة الحظوة الأولى بين هؤلاء النساء .

إنها لمجدودة من بنات حواء .

ولهذا الجد السعيد شأن أي شأن في تاريخها الذي اتصل بتاريخ الإسلام .

* * *

المرأة الخالدة

إن المرأة التي اجتمعت لها خلاصة الرعاية في آداب أمة من الأمم لذات شأن في تاريخ قومها لا يسهو عنه باحث موكل بدراسة التاريخ أو دراسة الآداب .

وأعظم من ذلك شأن المرأة التي كتبت لها خلاصة الرعاية في دين من الأديان ، والتي اشتركت في سيرة النبي المرسل بذلك الدين ، ونقلت أحاديثه في أحكام شريعته وخطرات ضميره ، ولقيت عنده الحظوة التي لم تلقها واحدة من النساء .

والسيدة عائشة رضي الله عنها هي هذه ، وهي تلك .

هي المرأة التي لوحظت في آداب الأمة العربية كأنما استخلصت لها هذه الآداب لتظفر منها بالرعاية الأولى .

وهي المرأة التي قال عنها النبي عليه السلام إنها أحب الناس إليه ، وتلقى الأعقاب عنها مئات الأحاديث التي عرفوه بها في دينه ودنياه .

وكلاهما شأن عظيم يبوىء الإنسان بين قومه مكاناً ملحوظاً من جوانب التاريخ ...

ولكن السيدة عائشة مع هذا وذاك تهم الباحثين والمؤرخين لسبب آخر غير هذين السببين ، أو للسبب الآخر المتمم لهذين السببين ، لأنها المرأة في

تكوينها الأصيل الذي خلقه الله منذ خلق حواء ، أو هي المرأة التي تتمثل فيها الأنثى الخالدة التي لا تحتويها أمة واحدة ولا يستأثر بها زمان واحد ، لأنها استمدت من طبائع الإنسانية كل ما قدر لها من دوام .

وهذا هو جانب الاهتمام الصميم بكل عظيمة وكل عظيم .

فمهما يقل القائلون في غرض المؤرخ من سير العظماء فالحقيقة التي لا ريب فيها عندنا هي أن الغرض الأول أو الغرض الذي تنتهي إليه جميع الأغراض — هو توثيق الصلة بين الإنسانية وبين عظمائها وعظيماتها والنفاذ إلى الجانب الإنساني من كل نفس تستحق التنويه والدراسة .

وما من علامة هي أصدق دلالة على السيرة الناجحة من هذه العلامة .

فنحن نعلم أننا سائرون على الجادة في التعريف بصاحب السيرة أو صاحبتها إذا نظرنا فرأينا أننا قد وصلنا من تلك السيرة إلى صميم الإنسان .

ونحن نعلم أننا تائهون في الطريق إذا نظرنا فلم نجد بين أيدينا إلا سرابيل العظمة وأقواس النصر ومواكب الرهبة والخشوع .

نحن إذا فهمنا النبي نبياً وكفى فإنما وصلنا بين ضميره وضمائرنا وبين محراب العبادة عنده ومحراب العبادة عندنا .

ونحن إذا فهمنا البطل بطلاً وكفى فإنما وصلنا بين قدرته وقدرتنا وبين ضخامته بالقياس إلينا وضآلتنا بالقياس إليه .

ونحن إذا فهمنا الرئيس رئيساً وكفى فإنما وصلنا بين مركزه في الأمة ومركزنا ، وبين الحقوق التي له والواجبات التي عليه ، والحقوق التي لنا والواجبات التي علينا .

ولكننا إذا فهمنا النبي إنساناً فقد فهمناه كله وفهمناه على حقيقته التي تعنينا وتعقد له أواصر القرابة فيما بينه وبيننا ، لأننا وصلنا بين الإنسان فيه والإنسان فينا .

وكذلك البطل ، وكذلك الرئيس ، وكذلك كل ذي شأن يستحق البحث فيه .

هم غرباء حتى يقال : هذا هو الإنسان ! فإذا هم الأقربون الذين ترضينا عظمتهم لأنهم منا ونحن منهم ، ولأنهم خالدون خلود الإنسان من وراء الأقوام والأزمان .

والسيدة عائشة رضي الله عنها مثل من أمثلة الأنوثة الخالدة في جميع أقوامها وجميع عصورها .

فضلها في الكتابة عنها أنها كتابة عن تلك الأنوثة التي نامحها حولنا ونلمحها من قبلنا في كل أنثى .

وانها ترينا النبي في بيته فترينا الرجل الذي ارتفع بالنبوة إلى عليا مراتب الإنسانية ، ولكنه مع هذا هو الرجل في بيته كما يكون الرجال بين النساء على سنة الفطرة المعهودة من آدم وحواء .

وفضلها على الجملة أنك تقرأ من أخبارها ما تقرأ فلا تزال تقول بعد كل خبر ترويه أو يرويه غيرها : أجل هذه هي الأنثى الخالدة في كل سمة من سماتها .

هذه هي الأنثى الخالدة في غيرتها ، وهذه هي الأنثى الخالدة في دلالها ، وهذه هي الأنثى الخالدة في كل ما عرفت به الأنثى من حب الزينة وحب التدليل والتصغير وحب التطلع وحب المكايدة والمناوشة ، ومكاتمة الشعور والتعريض بالقول وهي قادرة على التصريح .

وكل لون من ألوان الغيرة التي تتراءى في طبيعة المرأة فهو باد في خبر من أخبار السيدة عائشة ، كأوضح ما يبدو وأصدق ما يكون في طبائع النساء .

والغيرة في طبائع النساء ألوان :

تغار المرأة على قلب الرجل الذي تحبه ولو شغلته الذكرى ولم تشغله

المودة الحاضرة ، لأنها تعلم من هذا أنها لم تشغل قلبه كله ، وهي تأسى على كل ما يفوتها من شواغل ذلك القلب ، ولو لم تكن ثمة منافسة محذورة .

وتغار المرأة من المرأة الجميلة وإن لم تنافسها على رجل تحبه ، وتغار من شريكتها في رجلها كائناً ما كان حظها من الجمال ، وتغار من كل مزية غير الجمال ما كان فيها سبيل إلى الحظوة في القلب الذي تريده لها ولا تطيق المزاحمة عليه .

و « الأنثى الغيرى » في جميع هذه الألوان من الغيرة النسائية ماثلة هنالك في سيرة عائشة كما روتها هي وكما رواها غيرها ، ما من فارق بينها وبين سائر النساء إلا الأدب الذي ينبغي لها والحق النبوي الذي هي جاهدة جهدها أن توفره وترعاه .

كانت السيدة خديجة متوفاة منذ سنوات يوم بنى النبي بالسيدة عائشة .

لكن السيدة عائشة كانت تغار منهـا غيرة لم تنطو على مثلها لشريكاتها اللواتي يعشن معها ، لأنها شغلت قلب النبي بعد وفاتها فلم يزل يذكرها ويحب لحبها من كان يزورها أو يراها .

وكان عليه السلام يبر بعض العجائز فسألته السيدة عائشة في ذلك فقال : إن خديجة أوصتني بها ... فقالت مغضبة : خديجة . خديجة ... لكأنما ليس في الأرض امرأة إلا خديجة !

وعلى حلم رسول الله ربما غضب أحياناً من ثورتها على ذكرى خديجة ، فغضب في هذه المرة وتركها فترة ثم عاد وأمها — أم رومان — عندها فقالت له أمها : يا رسول الله ! مالك ولعائشة ؟ إنها حديثة السن وأنت أحق من يتجاوز عنها . فلم يدعها حتى أخذ بشدقها معاتباً وهو يقول لها : ألست القائلة : كأنما ليس على وجه الأرض امرأة إلا خديجة !

وسألته مرة : ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين قد بدلك الله خيراً

منها ؟ فأسكتها قائلاً : « والله ما أبدلني الله خيراً منها . آمنت بي حين كذبني الناس ، وواستني بمالها حين حرمني الناس ، ورزقت منها الولد وحرمته من غيرها » .

أما شريكاتها اللواتي كن يعايشنها في بيت النبي فربما كانت تغار من إحداهن لطعام يستطيبه النبي عندها فضلا عن الغيرة من الجمال أو الملاحة »

تعوّد عليه السلام أن يستطيب العسل الذي تهيئه له زينب بنت جحش من أجمل أمهات المؤمنين وأحظاهن عنده . فأجمعت رأيها مع صديقتها حفصة بنت عمر أن يبغضاه في عسلها وقالت فيما روته عن نفسها : « ... فتواطأت أنا وحفصة أيتنا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغافير ؟ وهي طعام من صمغ حلو ولكنه كريه الرائحة ، ولم يكن أبغض إلى النبي عليه السلام من رائحة كريهة ... فلما دخل عندها رسول الله قالت : إني أجد منك ريح مغافير . قال : لا ، ولكني كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود إليه ! » .

وقد عرفت زميلتها السيدة صفية بجودة الطهي ، وهي في الأصل إسرائيلية من أهل خيبر . فنفست عليها السيدة عائشة هذه الإجادة ولم تكتم منها بل هي التي روتها ومن حديثها عنها عرفناها . قالت : « ما رأيت صانعة طعام مثل صفية . صنعت لرسول الله طعاماً وهو في بيتي فأخذني أفكل – أي قشعريرة – فارتعدت من شدة الغيرة فكسرت الإناء ثم ندمت فقلت : يا رسول الله ما كفارة ما صنعت ؟ قال : إناء مثل إناء وطعام مثل طعام » .

وهذه غيرتها من زميلات لم يجهرن بالمنافسة والمغايظة . وهي بالبداهة دون غيرتها من الزميلات اللواتي كن ينافسنها جهرة ويكاشفن النبي عليه السلام بالشكوى عن تفضيلها عليهن في المودة والحظوة ، وعلى رأسهن أم سلمة التي شهدت على نفسها والنبي يخطبها أنها غيور لا تطيق المنافسة ، فكان عليه السلام يجاملها ليذهب غيرتها ، وتغضب عائشة من هذه المجاملة

على علمها بمكانتها عنده ، قالت :

دخل عليَّ يوماً رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت :

ـ أين كنت منذ اليوم ؟

قال : يا حميراء كنت عند أم سلمة .

قلت : ما تشبع من أم سلمة ؟

فتبسم . ثم قلت : يا رسول الله ، ألا تخبرني عنك لو أنك نزلت بعدوتين إحداهما لم ترع والأخرى قد رُعيت أيهما كنت ترعى ؟

قال : التي لم ترع !

قلت : فأنا ليس كأحد من نسائك . كل امرأة من نسائك قد كانت عند رجل ، غيري ...

فتبسم عليه السلام .

وإذا كانت أكلة أو شربة عسل تستطاب عند إحدى الزميلات ، أو مجاملة لإحداهن جبراً لخاطر ومداراة لغيرة ــ تثير هذه المنافسة وتغري بهذه المؤامرة فليس من العسير أن نفهم كيف تكون الغيرة التي تثيرها الذرية المحبوبة المرقوبة حين يرزقها النبي من إحدى زوجاته وقد حرمها من سائرهن سنوات ، وهو شديد الكلف بها والتطلع إليها .

تلك إذن غيرة لا تمسكها الحدود ولا تكبحها المجاملات .

وقد ثارت ثائرتها يوم ولد له عليه السلام ابنه إبراهيم من مارية القبطية ، وكانت على هذه المزية التي امتازت بها جميلة بيضاء ، تغار منها الزميلة لجمالها وصباحتها فوق غيرتها منها لهذه الأمومة التي تفردت بها بين تسع نظيرات .

قالت كتب السير : وغارت زوجات النبي ولا كعائشة .

لأن عائشة رضي الله عنها كانت صاحبة المكانة الأولى التي ترفعت إليها «مارية» بأمومتها ، فهي أحق بالغيرة على تلك المكانة من سواها .

ولا ريب في حب عائشة للنبي ولا في سرورها ورضاها بما يسره ويرضيه . ولكننا نطالب الطبيعة الإنسانية — والطبيعة النسوية — بما يرهقها إذا نحن ترقبنا منها أن تسر بما يثير غيرتها ، وأن تحب الرجل ثم تسر بما عسى أن يصرف حبها عنه ، أو ينقص سهمها فيه .

فمن الطبيعي أن تسر المرأة بسرور الرجل لأنها تحبه .

ومن الطبيعي كذلك أن تغار من السرور الذي يحببه إلى غيرها ، لأنها تحبه .

وقد يفترق القلبان في لحظة من اللحظات لأنهما مقتربان أشد اقتراب .

وهذا الذي حدث عند مولد إبراهيم من مارية القبطية . وهي فتية جميلة رضية ، يدنيها من قلب النبي شتى المزايا ، وأولاها هذه المزية التي تربى على كل مزية .

فلما رأت عائشة فرح النبي بالوليد الموموق وأحست شغف النبي به جاهدت نفسها أن تغالب غيرتها فلم تقو على هذه المغالبة ، وقال لها يوماً : انظري إلى شبهه ! فلم تملك لسانها أن تقول : ما أرى شيئاً ... وربما أعجبه نمو الوليد ولفتها إلى بياضه ولحمه وترعرع جسمه : فيعز عليها أن تعجب مثل عجبه . لأنه هكذا كل طفل يشرب من اللبن ما يشرب إبراهيم !

وكان غضب النبي من غيرتها غضب تأديب وتهذيب ، لا غضب سخط وتأنيب . فكان يعذرها فيما يمسه ولا يعذرها فيما ينبغي لها أن تتوخاه أو تتحراه ، أو فيما يحسن بالمرأة التي أحبها هذا الحب أن تقلع عنه وتعرف موضع الملامة فيه .

فقلما لامها في شيء يمسه من غيرتها .

ولكنه كان لا يسكت مرة عن مؤاخذتها على فلتات هذه الغيرة التي تمس بها أناساً آخرين . فيؤاخذ مؤاخذة المؤدب الرفيق ولا يدع لها أن تعيد ما آخذها عليه .

عابت أمامه زوجته السيدة صفية فذكرت من عيوبها أنها قصيرة . فكره أن تمضي في حديثها وقال : « يا عائشة ! لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته » .

وحكت أمامه إنساناً فلم يعجبه ما يعجب الزوج المحب من هذه الفكاهة التي تسوغ وتستملح في ذوق كثيرين ، ونهاها أن تحكي الناس حكاية استهزاء.

• • •

ومن « الأنثويات » الخالدة في طبيعة المرأة دلالها ومغاضبتها وهي أشوق ما تكون إلى المصالحة وتقصير أمد المغاضبة .

وللسيدة عائشة نوادر شتى في هذا الدلال الذي شابهت به كرائم قومها وزادت عليهن بما بلغته من المنزلة التي لم يبلغنها .

غضب النبي من نسائه لكثرة منازعاتهن وإلحافهن عليه بطلب المزيد من النفقة والزينة . فأقسم ليهجرهن شهراً ، وشاع بين المسلمين أنه طلقهن جميعاً !

وكان لهذه الإشاعة بين المسلمين رجة أي رجة ، لأن تطليق النبي زوجاته جميعاً هو أكبر طارق يتعرض له عليه السلام في بيته ويمتد أثره إلى القبائل والبيوت التي كانت تجمعه بها صلة المصاهرة . وفي وسعنا أن نتخيل تلك الرجة بين الصحابة إذا علمنا أن صاحباً لعمر بن الخطاب سمع بالنبأ ليلاً فأسرع إلى بابه يدقه دقاً شديداً ويسأل عنه في فزع : أثم هو ؟ فلما خرج إليه قال صاحبه : حدث أمر عظيم . قال عمر : ما هو ؟ أجاءت غسان ؟ قال : لا . بل أعظم منه وأطول . طلق النبي صلى الله عليه وسلم نساءه .

ثم تحرى عمر الخبر من رسول الله فعلم أن الأمر دون ذلك وأن رسول الله إنما أقسم ليهجرهن شهراً . فما لبث أن استأذنه عليه السلام ليبادر إلى المسلمين المجتمعين بالمسجد فينقل إليهم حقيقة النبأ ويذهب عنهم ما خامرهم من الأسى لما بلغهم من طلاق نسائه .

ولا ريب أن نساء النبي أنفسهن كانت بينهن للنبأ رجة أشد عليهن من هذه الرجة ؛ وكان لهذه العقوبة التي لم يعاقبهن بمثلها من قبل أثرٌ في قلوبهن أبلغ من هذا الأثر .

فلما انقضت الأيام التي أوعدن بها بدأ بالسيدة عائشة فدخل عليها وهي أشوق ما تكون إلى لقائه . فماذا سمع منها أول ما سمع ؟

قالت : يا رسول الله أقسمت أن لن تدخل علينا شهراً . وقد دخلت وقد مضى تسعة وعشرون يوماً !

فقال عليه السلام : إن الشهر تسعة وعشرون .

أتراها كانت تنتظر استيفاء الثلاثين ولا تقنع بالهجر تسعة وعشرين يوماً ؟

كلا . فقد عدتّهن يوماً يوماً وعلمت ساعة دخول النبي كم مضى وكم بقي على ظنها من أيام العقوبة . ولكنها الأنثى الخالدة كما أسلفنا ، ولا بد للأنثى الخالدة في هذا الموقف من مكاتمة ، ولا بد لها من دلال .

• • •

وما من سمة الأنوثة الخالدة غير هذه السمات إلا وجدت السيدة عائشة وقد صدقت فطرتها فيه ، وإن كانت لتروض نفسها تلك الرياضة العالية التي تجمل بزوجة محمد وبنت الصديق وأم المؤمنين .

فإذا عرضت مناسبة للسن فليس أحب إليها من أن تقول : وكنت جارية

حديثة السن ، أو حدث ذلك بلجهلي وصغر سني ، وربما راقها أن تختار من الروايات التي ذكروها لها عن سنها أقرب تلك الروايات إلى التصغير وأولاها أن تميزها بين زميلاتها بميزة الشباب .

وقد تكون وحدها في بيتها فتعجبها ثيابها وتحب أن تنظر إليها . قالت : « ولبست ثيابي فطفقت أنظر إلى ذيلي وأنا أمشي في البيت وألتفت إلى ثيابي وذيلي . فدخل عليّ أبو بكر فقال : يا عائشة ! أما تعلمين أن الله لا ينظر إليك الآن ؟ قلت : ولم ذاك ؟ قال : أما علمت أن العبد اذا دخله العجب بزينة الدنيا مقته ربه عز وجل حتى يفارق تلك الزينة ؟ فنزعته فتصدقت به ، قال أبو بكر : عسى ذلك أن يكفر عنك » .

وهي عائشة كاملة في هذه القصة الصغيرة : هي حواء التي تحب أن تنظر إلى زينتها ، وهي أم المؤمنين التي تحب أن ينظر الله إليها ، وهي هنا أيضاً حواء تطمح إلى زينة أعلى وأغلى .

* * *

ولن تعوزنا أسباب الاهتمام بحياة كهذه الحياة ، لأنها المرأة العربية والمرأة المسلمة ، والمرأة الخالدة في كل زمان .

عائشة

ولدت عائشة لأبي بكر الصديق من زوجته « أم رومان » واسمها زينب أو دعد مختلف فيه ، كما اختلفوا في نسبها واتفقوا على أنها من كنانة .

وكانت قبل بناء الصديق بها زوجاً لصاحبه في الجاهلية عبد الله بن الحارث ابن سخبرة ، وولدت له ابنه الطفيل ، ثم مات فخلفه عليها أبو بكر ليحفظ بيت صاحبه وحليفه .

ومن المتفق عليه أنها كانت امرأة ذكية ، أسلمت وهاجرت ولقيت عنتاً شديداً في سبيل دينها وزوجها ، ويروى عن النبي عليه السلام أنه قال : « من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان » .

وقد اختلفوا في سنة وفاتها ، من قائل : إنها توفيت في حياة النبي عليه السلام ، إلى قائل : إنها عاشت إلى أيام عثمان رضي الله عنه ، والأرجح في رواية البخاري أنها عاشت إلى أيام عثمان .

ولا يعرف على التحقيق في أي سنة ولدت السيدة عائشة رضي الله عنها : ولكن أقرب الأقوال إلى الصدق وأحراها بالقبول أنها ولدت في السنة الحادية عشرة أو الثانية عشرة قبل الهجرة ، فتكون قد بلغت الرابعة عشرة من عمرها أو قاربتها يوم بنى بها الرسول عليه السلام .

وجملة ما يفهم من وصفها على التحقيق أنها كانت بيضاء ، فكان عليه

السلام يلقبها بالحميراء ، وكانت أقرب إلى الطول لأنها كانت تعيب القصر كما مر في كلامها عن السيدة صفية ، وكانت في صباها نحيلة أو أقرب إلى النحول ، حتى كان الذين يحملون هودجها خالياً يحسبونها فيه . قالت في حديث لها مشهور : « ... وأقبل إليّ رهط الذين كانوا يرحلون لي — أي يحملون الرحل على البعير — فحملوا هودجي وهم يحسبون أني فيه ، وكانت النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلن ولم يغشهن اللحم . إنما يأكلن العلقة من الطعام .. فلم يستكثر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه ، إذ كنت مع ذاك جارية حديثة السن » .

ثم مالت بعد سنوات إلى شيء من السمنة كما جاء في كلامها في حديث آخر : « ... خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم . فقال صلى الله عليه وسلم للناس : تقدموا ! فتقدموا . ثم قال : تعالي حتى أسابقك . فسابقته فسكت . حتى إذا حملت اللحم وكنا في سفرة أخرى قال صلى الله عليه وسلم للناس : تقدموا ! فتقدموا . ثم قال : تعالي حتى أسابقك فسابقته فسبقني فجعل صلى الله عليه وسلم يضحك ويقول : هذه بتلك » .

وعلمنا من بعض أحاديثها أنها وعكت مرة فتمزق شعرها . فمن ثم وصيتها على ما يظهر بالشعر حيث تقول : « إذا كان لأحدكم شعر فليكرمه » .

وعلمنا من رواة وقعة الجمل أنها كانت جهورية الصوت ، تخطب العسكر من هودجها في ساحة الحرب فيسمع خطابها .

وعلمنا من جملة أوصافها وأخبارها أنها كانت حية الطبع موفورة النشاط كدأب العصبيين من النساء والرجال ، وكان أبوها رضي الله عنه من أصحاب هذا المزاج ولا مراء .

والظاهر أنها ورثت عنه كثيراً من خَلقه وخُلقه على السواء . فقد كان الصديق جميلاً حتى جاء في بعض الروايات أنه لقب بالعتيق لجماله ،وكان

نحيلاً دقيق التكوين كما هو مشهور ، وكانت فيه حدة طبع مع حدة ذكاء وكان كريماً سريعاً إلى نجدة المعوزين والضعفاء ، وكان صادق المقال لم يؤخذ عليه كذب في الجاهلية ولا في الإسلام ، وكان ماضي اللسان قديرا على إفحام من يجترىء عليه ، وتشبهه السيدة عائشة في هذه الخلائق شبهاً كان يوحي إلى النبي عليه السلام كلما سمعها تجيب من يساجلها أن يقول : إنها ابنة أبي بكر ! إنها ابنة أبي بكر !

وقد راضت حدتها زمناً كما كان أبوها يروض حدته طوال حياته ، ولكنها لم تبلغ من ذلك ما بلغه أبوها لمكان الرجل من القدرة والحاجة إلى سياسة الدنيا ، ومكان الفتاة من الضعف ومن الحظوة التي تغنيها عن الصرامة في مغالبة النفس ومراس الخطوب في كفاح الحياة .

والمعهود في أخلاق الناس أن الحدة تلازمها سرعة الغضب كما تلازمها سرعة الصفح والنسيان في معظم الأحيان .

وليس في أخبار السيدة عائشة ما يناقض هذه المشاهدة التي تعم النساء كما تعم الرجال ، فليس مما ينقضها أنها رضي الله عنها بقيت على موجدة من مسألة الإفك طوال حياتها فلم تنس قط مقالة أحد من القائلين أو الساعين فيها . إذ ليس أهول على نفس الفتاة خاصة ولا أوجع لضميرها من مطعن يهدم سمعتها ويعصف بهنائها ويفقدها الرجل الذي تحبه والمكانة التي تبوأتها ، وأهول ما يكون ذلك على البريئة العزيزة التي يهولها الأمر على قدر ظلمها فيه وعلى قدر نكبتها بما تفقده من العزة والسمعة . فلا يقاس على موجدة السيدة عائشة في مسألة الإفك سائر خلائقها ودوافع ضميرها . فليس في غير هذه المسألة ما ينم على شيء يتجاوز الحدة العارضة إلى الضغينة الباقية .

حدث مسروق الهمداني قال : « دخلت على عائشة وعندها حسان وهو يرثي بنتاً له ويقول :

رزان حصان ما تـــزن بريبـــة   وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

فقالت عائشة : لكن أنت لست كذلك . فقلت لها : أيدخل عليك هذا وقد قال الله عز وجل (والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم) فقالت : « أما تراه في عذاب عظيم قد ذهب بصره » .

وهذا لأن حسان بن ثابت كان ممن نسب إليه شعر في مسألة الإفك لا يرضي السيدة عائشة .

على أنها قبلت عذره كما جاء في رواية أخرى ونهت عن شتمه ، وذلك فيما رواه يوسف بن ماهك عن أمه حيث تقول : « كنت أطوف مع عائشة بالبيت فذكرت حسان فسببته فقالت : بئس ما قلت ،أتسبينه وهو الذي يقول :

فـإن أبـي ووالـده وعرضي لعرض محمد منكم وقـاء

فقلت : أليس ممن لعن الله في الدنيا والآخرة بما قال فيك ؟ قالت : لم يقل شيئاً ولكنه الذي يقول :

حصان رزان ما تـزن بريبـة وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
فإن كان ما قد جاء عني قلتـه فلا رفعت سوطي إليّ أناملي

وقال هشام بن عروة عن أبيه : « كنت قاعداً عند عائشة فمر بجنازة حسان بن ثابت فنلت منه فقالت : مهلا ! فذكرتها كلامه فقالت : فكيف بقوله :

فـإن أبـي ووالـده وعرضي لعرض محمـد منكـم وقاء

ولا شك أن الذي ذكرته السيدة عائشة لحسان لا ينسى ، وأن الذي صفحت عنه بعد ذلك كثير ، وأن حمد الصفح هنا أولى من ملاحظة التذكير والتبكيت .

• • •

أما كرم السيدة عائشة فهي فيه إلى النجدة أقرب منها إلى السخاء ، وهي

فيه على آسال من أبيها العظيم رضي الله عنه . تنقذ من الأسر وتغيث من البلاء وتعطي من هو في حاجة إلى العون العاجل ما تيسر لها العطاء ، وكانت في كرمها على حال سواء في أيام النبي عليه السلام حين لا مال لديها إلا القليل الذي هي أحوج إليه ؛ أو في أيام الفتوح التي تيسر لها فيها من المال ما لم يكن قبل بميسور .

كان لعتبة بن أبي المهلب جارية حبشية اسمها بريرة زوّجها على غير رضاها عبداً من عبيد المغيرة فكرهته وأعرضت عنه ، وهي أهل لمن هو أصلح وآدب منه . فرحمتها السيدة عائشة فاشترتها وأعتقتها . وخاطبت فيها النبي عليه السلام فقال لها : ملكت نفسك فاختاري !

وكان زوجها يتعلق بها ويتبعها حيث سارت وهي معرضة عنه ، فتعجب النبي بين أصحابه يوماً من فرط حبه لها وزهدها فيه ؛ وقال لها : اتقي الله فإنه زوجك وأبو ولدك ! قالت : أتأمرني ؟ قال : لا . إنما أنا شافع . فقالت : إذن لا حاجة بي إليه .

وما زالت بعد ذلك في خدمة السيدة عائشة تخلص لها وتذكر لها عطفها عليها ولا تنسى لها جميلها .

وقد أعانها على هذا الخلق السمح أنها رزقت القدوة القريبة بسيد المواسين للضعفاء ومعلم الجابرين لكسر القلوب ، فما من شأو بلغته في هذا المعراج الرفيع إلا ارتفع بها رسول الله إلى أعلى منه وأجمل . كانت عندها فتاة يتيمة اسمها الفارعة بنت أسعد فزوجتها انبيط بن جابر الأنصاري وسارت معها في زفافها إلى بيت زوجها . فلما عادت سألها عليه السلام : ما كان معكم لهو فإنه يعجب الأنصاري ؟ هلا بعثم جارية تضرب بالدف وتغني ؟ فسألته : ماذا تقول يا رسول الله؟ ! قال : تقول أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم . ولولا الذهب الأحمر ما حلت بواديكم ، ولولا الحنطة السمراء ما سمنت عذاريكم» .

وحدثت مولاتها أم ذرة — وهي من الثقات — أن ابن الزبير بعث إلى

السيدة عائشة بغرارتين فيهما مال يبلغ مائة ألف درهم. وكانت صائمة فدعت بطبق فجعلت تقسم في الناس. ثم أمست فقالت: يا جارية هاتي فطري. قالت أم ذرة: أما استطعت فيما أنفقت أن تشتري بدرهم لحماً تفطرين عليه؟ فقالت: لا تعنفيني! لو كنت أذكرتني لفعلت!

وقال ابن سعد عن عروة بن الزبير. رأيت عائشة تصدّق بسبعين ألفاً؛ وإنها لترقع جانب درعها. وأيسر ما يستفاد من هذه الروايات على اختلاف مكان رواتها من الثقة أنها رضي الله عنها كانت مشهورة بالكرم والإحسان إلى مستحقيه.

وقد كانت بنت أبيها في أكثر من خصلة واحدة من هذه الخصال النادرة بين الرجال والنساء؛ ولكنها كانت أشبه ما تكون به في خصلة الصدق التي بها اشتهر ومن أجلها نعت بالصديق وغلب هذا النعت عليه حتى أوشك أن ينسى الناس اسمه الذي دعاه به أبواه. وقد امتحن صدقها في مآزق عسيرة البلاء للنفوس فتمحصت عن معدن كريم وعرق سليم ودلت على أصالة هذا الميراث النفيس من أبيها العظيم. ففي الغاشية التي أطبقت على العالم الإسلامي من جراء الخلاف على الخلافة تطايرت الأحاديث الموضوعة من هنا وهناك وتعمد أناس أن يصوغوا من عندهم حديثاً لكل حزب ينصره ويرضيه ويكبت خصمه ويخزيه. وافتنّ الوضاع في محاكاة الأحاديث النبوية ذلك الافتنان الذي شقي به المحققون للروايات بعد ذلك بسنين. وكانت السيدة عائشة تشترك في خصومات المتخاصمين على الخلافة باختيارها أو تساق إلى المشاركة فيها على كره منها. وكانت هي أول من يُسمع له إذا روت حديثاً يدمغ خصومها ويعزز أنصارها، ولكنها لم تنقل قط في كل ما ثبتت نسبته إليها حديثاً واحداً تمسه الشبهات من قريب أو بعيد ولا تؤيده الأسانيد الأخرى، ولم تحرف كلمة واحدة إلى غير موقعها طواعية لإغراء تلك النوازع النفسية التي تطيش بالألسنة أو تضلل العقول؛ وهو امتحان ليس أعسر منه امتحان

في هذا الباب ، ولهذا كانوا يروون عنها الأحاديث فيقولون : حدثتنا الصديقة بنت الصديق !

ومن الصفات التي شابهت فيها أباها الذكاء المتوقد والبديهة الواعية ولم تقصر فيها عن شأوه .

بل لا نحسبها قصرت عن شأو واحد من معاصريها بين الرجال والنساء على السواء في سرعة الفهم وقدرة التحصيل والإحاطة بكل ما يقع في متناول ذهنها .

قال أبو الزناد : ما رأيت أحداً أروى لشعر من عروة بن الزبير . فقيل له : ما أرواك ! قال : وما روايتي في رواية عائشة ! ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعراً .

وقد كان عروة بن الزبير أشد الناس حباً لخالته السيدة عائشة وإعظاماً لها وتوقيراً لسيرتها ، ولكن الذي روي عنها من الشواهد الشعرية في أخبارها التي نقلت إلينا يدل على صدق ما وصفها به من غزارة الحفظ وحسن الاستشهاد.

دخل عليها النبي عليه السلام وهي تتمثل بالبيتين التاليين :

ارفع ضعيفك لا يحربنّك ضعفه ... يوماً فتدركه العواقب قد نما
يجزيك أو يثني عليك وإن مَن ... أثنى عليك بما فعلت فقد جزى

فقال عليه السلام : لقد أتاني جبريل برسالة من ربي : « أيما رجل صنع إلى أخيه صنيعة فلم يجد له جزاء إلا الثناء عليه والدعاء له فقد كافأه » .

ورأت أباها يجود بنفسه فقالت :

لعمري ما يغني الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

وعادت تقول :

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

ومما يروى أنها أنشدته في تلك الساعة وهي ولهى لفراق أبيها :

وكل ذي غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب

ويؤخذ من بعض ما نقل عنها أنها كانت تسمع شعر زهير وتعجب به ، فقالت لإحدى بناته فيما روى الهيثم بن عدي : « إن الحال التي كساها أبوك هرِماً لم يبلها الدهر » .

على أن الفهم والحفظ ملكتان معروفتان للسيدة عائشة كثرت أو قلت الشواهد الشعرية التي وصلت إلينا من أخبارها .

فحسبها أنها قد روت للنبي عليه السلام أكثر من ألفي حديث في مختلف المسائل التي تدخل فيها الأحكام الشرعية والعظات الخلقية والآداب النفسية والأصول التي يرجع إليها في الدين والعبادة .

بل حسبها أن يثبت لها عشر هذا العدد من الأحاديث النبوية ليثبت لها أنها كانت تفهم وتعي وتحسن الحفظ فيما تنقله بحروفه كما تحسن التعبير فيما تحكيه بكلامها ، وأنها تحيط في فهمها وحفظها بكل ما أحاطت به الأحاديث من المعارض والمناسبات .

ومع هذا يروي الثقات أنها كانت تحفظ وتفقه وتفسر ولا يقتصر علمها على وعي الكلمات والعبارات . قال أبو موسى الأشعري : ما أشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها علماً فيه ، وقال عطاء بن أبي رباح : كانت أفقه الناس وأعلم الناس وأحسن الناس رأياً في العامة . وقال مسروق الهمداني : رأيت مشيخة أصحاب رسول الله الأكابر يسألونها عن الفرائض ، وقال عروة بن الزبير : ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة .

ومن الأحاديث التي ترفع إلى النبي أنه قال : خذوا شطر دينكم عن

هذي الحميراء ، وهو حديث لم يثبت بالسند الصحيح ، ولكن الحق الذي لا مراء فيه أن المسلمين قد عرفوا الكثير من أمر نبيهم وأمر دينهم من أحاديث عائشة عن زوجها المحبوب عليه السلام .

ولا ريب أنها كانت تقتدي بأبيها في حفظ الأخبار والأنساب كما كانت تقبس من ميراث أخلاقه وطباعه وملكاته . ويستفاد من بعض المنقول عنها أنها كانت تواقة إلى معرفة كل ما تعرف من تواريخ الأمم غير قانعة بأخبار الأمة العربية ، ولا بالأخبار التي تعنيها خاصة كأخبار النبي والصحابة والعشيرة الإسلامية ، ومنها خبر النجاشي حين هاجر المسلمون إلى بلاده فأوفد إليه المشركون جماعة منهم يحملون إليه الغوالي والنفائس ليبطش بأولئك المهاجرين أو يردهم إلى قومهم ، فقال : « ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فآخذ الرشوة منه ، وما أطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه » .

فخفي على السامعين معنى كلامه هذا حتى بلغ السيدة عائشة ففسرته بما انتهى إلى علمها ، وهو أن هذا النجاشي كان من الأمراء المغصوبين وأقصاه الملك الغاصب وباعه بيع الرقيق ، ثم أعيد إلى ملكه فاقتضى الرجل الذي اشتراه حقه وأبى هذا النجاشي إلا أن يعطوه الدراهم من أموالهم ليجزيهم بصنيعهم ، فذلك إذ يقول : ما أخذ الله مني رشوة حين رد علي ملكي فآخذ الرشوة فيه .

وهو تفسير لا يعنينا هنا أن نستقصيه من الوجهة التاريخية ، ولكن الذي يعنينا منه شغف السيدة باستطلاع أحوال الأمم كافة حيثما تسنى لها سبيل الاطلاع .

* * *

وغزارة الاطلاع بينة — إلى جانب هذا — من لغة السيدة عائشة التي امتزجت بأسلوبها في كل ما نقل عنها ولا سيما الخطب والوصف خاصة . فقد كانت لها مادة من اللغة لا تتهيأ بغير محصول كبير من أبناء العربية التي تستقي من أعرق مصادرها .

قالت في خطبة بعد وقعة الجمل تذكر أباها : « ... وأبي ثاني اثنين الله ثالثهما ، وأول من سمي صديقاً ، مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنه راض ، وقد طوقه وهق [1] الإمامة ثم اضطرب حبل الدين فأخذ بطرفيه وربق [2] لكم أثناءه فوقذ [3] النفاق وغاض نبع الردة وأطفأ ما حشت يهود ، وأنتم يومئذ جحظ العيون تنتظرون العدوة وتستمعون الصيحة فرأب الثأي [4] وأرزم [5] مسقاه وامتاح من المهواة واجتهر دفن الرواء [6] حتى أعطن الوارد وأورد الصادر ، وعل الناهل [7] فقبضه الله واطئاً على هام النفاق ، مذكياً نار الحرب للمشركين ، فانتظمت طاعتكم بحبله فولى أمركم رجلا مرعياً إذا ركن إليه ، بعيد ما بين اللابتين [8] عركة [9] للأذاة بجنبه صفوحاً عن أذاة الجاهلين ، يقظان الليل في نصرة الإسلام » .

ووصفت أباها في خطبة أخرى فقالت : « رحمك الله يا أبت ! فلئن أقاموا الدنيا لقد أقمت الدين حين وهى شعبه ، وتفاقم صدعه ، ورجفت جوانبه ، وانقبضت عما إليه أصغوا ، وشمرت فيما عنه ونوا ، واستصغرت من دنياك ما أعظموا ، ورغبت بدينك عما أغفلوا ، طالوا عنان الأمر واقتعدت مطي الحذر ، فلم تهتضم دينك ولم تنس غدك ، ففاز عند المساهمة قدحك وخف مما استوزروا ظهرك » .

---

(١) حبل يجعل في العنق .
(٢) ربقه : شده في الربق وهو حبل فيه عرى .
(٣) كسر .
(٤) أي رقع الفتق وأصلح الخلل .
(٥) أي شده .
(٦) امتاح من المهواة أي استقى من البئر العميقة ، واجتهر دفن الرواء أي أخرج خبايا الماء الغزير .
(٧) النهل : أول الشرب . والعلل : السقي بعد السقي .
(٨) كناية عن سعة الصدر .
(٩) من المعاركة أي الاختيار .

ووقفت على قبره قائلة — وهو كلام يستغرب تنسيق فواصله وترجيع ضمائره ولكنه لا يستبعد على عصره :

« نضر الله وجهك ، وشكر لك صالح سعيك ، فلقد كنت للدنيا مذلاً بإعراضك عنها ، وللآخرة معزاً بإقبالك عليها ، ولئن كان أجلّ الحوادث بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رزؤك وأعظم المصائب بعده فقدك ، إن كتاب الله ليعد بالعزاء عنك حسن العوض منك ، فأنا أتنجز من الله موعوده فيك بالصبر عليك ، وأستميضه منك ، بالدعاء لك . فإنا لله وإنا إليه راجعون . وعليك السلام ورحمة الله توديع غير قالية لحياتك ولا زارية على القضاء فيك » .

وقد كان لها أسلوب فيما يرتجل يناسب موضوعه ، كما كان لها فيما يجوز تحضيره أسلوب يناسب ما يحتفل له بالتحضير . فلما حكت عن زواجها بالنبي قالت بأساوب مرسل سهل ولكنه مع ذلك جزل فصيح : « ... تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ابنة ست سنين ، فقدمنا المدينة فنزلنا في بني الحارث بن الخزرج فوعكت فتمزق شعري فوفى جميمه (١) فأتتني أمي أم رومان وإني لفي أرجوحة ومعي صواحب لي وصرخت بي فأتيتها لا أدري ما تريد بي ! فأخذتني بيدي حتى أوقفتني على باب الدار وإني لأنهج حتى سكن بعض نفسي ، ثم أخذت شيئاً من ماء فمسحت به وجهي ورأسي ، ثم أدخلتني الدار فإذا نسوة من الأنصار في البيت . فقلن : على الخير والبركة ، وعلى خير طائر . فأسلمتني إليهن يصلحن من شأني فلم يرعني إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى فأسلمتني إليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين ... »

* * *

ومع هذه المادة اللغوية التي تنم عن استقصاء مادة العربية من أعرق

---

(١) الجمة : مجتمع شعر الرأس .

مصادرها لا نستغرب ما تواترت به الروايات من علم السيدة عائشة بطب زمانها وما يصح في زماننا أن يسمى بعلم الفلك والظواهر الجوية لإلمامه بمسالك النجوم ومهاب الأنواء وغير ذلك من معارف البادية والحاضرة في عصر الدعوة الإسلامية .

وهكذا تنظر إلى عائشة لنفسها فلا ترى أنها تقصر عن عائشه في المكان الذي خصتها به الآداب العربية ، ورفعتها إليه الآداب الإسلامية والحظوة النبوية . لأنه مكان قد استحقته لنشأتها في قبيلتها ودخولها في دينها . واستحقته كذلك بما تميزت به بين أترابها من جمال وفهم ومعرفة وبيان .

زَوجُ النَّبيّ

كانت السيدة خديجة رضي الله عنها أول زوجات النبي عليه السلام وأحبهن إليه ، عاش معها زهاء خمس وعشرين سنة ولم يتزوج عليها ولا فكر في الزواج بغيرها في حياتها . مع أنه بنى بها وهو في نحو الخامسة والعشرين وهي في نحو الأربعين ، وبقيت معه إلى أن أوفت على الخامسة والستين .

ثم توفيت حوالي السنة العاشرة بعد الدعوة ؛ فلم يعرف عنه أنه حزن على أحد قط أشد من حزنه عليها ، ولا أطال الذكرى لأحد قط بعد وفاته كما أطال ذكراها ، وسمى عام وفاتها « عام الحزن » لأن الحزن لم يفارقه طوال أيامه ، ولم يفارقه — في الواقع — بقية حياته كلها ، وإن سكنت سورته مع الأيام كما تسكن كل سورة لاعجة مع ذلك العزم الصادق والقلب الصبور .

وتزوج بالسيدة عائشة بعد وفاة السيدة خديجة بسنوات .

فكان التقابل بين الزوجين من أتمّ ما تأتي به المصادفة حين تكون المصادفة أحكم من التدبير والتقدير ، ولعل هذا التقابل لم يخل كل الخلو من القصد الخفي وإن لم تتجه إليه النية في وضوح .

ويبدو لنا أن النبي عليه السلام كان أحوج ما يكون إلى هذا التقابل العجيب في حياته الزوجية .

فالفتى اليتيم الذي فجع في حنان الأمومة منذ طفولته الباكرة لم يكن

أنفع له من زوجة كريمة رشيدة كالسيدة خديجة التي أغدقت عليه من حنان الأمومة ما فاته في بواكير الطفولة . وأدركه عطفها وهو يعالج من نوازع الدعوة النبوية ثورة مقيمة مقعدة في سريرة النفس . لا تزال بين الجلاء والغموض وبين الإقدام والإحجام . ولا تزال في هذه الحالة على حاجتها القصوى إلى التثبيت والكلاءة والتشجيع .

أما النبي في الخمسين من عمره فقد كان أنفع له وأبهج لفؤاده أن يغدق حنان الأبوة على زوجته التي تظفر منه بالحظوة والمودة ، وأن يستروح من شبابها وجمالها نعمة تسعده في جهاده وربيعاً يظلله في وحشة عمره .

كانت خديجة أماً ترعاه .

ثم كانت عائشة طفلة تنعم بتدليله .

وكانت خديجة تسعده بالعقل والحنكة .

ثم كانت عائشة تسعده بالطرافة والجمال .

وكانت خديجة تصاحبه قبل الدعوة وهو يطلب الأنصار في طوية النفس قبل أن يطلبهم في عالم النضال والبلاء .

ثم كانت عائشة تصاحبه بعد الدعوة وهو صاحب دين جهر وبهر ، فكانت هي أول سفرائه بالإصهار إلى رجالات العرب ورؤساء العشائر والبيوت .

كان تقابلا بين الزوجين الفضليين من أعجب ما تأتي به المصادفة بل من أعجب ما يأتي به التدبير ؛ وليس هناك تدبير معروف .

فالذي نعلمه من خطبة النبي عليه السلام للسيدة عائشة أنها كانت من المصادفات التي لم يتحدث بها قط قبل أن تقترح عليه .

نعم إنه عليه السلام قال لعائشة يوماً : « أريتك في المنام مرتين أرى أنك في سرقة من حرير ويقال : هذه امرأتك ! فاكشف عنها فإذا هي أنت .

فأقول : إن يك هذا من عند الله يُمضه » .

ولكن الحديث يدلنا على مبلغ ما كان في ضمير النبي عليه السلام من هذه النية ، وقد يفهم منه أنه كان عليه السلام يناجي نفسه الشريفة بأمنيته في الزواج فطابقت السيدة عائشة مثال هذه الأمنية ، وكان هذا من بواعث حبه إياها لمطابقة الرؤية ما تمثله في الرؤيا .

فأما الخطبة فالذي نعلمه من الروايات المتواترة أنها جاءت بعد اقتراح من سيدة بارة آلمها ما لحظته من حزن النبي على زوجه العزيزة عليه . فقالت له : أي رسول الله ! ألا تتزوج ؟ فسألها : من ؟ قالت : إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً . ثم سألها عن البكر فذكرت عائشة « بنت أحب خلق الله إليك » ... وسألها عن الثيب فذكرت سودة بنت زمعة . فأوفدها إلى بيت أبي بكر وجرت الخطبة بعد ذلك في مجراها الذي انتهى بالزواج بعد سنوات .

هذه السيدة هي خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون من أجلاء الصحابة الذين حرموا الخمر في الجاهلية وعاش بعد الإسلام عيشة النسك والحكمة . وبقية حديث الخطبة أنها ذهبت إلى أم رومان — أم عائشة — فبادأتها بالحديث قائلة : ما أدخل الله عليكم من الخير والبركة ! قالت : وما ذاك ؟ قالت : أرسلني رسول الله أخطب عليه عائشة . فاستمهلتها حتى ترى أبا بكر ، وقيل إن أبا بكر سأل حين بلغه الأمر : وهل تصلح له وهي بنت أخيه ؟ يظن أن المؤاخاة بينه و بين النبي قد بلغت مبلغ القرابة التي تمنع المصاهرة . فكان جواب النبي لها : « قولي له أنت أخي في الإسلام وابنتك تحل لي » كما جاء في هذه الرواية .

وإلى هذا الحين لم يكن في تقدير أحد أن صلة من أوثق الصلات ستنعقد بين النبي وصفيه الحميم . لأن عائشة كانت مخطوبة قبل ذلك لجبير بن مطعم ابن عدي من أصحاب أبيها في الجاهلية . فتحرج أبو بكر من نقض خطبته قبل مراجعته فيما ينويه ، وقال لأم رومان زوجته : والله ما أخلف أبو بكر

وعداً قط . ثم لقي أبا الفتى وأمه يسألهما فيما ينتويانه . فأقبل الأب على امرأته يسألها : ما تقولين ؟ فالتفتت الأم إلى أبي بكر وهي تقول متعللة : لعلنا إن أنكحنا هذا الصبي إليك تصبئه وتدخله في دينك الذي أنت عليه؟ فلم يجبها ، وسأل زوجها : ما تقول أنت ؟ فلم يزده على أن أجاب : إنها تقول ما تسمع .

فعلم أبو بكر يومئذ أنه في حل من نقض وعده لمطعم بني عدي ، واستقبل النبي خاطباً فتمت الخطبة في شوال سنة عشر من الدعوة قبل الهجرة بثلاث سنوات ، وأصدقها النبي عليه السلام أربعمائة درهم على أشهر الروايات.

وتختلف الأقوال في سن السيدة عائشة يوم زفت إلى النبي عليه السلام في السنة الثانية للهجرة ، فيحسبها بعضهم تسعاً ويرفعها بعضهم فوق ذلك بضع سنوات .

وهو اختلاف لا غرابة فيه بين قوم لم يتعودوا تسجيل المواليد . إذ قلما يسمع بإنسان — رجلا كان أو امرأة — في ذلك العصر إلا ذكر له تاريخان أو ثلاثة لميلاده أو زواجه أو وفاته . وقد يبلغ الاختلاف بين تاريخ وتاريخ في تراجم المشهورين فضلا عن الخاملين عشر سنين .

والأرجح عندنا أن السيدة عائشة كانت لا تقل عند زفافها إلى النبي عليه السلام عن الثانية عشرة ولا تتجاوز الخامسة عشرة بكثير .

فقد جاء في بعض المواضع من طبقات ابن سعد أنها خطبت وهي في التاسعة أو السابعة ، ولم يتم الزفاف كما هو معلوم إلا بعد فترة بلغت خمس سنوات في أشهر الأقوال .

ويؤيد هذا الترجيح أن السيدة خولة اقترحتها على النبي وهي في السن المناسبة للزواج على أقرب التقديرات إلى القبول إذ لا يعقل أنها تشفق من حالة الوحدة التي دعتها إلى اقتراح الزواج على النبي وهي تريد له أن يبقى في تلك الحالة أربع سنوات أو خمس سنوات أخرى .

ويؤيد هذا الترجيح ، من غير هذا الجانب ، أن السيدة عائشة كانت مخطوبة قبل خطبتها إلى النبي ، وأن خطبة النبي كانت في نحو السنة العاشرة للدعوة .

فإما أن تكون قد خطبت لجبير بن مطعم لأنها بلغت سن الخطبة وهي قرابة التاسعة أو العاشرة ، وبعيد جداً أن تنعقد الخطبة على هذا التقدير مع افتراق الدين بين الأسرتين .

وإما أن تكون قد وعدت لخطيبها وهي وليدة صغيرة كما يتفق أحياناً بين الأسر المتآلفة ، وحينئذ يكون أبو بكر مسلماً عند ذلك ، ويستبعد جداً أن يعد بها فتى على دين الجاهلية قبل أن تتفق الأسرتان على الإسلام .

فإذا كان أبو بكر رضي الله عنه قد وعد بها ذلك الموعد قبل إسلامه ، فمعنى ذلك أنها ولدت قبيل الدعوة وكانت تناهز العاشرة يوم جرى حديث زواجها وخطبها النبي عليه السلام .

ولهذا نرجح أنها كانت بين الثانية عشرة والخامسة عشرة يوم زفت إليه ، وأنها هي رضي الله عنها كانت تسمع تقديرات سنها ممن كان حولها لأنها لم تقرأها بداهة في وثيقة مكتوبة ، فكان يعجبها على سنة الأنوثة الخالدة أن تأخذ بأصغرها ، وكانت هي كثيراً ما تدل بالصغر بين أترابها فلا تنسى إذا اقتضى الحديث ذلك أن تقول : وكنت يومئذ جارية حديثة السن ، أو كنت يومئذ صغيرة لا أحفظ شيئاً من القرآن ، إلى أشباه ذلك من أحاديثها في هذا المعنى .

ذلك هو التقدير الراجح الذي ينفي ما يقوله المستشرقون على النبي بصدد زواجه بعائشة في سن الطفولة الباكرة ، وكل تقدير غير ذلك فهو تقدير مرجوح .

* * *

وقد ملكت ربة البيت الصغيرة بيتها الجديد من اللحظة الأولى لأنها كانت تدل فيه بمكانة الزوجة المحبوبة عند زوجها العطوف ، وبمكانة البنوة الناشئة عند الأبوة الرحيمة ، ومكانة ابنة الصديق العزيز التي أضفى عليها المودة والإيثار ما كان بين النبي والصدّيق من مودة هي أوثق وأبقى من مودة الرحم ، لأنها مودة الوفاء والإعجاب والإيمان ، أو مودة الحياة وما بعد الحياة .

وقد سجلت لنا السيدة عائشة خطرات نفسها خطرة خطرة ، ووصفت لنا في بيتها الجديد كل صغيرة وكبيرة ظاهرة وخافية ، ولكنها لم تذكر لنا قط كلمة واحدة تنم عن وحشة الانتقال من بيت إلى بيت ، ومن معيشة إلى معيشة ، ومن ظل أبوين إلى ظل رجل غريب عنها لا تعرف عنه إلا ما تعرفه عن النبي كلّ صبيةٍ مسلمة في سنها الباكرة .لأن عطف محمد هو العطف الغامر الذي لا يلجىء إلى عطف سواه ، وقد أغنى زيداً عن أبيه وأمه فآثر حياة الأسر مع سيده على حياة الحرية مع أبيه وأمه ، فأحرى بمثل هذا العطف أن يغني الفتاة التي تأوي إليه فتلوذ منه بعطف زوج وعطف أب وعطف صديق .

وتركها على سجيتها تلعب بالعرائس في بيت زوجها كما كانت تلعب بهن في بيت أمها وأبيها . وربما جاءها صواحبها الصغار « فينقمعن — كما قالت — من رسول الله فكان عليه السلام يسير بهن إليها ليلعبن معها .

وقالت جاريتها بريرة تصفها وهي في السنوات الأولى من زواجها : « ما كنت أعيب عليها شيئاً إلا أنها كانت جارية صغيرة أعجن العجين وآمرها أن تحفظه فتنام فتأتي الشاة فتأكله » .

وكان عليه السلام يتعهدها بما يسرها وإن عجب الصحابة الذين لا يفهمون وقار الدين كما يفهمه ولا تتسع صدورهم لما يتسع له صدره . ودخل عليها أبوها وعندها قينتان تغنيان في يوم منى والنبي عليه السلام مضجع مُسجّىً في ثوبه ، فصاح بها : أعند رسول الله يصنع هذا ؟ ... فكشف النبي عن وجهه وقال : دعهن فإنها أيام عيد .

وكان السودان يلعبون في يوم من أيام العيد بالدق والحراب فسألها عليه السلام : تشتهين أن تنظري ؟ قالت : نعم . قالت : « فأقامني وراءه خدي على خده وهو يقول : دونكم يا بني أرفدة — كنية الحبشة — حتى إذا مللت قال : حسبك ؟ قلت : نعم ! قال : فاذهبي » .

وربما مر أبوها رضي الله عنه بالبيت فيسمع صوتها عالياً في حضرة النبي عليه السلام ، فيدخل غاضباً يتناولها ليلطمها وينهرها قائلا : لا أراك ترفعين صوتك على رسول الله . فينهض عليه السلام ليحجزه ويقول لها بعد خروجه : رأيت كيف أنقذتك من الرجل ؟

وفي مرة من هذه المرات خرج أبو بكر مغضباً ثم عاد فوجدهما قد اصطلحا . فقال لهما : أدخلاني في سلمكما كما أدخلتماني في حربكما .

فقال النبي : قد فعلنا .

ولم يخف هذا العطف الذي لا نظير له بين الأزواج على السيدة عائشة وهي ما هي في ذكائها وعلمها ببيوت الصحابة وغيرها . وازدادت به علماً يوم شاركها الزميلات في بيت النبي وقد شاءت الدواعي السياسية والدينية أن تتعدد زوجاته وتتعدد صلات المصاهرات بينه وبين قبائل الجزيرة العربية ، فقد عرفت مكانها وهي بين تسع من الزميلات كما عرفت مكانتها وهي موشكة أن تنفرد في بيت النبوة ، وكان عليه السلام يعدل بينها وبين زميلاتها فيما يملك العدل فيه . أما ميل قلبه فكان يستغفر الله فيه قائلا : « اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » .

وشكرت له هذا الإيثار . وفخرت به في معارض حديثها كلما بدا لها معرض للشكر أو للتحدث بنعمة الله عليها . فقص عليها النبي يوماً قصة الندوة الإحدى عشرة اللواتي اجتمعن فتذاكرن أوصاف أزواجهن من خير وشر ، وكانت الحادية عشرة منهن — وهي أم زرع — محبة لزوجها ، فوصفته بأحسن ما يوصف به الأزواج في السر والعلانية . فقالت السيدة عائشة :

« بأبي وأمي لأنت يا رسول الله خير لي من أبي زرع لأم زرع » .

وهي القائلة بعد وفاة النبي في مزاياها التي اختصت بها دون أترابها : « فضلت على نساء النبي صلى الله عليه وسلم بعشر ! لم ينكح بكراً قط غيري ، ولا امرأة أبواها مهاجران غيري ، وأنزل الله براءتي من السماء ، وجاء جبريل بصورتي من السماء في حريرة ، وكنت أغتسل أنا وهو في إناء واحد ولم يكن يصنع ذلك بأحد من نسائه غيري ، وكان يصلي وأنا معترضة بين يديه دون غيري ، وكان ينزل عليه الوحي وهو معي ولم ينزل وهو مع غيري ، وقبض وهو بين سحري ونحري وفي الليلة التي كان يدور عليّ فيها ودفن في بيتي » .

وكان هذا التمييز سر البيت النبوي في مبدأ أمره ، ثم شاع في الجزيرة العربية حتى كان صاحب الهدية من المسلمين يؤخرها ليبعث بها إلى النبي وهو في بيت عائشة .

فوقع التغاير الذي لا محيص منه بين الزوجات ، وأرسلن إليه إحداهن أم سلمة فأعرض عن حديثها ثلاث مرات ، فلما أثقلت عليه قال لها : « لا تؤذيني في عائشة . فإن الوحي لم يأتني وأنا في ثوب امرأة غير عائشة » .. يريد بالثوب البيت في بعض التفسيرات ، من قولهم ثاب إليه يثوب فهو في الثوب الذي لا يزال يرجع إليه .

وتوسلن بالسيدة فاطمة رضي الله عنها لما يعلمن من قبول أبيها لكل شفاعة تأتيه منها ، فقالت له : « إن نساءك ينشدنك الله العدل في بنت أبي بكر . قال لها : يا بنية ! ألا تحبين ما أحب ! قالت : بلى . قال : فأحبي هذه » ... يشير إلى عائشة .

ويسيرٌ على الزميلات المتنافسات أن يدركن حب النبيّ لعائشة ويلحظن أنها كانت أحبهن جميعاً إليه وأقربهن جميعاً إلى فؤاده .

ولكن الذي لم يكن يسيراً عليهن أن يدركنه أو يلحظنه أنها هي رضي الله عنها كانت أشدهن حباً له ونفاذاً إلى نفسه واتصالا بقلبه ولبه .

فكلهن كن يحببنه ويتنافسن على قربه ولو كان فيه التنافس على الموت وفراق الدنيا ومن فيها . وحدثهن يوماً عمن تلحق به بعد فراقه الدنيا فقال : « أسرعكن لحاقاً بي أطولكن يداً »... فجعلن يقسن أيديهن وما منهن إلا من تتمنى أن تكون هي صاحبة اليد الطولى. ثم ظهر لهن أن المراد بالطول هنا طول اليد بالصدقة والعمل الصالح ... فغبطن زميلتهن زينب بنت جحش ! لأنها استحقت اللحاق به لعملها بيدها وإكثارها من الصدقات على مستحقيها .

إلا أن الحب الذي يبدو من فطنة عائشة لسرائر النبي أعمق وأقوى فما منهن من لصقت بنفسه كما لصقت بها ومن نفذت إلى معانيه كما نفذت إليها ومن عاشرته في روحه وطويته كما عاشرته بروحها وطويتها . وفي كلامها من الشواهد على ذلك ما ليس في كلامهن على تيسر الوسائل لهن أن يعرفن مثل ما عرفت وأن ينقلن عنه مثل ما نقلت. وليس أدل على اقتراب الحب من هذا الاقتراب الذي امتازت به عليهن . فكان إيثار النبي لها ضرباً من العدل على هذا الاعتبار .

لقد كانت تحبه حب المسلمة لنبيها .

وكانت تحبه حب الزوجة لزوجها والمرأة لرجلها ، وكانت تعجب بجماله كما تعجب بأدبه وعظمة قدره .

وكان يسرها أن تستمع إلى صوته وتصغي إلى ترتيل حديثه كما يسرها أن تستوضح معناه لأنه — كما كانت تقول لسائليها — لا يسرد كسردكم هذا ولكنه « يحدث حديثاً لو عده العاد لأحصاه » .

وكانت تغار عليه أشد غيرة عرفتها امرأة على زوجها ، وربما خرج من عندها في ليلتها فإذا هي تتبعه إلى حيث ذهب مخافة أن يلم ببيت زميلة من زميلاتها ، ووجدته في ليلة من هذه الليالي قد ذهب إلى المقابر يصلي للشهداء،

ويستغفر لهم ، فعادت إلى بيتها تقول لنفسها : بأبي أنت وأمي . أنت في حاجة ربك وأنا في حاجة الدنيا! ولكنها لبثت مكروبة الصدر مما خاطرها من خاطرها الأول ومن خطأ ظنها . فلما قفل عليه السلام إليها لحظ ما بها فسألها : ما هذا النفس يا عائشة ! فقالت: بأبي أنت وأمي . أتيتني فوضعت ثوبيك ثم لم تستتم أن قمت فلبستهما ، فأخذتني غيرة شديدة ظننت أنك تأتي بعض صويحباتي حتى رأيتك بالبقيع تصنع ما تصنع ... وخرج مرة أخرى ثم عاد إليها فإذا هي في مثل تلك الحالة . فقال : أغرت ؟ قالت : وهل مثلي لا يغار على مثلك ؟ فقال : لقد جاءك شيطانك !

ولم تنس قط أن تتحلى بما يروقه من مرآها . فكانت تلبس المعصفر والمضرج وتتحرى ما يعجبه من الطيب والحلية ، ودخلت عليها امرأة وهي معصفرة فسألتها عن الحناء فقالت : شجرة طيبة وماء طهور . وسألتها عن الحفاف فقالت لها : « إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعي مقلتيك فتصنعيهما أحسن ما هما فافعلي » .

* * *

ومن الجائز — أو ربما كان الواقع — أن زميلاتها أمهات المؤمنين كن يغرن على النبي مثل غيرتها ويجهدن في رضائه مثل جهدها . ولكنهن ولا ريب لم يبلغن شأوها في حبها إياه حين نفهم من الحب ذلك الاقتراب بين النفسين بالبداهة والشعور . وليس في أحاديثهن عنه مثل ما في أحاديثها عنه من ذلك الإحساس بالقرب وذلك النفاذ إلى الطوية . وليست المسألة هنا مسألة الكثرة أو القلة في الأحاديث فربما كان تعليل الكثرة في أحاديث عائشة عن النبي أنه كان عليه السلام أكثر تحدثاً إليها وارتياحاً إلى مجالستها ومسامرتها . ولكنها مسألة الرفق في الأداء والخبرة بالمعنى والقدرة على الاستيحاء والشعور الباطن بقلة الحواجز بين النفسين واتصال الحس بينها واللقانة .

ومن البديه أنها لم تبلغ هذه المنزلة في حب النبي وفهمه طفرة واحدة

ولا في سنة واحدة أو سنتين . بل لبثت السنوات الأولى من عشرتها له وهي تقترب من الأنس به إلى المعرفة بنفسه وعقله والترقي إلى عظمته ونبله ... حتى أدركت ما يتاح لها أن تدرك من تلك العظمة التي تعلو على هامتها وهامات الرجال من حولها ، ولكنها هي — ببداهة المرأة وبداهة الحب الأنثوي — كانت تستقرب ما يبعد على غيرها ، وتستعيض ما يفوتها من الفهم الواضح بما يفوتهم من اللقانة الباطنية والوعي المستسر في الأخلاد .

ومضت السنوات الأولى في عشرة النبي وهي تفقه من أحاديثه ما تيسر لها أن تفقه ولا تقرأ كثيراً من القرآن ، أو كما قالت في حديث الإفك : « كنت جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن ... والتمست اسم يعقوب فما أذكره فقلت : ولكن سأقول كما قال أبو يوسف فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » .

وقد أمهلها النبي في هذه السنوات رفقاً بها وإعداداً لفهمها وعزمها ولكنه لم يفتأ رويداً رويداً يشركها في العبء الذي ينبغي أن تنهض به زوجة النبي وأم المؤمنين وسفيرته الأولى إلى عالم النساء في عصره وفيما يليه من العصور .

فكانت تحضره إذا بايع النساء أو صلى بهن أو جلسن إليه يسألنه في أمور الدين وآداب الزوجية ، ويتفق كثيراً أن يعرض عن الجواب حياء فيوكلها بالتفسير والإسهاب حيث يعز الفهم على سائلاته اللواتي يستقصين في السؤال .

سألته أسماء بنت شكل من نساء الأنصار : كيف تكون الطهارة من المحيض ؟ فقال لها : « خذي فرصة ممسكة فتوضئي ثلاثاً » أو قال تطهري ثلاثاً ... فقالت : وكيف أتطهر ؟ قال : سبحان الله ! تطهري بها ، وأعرض بوجهه حياء . فاجتذبتها السيدة عائشة وكفتها عن سؤاله .

وما زالت رضي الله عنها تعي من سنن النبي في المسائل النسائية وغير النسائية حتى احتاج الرجال أن يسألوها ويرجعوا إليها في كل ما تراجع

فيه السنن النبوية من شئون عامة وخاصة . ومن أهم المسائل التي روجعت فيها أن معاوية كتب إليها لتوصيه وترشده فأرسلت إليه تقول : سلام عليك أما بعد فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من التمس رضاء الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس ، ومن التمس رضاء الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس » .

فلم يكن أعجب من سؤال معاوية في تعميمه إلا حسن الاختيار في هذا الجواب . وهو ألزم ما يزود به الملوك من وصية وإرشاد .

وقد نهضت السيدة عائشة بأمانة التبليغ والتعليم أحسن نهوض وأوفاه . فتورعت عن كتمان شيء من الأشياء التي تسأل عنها ولها اتصال بقواعد الدين وأصول التطهير وشروط العبادات ونواقض الصلاة والصيام . فأسلوبها في تبليغ هذه الأحكام هو أسلوب التعليم وأسلوب أم المؤمنين في خطاب بناتها وبنيها من المسترشدات والمسترشدين . ولم يكن في مقدورها أن تتوخى أسلوباً غير هذا الأسلوب ولو عرضت لأخص الأمور التي تسكت عنها النساء ، لأنها المرجع الذي لا يغني عنه مرجع في سنن النبي ومأثوراته وأعماله . فمن الإخلال بالأمانة النبوية أن تسكت عن سنة مطلوبة يعرضها السكوت للضياع .

ولقد تكون هذه السيدة الفضلى التي أفصحت عن كل فتوى نسوية سئلت عنها وهي ما تأذن لعمها في الرضاع أن يراها إلا بعد مراجعة النبي عليه السلام . فأسلوبها في تفصيل السنن النبوية والقواعد الشرعية إنما كان فريضة الأمانة وضريبة الوفاء ، ولم يكن شيمة الطبع واللسان .

* * *

ودامت هذه الحياة الزوجية النادرة زهاء تسع سنين إلى أن توفي النبي عليه السلام .

ومن الحق أن توصف بأنها حياة زوجية سعيدة لأننا لا نعرف بين أزواج الهداة والعظماء من ظفرت بأسعد منها أو كانت أرضى من السيدة عائشة عن حياتها .

ففي طوال هذه السنين لم تمتزج هذه الحياة قط بكدر أو مساءة تعود فيها التبعة على أحد من الزوجين .

وأخطر ما ألمّ بهذه الحياة الزوجية في السنين التسع كلها حديث الإفك ، وغضب النبي من زوجاته جميعاً لتنازعهن في فترة من الزمن وإلحافهن عليه في طلب المزيد من النفقة والزينة .

فأما حديث الإفك فلا يد للزوجين فيه ، وقد امتحنت به أريحية النبي وعطفه على أهله فأسفر عن خير ما تطمح إليه الزوجة من حنو وسماحة وإعزاز .

وأما غضب النبي من زوجاته لتنازعهن وإلحافهن في طلب النفقة فعارضٌ مضى مرة ومضى أمثاله عشرات المرات في كل حياة زوجية بين جميع طبقات الناس ، وكان خير درس لأمهات المؤمنين يعلمهن أن يصبرن على ضرورات العيش كما يصبر النبي عليها ، لأنهن قدوة في القناعة ومغالبة الهوى ولسن بقدوة في الترف ونعمة العيش ، وقد خيرن بعد هذا الدرس بين التسريح والصبر على نصيبهن فاخترن أجمل النصيبين بهن ، وهو الصبر على سنة الأنبياء وأمهات المؤمنين .

ومما لا شك فيه أن السيدة عائشة قد خامرها الاسى في هذه الحياة الزوجية لشيء لا حيلة لها ولا للنبي فيه ، وهو الحرمان من الذرية التي كانت تتوق إليها كما تتوق كل أنثى ، ولا سيما بعدما علمت من حب النبي لزوجته الأولى ووفائه لعهدها وترديده لذكراها لأن له البنين والبنات منها .

وظهر ألمها هذا حين قالت للنبي وهي حزينة كاسفة : كل صواحبي

لمن كنى ! .. قال فاكتني بابنك عبد الله ! يشير إلى عبد الله بن الزبير ابن أختها أسماء . فجعلت تكتني به وتحبه ذلك الحب الأموي الذي يستمد القوة من الحنو والشوق والحرمان .

واتفقت الأقوال على أنها رضي الله عنها لم تحمل قط إلا رواية جاء فيها أنها أسقطت ولداً سماه النبي عبد الله فكانت لهذا تكنى بأم عبد الله .

وراقها أن تدعى أم المؤمنين وأن يناديها الناس يا أمه يا أمه ! فكان في هذا النداء تعزية كما كان فيه تشويق وتذكير .

والمرأة لا يهون عليها فقد الذرية ولا سيما إذا أحبت الزوج الذي تود أن ترزق منه الذرية ، ولكنها إذا التمست التهوين فلن تجد تهويناً أبر بها وأروح لقلبها من شعورها بعطف زوجها عليها ، وأنها بلغت من ذلك العطف ما لا تزيده الذرية التي تتمناها .

* * *

قلنا في كتابنا عبقرية محمد : « لسنا ندري لم طالت الفترة التي مضت على أزواج النبي جميعاً بغير عقب . ولكننا لا نستبعد تعليلها باجتماع المصادفات التي لا يندر أن تجتمع في أمثال هذه الأحوال . فعائشة البكر التي لم يتزوج النبي بكراً غيرها قد مات عنها عليه السلام وهي دون العشرين ، وهي سن قد تبلغها المرأة ولا تلد ، وإن كانت ولوداً فيما بعدها . أما أزواجه الأخريات اللاتي تزوجن قبله فلا نعلم من أخبارهن أنهن أعقبن لأزواجهن الأولين خلفاً غير رملة أم حبيبة وهند بنت أمية المخزومية ، وهذه كانت مسنة يوم بنى بها النبي عليه السلام ، وفي عمر لا يستغرب فيه امتناع الولادة . فكلهن ما عدا هاتين لم يلدن للنبي ولا لزوج قبله ، واجتماع هذه المصادفة ليس بالعجيبة المعضلة التي يصعب تعليلها إذا تذكرنا أن النبي قد توخى في اختيارهن تلك الأغراض العامة التي أجملناها في الفصل السابق ولم يتحر منها النسل خاصة : وهي الإيواء الشريف والمصاهرة . وبعضهن — بل معظمهن —

قد لقين من الشدائد والمخاوف وعناء الهجرة البعيدة ما يعقم الولود . فإذا أضفنا إلى ذلك معيشة الكفاف وضريبة العظمة النبوية التي أشرنا إليها على سبيل الاحتمال ، واشتغال النبي فيما بين الخمسين والستين بتعزيز الدين وقمع الفتن ودرء الأخطار — لم يكن فهم تلك الظاهرة الحيوية بالأمر العصي على التعليل » .

وفي صدد الكلام عن عائشة في كتاب خاص بها يدعونا سياق التحليل والتعليل إلى مراجعة البحث والعلم في ظواهر حياتها البيتية ، إن كان للعلم كلمة تقال في هذا الموضوع .

فليس من الغريب أن يتأخر حمل المرأة إلى ما بعد العشرين ثم تلد مرات ، وقد كان من المحتمل — بل الراجح — أن السيدة عائشة تجاوزت العشرين حين وفاة النبي عليه السلام .

وإذا كان تأخر الحمل إلى ما بعد العشرين لا يطرّد لزاماً في أحوال النساء فهو من العوارض التي تشاهد ولا تستغرب إذا اتفق لها سبب يرجع في تعليله إلى العلم والمشاهدة .

والعوارض التي نستطيع أن نهتدي إليها في تاريخ السيدة عائشة هي أنها قد أصيبت فيما دون العاشرة بحمى مزقت شعرها كما ذكرت هي في بعض أحاديثها ، وأنها كانت توعك من حين إلى حين كما يفهم من قولها في حديث الإفك : « واشتكيت حين قدمنا المدينة شهراً والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك ... ويريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي .... فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضاً إلى مرضي » ... وقد علمنا من حديث الإفك أنها إذا فوجئت بخبر محزن أو مغضب تصاب بحمى نافض كما يصاب الذين تعاودهم حمى البرداء في هذه الحالات .

والأطباء الذين سألتهم عن هذه الحمى التي تسقط الشعر وتتجدد لها

معاودة تنهك الجسم رجحوا أنها البرداء (الملاريا) أو التيفويد ، والأولى أرجح . لأنها كانت فاشية باعراضها المعروفة بين أهل المدينة في أيام الهجرة .

قالت السيدة عائشة : « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهي أوبأ أرض الله أصاب أصحابه منها بلاء وسقم ، وصرف الله ذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأصابت أبا بكر وبلالا وعامر بن فهيرة ، فاستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيادتهم وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب فأذن لي : فدخلت عليهم وهم في بيت واحد . فقلت : كيف تجدك يا أبت ؟ فقال :

كل امرىء مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعلـــه

فقلت : والله ما يدري أبي ما يقول .

ثم دنوت من عامر فقلت : كيف تجدك يا عامر ؟ فقال :

لقد وجدت الموت قبـــل ذوقه إن الجبان حتفه مـــن فوقـــه
كل امرىء مجاهـــد بطوقـــه كالثور يحمـــي أنفه بروقه

قلت : والله ما يدري عامر ما يقول .

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول :

إلا ليت شعري هل أبيتن ليلـــة بواد وحولي إذخر وجليل (١)
وهل أردن يوماً ميـــاه مجنـــة وهل يبدون لي شامة وطفيل (٢)

قالت عائشة . فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقلت : إنهم ليهذون وما يعقلون من شدة الحمى . فقال : اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، وصححها وبارك لنا في صاعها ومدها وانقل حمّاها

---

(١) نباتان في وادي مكة أحدهما وهو الإذخر طيب الرائحة والآخر الثمام .
(٢) جبلان بمكة .

فاجئلها بالجحفة ، وهي في الطريق من مكة إلى المدينة .

فإذا كانت حمى البرداء قد أصابت السيدة عائشة فيما دون العاشرة وظلت عقابيلها تعاودها فأيسر ما يقال هنا إننا حيال عارض ذي بال يلتفت إليه في تعليل ما أسلفناه .

وسألت أفاضل الأطباء في ذلك فقالوا : إن هذه الحمى لا تعطل الحمل ضرورة ولكنها قد تعطله من طريق إضعاف الجسم كله حتى يتغلب على عقابيلها .

قلت : وإذا أضيفت إليها معيشة الكفاف ؟

وإنما سألتهم هذا السؤال لأن المتواتر عن معيشة النبي عليه السلام في بيته أنه كان لا يشبع من خبز البر أو الشعير ثلاث ليال متواليات ، وأنه لم يشبع من خبز وزيت مرتين في يوم واحد ، وأنه هو وأهله كانوا لا يصيبون من المطاعم إلا بمقدار ما يدفع الجوع .

فكان من جواب الأطباء أن عقابيل الحمى وقلة الغذاء من الأسباب التي لا يعدوها النظر في بحث هذا الموضوع : فإذا صحت مع هذا رواية السقط فهي دليل على أثر تركته الحمى يعترض وظيفة الحمل والولادة .

وأيا كانت هذه العوارض فهي كل ما لدينا من أسباب المراجعة العلمية التي تعلل لنا حرمان السيدة عائشة رضي الله عنها من نعمة الذرية . نلم بها لأن الإلمام بها لا غنى عنه في هذا المقام .

* * *

وأية كانت علة هذا العارض فالأمر الذي لا شك فيه أنه لم يكدر صفو المودة والبر بين النبي وأهله ، وأنه لم يمنع هذه الحياة الزوجية أن تكون قدوة للمقتدين في العطف وأدب المعاشرة . وكانت هي العروة الوثقى كما وصفها النبي عليه السلام . فإذا سألته السيدة عائشة بين الفينة والفينة مدلة بمكانها عنده

وعطفه عليها : كيف حال العروة يا رسول الله ؟ قال : على عهدها لا تتغير .

أما العلاقات البيتية التي فرضتها هذه الحياة الزوجية على السيدة عائشة رضي الله عنها فقد كانت على أحسن ما تتسنى العلاقات بين أناس تجمعهم معيشة واحدة .

فهي وزميلاتها كن يتغايرن ويتنافسن لا محالة كما تتغاير النساء في كل مكان . ولكنهن لم ينسين قط أنهن نساء نبي يتأدبن بأدبه ويتطلعن إلى رضاه ويفزعن من غضبه .

فقصارى ما سمعناه من فلتات الغيرة على لسان السيدة عائشة أنها كانت تقول عن السيدة خديجة : « إنها عجوز حمراء الشدقين » ثم يعاتبها النبي فتندم ولا تعود إلى مثل هذه المقالة .... أو أنها عابت السيدة صفية مرة فقالت إنها قصيرة .... فاستكبر النبي هذه الكلمة وقال لها إنها لتمزج البحر إذا مزجت به . فلم تعد إلى مثلها .

وعلى ما كان بين عائشة وزينب بنت جحش من التنافس الشديد في الجمال والزلفى سنحت لزينب سانحة تقول فيها ما تقوله الضرة المحنقة فلم ينبس فمها بكلمة باطل . وذلك إذ سألها عليه السلام في حديث الإفك فاستعاذت بالله وقالت : « أحمي سمعي وبصري والله ما علمت إلا خيراً » .

وأحست سودة احدى زميلاتها أمهات المؤمنين أنها أسنّت وضعفت فتركت ليلتها لعائشة راضية ، وقالت عائشة تشكرها : « ما رأيت امرأة أحب إلي أن أكون في مسلاخها من سودة » .

فكل ما روي لنا من تغاير زوجات النبي إن ذكرنا أنهن نساء من طينة الأنوثة الخالدة فلن ينسينا أنهن نساء نبي يتأدبن بأدبه ولا يجاوزن بالغيرة ما يجمل بهن في كنفه ورعايته ، وإن تسع أخوات شقيقات من أب واحد وأم

واحدة ليقع بينهن من شحناء الغيرة إذا اجتمعن في بيت أسرتهن أضعاف ما روي لنا من غيرة زوجات النبي في عشرتهن الطويلة .

* * *

أما قرابة النبي فأعزها قدراً عنده قرابة السيدة فاطمة وزوجها وبنيها .

وكانت الصلة بين السيدة عائشة وبينهم جميعاً على أكمل ما ترضاه السجية الإنسانية في كل صلة من قبيلها .

فالسيدة فاطمة كانت أحب الناس إليه عليه السلام كما هو العهد بأبوته الشريفة التي تشمل الناس جميعاً بالحنان والمودة فضلاً عن بناته وبنيه . وسئل — كما قالت عائشة مرة — : من أحب الناس إليك ؟ فقال : فاطمة ! ثم سئل : ومن الرجال ؟ فقال زوجها .

وفاطمة بعد أم السبطين اللذين كان عليه السلام يلاعبهما ويلاطفهما ويوصي بهما ويسميهما ولديه وهو مشوق إلى إنجاب الأبناء ، وهي كذلك بنت خديجة التي نفست عليها عائشة قديم مكانتها وطويل وفاء النبي لذكراها .

فالسيدة فاطمة والسيدة عائشة شريكتان في قلب واحد تتنافسان عليه . ولكنها شركة بين كريمتين .

ومن أثر هذه المنافسة أن أمهات المؤمنين أوفدن السيدة فاطمة إلى النبي ليعدل بينهن وبين عائشة فقبلت الوفادة .

وربما خطر للسيدة عائشة أن علياً رضي الله عنه قد تأثر بهذه المنافسة يوم سأل النبي في حديث الإفك فقال : « ... لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير » .

ومن الصدق للتاريخ وللطبع الإنساني أن نلاحظ هذه الأمور ، لأن الطبع الإنساني لن يدع حقوقه على أبنائه ولن يكون الإنسان من لحم ودم

إلا اذا كان فيه للحم والدم نوازعهما التي لا فكاك منها . وإن راضها أدب النبوة ونبل العشيرة فثابت إلى أكرومة تجمل بالكرام .

فالصلة بين عائشة وقرابة النبي قد كانت صلة الأدب والتجمل والمجاملة ، ولكنها كانت في مجال لا يغيب فيه التنافس على العطف والإعزاز .

والبيت هنا أيضاً قدوة المقتدين في الأسر العليا التي عرفها التاريخ ، سواء منهم من أخذ بأدب الدين أو بأدب الدنيا .

وهي على الجملة « حياة زوجية » سعيدة نزلت منها السيدة عائشة منزلة الزوجة المدللة في طوال أيامها ، ثم منزلة الشريكة المعينة في عبء التبليغ والرسالة ، وبلغت من الثقة بها في المعونة حمادى ما تبلغه شريكة حياة ؛ فحفظت من تعليم النبي ما لم يحفظه أحد ، وحفظ عندها النبي أغلى الودائع من بعده : صحف الكتاب وسنته المشروعة لتابعيه .

بعد النبي

عاشت السيدة عائشة بعد النبي ستاً وأربعين سنة، وتوفيت وهي في نحو السبعين من عمرها ، سنة ثمان وخمسين للهجرة .

وقد توفي النبي عليه السلام في بيتها وفي زيارتها ، ودفن بالمكان الذي كان ينام فيه .

وقد علم كثير من الناس عند اشتداد المرض به أنه مرض الوفاة ، ولكنه كان قد صحا بعض الصحو قبيل يوم وفاته حتى استأذنه أبو بكر في الخروج إلى بيته بالسنح ، وتفرق المسلمون متفائلين وهم يرجون الخير ويبعدون عن خواطرهم نذير الخوف . فلما قبض عليه السلام بعد ذلك روعت عائشة أيما روع وتعاظمها الخطب أن تملك صبرها وهو يموت بين سحرها ونحرها ، فنسيت لهول الساعة ما ينبغي لها أن تستقبل به هذا الوداع الذي لا يتكرر ولا تهونه سابقة وداع مثله : إنها أم المؤمنين التي لبثت السنين بعد السنين تلقنهم ما لقنها النبي من سداد التجمل ووقار الحزن في الملمات ... إذا هي تنسى كل ذلك ساعة فقده وإذا هي امرأة والهة بين النساء تلتدم وتضرب وجهها : قالت : « ... وجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثقل في حجري ، فذهبت أنظر في وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول : « بل الرفيق الأعلى من الجنة » قلت : خيرت فاخترت والذي بعثك بالحق . وقبض بين سحري ونحري ودولتي ولم أظلم أحداً . فمن سفهي وحداثة

سي أنه صلى الله عليه وسلم قبض وهو في حجري ، ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهي » .

ولم تشهد دفنه عليه السلام بعد وفاته بيومين ، لأن المسلمين كان قد بلغ في تنافسهم في حبه أن يتولى كل فريق منهم مراسم دفنه على ما تعود في بلده وبين أهله . وكان أهل مكة يسوّون قاع القبر وأهل المدينة يقوّسونه . فبعث العباس بن عبد المطلب رجلين يدعو أحدهما أبا عبيدة بن الجراح ويدعو الآخر أبا طلحة ، وأولهما يضرح كأهل مكة والآخر يضرح كأهل المدينة . فعاد صاحب أبي طلحة به ولم يعد صاحب أبي عبيدة . فحفر اللحد على طريقة أهل المدينة وتولى القائمون على الجثمان الكريم دفنه بعد انقطاع المودعين عند هزيع من الليل . قالت عائشة وفاطمة رضي الله عنهما : « ما علمنا بدفنه صلى الله عليه وسلم حتى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل » .

وما برحت منذ تلك اللحظة تلازم البقعة الخالدة ولا تفارقها إلا للعمرة أو الحج أو لزيارة قريبة ، وقلما كانت تزور .

واتخذت سكنها في الحجرة المجاورة لقبره وهي لا تحسب أنها قد فارقته منه غير مشهد جثمانه . فقد كانت تزوره زيارة الأحياء . ودفن أبوها إلى جواره بعد سنوات فكانت تزورهما كذلك زيارة الأحياء . فلما دفن معهما عمر جعلت بعدها تنتقب وتلبس ملابس الحجاب وهي تزور أولئك الأصدقاء المتجاورين ، كأنهم بقيد الحياة .

وكانت في أوائل العقد الثالث على أكبر تقدير عند وفاته عليه السلام فعاشت في صحبته زهاء عشر سنين ، وعاشت في ذكراه خمسين سنة . وحسبنا من شعور الناس بجلال تلك الذكرى في نفسها أن أحداً لم يخطر له خاطرة عن السيدة عائشة تجيز التفكير في حياة زوجية أخرى كأنه خاطر حرمته قداسة تلك الذكرى وهيبة ذلك الوفاء ، فضلا عن الحكم بتحريمه في سورة الأحزاب على سبيل التشريع .

ولم تكن حياة السيدة عائشة فارغة في خلال السنين الطوال من لدن فارقها زوجها العظيم وهي تجاوز العشرين إلى أن فارقت الدنيا وهي تقارب السبعين ، لأنها في حدة نفسها ورفعة مكانها لا تقبل الفراغ . فما هو إلا أن هدأت ثائرة الفتنة بعد وفاة النبي عليه السلام وتوفر المسلمون على تحصيل مراجع الدين حتى كانت هي المرجع الأول فيما حفظ عندها من آي القرآن وما حفظته من السنن والأحاديث ، وحتى كان بيتها مثابة الزوار من أبنائها وبناتها ، يدعونها يا أمه ! ومنهم من هي في سن بناته الصغريات ، ويا له من دعاء محبب إلى الأسماع .

وكانت إذا فرغت من تلقين الأحاديث وجواب السائلين تأوي إلى الصلاة والتسبيح في جوار الضريح . أو تعمل في مهنة البيت ذلك العمل الذي كان النبي عليه السلام يسرها بمساعدتها فيه .

ومن أهم الأشياء التي ينبغي أن تلاحظ في حياة السيدة عائشة بعد النبي عليه السلام أنها قضت خلافة أبي بكر وعمر وهي لا تشعر بأن مكانها في عهد النبي قد تغير أو بأن أمراً من أمور السياسة العامة يدعوها إلى التعرض له راضية أو ساخطة . حتى كانت خلافة عثمان فتغيرت هذه الحال ، وكان لتغييرها دلالة كبيرة وأثر كبير .

ففي عهد أبي بكر كانت أمور السياسة العامة تجري على أحكام الدين وتركن منه ومن أصحابه إلى سند ركين ، وكان الخليفة أباها وهو أول من يدعوها بأم المؤمنين .

وفي عهد عمر كانت أمور السياسة العامة تضطرب أو تسكن ولكنها في كلتا الحالتين لا تنشعب ولا تؤذن بانصداع ، وكان عمر أهيب خليفة عرفه الإسلام وأحب خليفة إلى عائشة رضي الله عنها . سرت صداقة الأبوين أبي بكر وعمر إلى بنيهما فكانت عائشة وحفصة أصدق صديقتين تتفقان وتتكاشفان كلما وقع الخصام في بيت النبي عليه السلام ، وحفظت له أجمل

الشكر لموقفه من حديث الإفك حين شاوره النبي فقال له : إن الله هو الذي زوجكها وإنه سبحانه وتعالى لم يدلس بها عليك . وتم هذا الشكر حين ولي الخلافة فرعى لها المكانة الأولى بين المسلمين ، وخص بيت النبي بالحصة العليا من الحفاوة والعطاء .

فمضى العهدان — عهد أبي بكر وعمر — وليس في الحياة الخاصة ولا في الحياة العامة ما يشعرها بتغيير أو ينزع بها إلى نوازع السياسة ، وما تعارض منها أو جنح إلى التحزيب والتأليب .

ثم تغيرت الأمور في عهد عثمان .

ولولا هذا التغيير لما عرف للسيدة عائشة نصيب من السياسة العامة بعد موت النبي ، وهو الموقف الذي تحولت بها الأحوال إليه بعد اجتناب السياسة العامة قرابة عشرين سنة ، على غير سابقة له في سيرتها الأولى .

في السياسة العامة

قلنا في الفصل السابق إن السيدة عائشة لم تقض حياتها فارغة خلال السنين الطوال التي انقضت بعد وفاة النبي عليه السلام ، « لأنها في حدة نفسها ورفعة مكانها لا تقبل الفراغ » .

فأما حدة نفسها فمن السهل بعد المامة يسيرة بمزاجها وتكوينها الذي يشبه تكوين أبيها أن نعرف كيف يتعذر الفراغ على هذه السليقة الحية التي نشط بها المزاج العصبي ولم يقعد بها الترهل والإعياء .

وأما رفعة مكانها فهي أحرى أن تشغلها عن الفراغ مريدة له أو غير مريدة ، لأنها تعودت أن يؤبه لها طوال حياتها ، ولم تتعود قط أن تكون غفلاً في بيئتها ، وهي أرفع بيئة بين قومها .

نشأت عزيزة في آلها وذويها ، عزيزة في بيت أبيها ، عزيزة في أعز البيوت العربية بعد زواجها . فمن الحق لها ولنشأتها ، ومن الواجب لها ولنشأتها أن يؤبه لها طوال حياتها ، وألا يكون فراغها بمثابة الإغضاء عنها .

هذه حقيقة لو التفت لها ولاة الأمر كما ينبغي في حينها لسلمت السياسة العامة في ذلك الحين من جرائر الخطأ الذي وقعت فيه .

ولا بدع في تقرير الحقيقة ولا في تعظيم خطرها والتنبيه إلى تبعاتها .

فما من دولة قط إلا قد اتخذت لها أصولاً مرعية في سياسة أقطابها

ومراسم كبرائها وكبيراتها توافق ما لهم أو لهن من الشأن في الدولة ، وما يكون لميولهم أو ميولهن من الآثار في السياسة العامة ، أو السياسة العليا على التخصيص ، وهي أصول لم تغفل مرة إلا كان لها أثر غير منظور ولا محسوب له حساب في توجيه الأمور .

وقد كانت « أصول » السياسة العليا في معاملة السيدة عائشة ، رعاية لمكانتها وسابقتها ، أن تظل بالمكان الذي يستفاد فيه من عملها وعلمها ، وأن تعرف لها مهمتها الكبرى في تقرير السنة النبوية ، أو تبويب الدستور الإسلامي كما يؤخذ من أحاديث النبي ومأثوراته وعاداته ، في معيشته وعباداته ، وكان هذا وحده عملاً خليقاً أن يشغل أيام السيدة عائشة على أحسن الوجوه الصالحة لها وللمسلمين وللدولة الإسلامية .

كان هذا واجباً لها وجوب الحق ، ووجوب المصلحة ، ووجوب السياسة .

وكان هذا الواجب « أصلاً مرعياً » من أصول السياسة العليا أيام أبي بكر وعمر سواء قصدا إليه أو ذهبا فيه مذهب البداهة ومقتضيات الأمور ....

ولكنه خولف أو عدل عنه بعد الخليفتين الأولين . خولف أو عدل عنه لأسباب يرجع بعضها إلى حكومة عثمان ، وبعضها إلى طوارىء الزمن ، وبعضها إلى السيدة عائشة على اختيار منها أو على ما تحولت بها إليه دوافع الأحوال .

• • •

جاء الخطأ الأول في هذه السياسة من القائمين بالأمر في حكومة عثمان ، وكان خطأ عجيباً حقاً لأنه لا يفهم على وجه من وجوه المصلحة ولا تدعو إليه ضرورة من ضرورات الدولة . ونعني به نقص العطاء الذي كان مقدوراً للسيدة عائشة في عهد الفاروق . أعدل من لاحظ العدل في تقسيم الأعطية على حسب المراتب والحقوق .

إن نقص عطاء السيدة عائشة كان يكون سائغاً عندها وعند المسلمين والمسلمات إذا دعت إليه حاجة في خزانة الدولة ، ولكنه لا يسوغ ولا تستريح إليه النفس والأموال تتدفق على خزانة الدولة بالألوف التي يحار فيها الإحصاء ، وغنائم أفريقية وحدها تبلغ مليونين ونصف مليون من الدنانير ، فيعطى خمسها لبنت الخليفة وزوجها مروان بن الحكم ، وغير ذلك من القطائع والأعطية التي يخص بها القريبات والقريبون ولا يضبط لها حساب .

إن الغضب من هذا لن يكون غضب الحريص على مال . ولم تكن السيدة عائشة خاصة ممن يحرص على مال أو يبذله في ترف أو يخزنه للمكاثرة والادخار . فما سمع عنها قط أنها أنفقت المال في غير الكفاف من الرزق والإحسان إلى المعوزين ، وما تركت بعدها بقية تدل على حرص ولا ادخار .

ولقد كانت تنكر التزيد من الثراء على الصحابة الأجلاء وإن كان من التجارة والحسب الموروث . فكان عبد الرحمن بن عوف — وهو مثل من أمثلة عدة — وافر الثراء على عهد النبي عظيم السخاء في خدمة الدين . ودخلت له عير إلى المدينة فيها سبعمائة بعير تحمل البر والدقيق والطعام ، فارتجت لها المدينة وسمعت رجتها في بيت عائشة ، فما نجا به من لومها إلا أنه ذهب إليها يشهدها أن العير بأحمالها وأحلاسها وأقتابها في سبيل الله .

فغضب السيدة عائشة من نقص العطاء لم يكن غضب الحريص على مال والطامع في ادخار ، ولكنه كان غضباً عادلاً من غضاضة لا حاجة إليها ولا حكمة فيها ، ولا تستريح إليها النفس بتعليل مقبول .

وشاع النقد والسخط من ولاة عثمان وحواشيه ، وكثر القيل والقال في مخالفتهم للدين وتوسعهم في اقتناء الدور والحطام .

ومثل من الأمثلة العدة في هذا الباب تولية الوليد بن عقبة أخي عثمان لأمه خلفاً لسعد بن أبي وقاص على الكوفة وهو من أعلام الصحابة المحبوبين بين جلة المسلمين .

وكان الوليد متهماً بالخمر ، وشاع في المدينة أنه أم الناس يوماً في صلاة الصبح وهو سكران . فلما فرغ التفت إليهم وقال : هل أزيدكم ؟ فإني أجد في نفسي نشاطاً ؟

ولم يكن عجيباً أن يلجأ الشاكون منه إلى بيت عائشة فيمن لجأوا إليه من كبار الصحابة وهم غير قليلين ، وإنما لجأوا إليها بعد أن قدموا على الخليفة فتبرمت بهم حاشيته وبرأوا الوليد عنده مما اتهمه به أهل مصره فقال لهم : أكلما غضب رجل منكم على أميره رماه بالباطل ؟ لئن أصبحت لكم لأنكلن بكم . فاستجاروا ببيت النبي وعائشة فيه .

ثم أصبح عثمان « فسمع من البيت صوتاً وكلاماً فيه بعض الغلظة فقال مغضباً : أما يجد مرّاق أهل العراق وفسّاقهم ملجأً إلا بيت عائشة ؟ فسمعته ، فقيل إنها رفعت نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت : تركت سنة رسول الله صاحب هذه النعل ؟ ... وتسامع الناس فجاؤوا حتى ملأوا المسجد . فمن قائل : أحسنت ، ومن قائل : ما للنساء وهذا ؟ حتى تحاصبوا وتضاربوا بالنعال ، ودخل رهط من أصحاب رسول الله على عثمان وناشدوه الله أن يعزل أخاه » .

ولم يكن من شأن هذه السياسة من حاشية عثمان أن تكف السيدة عائشة عن نقد الولاة وقبول الشكاة . بل قربت هذه السياسة بينها وبين اللاجئين إليها . فلما شكا الناس من والي عثمان — في مصر — عبد الله بن أبي سرح — واتهموه بقتل رجل ممن شكوه إلى الخليفة فزعت وفود المصريين إلى بيت عائشة فأرسلت إلى الخليفة تندد بواليه وتقول له : تقدم إليك أصحاب رسول الله وسألوك عزل هذا الرجل فأبيت ، فهذا قتل منهم رجلاً فأنصفهم من عاملك .

وجعل وفود المصريين يلقون المصلين بالمسجد في أوقات الصلاة ويبسطون لهم ظلامتهم وشكايتهم إلى أم المؤمنين وكبار الصحابة ، فألحف كبار الصحابة

على الخليفة في إنصافهم ، وأثمرت غلطات الحاشية ثمرتها في توجيه الشاكين إلى طلب المزيد من حماية أم المؤمنين ، فاختاروا محمد بن أبي بكر – أخاها – ليخلف عبدالله بن أبي سرح حين خيرهم الخليفة فيمن يؤثرونه للولاية بعده . ووقعت الطامة بعد ذلك بتدبير لا تُعلم جليته حتى الآن ، وإنما الرأي الراجح أنه من تدبير مروان بن الحكم على غير علم من عثمان ونصحائه المخلصين .

ذلك أن الوفود القافلة إلى أمصارها عثرت في طريقها بغلام يحمل كتاباً في أنبوبة من رصاص وفيه أنه « إذا أتاك محمد بن أبي بكر ومن معه فاحتل في قتلهم وأبطل كتابه وقر على عملك حتى يأتيك رأيي في ذلك إن شاء الله » .

فأعقب هذا الكتاب ما لا بد أن يعقبه من الأثر في نفوس الصحابة وفي نفس السيدة عائشة وفي نفوس الوفود المتجمعة من الأمصار ، وقذف بالفتنة القائمة يومئذ في طريق غير مأمون .

وظاهر من هذا العرض السريع أن اختلال الأحوال في عهد عثمان هو الذي تحول بالسيدة عائشة عن موقفها الأول من حكومة أبي بكر وعمر إلى موقف الاشتراك في السياسة العامة والمجاهرة بالنقد الشديد لحكومة عثمان وولاة عثمان وحاشية عثمان .

بل هو الذي جعل لها مهمة تطلبها وتسعى إليها ، وهي مهمة الوساطة بين الشعب والخليفة أو مهمة الحماية لمن يجهرون بالشكوى ويخافون عقباها .

فلولا الحمق الذي اشتهرت به حاشية عثمان لما تركت السيدة عائشة في مكانتها العليا من الأمة الإسلامية وهي تشعر أنهم قد أنزلوها من الرعاية والمبالاة دون منازل بناتهم وزوجاتهم وأصحاب القرابة والزلفى لديهم .

ثم تمادى الأمر فلم يقبلوا من المسلمين أن يلوذوا ببيتها ويفزعوا إلى جوارها ، ولو تناولوا الأمر بالرفق لاستفادوا من لياذهم بذلك البيت وفزعهم إلى ذلك الجوار .

وكانت الطامة الكبرى أن تأمر الحاشية الحمقاء بحياة أخيها وتنفذ إلى مصر من يأمر واليها بقتله وهو قادم من قبل الخليفة لولاية الحكم فيها .

ومن المحقق عندنا أن الخليفة نفسه براء من هذه الدسيسة التي يتورع عنها مثله في بره وتقواه . فإن الرجل الذي تورع عن إهراق قطرة دم في سبيل الدفاع عن حياته والخطر محدق به من جميع جهاته لن يأمر بسفك دم ابن صديقه وزميله ، ولا ذنب له إلا أن الشاكين ندبوه للولاية حين سألهم عمن يختارونه فأجابهم لما ندبوه إليه .

ولكن ما الذي أصاب الجاني المدبر للدسيسة ؟ ولمَ نجا من العقوبة ؟ ولمَ لم يكشف للملأ لولا أنه من رجال الحاشية ، وأن رجال الحاشية هم الذين ستروه وأنقذوه ؟ وماذا لو أن الغلام الذي كان يحمل الأمر بالقتل وصل إلى مصر ولم يعترضه الشاكون في الطريق ؟ ألم يكن القتل نافذاً في محمد بن أبي بكر كأن الكتاب قد صدر من الخليفة بغير خلاف ؟

فهذه الحاشية الحمقاء قد بدأت بالغض من مكانة السيدة عائشة لغير ضرورة محتومة ولا مفهومة ، وانتهت بالتآمر على قتل أخيها لغير ذنب جناه ، وسلكت في خلال ذلك مسلكاً تأباه السيدة عائشة من الحاكمين وغير الحاكمين ، وهو مسلك الإسراف والتهالك على الحطام .

فغير عجيب أن يكون للسيدة عائشة موقف عداء من تلك الحاشية وأن تنادي على رأس المنادين بتبديل حكمها وتأليب الناس عليها . وأن تضيق ذرعاً بعثمان لأنه يمضي حيث مضت تلك الحاشية في جنفها وغلوائها .

قيل أنها تربصت به حتى أقبل يخطب الناس فدلت قميص النبي ونادت : « يا معشر المسلمين ، هذا جلباب رسول الله لم يبل وقد أبلى عثمان سنته » .

ولم تذكر الحاشية الحمقاء مكانة السيدة عائشة وأمان جوارها وما يرجى من الخير في شفاعتها إلا بعد فوات كل فرصة وضياع كل أمل واستعصاء كل تدبير .

فلما حوصر عثمان وحيل بينه وبين الزاد والماء ذهبت أم حبيبة إلى داره وهي زميلة للسيدة عائشة من أمهات المؤمنين — فاعترض الثوار بغلتها وكانت معها إداوة ماء . قالوا : ما جاء بك ؟ قالت : إن وصايا بني أمية عند هذا الرجل ، فأحببت أن أسأله عنها لئلا تهلك أموال الأيتام والأرامل ، وكانت أم حبيبة أموية من آل أبي سفيان ، فاجترأ الثوار عليهاوقالوا : كاذبة ؟ وقطعوا حبل البغلة بالسيف ، فنفرت وكادت تسقط عنها ، فتلقاها كرام الناس فأخذوها وذهبوا بها إلى بيتها .

وكانت السيدة عائشة قد كرهت المقام بالمدينة وهي على هذه الحال من الفتنة الطاغية ، فتجهزت للحج واستصحبت أخاها محمداً فأبى وتخلف بالمدينة .

عند ذلك لجأ مروان بن الحكم — وهو رأس البلاء — إلى جوار السيدة عائشة التي كان يغري عثمان بها لاحتماء الناس ببيتها ، فقال لها : يا أم المؤمنين ، لو أقمت كان أجدر أن يراقبوا هذا الرجل ... فقالت : أتريد أن يصنعوا بي كما صنعوا بأم حبيبة ثم لا أجد من يمنعني ؟ لا والله ولا أعير ولا أدري إلى ما يسلم أمر هؤلاء .

وفي رواية أخرى أن مروان هذا تذكر الجود بالمال في ذلك المأزق الميئوس منه فذهب إلى السيدة عائشة يستبقيها لتصلح الأمر فقالت : قد فرغت من جهازي وأنا خارجة للحج ... قال عندئذ : فيدفع لك بكل درهم أنفقته درهمين ، فلم تملك عائشة نفسها على ما جاء في هذه الرواية أن تقول : « لعلك ترى أني في شك من صاحبك ، أما والله لوددت أني أطيق حمله فأطرحه في البحر ! » .

وليس أكثر ولا أغرب من الأحاديث التي نسبت إلى عائشة في خلال هذه الفتنة قبل خروجها من المدينة وبعد خروجها منها . وأشد هذه الأحاديث وأقساها أن بعضهم سمعها تقول : « اقتلوا نعثلاً فقد كفر » ، وأنها كانت تسأل من تلقاه أن يخذل الناس عن عثمان وشيعة عثمان .

فأما الصحيح من هذا كله فهو أنها كانت تنقم من حكومة عثمان وتتمنى لها الزوال .

ويجوز الشك بعد ذلك في كثير من نصوص الأحاديث التي نسبت إليها بصدد هذه الفتنة . لأن بني أمية مثلوا بأخيها محمد بن أبي بكر عند دخولهم مصر أبشع تمثيل . فقتلوه ظمآن ووضعوه في جوف حمار ميت ثم شووه . وهذا بعد أن جروه من رجله في أسواق مصر وأشهدوا على مثلته السفلة والصبيان . ثم أرسلوا قميصه الذي قتل فيه وهو بدمه إلى المدينة . فلبسته نائلة زوجة عثمان ورقصت به ، وشوت أخت معاوية ابن حديج خروفاً وأهدته إلى السيدة عائشة — في ذلك العيد — وهي توصي الرسول أن يقول لها : هكذا كان شي أخيك ! فما أكلت السيدة عائشة بعدها شوياً قط وأقسمت لا تأكله حتى تلقى الله .

فلما تسامع المسلمون بأنباء هذه المثلة الشنعاء غضبوا للسيدة عائشة أن يشمت بها ولاة الدولة الجديدة هذه الشماتة وخاف الأمويون من جرائرها وندم عقلاؤهم على ما كان من سفهائهم ، واحتاجوا إلى المبالغة في تشويه نصيب عائشة من فتنة عثمان ، فأضافوا بألسنتهم وألسنة أتباعهم وصنائعهم أقاويل وأباطيل تمتزج بما نسب إلى السيدة عائشة ، فلا يعرف منها الخالص والمشوب ، ولا يسهل النفاذ من بينها إلى موقع المبالغة والتلفيق .

وخليق بنا أن نزداد حذراً من هذه المبالغات على قدر أصحاب المصلحة في قبولها . وقد اتفق على تكبير نصيب عائشة من التحريض على عثمان مصدران متناقضان ، وهما مصدر أصحاب معاوية ومصدر الشيعة أصحاب علي : يريد الأولون ما قدمناه من تخفيف وزرهم في المثلة بأخيها والحيف عليها ، ويريد الآخرون أن يبطلوا موقفها من مطالبة عليّ بدم عثمان ، وأن يثبتوا براءة عليّ من دم الخليفة القتيل ومشاركة عائشة في حملة قاتليه . فضلاً عن مصلحة القاتلين أنفسهم في التعلل بهذا السند الذي يعفيهم من لوم كثير .

* * *

كذلك بدأت السيدة عائشة مشاركتها الأولى في السياسة العامة وهي إلى الاضطرار أقرب منها إلى الاختيار .

أما مشاركتها الثانية فقد كان اختيارها فيها أكثر من اضطرارها ، فإنها تلقت خلافة علي من مبدئها بالسخط والمقاومة ، وأذنت لبعض الطامعين إلى الخلافة أن يتوسلوا بجاهها ويشركوها معهم في خصوماتها ، وكان أكرم لهم ولها لو أنهم جنبوها هذه الخصومة وأنزلوها بحيث يعتصم بها الفريقان ويستوي في جيرتها العسكران ، فتركوا لها مندوحة للمراجعة يوم دعاها الدعاة بعد تفاقم الفتنة إلى السعي بينهم بالتوفيق .

وأصوب ما قيل في هذا المعنى مقال ذلك الفتى السعدي الذي تصدى للزبير وطلحة فقال لهما : أما أنت يا زبير فحواري رسول الله ، وأما أنت يا طلحة فوقيت رسول الله بيدك ، وأرى أم المؤمنين معكما فهل جئتما بنسائكما .

نعم لقد أصاب ذلك الفتى من بني سعد حين أقام الحجة عليهما بهذا السؤال الذي يغني عن كل جواب ، فما من أحد يلومهما أن يوافقا السيدة عائشة في الرأي أو توافقهما فيه ، وإنما الملام الذي لا محيص عنه أن يتجاوزا النداء برأيها إلى الخروج بها في حومة قتال ، وهما لم يخرجا إليها بالمحارم والأزواج .

كانت في طريقها إلى مكة يوم لقيت ابن عباس موفداً من قبل عثمان ليتلو على الحجاج كتابه ويطلب النصفة بينه وبين الثائرين عليه ، فاقترحت عليه أن يخذل الناس عن عثمان وأن يشككهم فيه ، ورشحت للخلافة طلحة ابن عبيد الله لأنه «اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح فإنْ يلِ الخلافة يسر بسيرة ابن عمه أبي بكر رضي الله عنه» .

قال لها ابن عباس : يا أمه ! لو حدث — أي اعتزال عثمان — ما فزع الناس إلا إلى صاحبنا ... قالت : إيهاً عنك لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك .

وألفت نفسها في مكة بين العثمانية والأموية يوم نزلت بها قبيل مقتل عثمان ، فعنّ لها أن ترجع إلى المدينة لتدرك الأمر قبل فواته ، ولكنها سمعت في الطريق ببيعة عليّ فقالت فيما رواه عبيد بن أبي سلمة وهو من خؤولتها : ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك . مشيرة إلى السماء والأرض ، ثم صاحت بركبها : ردوني ! ردوني ! وجعلت تتوعد في الطريق : أن تطالب بدم عثمان .. فقال لها عبيد بن أبي سلمة : ولم ؟ والله إن أول من أمال حرفه لأنت ! قالت : « إنهم استتابوه ثم قتلوه . وقد قلت وقالوا . وقولي الأخير خير من قولي الأول » .

وما لبثت في مكة قليلاً حتى تجمع فيها كل ناقم على عليّ بن أبي طالب من أعدائه ومنافسيه ، فقضت أيامها بمكة بين العثمانية والأموية والولاة الذين أحسوا بزوال الدولة والثروة والذين أوجسوا من حساب الخليفة الجديد، ولحق بهم طلحة والزبير وكلاهما طامح إلى الخلافة يائس من الأنصار في المدينة . فاتفقوا جميعاً على كلمة واحدة لا اتفاق بينهم فيما عداها . وهي المطالبة بدم عثمان ، لأن المطالبة به تغنيهم عن القدح في الخليفة الجديد ، وليس الاتفاق على القدح فيه بمستطاع .

كذلك لذلك ارتفعت الصيحة بدم عثمان .

وفي هذه البيئة غلبت على السيدة عائشة نية الخروج إلى البصرة بتلك الدعوة التي اتفقوا عليها ، وأكبر الظن أنها كانت وشيكة أن تحجم عن الخروج إليها لولا غلبة البيئة واجتماع الأصوات من حولها على نداء واحد . فإنها ما عتمت في الطريق أن صُدمت أول صدمة حتى همت بالرجوع ثم أصرت عليه لولا احتيالهم في إقناعها بمختلف الحيل .

عبروا بماء الحوأب فنبحتهم كلابه ، وسألوا : أي ماء هذا ؟ فقال الدليل : هذا ماء الحوأب . فصرخت بأعلى صوتها قائلة : إنا لله وإنا إليه راجعون . إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وعنده نساؤه:

ليت شعري أيتكن تنبحها كلاب الحوأب . ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته وهي تقول : أنا والله صاحبة كلاب الحوأب طروقاً . ردوني . ردوني . ردوني . وأقامت يوماً وليلة لا تريم مكانها ، حتى جاءوا لها بخمسين رجلا من الأعراب رشوهم فشهدوا أنهم جازوا الماء ، وقالوا لها : مهلاً يرحمك الله فقد جزناه . ثم صاح عبد الله بن الزبير : النجاء . النجاء . فقد أدرككم علي ابن أبي طالب . فأذنت لهم في المسير بعد امتناع شديد .

• • •

ونعتقد أن وقفتها عند ماء الحوأب لم تكن آخرة التردد من جانبها في أمر القتال . فإننا في الواقع لم نقرأ بين أخبار وقعة الجمل المتشعبة خبراً واحداً ينم على عزمة قتال مبيتة لغرض مرسوم . ويؤخذ من كلامها لأبي الأسود الدؤلي حين أشخصه إليها عامل عليّ بالبصرة ، أنها كانت تستبعد خروج أحد من المسلمين لقتالها . فقد سألته : أفتظن يا أبا الأسود أن أحداً يقدم على قتالي ؟ وكان أبو الأسود رجلا صعب المراس في نصرة عليّ فأجابها : والله لتقاتلن قتالاً أهونه الشديد . وكان مما قاله لها قبل ذلك : ليس على النساء قتال ولا لهن الطلب بالدماء ، وإن علياً لأولى بعثمان منك وأمسّ رحماً فإنهما أبناء عبد مناف .

ولم تزل بالبصرة على هذا التردد كلما اشتبك أتباعها وأتباع عثمان ابن حنيف والي عليّ عليها . فتحاجزوا عن الحرب غير مرة في المربد وفي دار الرزق ، ونادى أصحاب عائشة بالكف عن القتال بعد أن تورط فيه الفريقان بدار الرزق نهاراً كاملا من الصباح إلى الغروب كثر فيه القتلى والجرحى من الجيشين .

ثم أنفذ علي بن أبي طالب رسوله القعقاع بن عمر إلى طلحة والزبير وعائشة فبدأ بعائشة وسألها : أي أمه ! ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة ؟ قالت : أي بُنيّ ، الإصلاح بين الناس . قال: فابعثي إلى طلحة والزبير حتى

تسمعي كلامي وكلامهما . فبعثت إليهما . فجاءا . فقال لهما : إني سألت أم المؤمنين ما أقدمها فقالت الإصلاح بين الناس . فما تقولان أنتما ؟ أمتابعان أم مخالفان ؟ قالا : متابعان ! قال : فأخبراني ما وجه هذا الإصلاح ؟ فوالله لئن عرفناه لنصلحن ، ولئن أنكرناه لا يصلح . فذكرا قتلة عثمان وحكم القرآن . قال : لقد قتل بالبصرة ستمائة رجل فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم ، وطلبتم حرقوص بن زهير فمنعه ستة آلاف . فإن تركتموهم كنتم تاركين لما تقولون ، وإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم فالذي حذرتم أعظم مما تراكم تكرهون ، وإن أنتم منعتم مضر وربيعة من هذه البلاد اجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء ... فسألته عائشة : فماذا تقول أنت ؟ قال : إن هذا الأمر دواؤه التسكين... فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بثأر ، وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شر وذهاب هذا المال . فآثروا العافية ترزقوها وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم ، ولا تعرضونا للبلاء فتعرضوا له فيصرعنا وإياكم .

قالوا : قد أصبت وأحسنت ، فارجع . فإن قدم عليّ وهو على مثل رأيك صلح الأمر . ثم أقرّ علي وساطة رسوله وأشرف القوم على الصلح لولا أن حبط هذا المسعى بسفاهة السفهاء من العسكرين فترامى هؤلاء وهؤلاء وجمحت الفتنة جماحها الذي خرجت به من أعنة الرؤساء .

ولم ييأس الفريقان بعد هذا من وساطة الصلح ، ولم يكن التردد من شأن عائشة وحدها ، بل كان أنصارها جميعاً يترددون ولا يستقرون على صنيع . وقد قال لها الزبير يوماً : ما كنت في موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمرى غير موطني هذا . قالت : ما تريد أن تصنع ؟ قال : أريد أن أدعهم وأذهب .

وربما تقابل الخصمان وجهاً لوجه فتناصحا على مسمع من العسكرين

تناصح الإخوان ... نادى عليّ خصمه الزبير يوماً : يا زبير ارجع . فقال : وكيف أرجع الآن وقد التقت حلقتا البطان (١) ؟ وهذا والله العار ... قال عليّ : يا زبير ارجع بالعار قبل أن تجمع العار والنار .

فرجع . وأهاب به ابنه عبد الله يستثيره : أحسست رايات ابن أبي طالب وعلمت أنها تحملها فتية أنجاد ؟ قال : قد حلفت ألاّ أقاتله . قال : كفّر عن يمينك وقاتله .

وبينما هم في تقديم وتأخير ومشاورة ومثاورة أقبل كعب بن سور إلى عائشة فقال لها : أدركي . فقد أبى القوم إلا القتال . لعل الله أن يصلح بك . فركبت وألبسوا هودجها الأدراع . وتعالت الضجة من هنا وهناك ، فسألت : ما هذا ؟ قالوا : ضجة العسكر . قالت : بخير أو بشر ؟ قالوا : بشر . إذ كان القتال قد نشب بين الفريقين من تصارع الغوغاء وتدافع الغلاة وإفلات الأعنة من الرؤساء .

ويبدو لنا من جملة الوقائع أن حملة الجمل كانت حملة اندفاع ولم تكن حملة تدبير وتقدير ، ولا كان أحد من دعاتها يملك زمامها ويتجه به إلى مصير معروف .

وإلا فما يكون ذلك المصير ، إن أصحابها لم يريدوا بها أن يفسدوا الأمر على عليّ بن أبي طالب ليصلحوه لمعاوية ، فليس منهم زعيم من حزبه والعاملين لده لته .

ولم يتفقوا على ولاية واحد منهم بعد هزيمة عليّ إن تمت هذه الهزيمة ، وليست هي بالمركب الذلول .

إنما هي حملة تهويل إلى المقاسمة في الأمر على وجه من الوجوه التي أشاروا إليها قبل مفارقتهم المدينة : فيتولى بعضهم العراق وبعضهم اليمن ،

---

(١) البطان : حزام الدابة والتقاء الحلقتين كناية عن التهيؤ للركوب والمسير.

ويصبح الأمر شركة أو « شورى » بينهم وبين الخليفة ، على قولهم الذي عبروا به عن طلب الولاية في بعض الأحاديث بينهم وبينه .

وفهم الحملة كلها على هذا الوجه أقرب ما نراه لفهم السيدة عائشة في موقفها من القتال ومن السياسة العامة على الإجمال .

نعم إن فهم مأساة الجمل هي وسيلتنا إلى فهم السيدة عائشة ، لأننا نعرف مصادرها ومواردها ومبلغ الأخطار المنظورة من ورائها عند الهجوم عليها فنعرف النية التي جنحت بالسيدة عائشة إلى الدخول فيها ، وهي كل ما يعنينا من تاريخ تلك المأساة في هذا السباق .

والذي يبدو لنا من تلك الحوادث التي لخصناها فيما تقدم أن مأساة الجمل لم تكن عند السيدة عائشة إلا دفعة من دفعات الحدة التي طبعت عليها ، قدحتها المفاجأة وأوقدتها كثرة المغريات بعداوة عليّ في بيئة لم يرتفع فيها صوت لغير أعدائه ، ومهدت لها حوادث الماضي تمهيدها الذي رسم لها الوجهة واندفع بها عن هذه الخطة دون غيرها .

فمن تمهيد الحوادث الماضية أن طلحة والزبير وعلياً لم يكونوا غرباء عن السيدة عائشة ولم تكن هي غريبة عنهم بميولها وسوابق شعورها .

فطلحة من بني عمومتها ومن بني تيم قبيلتها وقبيلة الخليفة الأول أبيها .

والزبير زوج أختها أسماء ، وابنه عبد الله ابنها الذي اختارته لكنيتها في بعض الروايات ، فكانت تكنى من أجله بأم عبد الله .

وعليّ أقرب الناس إلى بيت النبي وزوج ابنته وأبو حفيديه وصاحب الرأي الذي لا ينسى في حديث الإفك وهو نصيحته للنبيّ بتطليقها .

ومن الحق أن نقول إن الشعور الذي تكنه السيدة عائشة لعليّ من جراء هذه النصيحة شعور طبيعي لا غرابة فيه .

فلا ريب أن علياً رضي الله عنه قد أخطأه التوفيق في تلك النصيحة . إذ لم يكن من الإنصاف أن تطلق عائشة لشبهة لغط بها المنافقون وطلاب الوقيعة بين النبيّ وأصحابه . ولن يفهم الناس من تطليقها إلا أن النبيّ قد أدانها وأنف من معاشرتها ، ولن يصيبها ذلك وحدها بل يلصق بها وبأبيها وآلها وصمة لا تمحي في زمانها ولا بعد زمانها ، وقد يتعدى الأمر عائشة وآلها إلى الإسلام كله فيتخذ المنافقون من صدق حديثهم الذي أفكوا به مطعناً في صدق الدين ونبيه ، وهذا كله إلى أن الإدانة بمثل تلك الشبهة لا توافق التحرز الشديد الذي قضى به الدين في هذه القضايا ولو مست من هن دون عائشة في القدر والثقة . فما نحسب علياً قد سها عن هذا كله وهو ينصح إلى النبيّ بتلك النصيحة إلا لفرط الغيرة على تنزيه سمعة النبي وبيته ، واستكباره في هذا الصدد أن يقال ما يقال ولو لم يكن ثم برهان على ما قيل .

وما من أحد يجهل الشعور الذي تقابل به النساء نصيحة كتلك النصيحة . فأقل ما يقال إنه شعور لا غرابة فيه .

ثم ها هي ذي مسألة الخلافة والترشيح لها من بين عظماء الصحابة الذين بقوا على قيد الحياة بعد موت أبي بكر وعمر وعثمان، ومن هؤلاء الصحابة عليّ وطلحة والزبير . وكلهم قد ندبوا للاجتماع في بيت عائشة لاختيار واحد منهم للخلافة ، وقال لهم عمر يومئذ : « إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، وقد قبض رسول الله وهو عنكم راض ، وإني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ، ولكنّ ما أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس . فانهضوا إلى حجرة عائشة فتشاوروا واختاروا رجلاً منكم » .

وكان جائزاً أن يقع الاختيار في بيت عائشة على طلحة أو الزبير لأنهما وكيلان من وكلاء الشورى.

ثم انقضت خلافة عثمان وتجددت المسألة كرة أخرى على النحو الذي

شهدته عائشة قديماً في بيتها . فمع من يكون شعورها ؟

إن طلحة والزبير مرشحان للخلافة منذ اثنتي عشرة سنة ، وقد تكرر اختيار الخليفة من غير بني هاشم حتى أصبح في رأي بعضهم كالعرف الذي يجري عليه التقليد . وليس لعلي سند قاطع من القرآن أو السنة يبطل ذلك العرف ويسقط حجة طلحة والزبير . فإذا كانت السيدة عائشة أميل إلى فريق طلحة والزبير بشعورها وسابقة رجائها فليس ذلك كما أسلفنا بغريب ولا بمخالف للمعهود في طبائع الناس .

على أننا لا نريد بما تقدم أن نسوغ موقف السيدة عائشة من وقعة الجمل وخصومات الخلافة ، وإنما أردنا تفسير شعورها على الوجه الذي لا غرابة فيه ، ولم نرد تسويغه في نظر العقل ولا في نظر التاريخ .

فعليّ قد أخطأه التوفيق في نصيحته .

وعائشة قد أخطأها التوفيق في مكافحته من أجل هذه النصيحة ، وإن كانت لا تلام على أنها كانت تتمنى الخلافة لسواه .

ولكننا إذا ذكرنا هذا كان علينا أن نذكر معه أن السيدة عائشة ندمت على موقفها من يوم الجمل أشد ندامة ، فكانت تقول بقية حياتها : ليتني مت قبل يوم الجمل ، وقالت مرة : ليت كان لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم بنون عشرة وثكلتهم ولم يكن يوم الجمل . وكانت كلما خاض الناس في حديث ذلك اليوم تبكي حتى تبل خمارها .

وعلينا أن نذكر أنها صانت خصومتها عن كل كلمة نابية في حق علي رضي الله عنه ، فلم تتهمه بدم عثمان ولم تتجاوز بالتهمه بعض من بايعوه ، وقالت عنه غير مرة إنه الصوام القوام ، وإنه أحب الناس إلى رسول الله .

وعلينا أن نذكر أن المغريات بالاندفاع في هذه الغاشية كثيرة : حدة في الطبع ، ومفاجأة تبتدر الحدة ، وبيئة مطبقة بالعداء لعليّ ، وسعي حثيث من أقرب الناس إليها وأقربهم إلى إقناعها .

وإنها مع هذا أقدمت على مورد مبهم لا يتضح الشر فيه ، وترددت هنالك بين إقدام وإحجام ، واعتقدت أن الأمر لا يفضي إلى قتال . وأصغت إلى دعوة الإصلاح ودعت إليه .

وهو حادث لا بد له من عبرة .

وإن عبرته لأحق عبر التاريخ الإسلامي بالتسجيل .

* * *

حقوق المرأة

في حياة السيدة عائشة ميزان صادق لحقوق المرأة في عصرها ، وقد يقاس عليه الميزان الصادق لحقوق المرأة في جميع العصور .

فالحياة البيتية وما يتصل بها من حياة التربية والتعليم ومعونة الرجل في واجباته العامة هي خير ما تتولاه المرأة من الأعمال .

والسياسة — ولا سيما السياسة في عصور الاضطراب — هي المجال الذي يحسن بها اجتنابه ولا يرجى لها التوفيق فيه . وقد تؤدي فيه هنالك الخير إذا التزمت منه جانب المسالمة وكانت لها وسيلة إليها . أما جانب الرئاسة والإشراف فلا طاقة لها به ولا يتأتى لها أن تتولاه إلا إذا نقلت إليه شؤون البيت ومزجته بما يهمها من أواصر القرابة والمعيشة الزوجية .

فالسيدة عائشة كانت ربة بيتها وشريكة زوجها ، وكان زوجها العظيم يعينها في شئونه ويكون في مهنة البيت ما دام فيه .

وكانت هي تعينه على شؤون الهداية والإصلاح كلما وسعتها المعونة فيها ، وقد لقنت الناس ما تلقته منه فأحسنت التلقين .

وهذا في جملته هو قوام الحقوق بين الجنسين .

ولكنها على ذكائها وعلمها ، وعلى أنها في بيت الرئاسة نشأت وفي

بيت الرئاسة عاشت ، وأنها تعودت أن يؤبه لها وتسمع كلمتها ، قد تحولت بها طوارىء العصر إلى السياسة العامة ، فكانت فيها طوعاً لأواصر البيت ودواعي المودة والنفور التي توحيها ، ولم تكن مثلا يقتدى به في توجيه الأمور العامة كما كانت مثلا للنساء كافة وهي ربة بيتها وشريكة زوجها .

بل هي قد كانت أول مثل يستشهد به المستشهد على صواب الحقوق التي عرفها الإسلام للنساء : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » .

فلم تأت العصور بعد ذلك بإنصاف للمرأة أصوب من هذا الإنصاف .

فليس المهم أن تساوي الرجل في كل شيء وأن يكون لها مثل حقوقه ومثل واجباته . لأن المماثلة مع الاختلاف ليست هي الصواب وليست هي الإنصاف .

ولكنّ المهم أن تكون حقوقها مساوية لواجباتها ، وأن يكون لها مثل ما عليها ، وألا تظلم في حياتها الخاصة والعامة شيئاً ، ولا يفوتها عمل تصلح له وتحسن أداءه وتغني فيه غناء الرجل ولا يغني فيه الرجل غناءها .

وقوام ذلك كله أنهن « لهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » .

وهي الدرجة التي ينفرد بها الرجال حيث تبطل المشاركة في الملكات والأعمال .

وإنما كان هذا قوام الإنصاف في حقوق الجنسين لأنه حكم قائم على الواقع الذي لا يتغير اليوم ولم يتغير قط ولن يتغير في الغد مهما تتغير أحكام الشرائع وأقاويل أصحاب الأقوال والآراء .

وكل حكم قائم على إنكار الواقع أو المغالطة فيه فهو جهالة تنكشف لا محالة في يوم من الأيام ، وإن لم تنكشف كانت كالداء المكتوم أو بل ما يكون وهو مجهول .

والواقع أن الرجل والمرأة مختلفان .

وأن اختلافهما حقيقة علمية وحقيقة تاريخية وحقيقة حسية ، وحقيقة تعرف بالعقل والبداهة .

فالمرأة تخالف الرجل في وظائف الغدد وفي تكوين الأعضاء وفي شواغل الذوق والإحساس .

والمرأة تخالف الرجل في أعمالها وتكاليفها منذ القدم في جميع الشعوب ، ومن قال إن هذه المخالفة من فعل الرجال وسيطرتهم وليست من فعل الطبيعة وسيطرتها فقد قال إنها من فعل الطبيعة وليست من فعل الرجال .

والمرأة تخالف الرجل في القدرة حتى حين تشاركه في العمل الذي تفردت به منذ زمن طويل . فهي منذ زمن طويل تزاول الطهي والخياطة والتجميل والولادة وتندب الموتى وتشيعهم بالبكاء والتعديد ، ولكنها لا تبلغ شأو الرجل في هذه الصناعات إذا وقعت المزاحمة بينهما في إحداها . فالطاهي يفوق الطاهية ، ومبدع الأزياء يفوق مبدعتها ، والطبيب المولد مقدم على الطبيبة المولدة ، وكل ما نظمته النساء من الرثاء لا يوازن قصيدة من الرثاء الجيد في شعر الرجال .

والمرأة تخالف الرجل ولا بد أن تخالفه على سنة الفطرة التي عمت الأحياء . فإن سنة الفطرة لا ترمي إلى توحيد العمل بل إلى توزيعه وتنويعه ، ولا تجعل جنسين ليشتركا في حقوق واحدة وواجبات واحدة ، بل تجعلهما جنسين ليختلفا في الحقوق كاختلافهما في الواجبات

هذه هي الحقيقة الماثلة بين أعيننا ، وعلى أساسها ينبغي أن تنبني المذاهب والآراء .

أما الذين يضعون المذاهب والآراء ثم يقسرون الحقيقة على موافقتها فأولئك على باطل ، ولن تقوم للباطل قائمة في عالم الطبيعة .

ومن أمثلة المذاهب التي تقسر الحقيقة على موافقتها مذهب الشيوعيين في التسوية الكاملة بين الرجل والمرأة . فهم يريدون أن يهدموا الأسرة لأن الأسرة في زعمهم أصل الاستغلال وإن الاستغلال قائم على الاختلاف بين حقوق الرجل وحقوق المرأة ، ولهذا يجب أن يبطل هذا الاختلاف وأن تتقرر المساواة بين الرجال والنساء في جميع الأحوال وجميع الأعمال .

وهذا تسخير للحقيقة في سبيل الرأي ، وهو وحده كفيل بالقضاء على المذهب الشيوعي واقتساره عاجلا أو آجلا على موافقة الحقيقة التي يريد هو أن يقتسرها على هواه .

* * *

فليس الإنصاف إذن أن يتساوى الرجل والمرأة في جميع الحقوق والواجبات وهما يختلفان هذا الاختلاف الظاهر للعيان ، الماثل للعلم والحس منذ كان الإنسان ، بل قبل أن يكون الإنسان حيث يختلف الذكر والأنثى في عالم الحيوان .

ولكن الإنصاف الذي يجتمع فيه حكم الفطرة وحكم الآداب الإنسانية هو أن تأخذ من الحقوق كفاء ما عليها من الواجبات ، وأن تعطى حقوقها وتسأل عن واجباتها بالمعروف « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » ، لا بالإرهاق والإذلال . فهنالك تهذيب الإنسان إلى جانب حكم الفطرة. وهما خير مناط لإنصاف الشرائع والآداب .

* * *

وليس من الحيد عن سواء التفكير أن يستطرد الفكر هنا إلى سؤال لا بد أن يخطر على البال ، وهو السؤال عن تعدد الزوجات . أهو من الإنصاف ؟ أهو من الكرامة والمعروف ؟ أهو من سنة الفطرة وتهذيب الإنسان ؟

واعتقادنا نحن أن المثل الأعلى للزواج هو الزواج بين رجل وامرأة يتحابان ويمتزجان بالجسم والروح ولا يفترقان مدى الحياة .

ولكننا نعتقد مثل هذا الاعتقاد أن المثل الأعلى لم يخلق قط لتفرضه القوانين على جميع الناس .

إنما المثل الأعلى هو الحالة النادرة التي تتيسر كلما تيسر الكمال أو تيسرت مقاربة الكمال .

وليست هذه بالحالة التي تفرضها القوانين على كل رجل وكل امرأة من جميع مراتب التفكير والتهذيب .

فإنما تفرض القوانين ما يستطاع بين عامة الرجال وعامة النساء ، وما تسمح به أخلاق الزوجين وضرورات المعيشة التي لها عليهما سلطان مسموع كسلطان الأخلاق .

ولا حاجة إلى فرضها على الأمثلة النادرة بين صفوة الرجال وصفوة النساء ، لأن هذه الأمثلة النادرة في غنى عن تعليم القوانين .

والإسلام لم يقل إن تعدد الزوجات هو المثل الأعلى .

ولم يفرضه على كل مسلم ، ولم يحمده من كل مسلم ، ولم يخله من ٰرط عسير هو العدل في المعاملة وإن تعذر العدل في المحبة ، ولم يفعل إلا أنه وضع التشريع في موضعه الذي يحسب فيه حساب المثل النادر والمثل الشائع ، ولم تأت بعده شريعة حلت هذه المشكلة بغير الهرب منها أو المغالطة فيها ، كما هو الواقع الملموس في الأمم التي تحظر تعدد الزوجات ولا تحظر المعيشة مع الخليلات ، أو معاملة النساء كمعاملة العجماوات .

وفي المجتمع الإنساني حالة يكثر فيها عدد النساء ويقل عدد الرجال ، ولم تستطع الحضارة التي ينعون باسمها تعدد الزوجات أن تمنع تلك الحالة أو تبطل عواقبها . فلا نزال في كل جيل نشهد حرباً من الحروب العالمية التي تنجلي عن ثلاثين أو أربعين مليوناً من الفتيات أو الأرامل بغير قرناء .

وقل ما شئت في تعدد الزوجات فهو خير من التبذل الوبيل ، أو من

إعطاء المرأة عملاً في المصنع بديلاً من عملها في البيت والأسرة .

وقد ينطلق الهوس بالمساواة إلى أبعد من هذا المدى فيسأل سائل : وهل يجوز للمرأة تعديد الأزواج كما يجوز للرجل تعديد الزوجات ؟

وجواب ذلك أنه بحكم الفطرة لا يجوز .

لأن الرجل يستطيع أن يؤدي واجب الأبوة مع تعدد زوجاته ، ولا تستطيع المرأة أن تؤدي واجب الأمومة لأربعة أزواج أو لزوجين اثنين .

كذلك له هو من حق مراقبتها والسهر عليها أكثر من حقها هي في مراقبته والسهر عليه .

لأنها تستطيع أن تخدعه بولد ليس من لحمه ودمه ، أو تخدعه في أمس شعور به بعد شعوره بكيانه .

ولكنه هو لا يستطيع أن يخدعها بولد ليس من لحمها ودمها ، وأن يصيبها بمثل هذا المصاب الأليم الذي ليس آلم منه ولا افجع في نكبات النفوس .

وهنا محل عادل للدرجة التي للرجال على النساء ، كالعدل في محل تلك الدرجة عند التفرد بحق تعديد الزوجات وعند التفرد بحقوق تخالف حقوق النساء ، تبعاً للخلاف في التركيب والتكوين .

• • •

على أن البحث في حرية الزوجة والبحث في حرية المرأة مسألتان اثنتان لا مسألة واحدة .

لأن الآراء على تناقضها تلتقي في مسألة حرية الزوجة عند ملتقى واحد وهو تقييدها بحقوق الزوج كائناً ما كان الرأي في قداسة الزواج . فالذي لا ينكر الخيانة ينكر السرقة والاغتصاب ، والذي لا يؤمن بالعاطفة الخالصة يؤمن بشروط القسمة بين الشريكين . ومما لا جدال فيه أن الزواج شركة لها

شروطها ، وأهون ما يقال في تلك الشروط أنها كشروط الشركة في المال ، فلا يجوز للزوجة أن تختلس من حقوق شريكها ولا أن تسرق نصيبه المقسوم بينهما على السواء ، وهنا الملتقى بين القائلين بالوفاء والقائلين بالمحافظة على حصة الشريك .

وخلاصة ذلك كله أن حقوق المرأة لم تكن قط مسألة فرد ولا مسألة أمة أو مجتمع موقوت ، ولكنها كانت ولن تزال مسألة النوع الإنساني بأسره ، فلا مناص فيها من الضوابط التي تعبر عن مصلحة النوع وتتجاوز المصلحة العاجلة والغرض القريب .

ولهذا تصدق الأديان لأنها تنطق بلسان الفطرة السليمة ، وتكذب المذاهب التي تحسب أن ضوابط الجنس في المرأة والرجل من اعتساف الأديان ، لأن الإباحة التي تنادي بها هذه المذاهب تدل على جهل بالفطرة ، وهي تنادي نداءها باسم العلم والمعرفة الحديثة ، وهنا فلنحسب للقدم مزيته الأولى إذ هو قدم الفطرة الباقية ، وهي أسبق إلى المعرفة الصادقة من كل حديث .

عباس محمود العقاد

داعي السماء

بلال بن رباح (مؤذّن الرّسول)

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

حقوق الطبع محفوظة

To: www.al-mostafa.com

تقديم

* * *

ليس غريبا أن تكون سيرة « بلال » بين سير عظماء الاسلام الذين تناولهم بالبحث الأديب الكبير المرحوم عباس محمود العقاد • ذلك لأن بلالا من الشخصيات الاسلامية البارزة التي كان لها شأن يذكر في الخطوات الأولى التي خطاها النبي الكريم في دعوته وجهاده لاكتساب الأنصار المؤيدين ، والصحابة الأقوياء المناضلين • وبلال فضلا عن أنه جدير بأن توضع سيرته على بساط البحث أمام عيون الأجيال لما انطوت عليه من مآثر الكفاح في سبيل العقيدة ، ومفاخر الثبات عليها ، رغم أقسى وسائل التعذيب ، فهو مثال حي ، ونموذج فريد ، لتطبيق مبدأ اسلامي عريق يقضي باستنكار كل تمييز عنصري ، ومحاربة كل تفرقة بين أجناس البشر من ناحية اللون أو السلالة أو الأنساب • ولما كان العقاد حريصا أشد الحرص على الاشادة بكل شخصية كان لها أثر بالغ في تاريخ الاسلام ، وتوطيد دعائمه ، والتنويه بكل مبدأ أو عقيدة اسلامية ترمي الى خير البشر وصلاحهم ، فقد وجد في وضع هذا الكتاب : « بلال ، داعي السماء » تحقيقا لهذين الهدفين اللذين يحرص عليهما ، اذ أن فيه اشادة بعظيم من عظماء الاسلام ، وتنويها بمبدأ اسلامي نبيل •

ومن الطبيعي أن يستهل العقاد كتابه بالحديث عن مسألة العنصر أو الجنس لأن صاحب السيرة ينتمي الى جنس طالما دارت حوله المجادلات منذ أقدم الأزمنة حتى عصرنا الحاضر • ومما حققه في هذا الحديث ابطال مزاعم العنصريين الذين يحصرون

مزايا البشر العليا في سلالة واحدة تنفرد بها وحدها دون سائر السلالات • فكثير من المزايا التي يصفون بها سلالة من السلالات انما هي ثمرة العوامل المحلية والاجتماعية والمناخية وهي ليست مما ينتقل بالوراثة كما تؤكد وقائع التاريخ ومباحث العلم الذي ينكر الامتياز المطلق الذي يدعيه العنصريون لبعض السلالات ، وان كان لا ينفي وجود الاختلاف بين العناصر في الخصائص الجسدية ، والخصال النفسية •

ومن الطبيعي أيضا أن يتناول العقاد بالبحث مسألة الرق وأصله ومنشئه في العالم ، وموقف العرب من غيرهم ، ومعالجة الاسلام للرق ومشكلاته معالجة حكيمة في اطار من الرحمة والانصاف •

ويذهب العقاد الى أن الرق ظهر في المجتمع الانساني منذ آلاف السنين وقبل مجيء الأديان الروحية ، حتى أصبح بتطاول الزمن ركنا من أركان الحياة الاقتصادية ، وأساسا يبنى عليه نظام المعاملات ، ولم يشعر الناس في تلك الأزمنة بوازع أخلاقي يزعهم عن تسخير الآدميين كما يسخر الحيوان • ثم ظهرت الأديان ودعوتها الى الايمان بالروح فكانت خطوة نحو التخفيف من عبء استعباد الانسان للانسان وتسخيره لأغراضه الماشية ، الا أن الرق كان قد ضرب بجذوره في أعماق المجتمعات فلم تستطع الأديان غير الدوران حوله والامتناع عن الوقوف ازاءه وجها لوجه • وكل ما استطاع المصلحون الدينيون أن يفعلوه انما هو التوفيق بين الايمان بالروح والترخص في استرقاق الانسان مستندين الى أن العبد عبد بجسده حر بروحه ، وأنه ان ساء حاله في هذه الدنيا فقد يتبوأ في الآخرة منزلة القديسين •

وأقرت الكنيسة نظام الرق • فأوصى القديس بولس العبيد في (أفسس) بالاخلاص في الولاء لساداتهم كولائهم للسيد المسيح ، والحواري بطرس يعتبر من آداب الدين الصحيح خشية

العبيد من سادتهم فيأمرهم بالطاعة والولاء لهم • وأيد توماس الأكويني كبير فلاسفة النساك والقسيسين وتلميذ أرسطو نظام الرق مستنداً الى أقوال رسل المسيحية وأقوال أرسطو في كتابه عن السياسة •

وبراهمة الهند رغم أنهم كانوا يحرمون قتل الحيوان حتى ما يؤذي منه ، بلغوا من القسوة حدا ضربوا فيه الذلة على العبيد وعاقبوا الرقيق الذي يجرو على اغضاب سيده بسل لسانه والفتك به على رؤوس الأشهاد •

وفي الأمم الاوروبية والاميركية ما يزال الرقيق محروما من المساواة الانسانية الى هذا اليوم • وكانت القوانين حتى القرن الثامن عشر تجيز قتل العبيد في المستعمرات اذا هربوا من الأسر أو تمردوا على أسيادهم ، ولم يكن هناك عقاب منصوص عليه لمن يقتل عبده بالتعذيب أو الارهاق •

تلك كانت على الاجمال حال الرقيق في القديم والحديث وقبل ظهور الأديان وبعد ظهورها ، فلم تسلم أمة قط من اقرار نظام الرق مهما اختلفت أجناس الأمم •

واذا حدثت هناك بوادر في العصر الحديث الى تحسين أحوال الأرقاء ومنع الاتجار بالعبيد فذلك يعود الى أن اقتنام العبيد الذين ينالون أجرا منخفضا دون الأجر الذي يناله العمال الأحرار يخفف من حدة المغالاة التي يلجأ اليها أولئك العمال في المطالبة بحقوقهم •

أما موقف العرب في الجاهلية من الأجناس الأخرى كالفرس والروم فكان يمتاز بالمفاخرة الجنسية لا العداوة الجنسية • وموقف العرب من الرقيق ومن الزنجي الأسود خاصة لم يكن موقف عداء ، ولم يخصموا سواد اللون بالمهانة اذ غلبت على بعض العرب أنفسهم سمرة كادت تكون سوادا • ولم يعرفوا قط عداء الجنس كما كان الأمر بين البيض والحمر في أمريكا ، والسلاف والتيوتون في أوروبا ، والاسرائيليين والكنعانيين في فلسطين • واذا عيرهم جيرانهم شظف العيش وسوء الطعام والكساء رجعوا

الى فخرهم الذي يعتزون بـه وهـو فخر الفصاحة ، وعراقـة الأحساب ، وصيانة الأعراض ، ولم يحدث مرة أن نشب بينهم وبين مفاخريهم قتال طويل سالت فيه الدماء • وليس العبـد عندهم هو الزنجي وانما هو الأسير الذي لم يفك اساره، والجليب الذي يباع ويشرى في الأسواق ، ومجهول النسب الذي لا ينتمي الى أصل من أصولهم المعروفة ، وكـان العربي يتزوج الأمـة السوداء ويتبنى وليدها اذا نجب وصلحت حاله وظهرت فيـه مخايل الفصاحة والفروسية ، وكثيرا ما كان يعتق العبد الذي تعجبه خصاله ويستلحقه ويزوجه بنته أو ذات قرابة منه •

وتحدث العقاد عن الرق في الاسلام فأكـد سبق الشريعـة الاسلامية الى تقرير مبدأ المساواة والانصاف بين بني الانسان منذ حوالي أربعة عشر قرنا دون مراعاة للمصالح الاقتصادية عند أصحاب الرقيق • ولم يتهيب كما تهيبت الأديان الروحية السابقة مواجهه نظام الرق القائم في المجتمعات القديمة فمنـع رق المسلم وقصر الرق على الأسرى وأوجب لهم الرفق وحسن المعاملة • ولم يكن الدافع الى هذا الرفق الا السمو فوق ضرورات المادة ، وتحصيل الثروة ، فكان ذلك انتصارا للروح على المادة يعود الفضل فيه الى سماحة الاسلام وحده دون سائـر الأديان لأنه قوض أساس التفرقة بين الاجناس والاقوام ، وعلم الناس أن المؤمنين اخوة ، ولا فضل لمسلم على مسلم الا بالتقوى ، وأن الجنة لمن أطاع الله ورسوله ولو كان عبدا حبشيا ، والنار لمن عصاهما ولو كان شريفا قرشيا • وحصر الرق في من يقع أسيرا في ميادين الحروب وحرم امتلاك الرجـل أو المرأة بالنخاسـة والاختطاف ، وأمر المسلمين بقبول الفداء من الأسرى أو الاعتاق بغير فداء • وجعل الاعتاق حسنة تكفر عن كثير من السيئـات مثل مخالفة بعض أحكام الدين ، ودعا الى الاشفاق على الأرقاء حتى من الكلمة الجارحة ، واعتبر ضرب الرقيق ذنبا كفارتـه العتق ، وقتله جريمة عقابها القتل • وحث على الزواج بالأمة المؤمنة وفضله على الزواج بالحرة المشركة ، واذا ولدت الأمة للرجل وجب عتقها والاعتراف بأبنائها •

وبعد هذه المقدمات أدار الحديث حول الموضوع الرئيسي للكتاب وهو « بلال » داعي السماء • ونحن على يقين أنه لم يخط كلمة عن هذه الشخصية المرموقة الا بعد أن بحث ونقب في كل مرجع عربي أو غير عربي ، والا بعد أن توصل الى استنتاجات سديدة تلقي الضوء الساطع على حياة هذا الرجل الكبير الذي أضمر له المسلمون كل تجلة واكبار •

وخلاصة ما قاله عن بلال أنه من الموالي المولدين بمكة ، ويرجح أنه حامي حبشي ولم يكن زنجيا خالصا من السود ، ولم يصفه أحد بالفطس أو الشعر الصوفي اللذين تمتاز بهما سلالة حام •

ونشأ بلال قبل الاسلام في بني جمح من بطون قريش المشهورة ولكن لم يعلم على التحقيق من كانوا سادة بلال وأبيه من بني جمح هؤلاء • ويجمع الرواة على أن الصديق أبا بكر رضي الله عنه هو الذي استنقذه من أيدي أسياده فاشتراه ببضع أوراق من الذهب بعد ما شاهده بعينه من تعذيبهم اياه لدخوله في الاسلام•

وقد تعرض بلال لأشد العذاب عندما عرف سادته باسلامه • فقد سلطوا عليه الولدان فطافوا به في شعاب مكة ، وضربوه وألقوه على الرمال المحرقة في حر الهجير ، ووضعوا الحجارة على صدره ، وهو مع كل ذلك لم يكف عن الجهر بالتوحيد وهو يقول : أحد أحد • وكل هذا دليل على صدق ايمانه لأن الذي يؤمن طمعا في حطام الدنيا ، وايثارا للربح والفائدة لا يستطيع الصبر على القليل مما ناله من ايلام وتعذيب •

ويمكن اجمال صفات بلال بانه كان متحليا بأجمل صفات بني جلدته وهي : الأمانة ، والطاعة ، والصدق في الولاء • وكان مع ذلك قاسيا في موضع القسوة ، وعنيدا من غير مكابرة وفي موضع الاصرار على الايمان بالصواب • وقد اشتهر بين الصحابة بصدق القول ، فما شكوا قط في روايته ونقله وخاصة فيما يتعلق بشأن من شؤون الدين •

أما الميزة الرئيسية التي قامت عليها مكانته في الاسلام وشهرته فهي اختيار النبي اياه لأداء الأذان كل يوم خمس مرات يدعوه به ويدعو المسلمين عامة لاقامة الصلوات فاستحق بذلك لقب « مؤذن الرسول » وحظي بالشهادة من النبي لصوته بالسلامة من أي شذوذ معيب ، وهي شهادة تستمد قيمتها العليا من كون النبي عليه السلام يستريح الى كل جميل ٠

وجدير بنا أن نتعرف على مزاياه الصوتية ، أو قل الموسيقية ، تلك المزايا التي مهدت له اعتلاء منصب المؤذن الأول في الاسلام ٠ فمن المرجح أن بلالا العبد قبل الاسلام كان في بعض أوقاته يسوق الابل ويتغنى بالحداء على عادة العرب ويعالج النغم البسيط ثم تدرج الى ترديد الأصوات المركبة ومن ثم استطاع أن يلقي الأذان في لحنه المعروف المشهور ٠ وليس من السهل معرفة حقيقة صوته ٠ ولكن يمكننا أن نستدل بما قيل في وصفه على أنه كان جهيرا بعيد المدى في أجواز الفضاء ، جميل النغم في ترجيعه ، وأنه يختلف عن النغمة العربية الحادة الناعمة بالامتداد والفزارة ٠

أما لحن الأذان ، والصيغة التي رتله بلال بها فقد أجمع الرواة على أنه اقتبسهما من رجل رآه أحد الصالحين في منامه وردد على مسمعه صيغة الأذان ، فعرضه ذلك الرجل الصالح على النبي فاستحسنه وأشار على بلال أن ينادي الى الصلاة بتلك الكلمات التي سمعها المسلم الصالح في منامه ٠

واستمر بلال يدعو الى الصلاة طوال حياة النبي الكريم ويبادر الى الأذان كلما خاطبه بقوله : أرحنا بها يا بلال ! وكلما قويت شوكة الاسلام تعاظمت معه مكانة بلال فكان المستشار الأمين للنبي ، وخازن بيته ، والأمين على ماله ٠ ولما توفي عليه السلام سكت صوت بلال عن الأذان ودعي مؤذنون آخرون لدعاء المسلمين الى الصلاة لأن بلالا أخذ على نفسه عهدا بأن لا يسمع صوته بعد فراق سيده ومولاه ٠

ولما ذهب عمر الى الشام كان بلال يصحب الجيش ، وقد

منح في ضاحية من ضواحي دمشق قطعة من الأرض أقام فيها واعتزل الحياة العامة سعيدا بذكرياته التي مرت به في صحبة مولاه الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم • ويروي بعضهم أنه لما ذهب عمر الى دمشق توسل اليه بعض ذوي النفوذ أن يسأل بلالا اقامة الأذان تكريما لمحضر أمير المؤمنين فاستجاب بلال وأذن أذانه الأخير الذي أثار كوامن الحزن والأسى في قلوب المؤمنين ، فاصغوا اليه بكل جارحة من جوارحهم باكين خاشعين •

وأخيرا لا يسعنا الا أن نحث الشباب العربي المثقف على مطالعة هذا الكتاب وكل أثر من آثار العقاد الخالدة لما فيها من تزويد العقل بالعلم الغزير ، وتقويمه بالتفكير السديد ، وتعمير القلب بالايمان القوي المتين • كما لا يسعنا الا أن نتقدم بالشكر الجزيل الى السيد شريف عبد الرحمن الأنصاري صاحب المكتبة العصرية في صيدا وبيروت الذي أخذ على عاتقه اعادة الطبع لكتب العقاد على اختلاف موضوعاتها ، فله من كل مثقف عربي أجمل الشكر وأطيب الثناء •

صيدا ــ منيف لطفي

كلمة تصدير

* * *

« بين الحربين العالميتين شاعت الدعوة العنصرية فبلغت
« أقصى مداها ، وعملت فيها السياسة غاية عملها ، وأقحمها
« الدعاة من مباحث العلم والتاريخ في غير موضعها .

« وقد كانت للاسلام كلمة في انصاف العناصر والأجناس
« سابقة لكلمة الحضارة العصرية والعلم الحديث ، وكان في
« صحابة النبي عليه السلام رجل أسود هو بلال بن رباح مؤذنه
« الأول ، فكان أثيرا عنده وعند الخلفاء وجلة الصحابة والتابعين .

« فالكتابة عن بلال رضي الله عنه في هذا العصر تقع من
« سلسلة العبقريات والسير الاسلامية في موقعها ، وتصادف
« موعدها من الزمن في أعقاب الحرب العالمية .

« ولهذا كتبت هذه الصحائف في سيرة داعي السماء » .

عباس محمود العقاد

مسألة العنصر

مسألة العنصر ـ أو الجنس ـ مسألة اجتماعية كثيرة الورود على ألسنة المعاصرين وأقلامهم ، ولكنها على هـذا من أقدم مسائل الاجتماع التي وجدت مع وجود القبائل الأولى

وأكثر الباحثين في المسائل العنصرية من المختصين بها بين الغربيين يردون كلمة العنصر أو الجنس Race في لغتهم الى أصل سامي يرجحون أنه هو اللغة العربية ، ويعتقدون أنهـا مأخوذة من كلمة الرأس التي كانت تميز بين رؤوس السلالات الآدمية وغير الآدمية •

ولم يكن اختلاف القبائل وتفاخرها شرا كله في بداية أمره ، ولا كان مدعاة للنزاع دون غيره فمن علماء الاجتماع من يرجع بالوشائج (١) الاجتماعية كلها والاداب الانسانية برمتهـا الى الواشجه الاولى التي نشأت في مبدأ الامر مـع نشوء القبيلـة الهمجية ، ثم كانت سببا الى التجاذب والتعارف بينها وبين القبائل الاخرى • ومصداق ذلك في القرآن الكريم حيث جاء في سورة الحجرات : « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ••• » •

فكانت الواجبات التي تفرضها القبيلة على أبنائها أساسـا لجميع الواجبات التي تعلمها الانسان بعد ذلك ، سواء فرضتها

---

(١) أصل معنى الواشجة الملتف من الاغصان ونحوها • وبينهم واشجة رحم أي اشتباك في القرابة •

عليه القبيلة أو الأمة أو الجامعة العنصرية أو الانسانية بأسرها .

وقد طبع الناس على التفاخر بما يخصهم ولا يعم غيرهم كائنا ما كان معدنه ومدار الفخر فيه . فشاعت بينهم المفاخرة بالأنساب والأصول ، كما شاعت بينهم المفاخرة بمعالم الارض التي يسكنونها وصنوف المطاعم التي ياكلونها ، وتفاضلوا بالحقائق كما تفاضلوا بالأساطير والأوهام .

فمن قديم الزمن يفخر كل عنصر بعراقته وامتيازه على غيره ، ويزيده امعانا في عادة التفاخر والمباهاة أن تتاح له فرصة الغلبة والاستعلاء فترة من الزمن . فان كانت الغلبة قائمة حاضرة فهي آية الفخر وحجة المباهاة ، وان كانت غابرة دائرة فهي عنده علامة على عراقة أصله وحداثة غيره ، وأنه أحق من ذلك الغير بالفخر والمباهاة ، وان خدمته الحظوظ والمصادفات في حاضر أمره .

فلم تعرف أمة قديمة قط خلت من مفاخرة بعنصرها واعتداد بنشأتها وبيئتها وبلادها . والذي قال :

بلادي وان جارت علي عزيزة
وأهلي وان ضنوا علي كرام

قد جمع هذه الحقيقة من جميع وجوهها وهو يدري أو لا يدري . فليس من اللازم أن تكون البلاد أطيب البلاد ، ولا أن يكون الآل أكرم الناس ، ليفخر بهم الرجل الذي ينتمي اليهم وتحسب سمعتهم عليه وسمعته عليهم . فانه ليعظمهم ويبجلهم فرارا من المهانة التي تصيبه اذا تقاصروا عن شأو (١) العناصر الأخرى في التعظيم والتبجيل ... فهو فاخر بهم ان عظموا مساهمة منه في فخارهم ، وفاخر بهم ان هانوا دفعا للهوان عنه اذا اعترف بهوانهم ، ولا حساب للبحث أو للرأي في الحالتين الا بعد حساب العاطفة والشعور .

كان المصري القديم يؤمن بأنه هو الانسان الكامل ، ثم

---

(١) الشأو : الغاية والامد .

تتلاحق الشعوب بعده الى أن يأتي أبنــاء اليونان في المرتبـة السادسة ٠

وكان اليوناني القديم يؤمن بأنه هو الانسان المهذب ومن عداه برابرة لا يدركون مكانه من الفهم والحضارة ٠

وكان العربي القديم يؤمن بأنه هو الانسان المبين الكريم ومن عداه « أعاجم » لا يفقهون ما يقــال ولا يدينون بدين المروءة والأحساب ٠

وكذلك كان أبناء فارس والهند والصين ٠ بل كذلك كانت كل قبيلة من تلك القبائل حين ينظر الى نظائرها وان تلاقـت جميعا في أصل قريب من الأحساب والأنساب ٠

وبقيت هذه الشنشنــة (١) بــين أمــم الحضارة في العصر الحديث فاعتز بها الأوروبيون على أبناء القارات الأخـرى ، ولكنهم لبثوا فيما بينهم يفاخر كل شعب منهم جــاره بالعادات والأخلاق والمآثر وان تقاربوا في السلالة واللغة والعقيـدة ٠ فليس أشد تفاخرا بــين الأوروبيين مــن الطليــان والاسبــان والفرنسيين ، وهم يرجعون بلغتهم الى اللاتينية ، وبعقيدتهم الى المسيحية الرومانية ، وبعناصرهم الى مزيج متقارب من السلالات، ولكنهم تعلموا ـــ بوحي المصلحة المتفقة ـــ أن يجمعوا فخرهم كله الى فخر واحد يتقارب فيه الأوروبيون كافة ، وهو « اللون الأبيض » أو الانتماء الى القــارة المجتبــاة (٢) بين القارات ، وجعلوا هذا اللون الأبيض رسالة يبشر بها الأوروبيون مــن عداهم من الشعوب الانسانيــة ، وسموا تلك الرسالــة « عبء الرجل الأبيض » أو أمانة الرجل الأبيض ، أو تبعته أمام الله لهداية خلقه الذين لم يبلغوا مبلغهم من العلم والارتقاء ٠

وصدق العالم الانجليزي الحديث جوليان هكسلي حين قال : ان هؤلاء الدعاة مسبوقون الى دعواهم قبل ميلاد السيد المسيح ،

---

(١) العادة والطبيعة ٠ (٢) المصطفاة والمختارة ٠

فقد سبقهم « أشعياء » من أنبياء اسرائيل فقال في اصحاحه التاسع والأربعين : « اسمعي لي أيتها الجزائر ، واصغوا أيها الأمم من بعيد • الرب من البطن دعاني • من أحشاء أمي ذكر اسمي • وجعل فمي كسيف حاد • في ظل يده خبأني وجعلني سهما مبريا • في كنانته أخفاني • وقال لي أنت عبدي اسرائيل الذي به أتمجد • أما أنا فقلت عبثا تعبت ، باطلا وفارغا أفنيت قدرتي • لكن حقي عند الرب وعملي عند الهي » •

« والآن قال الرب جابلي من البطن عبدا له لارجاع يعقوب اليه فينضم اليه اسرائيل ، فأتمجد في عيني الرب والهي يصير قوتي • فقال : قليل أن تكون لي عبدا لاقامة أسباط (١) يعقوب ورد محفوظي اسرائيل • فقد جعلتك نورا للأمم لتكون خلاصي الى أقصى الارض • هكذا قال الرب فادي اسرائيل ••• » •

فرسالة الرجل الأبيض التي تمخض عنها القرن التاسع عشر كله لم يذهب أصحابها الى ابعد من هذا المدى الذي سبقهم اليه بنو اسرائيل قبل ميلاد المسيح بسبعة قرون •

وظلت المفاخر المنصرية كلها من قبيل هذه العادات الاجتماعية التي لا يرجع فيها الى قياس منطقي ولا موازنة علمية • فكانت أشبه شيء بمفاخرات الصبيان بعضهم لبعض بآبائهم وأمهاتهم واخوانهم وجيرانهم وبيوتهم التي يسكنونها ومدنهم التي ينشأون فيها وكل شيء يتصل بهم وتنعقد فيه المقابلة بينهم وبين غيرهم • وفحوى مفاخر الأجناس من هذا القبيل أن كل جنس هو أفضل الأجناس لغير سبب • وليس هذا من القياس المنطقي ولا الموازنة العلمية في شيء ••

ثم اتسع نطاق البحث العلمي في القرن التاسع عشر فأدخل الفوارق بين الشعوب في موضوعاته الكثيرة وجعل لها علما خاصا أو بابا خاصا من أبواب المعرفة يسمى معرفة الأجناس البشرية •

---

(١) السبط واحد الاسباط وهم ولد الولد • والاسباط من بني اسرائيل كالقبائل من العرب •

وانتهى به البحث الى وجود الفوارق الصحيحة بين خمسة من الأجناس التي ينتمي اليها شعوب البشر كافـة ، وهي الجنس القفقاسي أو الأبيض ، والجنس الزنجي أو الاسود ، والجنس المغولي أو الاصفر ، والجنس الاسمر أو أهل الملايـا ، والجنس الاحمر أو سكان القارة الامريكية الأصلاء ٠

واختصر بعضهم هذا التقسيم الى ثلاثة أقسام فجعل الأجناس الصفراء والسمراء والحمراء فروعا من أصل واحـد ، وهو اختصار له سند معقول ٠

وقد عني أصحاب هذه التقاسيم بالفروق التي تورث وتنتقل مع الاجيال ، أي بالفروق التي يسمونها فروقا بيولوجية دون غيرها من الفروق الاجتماعية التي تكسب بالقدوة والمحاكاة ٠

وتناول العالم اللغوي الألماني ماكس موللر دراسة الأجناس من الناحية التي تمنيه ، وهي ناحية المقابلة بين اللغات ،فاستخدم كلمة اللغات الآرية وأحياهـا من جديـد بعـد أن سبقـه الى استخدامها السير وليام جونس في أواخر القرن الثامن عشر ، وقرر أن لهجات اللغة الهندية الفارسية نشأت من مهد واحد في أواسط آسيا التي كان الأقدمون يعرفونها باسم « أريانـا » وأنها كانت في نشأتها الأولى لغة قبيل واحد من الاجناس البشرية، وكلا القولين اليوم خطأ عند علماء هذه المباحث فيما أثبته جوليان هكسلي من كلامه عن الجنس في القارة الأوروبية ٠

وأحس العالم الألماني الكبير أن دعوة الجنس الآري ستخرج من حيز التفكير العلمـي الى ميـدان الصراع على الشهـوات السياسية ، فحذر قراءه من الخطأ في تفسير كلامه وعـاد الى التحذير من ذلك في شيخوخته حيث قال : « لقد ناديت مرة بعد مرة أنني اذا ذكرت الآرية فلست أعني الـدم ولا العظم ولا الشعر ولا الجمجمة ، وانما أرمي الى قصد واحد وهو أولئـك الذين يتكلمون باللغة الآرية ٠٠ ومتى تكلمت عنهم فلست أتبع في ذلك الخصائص التشريحية ، ولا أعني أن أبناء السكنديناف ذوي العيون الزرق والشعر الأصفر قد كانوا قاهرين أو كانوا

مقهورين ، ولا أنهم قد اتخذوا لغة السادة السمر الذي تغلبوا عليهم أو كان الأمر على نقيض ذلك •• وعندي أن عالم الأجناس الذي يتكلم عن العنصر الآري والدم الآري والعيون الآرية والشعر الآري انما هو في خطيئته العلمية كاللغوي الذي يتكلم عن معجم مستطيل الرأس أو اجرومية مستديرته على حد سواء » •

وكان القرن التاسع عشر قرن « مذهب النشوء » كما كان قرن المذاهب العلمية والفلسفية من شتى نواحيها ، فما زالت الأقوال في مذهب النشوء تتسع وتتشعب حتى عرض لبعض الباحثين فيه أن الأجناس البشرية تنتمي الى أصول متفرقة لا الى أصل واحد أو شجرة واحدة ، وأن القردة العليا هي أجناس بشرية سفلى ، وأن المغولي والقرد المعروف بالأورانج نبتا من أصل واحد ، وأن الزنجي والغوريلا والشمبانزي تنتمي الى أصل آخر ، وكان رأس القائلين بهذا الرأي عالما ألمانيا من علماء الأجناس هو الدكتور هرمان كلاتش Klaatsch أستاذ هذا العلم بجامعة برسلاو الألمانية • فاعلن في أوائل القرن العشرين رأيه هذا وأيده بما بدا له من الشواهد والملاحظات التي كشفت عنها مقابلاته بين أنواع القردة وأنواع الانسان •

لكن القرن التاسع عشر لم يكن قرن المباحث العلمية ولا قرن النشوء والتطور دون غيرهما • بل كان كذلك قرن التوسع في الاستعمار وتسخير العلم لخدمة المطامع الاستعمارية والمنازعات السياسية ••• فظهر من الكتاب من يبشر بالجامعة اللونية أو العصبية الجنسية على أساس اللون والعنصر ، وقام في أوروبا من يبشر بامتياز أجناس الشمال على سائر الأجناس البشرية ، ومن يرد الفضل في كل فتح من فتوح العلم والثقافة والحضارة الى أصل الجنس الآري المزعوم في الشمال • وأشهر من اشتهر بهذه الدعوة « ارثر دي جوبينو » في فرنسا وهوستون شمبرلين الانجليزي المتجرمن في ألمانيا ، ولم تخل أمريكا من نصيبها من هؤلاء الدعاة ، وهي ميدان نزاع بين الأجناس البيضاء والحمراء والسوداء وميدان مفاخرة بين المهاجرين الأوروبيين الذين يمتون

بالنسب الى أصول مختلفة · كالسكسون واللاتين وأمم الشمال والجنوب · فكان لوثروب ستودارد Lothrop Stoddard وماديسون جرانت Madison Gront على رأس المبشرين بهذه العقيدة في الولايات المتحدة ، ولم تكن كراهة الأجناس الملونة هي الباعث الوحيد في نفوس هؤلاء الى التبشير بمزايا الرجل الأبيض أو مزايا الجنس الآري خاصة من بين الشعوب البيضاء · وانما كانت كراهتهم للحكومة الحرة ـ أو حكومة المساواة بين الطبقات ـ باعثا آخر الى انكار صفاء الشعوب التي سمحت بهذه الحكومة الحرة واتهامها بالنكسة والفساد من جراء امتزاجها بأجناس غير الجنس الآري أو الجنس الشمالي المجيد ، فكانت هذه النكسة مدرجة (١) لها الى النزول عن أوج السيادة والاذعان لشريعة المساواة ·

ولا شك أن حروب نابليون بونابرت كانت لها يد قوية في تمكن هذه النزعة بين الأمم الجرمانية خاصة ، لأنها كانت سلاحها الذي تدرأ العار به عن فخارها القومي في مجال الصراع بينها وبين اللاتين ، أو بين أمم الشمال وأمم الجنوب وقد كان نابليون ـ قائد فرنسا اللاتينية في صراعها مع الجرمان ـ منحدرا من جنوب الجنوب بالقياس الى القارة الأوروبية ، فكانت صيحة الفخار القومي التي تستثار بها الأمم الجرمانية الى الوحدة هي تعظيم مزايا الجنس الشمالي الذي ينتمون اليه ، واتفق ذلك في عصر البحث عن الأجناس وعصر النشوء والتطور ، وعصر السباق الى الاستعمار وعصر الديمقراطية التي تخلف فيها الجرمان عن جيرانهم ، فكانت صيحة التفوق العنصري على أشدها بين الألمان ، وكادت عقيدة الجنس الآري أن تنحصر فيهم بعد مولدها في بلاد الانجليز على لسان واحد منهم ـ وهو العلامة ماكس موللر الذي سبقت الاشارة اليه ، ومن ثم بدرت دعوة الى التفوق العنصري لم تكن لها صلة بالثقافة الألمانية الحديثة من قريب أو بعيد ·

---

(١) المدرجة : المذهب والمسلك · ومدرجة الطريق معظمه · وهذا الامر مدرجة لهذا أي يتوصل به اليه ·

ولقد تعددت الأسباب التي ألهجت ساسة الألمان بعد الحرب العالمية الماضية (١٩١٤ ــ ١٩١٨) بمسالة العنصر ودعوى الآرية أو الأقوام الشمالية وما لها من الرجحان على خلائق الله كافة من أوروبيين وغير أوروبيين ، سواء في الزمن القديم أو في الزمن الحديث •

فقد احتاج الساسة الألمان الى محاربة المذهب الشيوعي فوضعوا بازائه مذهب الاشتراكية « الوطنية » وهي تعتصم بالخصائص القومية في وجه الدولية التي يبثها الشيوعيون ، وفاقا لعقيدتهم المعروفة ، وهي عقيدة الثورة على الأوطان والأديان •

ووافقتهم الخصائص القومية في حربهم للشيوعيين من وجه آخر غير المقابلة بين المذهبين ، وذاك هو المقابلة بين عنصر السلافيين وعنصر التيوتون الذي ينتمي اليه الألمان • فكانوا يقولون انهم هم حماة الحضارة الأوروبية من زحوف البرابرة التي تتهددها من قبل آسيا في الزمن الحديث •

واستغلوا دعوة العنصر الآري استغلالا غير هذا وذاك في محاربة اليهود باسم الساميين •

واستغلوها مع هذا وذاك لاستنهاض نخوة الأمم الجرمانية بعد هزيمتها المنكرة في ميادين القتال ، فنفخوا في أوداجها (١) أنها أهل للظفر ــ وليست بأهل للهزيمة ــ لانها خلقت للسيادة وتنزهت في سلالتها الارية عن شوائب الأجناس ، وأدخلوا في روعها (٢) أنها كانت وشيكة أن تظفر بأعدائها لولا خيانة العمال من قبل الشيوعية ، وخيانة اليهود من قبل الشيوعية تارة ومن قبل أصحاب الأموال تارة أخرى •

فأصبحت دعوة العنصر هوسا جامحا كهوس التعصب في كل عقيدة من العقائد الشعورية ، وبلغ من التهوس بالدم الآري

---

(١) الودج عرق في جانب العنق وهما ودجان • (٢) الروع بالضم القلب والذهن •

المزعوم أنهم جعلوه فلسفة في الحكم وفلسفة في الأخلاق والفنون والآداب ، فكانوا يقولون ان الحكومة بنية حية تنبت من الدم القومي كما تنبت الجوارح في الأجسام ، وأن الزعيم تركيب داخل في تلك البنية بتقدير من طبيعة الكون أو طبيعة الخلاق العظيم • وكان هتلر ينادي في كتابه : « اننا معشر الآريين لا نعرف الحكومة الا كبنية ذات حياة يتلبس بها الشعب من الشعوب » •••• فهيء شيء لا يدخل في الارادة ولا في التربية السياسية ولا في نظم التشريع والانتخاب •

وتطوح الغلو بدعاة هذه العنصرية حتى بلغوا بها ــ مع تلك البواعث النفسية والسياسية ــ مبلغا لم يسبقهم اليه سابق في عالم البحث ولا في عالم الخيال • فجعلوا أجناس البشر فصائل تتعاقب طبقة تحت طبقة حتى تلتقي بالقردة ولا يبعد أن تناسلها ، وجعلوا أنفسهم نخبة مختارة بين فصائل الآرية جمعاء ترتقي الى الذروة الخلاقة بين عظماء الأمم فالحقوه بالآريين على وجه من الوجوه ، وعادوا الى كل اختراع من مبتكرات الصناعة وأدوات الحضارة فنسبوه الى شعبة آرية مقيمة في موطنها أو مهاجرة الى وطن من الأوطان ، فحصروا الخلق والقيادة في الآرية المزعومة دون غيرها ، وجعلوا العناصر الأخرى جميعا عالة على الآريين ينتفعون بما يخلقون ويدينون لسيادتهم طائعين أو كارهين •

ولعل هذا الغلو من جانب دعاة العنصرية قد جنح بنقاد هذا المذهب الى الغلو في انكار خصائص الأقوام والأجناس ، وهم اذا غلوا في هذا الطرف كان لهم شفيع من الحجج والشكوك أدنى الى الاقناع من شفيع العنصريين •

وانما نعرض للبواعث السياسية التي امتزجت بالحقائق العلمية في مسألة الجنس والعنصر لأن الالمام بهذه البواعث يعين على تجريد الحقائق العلمية من أخلاطها الغريبة ويرجع بها كرة أخرى الى حيز الدراسة الفكرية والبحث المعقول •

ومن الواجب أن نصغي أولا الى دواعي التشكيك في تلك

الدعوة الجازمة ، وهي كثيرة ، فانها على التحقيق تدعـو الى الشك في دعوة العنصريين وتبطل اليقين بكل عقيدة من تلـك العقائد التي خيل اليهم أنهم يؤمنون بها ، لأنهم يشعرون بالحاجة الى ذلك الايمان ٠

فمن دواعي الشك في العنصرية الآريـة أن العنصر الآري المزعوم لم يكن له وجود قط كأنه سلالة من السلالات الوراثية على النحو الذي تخيلوه ، وانما كان جامعة لغوية يشترك فيها أقوام مختلفون لا يتأتى ردهم اليوم الى سنخ (١) واحد ، ولا يتشابهون في الخصائص العنصرية الا كما يتشابه الأقوام الذين يتكلمون اليوم بلغة واحدة على تباين المواطن والألوان ٠

قال العالم الانجليزي جوليون هكسلي في كلامه عن العنصر أو الجنس بالقارة الأوروبية : ان دعاة العنصرية يتكلمون عن الجرمان والآريين وأقوام الشمال « أو النورديين » كأنهم سلالة واحدة ، وهذا خلط لا مسوغ له من الحقائق ٠ وانما المقطوع به أن هناك نموذجا بشريا يعرف بالنموذج الشمالي موزعا بين الأقطار الشمالية في أوروبا من الجزر البريطانيـة الى التخوم الروسية ، وأن هذا النموذج ــ وهو على أقرب مـا يكون الى النقاوة والصفاء في بعض الأقاليم السكندنافية ــ لم ينسب اليه قط فتح من فتوح الحضارة ، أو كشف من كشوف العلم ، أو أداة من أدوات الاختراع التي اشتهرت في التاريخ ، وقد روجعت مخلفات العصر الحجري التي ترد الى ما قبل الميلاد بثلاثـة آلاف سنة في بريطانيا العظمى فاذا هي تمثل ثقافة من ثقافات البحر الأبيض المتوسط حملها ذووها الى شبه الجزيرة الايبيرية ــ التي نعرفها باسم الأندلس ــ ثم الى فرنسا فالجزر البريطانية ٠ ومن المحقق أن الخطوات الأولى التي خطاها الانسان الى الحضارة حين تعلم الحرث والكتابة وبناء المنازل ونقل الأحمال على الدواليب قد تقدم بها في جـوار البحر الأبيض حيث تقيم الأمم السمراء التي لم تنسب الى السلالة النوردية ، ومن المحقق كذلـك أن

---

(١) السنخ : الاصل ٠

مشاهير الجرمان أمثال جيتي وبتهوفن وكانت كانوا مستديري الرؤوس ربعة في القوام ، وليس نابليون ولا شكسبير ولا انيشتين ولا غاليليو وعشرات من أمثالهم على الصفة التي يزعمونها للنورديين • ومن طرائف المصادفات أن اللون الأشقر والقوام الطويل الرشيق لا يعرفان لزعيم من زعماء الدعوة النوردية أو الآرية المزعومة • فهتلر أسمر ، وجورنج سمين بادن ، وجوبلز قصير دميم ، وزعماء « الجنكر » من سكان ألمانيا الشرقية تختلط فيهم ملامح السلافيين والنيوتون ، وهم أكبر الدعاة الى السيادة الجرمانية على الأمم قاطبة •

ويتفق علماء الأجناس ووصف الانسان على توزيع السلالات في العنصر الواحد كما يتفقون على ندرة النقاوة المحض في عنصر أو سلالة • فالجنس الأبيض في القارة الأوروبية وما جاورها ينضوي الى عنوان واحد ولكنه ينقسم الى السلالات النوردية والألبية وسلالة البحر الابيض المتوسط ، وهذه السلالة الأخيرة تنضوي الى عنوان واحد ولكنها تنقسم الى ليبيين وايبيريين وليجوريين نسبة الى اسم جبال الألب ما بين البحر وسافونا السفلى ، وقد يضاف اليهم البيلاسجيون Belasgian الذين ينعزلون وحدهم في بحر « ايجه » على مقربة من اليونان •

والجنس الأسود ، على كونه من العناصر المتميزة بين أجناس البشر ، يختلف في بعض الصفات وان تماثل في اللون أو تقارب فيه • فقد عرفت القبائل السوداء في استراليا ولكنها تخالف القبائل الافريقية في الخصائص الوراثية ، بل يقع الخلاف في بعض الملامح والأخلاق بين السود المتجاورين من أبناء القارة الافريقية • أو أبناء الاقليم الواحد منها،فالبوشمان والهوتنتوت كلاهما من سود افريقية ، ولكن الأولين قصار وثابون مولعون بالصيد والقتال والآخرين طوال يرعون الماشية ويميلون الى الاستقرار • ويجاورهم السود من أبناء قبائل البانتو الذين يعمرون السودان الجنوبي وبعض أقاليم الصحراء الى الشواطىء الغربية ، وهم جماعات شتى بين رعاة رحل مقاتلين وزراع

مقيمين موادعين ، وليست فوارقهم في اللغات بأقل من فوارقهم الكثيرة في الملامح والسمات والعادات •

وبعض هذه الشواهد المتواترة يقرر لنا أن السلالات البشرية لا تبقى على وحدتها وانفرادها مع تعاقب الأجيال واختلاف مطارح الهجرة والانتقال ، ولكنها تتوزع وتتفرع وينتشر التوزيع والتفريع في خصائصها ومزاياها • وليس أدعى من ذلك الى التشكيك في مزاعم المنصريين الذين يحصرون مزايا البشر العليا جميعا في سلالة واحدة تنفرد بها وحدها بين سائر السلالات •

ومن دواعي الشك القوية في مزاعم العنصريين أن كثيرا من المزايا التي يصفون بها سلالة من السلالات يسهل الرجوع بها الى عواملها المحلية أو الاجتماعية التي لا تحسب من العوامل الوراثية الحيوية ، ونعني بها ما يعرف بالعوامل البيولوجية •

فقد زعموا — مثلا — للسلالات الأوروبية أنها انفردت بحب المعرفة النظرية وملكة البحث عن حقائق الأشياء و « التفلسف » المجرد الذي لا يرمي الى المنفعة القريبة سواء منها ما ينتفع به الأفراد أو ما تنتفع به الجماعات • وقالوا ان الشعوب الشرقية لا تحب المعرفة هذا الحب ، ولا تتجرد للمباحث الفلسفية هذا التجرد ، ولكنها تعنى بالعلم لتطبيقه في الصناعات ومرافق العيش ومطالب الحياة العملية ، ودليلهم على ما يزعمون ذلك الفارق الظاهر بين ثقافة اليونان وثقافة المصريين •

وحقيقة الأمر أن البحث عن أسرار الغيب وقوانين الوجود يدخل في سلطان الكهانات القوية ، وأن هذه الكهانات القوية ترسخ وتتوطد وتبسط يديها على العقول الى جانب الدول العظيمة التي لا بد من قيامها في أودية الأنهار الكبيرة • فحيثما وجد نهر كبير في صقع من الأصقاع لم يكن هنالك بد من قيام دولة عظيمة على شطيه تسوس الري والزرع وتصون الأمن وتضمن سلامة المعاملات • ومتى قامت هذه الدولة العظيمة لم يكن لها بد من الاعتماد على دعائم الدين وسلطان الكهانة

والتفرد بحق البحث في العقائد والسيطرة على عالم الروح والضمير • وكثيرا ما تجتمع الوظيفتان في شخص واحد كما اتفق لبعض الملوك الأرباب أو « أنصاف الأرباب » في التاريخ القديم • فاذا أصبحت المباحث الغيبية والمعارف التي تتناول أصول الوجود حقا للكهانة تحميه الدولة فليس من المعقول أن تتسع الحرية للناس يثبتون فيها وينكرون ، كما تتسع لهم في غيبة الكهانة القوية والدولة العريقة ، ولا مناص من اختلاف مقاصد التفكير جيلا بعد جيل بين الأمتين حتى يلوح النظر العاجل في النهاية أنه اختلاف بين طبيعتين أو معدنين من معادن الخليقة الانسانية •

وقد كانت أمم الشرق القديم دولا لها كهانات قائمة قبل أن تظهر الفلسفة اليونانية بألوف السنين • فامتد تفكير اليونان الى محاريب الفلسفة التي كانت حرما منيعا في ظل الكهانات الشرقية لا يتخطاه عامة الناس ، وظهر الفارق من أجل ذلك بين ثقافة اليونان وثقافة الشرقيين ، ولو انعكس الأمر بين أرض اليونان وأودية النيل ودجلة والفرات لانعكست الآية بلا مراء •

ومما يؤيد هذه الحقائق أن الكهانة القوية صنعت في أوروبا حين توطدت فيها مثل ما صنعته الكهانات في الشرق القديم ، فلما امتد سلطان الكنيسة البابوية على الأمم الأوروبية ضرب الحجر على العقول فأحجم الناس دهرا طويلا عن البحث المجرد والتفكير في حقائق الوجود ، وبلغت الكهانة الأوروبية على حداثتها ما بلغته كهانات الشرق بعد أحقاب وأحقاب تتوالى من بداية عهد التاريخ •

كذلك زعم بعض النقاد العسكريين من أهل أوروبا أن الأوروبيين يمتازون على الآسيويين والافريقيين في معدن الشجاعة والبطولة الحربية ، واستدلوا على ذلك بانتصار اليونان مع قلتهم على الفرس مع كثرتهم في معركة ماراتون ومعركة سلاميس •

فالواقع الذي أسفرت عنه دراسات الثقات من النقاد العسكريين المحدثين أن الفخار الوطني قد لعب لعبته المعروفة

بأخبار المعركتين فبالغ فيها جد المبالغة وأضفى عليها ثوبا من الحماسة الخيالية خرج بها من حيز التاريخ الصميم الى حيز الملاحم الهومرية ٠

فلم يدر في خلد « دارا » يوما من الأيام أن يستولي على أرض اليونان لأنها أرض جرداء لا تنفعه للزراعة ولا للتجارة ولا يخشى منها الخطر العسكري على دولته المترامية الأطراف ، وانما عناه أن يؤدب ارتريا وأثينا لأنهما تجرأتا على معاونة اليونان الثائرين عليه في آسيا الصغرى ٠ واغتنم لذلك فرصة الشقاق بين المستبدين وأنصار الحرية في أثينا ، أو قيل انه تلقي من زعماء الشعب المتمردوعدا بالانضواء اليه وخذلان أولئك المستبدين ٠ فأخمد الثورة في آسيا الصغرى ثم زحف على « أرتريا » فعصف بها وأرسل أهلها أسارى وسبايا الى شطوط الخليج الفارسي يسامون فيها سوم الأرقاء ٠ ثم تقدم الى أثينا وفي حسابه أنها منقسمة على نفسها مسرعة اليه بالتسليم ولو من بعض طوائفها وزعمائها ، فلما وقع ما لم يكن في حسبان الفرس ولا اليونان واتفقت كلمة الأثينيين على الدفاع عن بلادهم لم يشأ أن يطيل الحصار لأنه لم يقصد الى اسقاط المدينة ولم يجد في الأمر ما يستحق المطاولة والعناء ٠

أما معركة سلاميس فقد كانت المصادفة فيها أغلب من التدبير ٠ شغل الفرس بعد معركة ماراتون بالثورة المصرية ، ثم خرج زركسيس لقتال اليونان في جيش ضخم مختلط الأجناس لكنه دون الضخامة التي صورها اليونان بكثير ، وكانت ضخامته واختلاطه عائقا له ولم تكن من مزاياه ومرجحاته ، لأن قيادة جيش كبير من قبيل واحد أيسر جدا من قيادة تصف هذا الجيش وهو مختلط الأجناس متعدد الأهواء ، ولان الجيش كان مرتبطا بمعونة الاسطول الذي يلازم الشاطيء ويحمل له المؤونة والعتاد ويتكفل بنقله في المجازات البحرية ، فأصبح الجيش والأسطول معا مقيدين بطريق واحد لا يعدوانه ولا يغيبعلمه عن اليونان ٠ ولما التقى الأسطولان في سلاميس كانت كثرة السفن الفارسية عائقا للاسطول أيضا ولم تكن من مزاياه ومرجحاته ، لأن المكان

أضيق من أن يتسع لمناورات الاسطول كله ، ولأن زركسيس لم يتقدم اليه الا لعلمه باختلاف قواد اليونان في ادارة المعركة البحرية ، وكان الواقع أنهم مختلفون وأن بعضهم أعلن في مجلس الحرب نية التراجع بمعظم السفن من سلاميس •

فلما نشبت المعركة قبل أن يتم هذا التراجع كانت الكفة الراجحة في جانب اليونان ، وأصبح تموين الجيش الفارسي ضربا من المحال بعد ضياع السفن التي مني بخسارتها في المعركة ، فعدل زركسيس عن المطاولة في المعركة البحرية وان كان قد ظفر بالأثينيين في المواقع البرية •

ولا شك أن الذي أصاب الفرس في هذه المعارك قد كان يصيب اليونان لا محالة لو أنهم كانوا في موضعهم وكانوا ينقلون الجيش مثل نقلهم وهو في اختلاطه وتعدد أهوائه •

فليست المسألة كلها مسألة اختلاف في معدن القوم أو مناقب السلالة ، ولكنها اختلاف في الأحوال والملابسات ، وخليق بالذين ينسون آفة الاختلاط في الجيوش ويحسبون مغبتها على الفرس أو الشرقيين دون غيرهم أن يذكروا أن الصليبيين على وفرة جموعهم وانتمائهم جميعا الى المنصر الأوروبي قد أصابتهم الهزيمة على أيدي الشرقيين وهم دولة واحدة تقل عنهم في العدد والعتاد ، ولم تعوز الصليبيين في تلك المواقع حرارة العقيدة وشدة المراس •

ومع هذا ألا يقول دعاة البدعة الآرية ان الفرس قديما من سلالة الآريين ، وانهم أقرب الى أمم الشمال من يونان الجنوب ؟!

ان العالم النمسوي فردريك هرتز يذكر أن اختلاط الزنوج بأهل أوروبا في الزمن القديم ، ومن المفيد في هذا الصدد أن ننقل هنا ما أوردناه في كلامنا على مفاخر الأجناس بالجزء الثاني من « ساعات بين الكتب » ••• وهذا بعض ما جاء فيه :

« •• للزنوج أثر في أوروبا تدل عليه الجماجم التي وجدت في ألمانيا وبلجيكا وفرنسا وكرواتيا ومورافيا ، ووجد ما يشابهها منذ ثمان سنوات في افريقية الجنوبية • وقد بقي أثر للأقزام

السود في جبال الألب الى عهد بنيني الذي تكلم عن هؤلاء الأقزام وعززت كلامه القصص والأساطير ٠

ويزعم شمبرلين أن عرفان حقوق الحياة هو مزية الآريين التي لا يعرفها الساميون في الشرق لاستغراقهم في المادة وتقديمهم المال والحطام على الأذهان والأرواح ٠ فيجيبه الاستاذ هرتز بجواب مفحم هو المقابلة البسيطة بين شريعة الرومان وشريعة حمورابي في محاسبة المدينين ٠ فاللوح الثالث من ألواح القانون الروماني يبيح للدائنين أن يقطعوا لحم المدين ويقتسموه بينهم وأن يقتلوه قتلا في مدى سبعة وعشرين يوما من يوم القبض عليه وتكبيله في الحديد والحبال ٠ وأما شريعة حمورابي فهي تقضي بأن يخدم المدين دائنه ثلاث سنوات ، والقانون يحميه في خلال هذه الخدمة من سوء المعاملة والارهاق ٠ زد على هذا أن الفرق واضح بين الشريعتين في أمور أخرى ، منها أن السارق المضطر معذور في شريعة حمورابي ، وهو غير معذور بحال من الأحوال في شريعة الرومان ، وأن الأب الروماني يجوز له ان يبيع أولاده ، ولا يجوز ذلك للآباء عند البابليين ، وأن الزوج البابلي لا يجوز له أن يقتني السراري بغير اذن من زوجته وليس للزوجة مثل هذا الحق عند الرومان ، وأن المدين يحق له أن يطلب الحط من دينه اذا نقصت غلة أرضه وليس في الشريعة الرومانية شيء من هذا القبيل ٠ وهكذا وهكذا من شواهد الرحمة وتقديم الحياة على الحطام في شريعة حمورابي ثم من شواهد القسوة وتقديم الحطام على الحياة في شريعة الرومان ٠

ويرفع شمبرلين اليونان الى السماء ويقول ان علومهم وفلسفتهم وفنونهم مرجعها الى طبيعتهم الآرية التي يمتازون بها على الآسيويين والساميين ٠ فيقول له هرتز ان أرسطو في زمانه كان يطري مواهب الآسيويين في الفنون ويحكم على أمم الشمال بالعقم الذي لا علاج له في المعارف الفنية والسياسية لعلة الجو التي لا تبديل لها على تعاقب الأزمان ، ويقول هرتز أيضا ان ثوسيديد المؤرخ اليوناني ذكر أن اليونان كلها كانت في قبضة البرابرة ، وذكر هيرودوت أنه كان يسمع في زمانه لغة

البرابرة في بعض أنحاء وطنه ، وأن العلماء المحدثين ــ كرشمر وكيسلنج وفك ــ أقاموا الأدلة على أن سكان آسيا الصغرى وسكان اليونان كانوا جنسا واحدا من الآسيويين ، وأن أسماء بعض المواقع اليونانية لا ترد الى مصادر من هذه اللغة لأنها مشتقة من اللغة القديمة كما اشتقت منها أسماء الأرباب فيما يقول هيرودوت • والأقوال متفقة على أن طاليس رأس الفلسفة اليونانية من أصل آسيوي سامي وأنه تعلم العلم في البلاد المصرية، وكذلك تتفق الأقوال على أن زينون رأس الفلسفة الرواقية آسيوي الأصل والنشأة ، بل يقول فيرث : ان هومر نفسه اسم سامي آسيوي محرف من « زومر » بمعنى المغني أو الزامر ، وغير ذلك كثير من الأقوال عن الفلاسفة الآخرين •

ولا يريد هرتز أن يقف في الانصاف عند شعب من الشعوب ولا جنس من الأجناس • لانه يرى أن الفواصل بين أي شعبين في العالم ليست من البعد والحيلولة بحيث تستعصي على التقارب مع تشابه الأحوال ومؤاتاة الأيام • فهنيبال الزنجي الذي اقتناه بطرس الأكبر ارتقى بذكائه واجتهاده الى رتبة مهندس في المدفعية وبنى بسيدة من الأشراف ، وكان حفيدهما بوشكين أكبر شعراء الروس وأحد كبار الشعراء في الدنيا • وسليمان وهو زنجي آخر كان في البلاط النمسوي في القرن الثامن عشر بنى بسيدة شريفة واقترنت بنته بسيد من الأشراف ، وتزوج تاجر من هامبورج بنت سلطان زنجبار فبلغت بأدبها ورجاحة لبها مكانة تغبط عليها في البلاط الألماني وأصبحت صديقة حميمة للامبراطورة فردريك وكتبت لها ترجمة حياتها التي عنوانها « من قصة أميرة عربية » • وقد كان الدم الزنجي يجري في عروق دوماس الكبير ودوماس الصغير كما هو معروف •

يقول هرتز : « لا ترى أحدا يزعم أن هناك فجوة لا تعبر بين الحمص الأحمر والحمص الأزرق ، أو بين الحصان الابيض والحصان الاسمر • أما في بني الانسان فالفرق اليسير ــ بالغا ما بلغ من التفاهة ــ كاف لأن ينشيء من الأوهام الجنسية والعصبيات الشعبية أسخفها وأنآها عن الحقيقة • وما الفرق